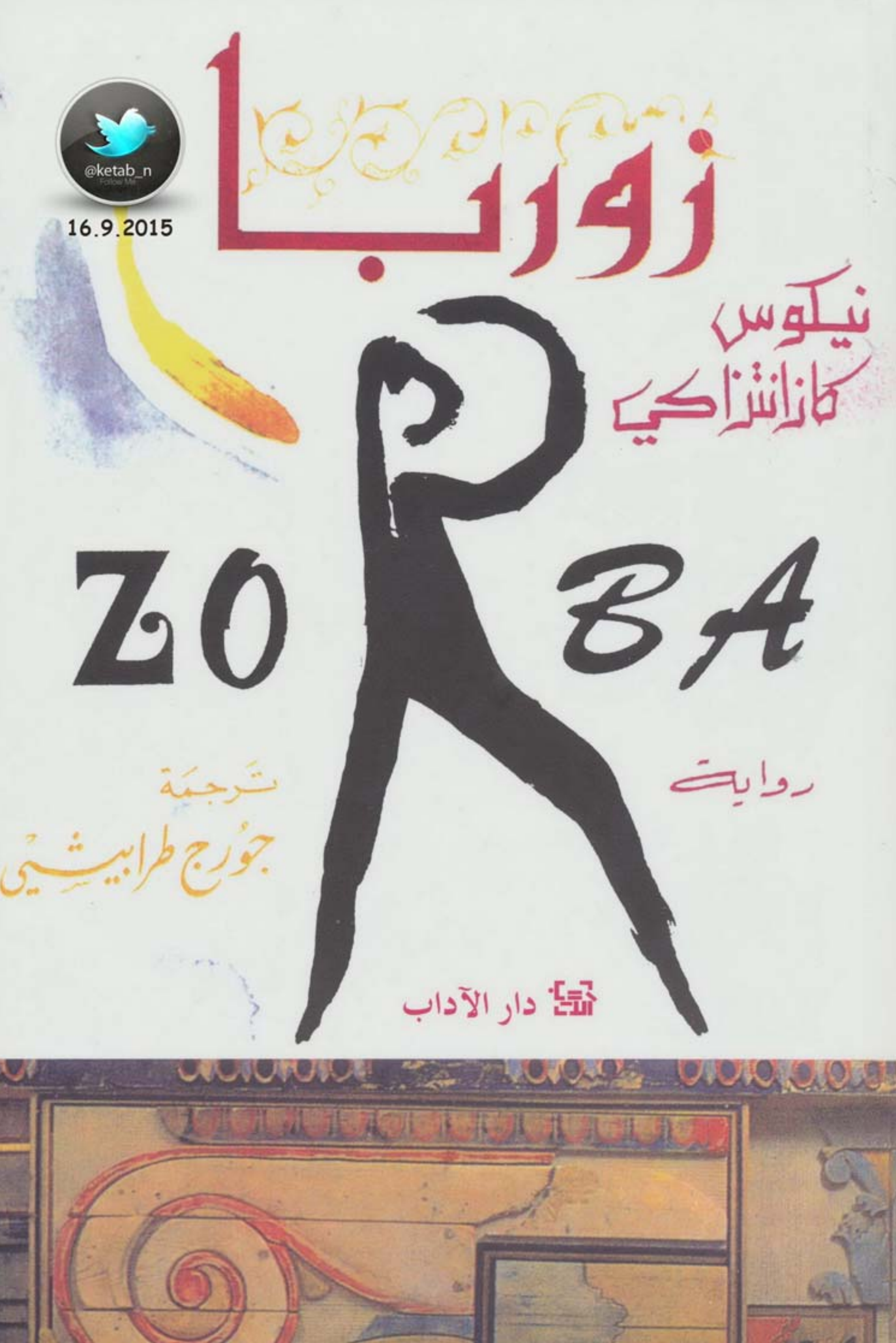


@ketab_n
16.9.2015
زوربا
نيكوس كازانتزاكي
ZORBA
رواية
ترجمة
جورج طرابيشي
دار الآداب

نيكوس كازانتزاكي

زوربا

رواية

دار الآداب ـ بيروت

زوربا

نيكوس كازانتزاكي/ روائيّ يونانيّ

الطبعة الحادية عشرة 2013
ISBN 978-9953-89-084-5

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
rana.adab@hotmail.com
Website: www.daraladab.com
Facebook: Dar Al Adab

نيكوس كازانتزاكي

نيكوس كازنتزاكي وجه من أشهر وجوه الأدب اليوناني المعاصر. وهو، بالإضافة إلى كونه شاعرًا ذا إلهام ملحمي، وروح شموليّة، قد عبَّر عن نفسه بقوّة مماثلة في المأساة، والرواية، والدراسة الفلسفيّة، لقد نهل مادّته من الأساطير القديمة، أو من الفولكلور الحالي لبلاده، فبنى عملاً يونانيًّا نموذجيًّا، استُقبل، بالرّغم من طابعه القومي، بحماسة في البلدان الشماليّة والأنجلوساكسونيّة وسائر بلدان العالم.

وُلد نيكوس كازنتزاكي عام ١٨٨٥ في كاندي بجزيرة كريت. ودرس الحقوق في جامعة أثينا، وتوجَّه إلى باريس حيث تابع دروس برغسون الذي أصبح من تلاميذه الأوائل. ثم عاد إلى اليونان وبدأ بنشر أعماله الشعريّة والفلسفيّة الأولى. وقد قطع إنتاجه ليقوم بسلسلة من الرحلات الوثائقيّة؛ وزار إنجلترا، وإسبانيا، وروسيا، ومصر، والصين، واليابان، إلخ. وقد ظهرت انطباعاته عن هذه الرحلات في اليونانيّة وهي تُعتبر تحفًا أدبيّة في نوعها.

في عام ١٩٤٦، دخل الحياة السياسيّة اليونانيّة. وعُيّن رئيسًا للمجلس الأعلى للحزب الاشتراكي، ثم وزيرًا، لكنّه استقال ليستأنف نشاطه الأدبي في حرّيّة.

في عام ١٩٤٧، ذهب إلى فرنسا حيث أدار فترة من الوقت مكتب ترجمة الكلاسيكيّات الإنسانيّة، التابع لليونسكو، ثم أقام في الآنتيب. إلى أن توفّي عام ١٩٥٧.

تضمُّ أعماله الكثيرة الهامّة أنواعًا عدّة. فمنها الدراسات الفلسفيّة، وعلى الأخصّ دراسته عن نيتشه وبرغسون، ومآسٍ عدّة أشهرها «ميليسّا» و«ثيتيوس»، ودواوين شعريّة، أهمّها «الأوذيسة» وهي ملحمة من (٣٣,٠٠٠) بيت تبدأ من حيث انتهت أوذيسة هوميروس.

ومن بين رواياته يجب أن نذكر: «الثعبان والزنبقة» و«النفوس المحطّمة» و«المسيح الذي أُعيد صلبه» و«التجربة الأخيرة»، و«القبطان ميشيل» أو «الحرّيّة أو الموت» و«باكس وبونوم». وقد كتب روايتين باللغة الفرنسيّة مباشرة: «تودار بارا» و«حديقة الصخور». ولا شكّ في أنّ أهمّ رواياته على الإطلاق هي الرواية التي بين يدي القارئ، والتي تُرجمت إلى العديد من اللغات الحيّة. وقد أُخرج عدد من رواياته إلى السينما، كما رُشّح عدّة مرّات لنيل جائزة نوبل.

وأخيرًا، فإنّ نيكوس كازنتزاكي قد ترجم عددًا من الكتب الهامّة إلى اليونانيّة الحديثة، عن الفرنسيّة والإسبانيّة والإنجليزيّة، والإيطالية، والألمانيّة. وأهمّ ترجماته هي: الكوميديا الإلٰهيّة لدانتي (شعرًا)، وفاوست لغوته (شعرًا)، وهكذا تكلّم زرادشت لنيتشه.

ـ ١ ـ

التقيت به لأوّل مرّة في ميناء «بيريه». كنت أقصد المرفأ لأستقلّ المركب إلى كريت. كان النهار على وشك الطلوع. والسماء تمطر. وثمّة ريح جنوبيّة شديدة تهبّ، ورذاذ الأمواج يصل حتى المقهى الصغير. كانت الأبواب الزجاجيّة مغلقة. والجوّ عبقًا بالعفونة البشريّة وبنقيع القويسة المغلي. كان الطقس باردًا في الخارج، وزفير الأنفاس يندّي الزجاج. وكان ثمّة أربعة أو خمسة من البحّارة، من الذين سهروا الليل بأكمله، ملتفّين في صداريهم القاتمة، المصنوعة من وبر الماعز، يحتسون القهوة أو القويسة وينظرون إلى البحر عبر الزجاج الكابي. وكانت الأسماك التي سبّبت لها الدوار ضربات البحر قد وجدت مخبأ في مياه الأعماق الهادئة، حين كانت تنتظر أن تعود السكينة إلى السطح. وكان الصيّادون المتجمّعون في المقاهي ينتظرون بدورهم نهاية العاصفة وعودة الأسماك، مطمئنّة، إلى السطح لتعضّ الطعم. وكانت أسماك الموسى وشياطين البحر والورنك تعود من رحلاتها الليليّة. والنهار يشرق.

وانفتح الباب الزجاجي، ودلف منه عامل قصير، دبغي اللون، عاري الرأس، حافي القدمين، ملوّث من رأسه إلى أخمص قدميه.

وهتف نوتي مسنّ يرتدي ثوبًا بلون الأفق الأزرق:

ـ مرحبًا! يا كوستاندي. كيف حالك أيّها الشيخ؟

وبصق كوستاندي. وأجاب بفظاظة:

ـ وكيف تريدني أن أكون؟ صباح الخير أيّها الحان، مساء الخير أيّها المنزل. صباح الخير أيّها الحان، مساء الخير أيّها المنزل! تلك هي حياتي. بطالة دائمة!

وأخذ بعضهم يضحك، بينما هزّ آخرون برؤوسهم وهم يجدّفون.

وقال رجل له شارب، درس الفلسفة على يد «القراقوز»:

ـ العالم سجن مؤبّد. نعم سجن مؤبّد، عليه اللعنة!

وغمر الزجاج القذر نور شاحب هادئ يتأرجح بين الأزرق والأخضر، ودلف إلى المقهى، وتعلّق بالأيدي والأنوف، والجباه، ثم قفز إلى المدفأة وأضاء الزجاجات. ووهنت الأنوار الكهربائيّة، وقدّم صاحب المقهى يده باسترخاء بعد تلك الليلة البيضاء، وأطفأ النور. وسادت لحظة صمت. وارتفعت جميع العيون ونظرت إلى النهار الموحل في الخارج. وسمعت الأمواج وهي تتحطّم هادرة، وقرقرة بضع نارجيلات داخل المقهى.

وتنهّد النوتي المسنّ:

ـ قل! ما الذي يمكن أن يكون قد حدث للكابتن ليموني؟ ليكن الله في عونه!

وألقى نظرة غضبى على البحر. ثم صرخ:

ـ يا للبحر اللعين، صانع الأرامل!

وعضّ على شاربه الرمادي.

كنت جالسًا في إحدى الزوايا، والبرد يتأكّلني، وطلبت قدحًا ثانيًا من القويسة. كنت أرغب في النوم، وأغالب النعاس والتعب وكآبة الفجر. وأرنو عبر الزجاج الندي إلى المرفأ الذي أخذ يستيقظ ويزعق بصافرات البواخر، وبصراخ سائقي العربات والملّاحين. ومع إدامة النظر، أطبقت على قلبي، بخيوطها المشدودة، شبكة خفيّة حبكت من البحر والمطر والرحيل.

كانت عيناي عالقتين بمقدّمة مركب كبير أسود، وكان هيكله كلّه لا

يزال غارقًا في الليل. كانت السماء تمطر، بينما كنت ألمح خيوط المطر تربط السماء بالوحل.

كنت أنظر إلى المركب الأسود، والظلال، والمطر، وتجسّدت كآبتي. وعاودتني الذكريات. وفي الجوّ الندي راح يتجدّد وجه الصديق الحبيب من خلال المطر والتأسّفات. أكان ذلك في العام الماضي؟ في دنيا أخرى؟ البارحة؟ متى نزلت إلى هذا المرفأ لأودّعه؟ إنّني لا أزال أذكر المطر أيضًا، والبرد، والفجر. في تلك المرّة أيضًا كان قلبي مثقلاً.

يا لمرارة الافتراق ببطء عن الأحبّاء! من الأفضل الانقطاع مرّة واحدة، والعودة إلى الوحدة، وهي جوّ طبيعي للإنسان. ومع ذلك، في ذلك الفجر الممطر، لم أكن لأستطيع الانفصال عن صديقي. (فيما بعد، فهمت لماذا، بعد فوات الأوان مع الأسف). لقد صعدت معه إلى المركب، وجلست في مقصورته، بين الحقائب المتناثرة. كنت أنظر إليه مليًّا وبإلحاح، بينما كان انتباهه منصرفًا إلى مكان آخر، وكأنّني أودّ أن أسجّل ملامحه، الواحد تلو الآخر، في ذاكرتي: عينيه المضيئتين بلون أزرق أخضر، ووجهه المليء، والتعبير النفّاذ المترفّع المرتسم عليه، وفوق كلّ شيء، يديه الأرستقراطيّتين بأصابعهما الطويلة النحيلة.

وفجأة، باغت نظرتي الجشعة البطيئة المنسابة عليه. فالتفت وعلى وجهه تلك السخرية التي يلجأ إليها عندما يريد أن يخفي انفعاله. ونظر إليّ. وفهم. وسألني بابتسامة ساخرة ليخفي كآبتنا:

ـ إلى متى؟

ـ ماذا: إلى متى؟

ـ... هل ستستمرّ في مضغ الورق والتلوّث بالحبر؟ تعال معي، أيّها المعلّم العزيز. هناك، في القوقاز، آلاف البشر من عرقنا في خطر. هيّا لإنقاذهم.

وأخذ يضحك وكأنّه يريد الهزء من مقصده النبيل. وأضاف:

ـ من الممكن ألّا نستطيع إنقاذهم، ولكنّنا سننقذ أنفسنا بمحاولتنا إنقاذ الآخرين. أليس هذا ما تعظ به، أيّها المعلّم؟ «الطريقة الوحيدة لإنقاذ نفسك هي أن تناضل لإنقاذ الآخرين...». إذن، إلى الأمام، أيّها المعلّم، أنت الذي تعظ جيّدًا جدًّا. تعال!

ولم أجب بشيء. يا أراضي الشرق المقدّسة، يا أمّ الآلهة، أيّتها الجبال العالية حيث تعالت صيحات بروميثيوس المستنكرة. إنّ عرقنا، المسمَّر مثله على هاتيك الصخور نفسها، كان ينادي. كان يواجه الخطر مرّة أخرى، وينادي أبناءه لنجدته. وكنت أنا أصغي إليه، غير مبالٍ، وكأنّ الألم لم يكن إلّا حلمًا، والحياة مأساة آسرة، يثبت فيها من يسرع إلى المسرح ويأخذ حصّته من العمل، غلاظته وسذاجته.

ونهض صديقي، دون أن ينتظر جوابًا. لقد صفر المركب للمرّة الثالثة.

ومدّ لي يده، مخفيًا مرّة أخرى انفعاله تحت ستار السخرية، قائلاً:

ـ إلى اللقاء أيّها الفأر قارض الورق!

كان صوته يرتجف. كان يعرف أنّه لأمر يدعو إلى الخجل ألّا يستطيع السيطرة على قلبه. الدموع، الكلمات الرقيقة، الحركات المضطربة، والعواطف المبتذلة، كلّ ذلك كان يبدو له ضعفًا ولا يليق بالإنسان. إنّنا لم نتبادل قطّ، نحن اللذين كنّا نحبّ بعضنا بعضًا كثيرًا، أيّة كلمة تودّد. كنّا نمثّل ونتخادش كما تفعل الحيوانات. هو، الإنسان الرقيق، الساخر، الدمث. وأنا، البربري. هو، الذي يسيطر على نفسه، ويستنفد بسهولة كلّ انفعالات روحه بابتسامة. وأنا، الجلف، الذي ينفجر بضحكة خرقاء وحشيّة.

وحاولت، أنا أيضًا، أن أخفي اضطرابي تحت ستار كلمة قاسية، إلّا أنّني شعرت بالخجل. لا، ليس لأنّني شعرت بالخجل، ولكنّني لم أستطع. وشددت على يده. وتشبّثت بها، ولم أتركها. ونظر إليَّ، دهشًا. ثم قال وقد ارتسم على شفتيه شبح ابتسامة:

ـ أمنفعل؟

فأجبته بهدوء: نعم.

ـ لماذا؟ ما الذي قرّرناه؟ ألم نتّفق منذ عدّة سنوات؟ ماذا يقول اليابانيّون الذين تحبّهم كثيرًا؟ «فودوشيم»!

سكينة، اطمئنان، وعلى الوجه قناع مبتسم لا يتحرّك. أمّا ما يجري وراء القناع فهذا من شأننا.

فأجبت من جديد: «نعم» وأنا أحاول ألّا أحرج نفسي بإلقاء جملة طويلة. لم أكن واثقًا أنّني أستطيع منع صوتي من الارتجاف.

وتعالى صوت الجرس، يطرد الزوّار، من مقصورة لأخرى. كان المطر يهطل بهدوء. وامتلأ الجوّ بكلمات الوداع الحزينة، بالإيمان، وبالقبلاتِ الطويلة، وبالتوصيات السريعة اللاهثة. كانت الأمّ تتهافت على ولدها، والمرأة على زوجها، والصديق على صديقه. وكأنّهم يفترقون للأبد. وكأنّ هذا الفراق يذكّرهم بالفراق الآخر، «الفراق الكبير». وتعالى الصوت العذب فجأة، من المؤخّرة إلى المقدّمة، في الهواء الرطب، كناقوس جنائزي. وارتعدت.

ومال صديقي إليّ، وقال بصوت منخفض:

ـ أصغِ، أينذرك قلبك بشرّ؟

فأجبت:

ـ نعم.

ـ أتؤمن بمثل هذه الترّهات؟

ـ كلّا.

ـ إذن؟

لم يكن ثمّة مجال لـ «إذن». إنّني لا أؤمن، لكنّني كنت خائفًا.

ووضع صديقي يده اليسرى على ركبتي بلطف، كما اعتاد أن يفعل في

اللحظة الأكثر ودًّا من مناقشاتنا. كنت أدفعه لاتّخاذ قرار ما، وكان يقاوم، ويرفض، ليستسلم في النهاية، وعندئذ يلمس ركبتي وكأنّه يريد أن يقول: «سأفعل ما تريد، من أجل الصداقة...».

وطرف جفناه مرّتين أو ثلاثًا. وحدّق فيّ من جديد. لقد فهم أنّني كنت حزينًا، وتردّد في استعمال أسلحتنا المفضّلة: الضحك، والابتسام، والسخرية... وقال:

ـ حسنًا. أعطني يدك، إذا ما واجه أحدنا خطر الموت...

وتوقّف، كأنّه شعر بالخجل. نحن اللذين كنّا نسخر، منذ سنوات، من هذه «الغارات» الميتافيزيقيّة بالنباتيّين، والروحيّين، والمتصوّفين، ومحضّري الأرواح...

وسألته وأنا أحاول أن أحزر:

ـ إذن؟

فأجاب بسرعة ليخرج من الجملة الخطرة التي وضع نفسه فيها:

ـ لنأخذ الأمر على سبيل اللهو. إذا ما واجه أحدنا خطر الموت، فليفكّر بالآخر بإلحاح كثير، ليحذّره، حيثما كان.. اتّفقنا؟

وحاول أن يضحك، لكنّ شفتيه لم تتحرّكا، وكأنّهما قد جمدتا. فقلت:

ـ اتّفقنا.

وأسرع صديقي يضيف، وقد خشي أن يكون قد أظهر اضطرابه كثيرًا:

ـ إنّني لا أؤمن مطلقًا، بالتأكيد، بمثل هذه الاتّصالات الهوائيّة بين الأرواح...

فتمتمت:

ـ هذا لا يهمّ. ليكن...

ـ حسنًا. إذن، فليكن. لنمثّل، اتّفقنا؟

فأجبت من جديد:

ـ اتّفقنا.

كانت تلك آخر كلماتنا. وتصافحنا دون أن نفوه بشيء، والتقت أصابعنا بحرارة، ثم افترقت فجأة، وغادرته بخطًى سريعة دون أن ألتفت، وكأنّني مطارد. وبدرت منّي حركة لأُدير رأسي وأرى صديقي للمرّة الأخيرة، لكنّني تمالكت نفسي. وأمرتها: «لا تلتفت! امشِ!».

إنّ الروح الإنسانيّة، المتمرّغة في الجسد، لا تزال في الحالة الخام، غير كاملة. إنّها، بما في ملكاتها من نقص في التطوّر، عاجزة عن التنبّؤ بشكل واضح وأكيد. ولو كانت قادرة على ذلك، لكان ذلك الفراق مختلفًا جدًّا. كان الضوء ينبلج أكثر فأكثر. واختلط الصباحان. إنّني أرى الآن بشكل أوضح وجه صديقي الحبيب، الذي بقي تحت المطر، ساكنًا، حزينًا، في جوّ المرفأ. وانفتح باب المقهى، وهدر الموج، ودخل بحّار، قصير، منفرج الساقين، له شاربان متدلّيان. وتعالت أصوات، مرحة:

ـ مرحبًا أيّها الكابتين ليموني!

وانزويت، محاولاً تثبيت الرؤية من جديد. لكنّ وجه صديقي كان قد ذاب في المطر.

كان الضوء يزداد، وأخرج الكابتن مسبحته المكهربة وراح يمرّرها تحت إبهامه، بقسوة وصمت. كنت أقاوم كي لا أرى، كي لا أسمع، وكي أتشبّث أكثر فأكثر بالرؤية التي كانت تتلاشى. أن أعيش مرّة أخرى أيضًا ذلك الغضب الذي تملّكني آنذاك، غضبًا يمازجه الخجل، حين دعاني صديقي بـ «الفأر قارض الورق»! وإنّني لأذكر منذ ذلك الحين أنّ كلّ قرفي من الوجود الذي كنت أعيشه قد تجسّد في هذه الكلمة. كيف تركت نفسي آتية، منذ زمن طويل، أنا الذي كان يحبّ الحياة كثيرًا، بين تلك الأكداس من الكتب والأوراق المسوّدة! لقد ساعدني صديقي، في يوم الفراق ذاك، على الرؤية بوضوح. فاطمأننت. أمّا وقد أصبحت الآن أعرف اسم

شقائي، فلعلّني سأستطيع أن أقهره بسهولة أكبر. إنّ شقائي لم يعد متفرّقًا وغير متجسّد، لقد دخل في الكلمة، لقد تجسَّد وأصبح من السهل عليَّ مقاومته.

لقد تغلغلت هذه الكلمة فيّ بالتأكيد، دون ضجّة، ورحت أبحث منذ ذلك الحين عن ذريعة لأهجر الأوراق وألقي بنفسي في العمل. لقد كان يقرفني أن تسكن بين أثاث بيتي تلك الحشرة القرّاضة البائسة، وها قد سنحت لي، منذ شهر، تلك الفرصة التي طالما تمنّيتها. لقد استأجرت على أحد شطآن جزيرة كريت، من جانب ليبيا، منجمًا قديمًا مهجورًا للّينيت، وسأذهب الآن لأعيش مع بشر بسطاء، وعمّال، وفلّاحين، بعيدًا عن جنس الفئران قارضة الورق. وهيّأت لوازم الرحيل، وأنا بالغ الانفعال، وكان هذا السفر يخفي وراءه معنى من المعاني. لقد قرّرت أن أبدّل طريقة حياتي. وقلت لنفسي: «حتى اليوم يا نفسُ، لم تكوني لتري سوى الظلّ، وكنت تكتفين به، أمّا الآن فسأقودك إلى الجسد».

لقد أصبحت مستعدًّا أخيرًا. وعشيّة رحيلي، وبينما كنت أفتّش بين أوراقي، وجدت مخطوطًا لم ينتهِ بعد. فأخذته ونظرت إليه، بتردّد. منذ سنتين، في أعمق أعماق نفسي، كانت ثمّة رغبة كبيرة ترتعش: بوذا. كنت أحسّ بها في كلّ لحظة في أحشائي تتأكّلني وتنضج. كانت تنمو، وتتحرّك، ثم أخذت ترفسني في صدري لتخرج. والآن لم أعد أجرؤ على الإلقاء بها. إنّني لا أستطيع ذلك. لقد فات الأوان لمثل هذا الإجهاض الروحي.

وفجأة، وبينما أنا ممسك بالمخطوط بتردّد، ارتسمت ابتسامة صديقي في الهواء، مليئة بالسخرية والحنان. فقلت وقد لسعت: «سآخذه، سآخذه، لا تبتسم!». ولففته بعناية، كطفل في قماطه، وحملته.

وتناهى إليّ صوت الكابتن ليموني، وقورًا وجافًّا. وأصغيت. كان يتحدّث عن العفاريت التي تسلّقت أثناء العاصفة صواري مركبه وراحت تلعقها.

كان يقول:

ـ إنّها لدنة ولزجة، وعندما يلمسها الإنسان يحسّ بالنار في يديه. ورفعت رأسي دفعة واحدة، وطوال الليل كنت ألمع كشيطان. عند ذاك، وكما قلت لكم، دخل الماء إلى مركبي. وتبلّلت شحنتي، وثقلت، ومال مركبي. لقد قُضي عليّ. لكنّ الإله الرحيم أشفق عليّ وأرسل لي صاعقة طيّبة، حطّمت مصاريع كوى المخزن وسقط الفحم. امتلأ البحر بالفحم، وخفّ ثقل المركب، وعند ذاك انتصب من جديد. وهكذا أنقذت نفسي في هذه المرّة أيضًا.

أخرجت من جيبي كتاب دانتي الصغير، «رفيق السفر». وأشعلت غليوني، وأسندت ظهري إلى الجدار، وجلست مرتاحًا. وتردّدت رغبتي لحظة: من أين أنهل الأشعار؟ من قار الجحيم المحرق، من شعلة المطهر المبرّدة، أو أطير رأسًا إلى أعلى طابق للأمل البشري؟ كان لي الخيار. وكنت أمسك بكتاب دانتي الصغير، وأتذوّق حرّيّتي. إنّ الأشعار التي سأختارها في هذا الصباح الباكر ستعطي الإيقاع ليومي كلّه.

وانحنيت على الرؤية الكثيفة لأتّخذ قرارًا، لكنّ الوقت فاتني. ورفعت رأسي، فجأة، قلقًا. لست أدري كيف، فقد شعرت أنّ ثقبين انفتحا في أعلى جمجمتي، واستدرت فورًا، ونظرت خلفي خلال الباب الزجاجي. وبسرعة البرق، عبر نفسي الأمل المجنون برؤية صديقي ثانية. كنت على استعداد لتلقّي المعجزة. لكنّ المعجزة لم تحدث. كان ثمّة شخص مجهول، يقارب الستّين، طويل القامة جدًّا، نحيل، جاحظ العينين، قد ألصق أنفه بالزجاج وراح ينظر إليّ، وكان يمسك بصرّة صغيرة مسطّحة تحت إبطه.

إنّ ما أثارني فيه أكثر من أيّ شيء آخر هو عيناه، الحزينتان، القلقتان، الهازئتان، المتألّقتان. أو هكذا بدتا لي على الأقلّ.

وما إن تصالبت أنظارنا ـ وكأنّه كان يتأكّد من أنّني أنا الذي يبحث عنه

حتى مدّ المجهول يده بحزم وفتح الباب. ومرّ بين الموائد بخطًى سريعة ومرنة وتوقّف أمامي. ثم سألني:

ـ أمسافر؟ إلى أين إذن؟

ـ إلى كريت. لماذا؟

ـ أتأخذني معك؟

ونظرت إليه باهتمام. خدّان أجوفان، وفكّ قوي، ووجنتان ناتئتان، وشعر رمادي مجعّد، وعينان يقدح منهما الشرر.

ـ لماذا؟ ماذا تريد أن أفعل بك؟

فهزَّ كتفيه وقال باحتقار:

ـ لماذا! لماذا! ألا نستطيع أن نفعل شيئًا دون لماذا؟ من أجل لا شيء، لمجرّد اللذّة! حسنًا، خذني معك، ولنقل، كطبّاخ. إنّني أحسن صنع الحساء بأنواعه!

ورحت أضحك. إنّ حركاته وكلماته القاطعة أعجبتني. والحساء أيضًا. وقلت في نفسي: ليس ثمّة ضرر من أخذ هذا المخلوع الساذج معي إلى ذلك الشاطئ البعيد المنعزل. حساء، وأحاديث... يبدو عليه أنّه قد جاب البحار كثيرًا. إنّه أشبه بالسندباد البحري... لقد أعجبني.

وقال لي وهو يهزّ رأسه الضخم:

ـ بماذا تفكّر؟ إنّك توازن بين الربح والخسارة، أنت أيضًا، أليس كذلك؟ حوالى غرام واحد تقريبًا، أليس هذا صحيحًا؟ هيّا، قرِّر، وتشجّع!

كان العملاق الكبير يقف فوقي، وتعبت من رفع رأسي إليه لأكلّمه. فأغلقت كتاب دانتي. وقلت:

ـ اجلس. أتشرب قدحًا من القويسة؟

فجلس، ووضع بحذر صرَّته على المقعد المجاور، وقال باحتقار:

ـ قويسة؟ كأس روم، أيّها السيّد!

واحتسى كأس الروم، بجرعات صغيرة، وهو يحتفظ به في فمه طويلاً ليتلذّذ به، ثم يتركه ينساب ببطء ليدفّئ أحشاءه.

وقلت في نفسي: «شهواني، خبير ماهر...». وسألته:

ـ كلّ المهن: بالرجل، واليد، والرأس، كلّ شيء. ولا ينقصني إلّا أن أختار.

ـ أين كنت تعمل، في المدّة الأخيرة؟

ـ في منجم. إنّني عامل خبير في المناجم، لو تعرف. وخبير في المعادن، أعرف كيف أجد العروق، وأشقّ الأنفاق، وأهبط إلى الآبار، ولا أخاف. كنت أعمل جيّدًا، إذ كنت رئيسًا للعمّال، ولم يكن ثمّة شيء أشكو منه. مساء السبت الماضي، شربت، لم أسكر، بل كنت بَيْنَ بَيْن؛ وذهبت إلى صاحب العمل الذي جاء في ذلك اليوم للتفتيش وضربته...

ـ ضربته؟ لماذا؟ ما الذي فعله لك؟

ـ لي؟ لا شيء! لا شيء مطلقًا، أؤكّد لك ذلك! كانت المرّة الأولى التي أراه فيها. بل لقد وزّع علينا سجائر.. المسكين.

ـ إذن؟

ـ أوّاه! إنّك تكثر من هذه الأسئلة! لقد خطر لي ذلك هكذا، أيّها الشيخ! أتعرف قصّة زوجة الطحّان، حسنًا! هل كان قفا زوجة الطحّان يعرف الإملاء؟ إنّ قفا زوجة الطحّان هو العقل البشري.

لقد قرأت كثيرًا من التعاريف للعقل البشري. وبدا لي هذا التعريف أكثرها غرابة وأعجبني. ونظرت إلى رفيقي الجديد باهتمام شديد. كان وجهه مليئًا بالغضون، تعبًا، وكأنّ العواصف والأمطار قد تأكّلته. ثمّة وجه آخر أوحى لي بالانطباع نفسه، بعد عدّة سنوات، وبدا لي كأنّه من الخشب المنحوت المتألّم: إنّه وجه بانائيت استراتي[1].

---

(١) كاتب يوناني معاصر، من رواياته المشهورة «كيرا كيرالينا». «المترجم».

ـ وماذا لديك في صرَّتك؟ مؤونة؟ ثياب؟ أدوات؟

فهزّ رفيقي كتفيه وضحك قائلاً:

ـ كلّ شيء فيك يبدو لي منطقيًّا، مع احترامي لك.

وداعب الصرّة بأصابعه الطويلة القاسية وأضاف:

ـ كلّا، إنّه سانتوري[1].

ـ سانتوري؟ أتعزف على السانتوري؟

ـ عندما أكون مفلسًا، أجول في الخمّارات، وأنا أعزف على السانتوري. إنّني أنشد أغاني ماسيدونيّة قديمة، ثم أجمع النقود في هذه القبّعة، وتمتلئ بالقروش الكبيرة.

ـ ما اسمك؟

ـ ألكسيس زوربا. ويدعونني أيضًا «مجرفة الفرن» من باب المزاح بسبب طولي وجمجمتي المسطّحة كالكعكة. إلّا أنّهم أحرار في أن يقولوا ما يشاؤون. ويدعونني أيضًا «تمضية الوقت» لأنّني كنت أبيع، في يوم من الأيّام، بزر اليقطين المحمّص. ويدعونني أيضًا «ميلديو» إذ يبدو أنّني أسبّب الأضرار حيثما ذهبت. ولي أيضًا ألقاب أخرى، ولكنّني سأخبرك بها في مرّة قادمة...

ـ وكيف تعلّمت العزف على السانتوري؟

ـ كنت في العشرين، عندما سمعت لأوّل مرّة عزفًا على السانتوري، وذلك في أحد أعياد قريتنا. هناك، عند سفح الأولمب. وانبهرت أنفاسي. ولم آكل شيئًا، خلال ثلاثة أيّام. وعندما سألني والدي ذات مساء: «ما بك؟» أجبت: «أريد أن أتعلّم عزف السانتوري»!

ـ ألا تخجل؟ أأنت غجري؟ أتريد أن تصبح عازفًا؟

ـ نعم أريد أن أتعلّم عزف السانتوري! كنت أملك بضعة قروش

---

(١) آلة موسيقيّة وتريّة. «المترجم».

ادّخرتها كي أتزوّج عندما يحين الوقت. كنت لا أزال غلامًا بعد، طائشًا أشعر بالحرارة في دمي، وأريد الزواج، أنا الملعون المسكين! وهكذا دفعت كلّ ما أملك واشتريت سانتوري. ها هو. وهربت به، وأتيت سالونيك وذهبت لرؤية شخص تركي، يُدعى رتسب أفندي، وهو أستاذ ماهر في عزف السانتوري. وألقيت بنفسي على قدميه. وعندما سألني: «ماذا تريد، أيّها الرومي الصغير؟» أجبت: ـ أريد تعلّم العزف على السانتوري. ـ حسنًا، فلماذا تلقي بنفسك إذن على قدميّ؟ ـ لأنّني لا أملك قرشًا واحدًا أدفعه لك! ـ إذن إلى هذا الحدّ أنت مهووس بالسانتوري؟ ـ نعم. ـ حسنًا، ابق إذن، يا صغيري، فأنا لست محتاجًا لأن تدفع لي!

وبقيت سنة عنده أدرس، ولا بدّ أنّه قد مات الآن. وإذا كان الله يسمح بدخول الكلاب إلى فردوسه، فمن الممكن أن يفتح الباب لرتسب أفندي. ومنذ أن تعلّمت العزف على السانتوري، انقلبت إلى رجل آخر. فعندما تسودّ الدنيا في عيني، أو عندما أفلس، أعزف السانتوري فتتحسّن حالي. وقد يحدّثونني عندما أعزف، لكنّني لا أسمع، وحتى إذا سمعت، فإنّني لا أستطيع الحديث. لقد حاولت كثيرًا، لكن عبثًا، إنّني لا أستطيع!

ـ لكن لماذا، يا زوربا؟

ـ آه! الهوس!

وانفتح الباب. ودخل هدير البحر مرّة أخرى إلى المقهى، وكانت أرجلنا وأيدينا قد تجمّدت من البرد. وازددت انزواء في ركني وتلفّفت بمعطفي، وأحسست بلذّة كبيرة. وقلت في نفسي: «إلى أين أذهب؟ إنّني مرتاح هنا. ليت هذه الدقيقة تدوم سنوات».

ونظرت إلى الشخص الغريب الذي أمامي. كانت عيناه تحدّقان فيّ، عينان صغيرتان مستديرتان، سوداوان، وفي بياضهما أوعية شعريّة حمر. كنت أحسّ بهما تنفذان فيّ، وتنقّبان في داخلي دونما شبع، وقلت:

ـ إذن؟ ثم ماذا؟

فهزّ زوربا من جديد كتفيه البارزة عظامهما، وقال:

ـ دعك من هذا. أتقدّم لي سيجارة؟

وقدّمتها له. وأخرج من صدريّته حجر صوّان، وفتيلة، وأشعلها، وأغلق عينيه نصف إغلاقة، مسرورًا.

ـ هل تزوّجت؟

فقال مغيظًا:

ـ إنّني رجل. إنّني رجل، أي أعمى. أنا أيضًا وقعت في الفخّ، وعلى رأسي أوّلاً، كجميع الناس، فتزوّجت. وسرت في المنحدر السيّئ. وأصبحت ربّ أسرة. وبنيت بيتًا. وصار لي أطفال. وإزعاجات. ولكن ليتقدّس السانتوري!

ـ كنت تعزف في بيتك لطرد الهموم، أليس كذلك؟

ـ آه! يا صديقي! من الواضح أنّك لا تعرف على أيّة آلة! ما الذي تقوله لي؟ في البيت، المتاعب، والمرأة، والأطفال. ماذا سنأكل؟ ما الذي سنرتديه؟ ما الذي سنصير إليه؟ يا للجحيم! كلّا، كلّا، يجب أن تكون متفرّغًا لعزف السانتوري، يجب أن تكون صافيًا. فإذا ما قالت لي امرأتي كلمة زائدة، فكيف تريد أن يكون لي قلب لعزف السانتوري؟ وإذا كان الأطفال جائعين ينوحون، فحاول إذن أن تعزف. كي تعزف السانتوري، لا بدّ أن يكون رأسك عند السانتوري، لا في مكان آخر، أفهمت؟

وفهمت أنّ زوربا هذا هو الرجل الذي أبحث عنه منذ مدّة طويلة دون أن أجده. قلب حيّ، فم واسع نهم، روح خام كبيرة.

إنّ معنى كلمات الفنّ، والحبّ، والجمال، والطهارة، والهوى ـ راح هذا العامل يوضحها لي بكلمات إنسانيّة كأبسط ما تكون.

ونظرت إلى يديه اللتين تعرفان كيف تمسكان بالمعول والسانتوري ـ يدان جاسئتان، مشقّقتان، مشوّهتان وعصبيّتان. وبحذر وحنان، وكأنّهما تخلعان ثياب امرأة، فتحتا الصرّة وأخرجتا منها سانتوريًا عتيقًا صقلته

السنون، مع مجموعة من الأوتار، مبطّنًا بالنحاس والعاج، له طرّة من الحرير الأحمر. وراحت الأصابع الطويلة تداعبه كلّه، ببطء وبانفعال، وكأنّها تداعب امرأة. ثم غلّفتاه من جديد كأنّهما تغطّيان جسدًا حبيبًا خشية البرد. وتمتم وهو يضعه بحذر على المقعد:

ـ هي ذي آلتي!

كان البحّارة يقرعون كؤوسهم ويقهقهون. وربّت العجوز برفق ومودّة على ظهر الكابتن ليموني.

ـ إنّك خائف، أليس كذلك أيّها الكابتن ليموني، قل الحقيقة! الله يعلم كم من الشموع قد وعدت بها القدّيس نيقولا!

وقطّب الكابتن حاجبيه الكثيفين:

ـ أقسم لكم بالبحر أيّها الرفاق، إنّني عندما واجهني الموت، لم أفكّر بالعذراء القدّيسة ولا بالقدّيس نيقولا! بل التفتّ إلى سالامين، وفكّرت بامرأتي وصرخت: «آه! يا كاترينا الطيّبة، ليتني كنت في فراشك!».

وانفجر البحّارة مرّة أخرى ضاحكين، وضحك الكابتن ليموني أيضًا.

وقال:

ـ يا للإنسان من حيوان غريب! كان ملاك الموت فوق رأسه مع سيفه، لكنّ روحه كانت هناك، هناك بالضبط وليس في مكان آخر! تبًّا له! ليأخذه الشيطان، ذلك الخنزير!

وضرب بيديه صارخًا:

ـ أيّها المعلّم، اسقِ الرفاق!

كان زوربا يصغي، وأذناه الكبيرتان ممدوتان. واستدار، ونظر إلى البحّارة، ثم إليّ، وسأل:

ـ أين هناك؟ ما الذي يقوله هذا الشخص؟

ولكنّه فجأة فهم وقفز، وقال بإعجاب:

ـ مرحى أيّها الصديق! إنّ هؤلاء البحّارة يعرفون السرّ. ولعلّ ذلك لأنّهم يناضلون ضدّ الموت صبحًا ومساءً.

وحرّك في الهواء يده الكبيرة، وقال:

ـ حسنًا! تلك قصّة أخرى. لنعد إلى قصّتنا: أأذهب أم أبقى؟ قرّر.

فقلت، وأنا أمسك نفسي كي لا ألقي بها بين ذراعيه:

ـ زوربا... زوربا، اتّفقنا؟ ستأتي معي. عندي منجم لينيت في كريت، وستراقب العمّال. وعند المساء ستتمدّد كلانا على الرمل ـ ليس لي في العالم شيء: لا امرأة، ولا أطفال، ولا كلب ـ ونأكل ونشرب معًا. ثم، ستعزف على السانتوري...

ـ ... إذا كنت مستعدًّا له، فسوف تسمع، شرط أن تكون مستعدًّا له حقًّا. أن أعمل لك، فلك ذلك. فأنا رجلك. لكنّ السانتوري شيء آخر. إنّه حيوان وحشي، وهو بحاجة إلى الحرّيّة. إذا كنت مستعدًّا له فإنّني سأعزف، بل سأغنّي، وسأرقص، كلّ أنواع الرقص، لكنّني أقول لك بصراحة: يجب أن أكون مهيّأً. إنّ الحسابات الطيّبة تخلق الأصدقاء الطيّبين. فإذا أجبرتني، انتهى الأمر. يجب أن تعلم: إنّني، بخصوص هذه الأشياء، إنسان.

ـ إنسان؟ ماذا تعني؟

ـ ما الغرابة؟ أعني حرًّا!

فناديت:

ـ أيّها المعلّم، كأسًا أخرى من الروم!

فهتف زوربا:

ـ كأسين من الروم! ستشرب كأسًا، أنت أيضًا، وسنقرع كأسينا. القويسة والروم، هذان لا يتّفقان. ستشرب قدحًا من الروم، أنت أيضًا، لندعم اتّفاقنا.

وقرعنا الكأسين الصغيرتين. في هذه المرّة، كان النهار قد أشرق وراح

المركب يصفّر. وأشار لي النوتي الذي حمل حقائبي إلى المركب. فقلت وأنا أنهض.

ـ ليكن الله معنا. هيّا!

ـ. . . والشيطان!

أتمّ زوربا جملتي بهدوء. ثم انحنى، ووضع السانتوري تحت ذراعه، وفتح الباب وخرج قبلي.

ـ ٢ ـ

البحر، والعذوبة الخريفيّة، والجزر المغرقة بالنور، والحجاب الشفّاف من المطر الصغير الناعم الذي يغطّي عري اليونان الأبدي. وقلت في نفسي: ما أسعد الإنسان الذي أتيح له، قبل أن يموت، أن يمخر عبر بحر إيجه!

عديدةٌ هي أفراح هذا العالم ـ النساء، والفواكه، والأفكار. أمّا أن تشقّ عباب هذا البحر، في فصل خريفي حنون، وأنت تتمتم باسم كلّ جزيرة، فأنا لا أعتقد أنّ ثمّة فرحًا كهذا يغرق قلب الإنسان في الفردوس. وعلى كلّ، فليس ثمّة مكان آخر يمكن أن ينتقل فيه الإنسان، بهدوء وسهولة، من الحقيقة إلى الحلم، كهذا المكان. وتضاءلت الحدود، وانطلقت صواري أقدم المراكب أغصانًا وعناقيد. وكأنّ المعجزة هنا، في اليونان، هي زهرة الحاجة التي لا بدّ منها.

كان المطر قد انقطع عند الظهر، ومزّقت الشمس الغيوم، وظهرت ناعمة، لم يمض وقت طويل على اغتسالها، وداعبت بأشعّتها المياه والأراضي الحبيبة. كنت أقف في مقدِّمة السفينة، وأنتشي، حتى أعماق الأفق، بالمعجزة.

كان على المركب يونانيّون، خبثاء كالشيطان، ذوو عيون كاسرة، وعقول تساوم طويلاً على البضائع التافهة، وثرثرة في السياسة والمخاصمات، وبيانو غير متناسق الألحان، ونساء شريفات وخبيثات.

وكان يسود ذلك جوّ من البؤس القروي. إنّ الرغبة لتتملّكك في أن تأخذ المركب من طرفيه، وتغرقه في البحر، وتهزّه بعناية كي تسقط عنه جميع تلك الحيوانات التي تلوّثه ـ من رجال، وفئران وفسافس ـ ثم تعوّمه من جديد، مغسولاً، طريًّا، فارغًا.

ولكنّ الشفقة تملّكتني أثناء ذلك. شفقة بوذيّة، باردة كاستنتاج قياسي ميتافيزيقي. شفقة لا على البشر فحسب، بل على العالم أجمع، العالم الذي يناضل، ويصرخ، ويبكي، ويأمل ولا يرى أنّ كلّ شيء ما هو إلّا محاولة لإظهار الأشباح من العدم. شفقة على اليونان، وعلى المركب، وعلى البحر، وعليّ، وعلى منجم الليغنيت، وعلى مخطوط «بوذا»، على كلّ تلك المركّبات الباطلة من الظلّ والنور التي تثير فجأة الجوّ الصافي وتلوّثه.

كنت أنظر إلى زوربا، وهو منهك، شاحب، وقد جلس على لفافة من الحبال في مقدّمة المركب. كان يستنشق ليمونة، ويمدّ أذنه الضخمة ويصغي إلى الركّاب وهم يختصمون، الواحد مع الملك، والآخر مع «فينيزيلوس». وكان يهزّ برأسه الضخم ويبصق. وتمتم باحتقار:

ـ أقمار قديمة! ألا يخجلون!

ـ وماذا تعني بأقمار قديمة، يا زوربا؟

ـ كلّ ذلك: ملوك وديموقراطيّات ونوّاب. يا للمراءاة!

إنّ الأحداث المعاصرة لم تكن سوى أمور قديمة في روح زوربا، ما دام هو نفسه قد تجاوزها. ولا شكّ في أنّ البرق، والمراكب البخاريّة، وسكك الحديد، والأخلاق السائدة، والوطن، والدين، كانت تبدو، في عقله، كبنادق عتيقة صدئة. لقد كانت روحه تتقدّم بأسرع ممّا يتقدّم العالم.

كانت الحبال تصرّ على الصواري، والشطآن ترقص، وأصبحت النساء أشدّ صفرة من الليمون. لقد ألقين بأسلحتهنّ: الحمرة، والمشدّات، ودبابيس الشعر، والأمشاط، وشحبت شفاههنّ، وازرقّت أظافرهنّ. كان

ريش الغربان العجوز يتساقط، والريش المستعار يتهاوى: الشرائط والجفون، ومشدّات الصدور ـ وعند رؤيتهنّ على وشك التقيّؤ، يحسّ الإنسان بالاشمئزاز وبشفقة كبيرة.

واصفرّ زوربا بدوره، ثم اخضرّ، وكبت عيناه المتألّقتان. ولم يعد إلى نظره تألّقه إلّا عند المساء. ومدّ ذراعه وأراني درفيلين كانا يقفزان، وينافسان المركب على سرعته. وأضاف بمرح:

ـ درافيل!

ولاحظت للمرّة الأولى أنّ إبهام يده اليسرى كانت مقطوعة إلى منتصفها تقريبًا. وارتعدت، وقد تملّكني نوع من الاستياء.

وصرخت:

ـ ما الذي حدث لأصبعك، يا زوربا؟

فأجاب، وقد استاء من أنّني لم أتمتّع كثيرًا برؤية الدرفيلين:

ـ لا شيء!

فألححت قائلاً:

ـ أهي آلة قد سحقتها؟

ـ ما دخل آلتك في الموضوع؟ لقد قطعتها بنفسي.

ـ بنفسك؟ لماذا؟

فقال وهو يهزّ كتفيه:

ـ أنت لا تستطيع أن تفهم، أيّها الرئيس! لقد قلت لك إنّني عملت في جميع المهن. وذات مرّة، اشتغلت فخّارًا. ولقد أحببت هذه المهنة، كالمجنون. أتعرف ماذا يعني أن تأخذ كمّيّة من الطين وتفعل منها ما تريد؟ فررر! تسيِّر الدولاب ويدور الطين كالممسوس بينما تقف أنت فوقه وتقول: سأصنع جرّة، سأصنع صحفة، سأصنع قنديلاً، وكلّ ما أريد، مهما كان! هذا ما يجعلك إنسانًا: الحرّيّة!

لقد نسي البحر، ولم يعد يعضّ على الليمونة، عادت عيناه صافيتين. فسألته:

ـ حسنًا؟ وأصبعك؟

ـ كانت تزعجني على الدولاب. وتأتي لتقف وسط كلّ شيء، وتفسد عليّ خططي. لذلك أمسكت ذات يوم بالفأس...

ـ ألم تتوجّع؟

ـ كيف، لم أتوجّع؟ إنّني لست أرومة شجرة، إنّني إنسان، لقد أوجعتني. ولكنّها كانت تزعجني، قلت لك، فقطعتها.

غربت الشمس، وهدأ البحر قليلاً، وانقشعت الغيوم. ولمعت نجمة المساء. ونظرت إلى البحر، ونظرت إلى السماء، ورحت أفكّر... أن نحبّ هكذا، ونأخذ الفأس، ونقطع، ونتألّم... لكنّني أخفيت انفعالي. وقلت وأنا أبتسم:

ـ إنّها لطريقة سيّئة، يا زوربا! إنّها تذكّرني بقصّة ترويها «الأسطورة الذهبيّة». ذات يوم، رأى ناسك امرأة فأوقعت في نفسه الاضطراب. فتناول عندئذ فأسًا...

فقاطعني زوربا وقد حزر ما سأقول:

ـ يا للأحمق! يقطع ذلك! يا للأبله! لكنّ ذلك المسكين ليس عقبة مطلقًا.

فقلت ملحًّا:

ـ كيف! بل إنّه عقبة كبيرة.

ـ أمام ماذا؟

ـ أمام دخولك إلى ملكوت السماوات.

فنظر إليّ زوربا مواربة ساخرًا وقال:

ـ لكنّ ذلك هو بالضبط مفتاح الفردوس!

ورفع رأسه، ونظر إليّ مليًا وكأنّه أراد أن يتبيّن فكرتي من وراء ذلك: الحياة المستقبليّة، وملكوت السماوات، والنساء والكهنة. لكنّه لم يستطع، على ما يبدو، أن يحزر شيئًا كبيرًا. وهزّ بحذر رأسه الضخم الرمادي. وقال:

ـ إنّ الخصيان لا يدخلون السماء!

ثم صمت.

وذهبت لأتمدّد في مقصورتي، وأخذت كتابًا، كان بوذا لا يزال يتحكّم في أفكاري. وقرأت «حوار بوذا والراعي» الذي كان يملأني، في السنوات الأخيرة، بالسلام والأمن.

«الراعي ـ لقد هيّأت طعامي، وحلبت نعجاتي، ووضعت المزلاج على باب كوخي، وأشعلت ناري. وأنت تستطيعين أن تمطري قدر ما تشائين، أيّتها السماء!

بوذا ـ إنّني لا أحتاج مطلقًا إلى الطعام أو اللبن. الرياح في كوخي، وناري قد انطفأت. وأنت تستطيعين أن تمطري قدر ما تشائين، أيّتها السماء!

الراعي ـ عندي جواميس، وعندي أبقار، وعندي مروج آبائي، وثور قوي يحضن بقراتي. وأنت، تستطيعين أن تمطري قدر ما تشائين، أيّتها السماء!

بوذا ـ ليس عندي ثيران ولا أبقار. وليس لي مروج. ليس عندي شيء. ولست أخشى شيئًا. وأنت، تستطيعين أن تمطري قدر ما تشائين، أيّتها السماء!

الراعي ـ عندي راعية مطيعة ومخلصة. إنّها امرأتي منذ سنوات، وأنا سعيد باللهو معها ليلاً. وأنت، تستطيعين أن تمطري قدر ما تشائين، أيّتها السماء!

بوذا ـ لي روح مطيعة وحرّة. منذ سنين وأنا أدرّبها وأعلّمها اللعب

معي. وأنت تستطيعين أن تمطري قدر ما تشائين، أيّتها السماء!».

كان هذان الصوتان لا يزالان يتكلّمان، عندما أخذني النعاس. وهبّت الريح من جديد، وراحت الأمواج تتكسّر على النافذة الزجاجيّة السميكة. كنت أعوم كدخان بين النوم واليقظة. وانفجرت عاصفة عنيفة، وأظلمت المروج، وابتلعت الأمواج الجواميس والأبقار والثور القوي. وحملت الريح سقف الكوخ، وانطفأت النار وصرخت المرأة وتهاوت ميّتة في الوحل، وبدأ الراعي مرثيّته: كان يصرخ، ولم أكن أسمع ما يقوله، لكنّه كان يصرخ، بينما رحت أنا أزداد غرقًا في النوم، وأنساب فيه كسمكة في البحر.

عندما استيقظت، عند مطلع النهار، كانت الجزيرة الكبيرة الرئيسيّة تمتدّ على يميننا، مزهوّة وحشيّة. والجبال الورديّة الشاحبة تبتسم وراء الضباب تحت شمس الخريف. وحولنا كان البحر الأزرق القاتم ثائرًا هائجًا.

كان زوربا، وقد تلفّح بغطاء داكن، ينظر دونما شبع إلى كريت، ونظره يطير من الجبل إلى السهل، ثم يمتدّ على طول الشاطئ، ويتفحّصه، وكأنّ جميع هذه الأراضي وهذه البحار مألوفة بالنسبة له، وكأنّه تمتّع باستعراضها مرّة ثانية في فكره.

اقتربت ولمست كتفه، وقلت:

ـ لا شكّ أنّها ليست المرّة الأولى التي تأتي فيها إلى كريت، يا زوربا! إنّك تنظر إليها كصديقة قديمة.

وتثاءب زوربا وكأنّه ضجر. وشعرت بأنّه ليس مستعدًّا للدخول في محادثة.

وابتسمت.

ـ أيضجرك أن تتكلّم، زوربا؟

فأجاب:

ـ ليس هذا ما يضجرني، أيّها الرئيس، لكنّني أتألّم من فعل ذلك.

ـ تتألّم؟ لماذا؟

ولم يجب فورًا. ومن جديد أجال نظره على طول الشاطئ. كان قد نام على الجسر. وشعره الرمادي المجعّد يقطر بالندى. وكانت الشمس الطالعة تضيء الغضون العميقة في خدّيه وذقنه ورقبته.

وأخيرًا، تحرّكت شفتاه المتدلّيتان وكأنّهما شفتا تيس:

ـ إنّني أتألّم عند الصباح من فتح فمي. ألم كثير، اعذرني.

وصمت، وثبّت من جديد عينيه الصغيرتين المستديرتين على كريت. وقُرع جرس الإفطار. وراحت وجوه كدرة، مخضرّة الاصفرار، تبرز من المقصورات. وكانت ثمّة نساء، شُعث الشعور، يجرّرن أذيالهنّ، مترنّحات، من مائدة لأخرى. وكانت تفوح منهنّ رائحة القيء والكولونيا، ونظراتهنّ مضطربة، وجلة وبلهاء.

وكان زوربا يحسو قهوته بتلذّذ، وهو جالس أمامي. ويغمس الخبز المطلي بالزبدة والعسل ويأكله. وتألّق وجهه شيئًا فشيئًا، واطمأنّ، ولان فمه. كنت أتأمّله خلسة بينما كان يخرج من أسر نعاسه، وعيناه تزدادان توقّدًا.

وأشعل لفافة، واستنشق أنفاسًا منها بلذّة، وأطلق منخراه المليئان بالشعر غيوم الدخان الأزرق. وثنى ساقه اليمنى تحته، وجلس الأربعاء. لقد أصبح من السهل الآن عليه الحديث. وبدأ الكلام:

ـ أهي المرّة الأولى التي آتي فيها إلى كريت؟... (وأغلق عينيه نصف إغلاقة ونظر بعيدًا، عبر النافذة، إلى جبل «إيدا» الذي كان يمتدّ وراءنا) كلّا ليست المرّة الأولى. لقد كنت في عام ١٨٩٦ رجلاً حقًّا. كان شاربي وشعري بلونهما الحقيقيّين، أسودين كالغراب. كنت في عنفوان الصبا، وكنت، عندما أسكر، ألتهم أوّلاً المقبّلات ثم الطعام. لكن، في تلك الفترة بالضبط، أراد الشيطان أن تنشب ثورة في كريت.

«في ذلك الوقت، كنت بائعًا جوّالاً في ماسيدونيا. كنت أذهب من قرية لقرية، وأبيع الخردوات، وبدلاً من النقود، كنت أطلب جبنًا، وصوفًا، وزبدة، وأرانب وذرة، ثم أبيع كلّ ذلك وأربح ربحًا مضاعفًا. وكنت، في أيّة قرية حللت ليلاً، أعرف المنزل الذي أختاره للمبيت فيه. ففي كلّ القرى، أرملة رؤوم. أقدّم لها مكبّ خيطان أو مشطًا، أو منديلاً أسود بسبب المرحوم، وأنام معها. ولم يكن ذلك باهظ الثمن! إنّ الحياة الطيّبة ليست باهظة الثمن أيّها الرئيس. لكن، كما قلت لك، ها هي كريت قد عادت إلى حمل السلاح. وقلت في نفسي: «تبًّا لك من حياة عاهرة! إنّ كريت هذه لن تتركنا أبدًا في سلام». ووضعت جانبًا المكبّات والأمشاط، وأخذت بندقيّة، وانضممت إلى سائر الثوّار، وسرنا نحو كريت».

وصمت زوربا. إنّنا نسير الآن في خليج مستدير، رملي، هادئ. وكانت الأمواج تنبسط فيه، دون أن تتكسّر، وتترك فقط زبدًا خفيفًا على طول الشاطئ. وكانت الغيوم قد انقشعت، والشمس تتألّق، وكريت القاسية تبتسم مطمئنّة.

والتفت زوربا، ورماني بابتسامة ساخرة:

ـ إنّك تتصوّر، أيّها الرئيس، أنّني سأقدّم لك كشفًا عن الرؤوس التركيّة التي قطعتها، وعن الآذان التركيّة التي وضعتها في الكحول... فتلك هي العادة في كريت... إنّني لن أقول شيئًا من ذلك! لقد سئمت، وأنا أشعر الآن بالخجل. ما هذه الثورة؟ إنّني أقول لنفسي الآن وقد رجَح عقلي بعض الشيء، ما هذه الثورة؟ نلقي بأنفسنا على إنسان لم يفعل لنا شيئًا، ونعضّه، ونجدع أنفه، ونقطع أذنيه، ونبقر بطنه، وكلّ ذلك ونحن نطلب له العون من الله. وبمعنى آخر، إنّنا نطلب منه، هو أيضًا، أن يجدع أنوفًا وآذانًا ويبقر بطونًا. لكنّ دمي، في ذلك الوقت، كما ترى، كان يغلي. وما كان باستطاعتي تفحّص المسألة. فللتفكير بشكل عادل وشريف، لا بدّ للإنسان من أن يكون هادئًا، مسنًّا، لا أسنان له. عندما يصبح

الإنسان بلا أسنان، يسهل عليه أن يقول: «من العار أن تعضّوا أيّها الرفاق!». لكن عندما تكون له أسنانه الاثنتان والثلاثون. . . إنّ الإنسان لحيوان مفترس عندما يكون شابًا. نعم، أيّها الرئيس، حيوان مفترس يأكل البشر!

وهزّ برأسه.

ـ إنّه يأكل خرافًا أيضًا، ودجاجًا، وخنازير، لكن إذا لم يأكل لحم إنسان، فإنّه لا يشبع.

وأضاف، وهو يسحق لفافته في صحن فنجان قهوته:

ـ كلّا، إنّه لا يشبع. ما رأيك أنت، أيّها العلّامة؟

لكن بدون أن ينتظر جوابًا، قال وهو يحدّق فيّ:

ـ ما الذي يمكن أن تقوله، أنت. . . إنّ سيادتك، كما أفهم، لم يجع قطّ، ولم يقتل قطّ، ولم يسرق قطّ، ولم ينم مع نساء الآخرين قطّ. ما الذي يمكن أن تعرفه عن العالم إذن؟ (وتمتم باحتقار واضح):

ـ عقل بريء، وجسد لم يعرف الشمس. . .

وأحسست أنا بالخجل من يديّ الدقيقتين، ومن وجهي الشاحب، وحياتي التي لم تلطّخ بالدم والوحل. وقال زوربا، وهو يمرّ بيده الثقيلة على المائدة وكأنّه يمسح بإسفنجة:

ـ ليكن! ليكن! ومع ذلك فأنا أريد أن أسألك شيئًا. لا بدّ أنّك قلّبت مجموعة من الكتب، فلعلّك تعرف. . .

ـ هيّا، ماذا يا زوربا؟

ـ هذا غريب، أيّها الرئيس. . . هذا غريب جدًا، إنّه يبلبلني. فتلك النذالات، وتلك السرقات، وتلك المجازر التي ارتكبناها، نحن الثوّار، جاءت بالأمير جورج إلى كريت. الحرّيّة!

ونظر إليّ بعينين جاحظتين، مذهولتين، وتمتم:

ـ إنّه لسرّ، سرّ كبير! إذن، فلا بدّ من الجرائم والنذالات الكثيرة،

حتى تحلّ الحرّيّة في هذا العالم؟ ولو رحت أعدّد لك كلّ ما ارتكبناه من قذارات واغتيالات، لقفّ شعر رأسك. لكن ماذا كانت نتيجة كلّ ذلك؟ الحرّيّة! إنّ الله بدلاً من أن يرسل الصواعق علينا لحرقنا، أعطانا الحرّيّة! إنّني لا أفهم شيئًا!

ونظر إليّ كأنّه يستنجد. من الواضح أنّ هذه المشكلة قد عذّبته كثيرًا، وأنّه لا يستطيع الوصول إلى نتيجة. وسألني بقلق:

ـ أتفهم، أنت، أيّها الرئيس؟

ماذا أفهم؟ ماذا أقول له؟ فإمّا أن يكون ما ندعوه إلٰهًا غير موجود، وإمّا أن يكون ما ندعوه جرائم ودناءات ضروريًا للنضال ولتحرير العالم...

وحاولت أن أجد تعبيرًا أبسط بالنسبة لزوربا:

ـ كيف تنبت الزهرة وتنمو في السماد الحيواني والأقذار؟ افترض يا زوربا أنّ السماد والأقذار هي الإنسان، وأنّ الزهرة هي الحرّيّة؟

فقال زوربا وهو يضرب بقبضته على المائدة:

ـ لكن البذرة؟ كي تنبت الزهرة، فلا بدّ من بذرة. فمن الذي وضع بذرة كهذه في أحشائنا القذرة؟ ولماذا لا تنتج هذه البذرة أزهارًا في الطيبة والشرف؟ ولماذا تحتاج إلى الدم والأقذار؟

فهززت رأسي، وقلت:

ـ لست أدري.

ـ من يدري؟

ـ لا أحد.

فصرخ زوربا يائسًا، وهو يرمي ما حوله بنظرات متوحّشة:

ـ لكن ماذا تريد أن أفعل إذن بالمراكب والآلات والقبّات الأنيقة؟

وتحرّك مسافران أو ثلاثة ممّن أتعبهم البحر، كانوا يشربون قهوتهم على المائدة المجاورة. لقد شمّوا رائحة خصام، وأرهفوا آذانهم. وأثار

ذلك اشمئزاز زوربا، فقال بصوت خافت:

ـ دعنا من هذا. فعندما أفكّر فيه، أودّ تحطيم كلّ ما تقع عليه يدي، من كرسي، أو مصباح، أو رأسي، بضربه على الجدار. ثم ما الذي أستفيده من ذاك؟ ليأخذني الشيطان! إنّني إمّا أن أدفع ثمن الأباريق المهشّمة، أو أذهب إلى الصيدلي فيعصب رأسي. وإذا كان الله موجودًا، فهذا أسوأ: لقد قُضي علينا! إذ لا بدّ أنّه يرقبني من أعلى السماء ويتضوّر ألمًا.

وهزّ فجأة يده وكأنّه يريد طرد ذبابة مزعجة. وقال بملل:

ـ أخيرًا! إنّ ما أريد أن أقوله لك هو هذا: عندما جاء المركب الملكي بهيًا بزيناته وبدأ إطلاق المدافع ووضع الأمير قدمه في كريت... هل رأيت شعبًا يصبح مجنونًا بأجمعه لأنّه استعاد حرّيّته؟ كلّا؟ إذن يا رئيسي المسكين، لقد وُلدت أعمى، وأعمى ستموت. أنا، حتى ولو عشت ألف سنة، وحتى لو لم يبق منّي سوى لقمة من اللحم الحيّ، فإنّي لن أنسى مطلقًا ذلك اليوم الذي رأيته. ولو كان كلّ إنسان يستطيع أن يختار فردوسه في السماء، حسب ذوقه ـ وهذا ما يجب أن يكون لأنّ هذا ما أقصده بالفردوس ـ فإنّني سأقول للإله الرحيم: «أيّها السيّد، ليكن فردوسي جزيرة كريت وقد ازدانت بالآس والأعلام، ولتستمرّ قرونًا تلك الدقيقة التي وضع فيها الأمير جورج قدمه على أرض كريت. هذا يكفيني».

وصمت زوربا من جديد. ورفع شاربه وملأ قدحًا بالماء البارد وجرعه دفعة واحدة.

ـ ما الذي جرى في كريت، يا زوربا؟ هاتِ!

فأجاب زوربا بعصبيّة:

ـ لن أجهد نفسي في تكلّف العبارات. لقد قلت لك، يا صديقي، إنّ هذا العالم سرّ وإنّ الإنسان ليس سوى وحش كبير.

«وحش كبير وإله كبير. كان أحد أولئك الثوّار الأنذال، ويُدعى

يورغا، يبكي، وكان قد نزل معي من ماسيدونيا، وهو أشبه بربطة محزومة بالحبال، خنزير نجس، فقلت له: «لماذا تبكي أيّها الملعون يورغا؟ وكانت دموعي أنا أيضًا تتدفّق كالينبوع. لماذا تبكي أيّها الخنزير؟». لكنّه سرعان ما ألقى بنفسه عليّ وراح يعانقني وهو ينوح كصبيّ صغير. ثم أخرج هذا الشحيح الكبير صرّة نقوده، وأفرغ على ركبتيه قطع الذهب المسروقة من الأتراك، وألقاها في الهواء بقبضة يده. أتفهم، أيّها الرئيس، هذه هي الحرّيّة!».

ونهضت وصعدت إلى جسر المركب كي أتلقّى صفعات ريح البحر العنيفة. وفكّرت في نفسي: «هذه هي الحرّيّة. أن تهوى شيئًا ما، وأن تجمع قطع الذهب، وفجأة، تتغلّب على هواك وتلقي بكنزك في الهواء. أن تتحرّر من هوًى، لتخضع لهوًى آخر أكثر نبلاً منه. لكن أليس هذا شكلاً آخر من العبوديّة؟ أن تكرّس نفسك لفكرة، لعرقك، لله؟ أم أنّ السيّد كلّما ارتفع مركزه تطاول حبل العبوديّة؟ وقد يمكنه عندئذ أن يلعب ويلهو في حلبة أوسع، ثم يموت دون أن يصادف الحبل. أهذا إذن ما نسمّيه بالحرّيّة؟».

وعند نهاية بعد الظهر، حاذينا شاطئنا الرملي. رمل أبيض، منخول بدقّة، وأشجار غار ورديّة لا تزال مزهرة، وأشجار تين، وأشجار خرنوب، وأبعد قليلاً، إلى اليمين، تلّ صغير واطئ رمادي، بدون أشجار، يشبه وجه امرأة من الخلف. وتحت ذقنه، وعلى رقبته، تمرّ عروق من اللينيت الأسمر القاتم.

كانت ثمّة ريح خريفيّة تهبّ، وغيوم ممزّقة تمرّ ببطء وتلين الأرض بتغليفها بالظلال. وكانت غيوم أخرى تصعد من السماء، مهدّدة. والشمس تتحجّب وتشرق، ووجه الأرض يضيء ويظلم كوجه حيّ مضطرب.

وتوقّفت لحظةً على الرمل، ونظرت. كانت الوحدة القدسيّة تمتدّ أمامي، حزينة، مغرية، كالصحراء. وبرز الشعر البوذي من الأرض وتغلغل

حتى أعماق كياني: «متى أنزوي أخيرًا في الوحدة، بمفردي، دون رفاق، دون فرح أو حزن، لا يصحبني سوى اليقين المقدسي بأنّ كلّ شيء ليس إلَّا حلمًا؟ متى أعتزل فرحًا مع أسمالي ـ دون شهوات ـ في الجبل؟ متى أختلي، بعد أن أتبيّن أنّ جسدي ليس إلَّا مرضًا وجريمة وشيخوخة وموتًا، في الغابة، حرًّا، دون خوف، مليئًا بالفرح؟ متى؟ متى؟ متى؟».

واقترب زوربا، والسانتوري تحت ذراعه. فقلت لأخفي انفعالي:

ـ هو ذا اللينيت! ومددت ذراعي نحو التلّ الذي يشبه وجه امرأة.

ولكنّ زوربا قطَّب حاجبيه دون أن يلتفت، وقال:

ـ فيما بعد، فليس الآن وقت ذلك، أيّها الرئيس. يجب أوّلاً أن تتوقّف الأرض. إنّها ما تزال تتحرّك، وحقّ الجحيم، إنّها تتحرّك، العاهرة، مثل جسر مركب. هيّا بسرعة إلى القرية.

ثم مضى بخطى كبيرة.

وأسرع صبيَّان، حافيا الأقدام، جلدهما برونزي كالفلّاحين، وحملا الحقائب. وكان رجل ضخم، أزرق العينين، من رجال الجمرك، يدخّن النارجيلة في الكوخ الخشبي الذي حُوّل لمكتب الجمرك. ورمقنا بطرف عينه، وألقى نظرة متناومة على الحقائب، وتحرّك قليلاً فوق كرسيّه وكأنّه سينهض. لكنّ الشجاعة خانته. ورفع ببطء نربيش نارجيلته، وقال بصوت مسترخٍ:

ـ أهلاً وسهلاً!

واقترب أحد الفلّاحين منّي. وغمز بعينيه السوداوين كالزيتون، وقال بسخرية:

ـ إنّه ليس كريتيًّا! كسول!

ـ أليس الكريتيّون كسالى؟ أليسوا كذلك؟

فأجاب الكريتي الصغير:

ـ إنّهم لكذلك... إنّهم لكذلك... ولكن بشكل آخر...

ـ هل القرية بعيدة؟

ـ الله أعلم! على بعد طلقة بندقيّة! إنّها وراء البساتين، في الوادي. هي قرية جميلة، أيّها الرئيس، بلد كثير الخيرات. فيها خرنوب، ولوبياء، وحمّص، وزيت، وخمر. وهناك في الرمل، ينبت الخيار، والبطّيخ الذي يبكّر في النضج قبل أيّة منطقة أخرى في كريت. هواء أفريقيا هو الذي ينضجها. وإذا ما نمت في بستان، فإنّك تسمعها تطقطق كرر! كرر! وتنمو أثناء الليل.

كان زوربا يغذّ السير إلى أمام مترنّحًا بعض الشيء. وكان رأسه لا يزال يدور. فصرخت به:

ـ تشجّع، يا زوربا! لقد نجونا، لا تخف!

كنّا نسير بسرعة. كانت الأرض مشوبة بالرمل والأصداف. وبين الحين والحين تبرز شجرة إثل، أو تينة بريّة، أو باقة من الخيزران، أو نبات سكّر الحوت المرّ. كان الجوّ ثقيلاً، والغيوم تهبط وتدنو من الأرض، والريح تهدأ.

ومررنا قرب شجرة تين كبيرة لها جذع مزدوج، مخملي، أخذت الشيخوخة تدبّ فيها. وتوقّف أحد الفلّاحين. وأشار بحركة من ذقنه إلى الشجرة العجوز. وقال:

ـ تينة الآنسة!

وفوجئت أنّ لكلّ شجرة، لكلّ صخرة، في أرض كريت هذه، قصّتها المؤسية.

ـ تينة الآنسة؟ لماذا تُدعى هكذا؟

ـ في أيّام جدّي، وقعت ابنة أحد الأعيان في غرام راعٍ شابّ. لكنّ والدها لم يرض، فكانت الآنسة تبكي، وتصرخ، وتتضرّع، لكنّ الشيخ لم يبدّل موقفه! وذات مساء اختفى الشابّان. وبحثوا عنهما، يومًا، واثنين وثلاثة، وأسبوعًا، لكن عبثًا! وفاحت رائحة نتنة، فتتبّعوها ووجدوهما

تحت هذه التينة، متعانقين، منتنين. أتفهم؟ لقد وجدوهما بسبب النتانة.

وانفجر الصبي ضاحكًا. وسمعنا ضوضاء القرية. وأخذت كلاب تنبح، ونساء يتصايحن، والديكة تعلن تغيّر الوقت. وفي الهواء كانت تنتشر رائحة تفل العنب الفائحة من القدور التي يقطّر فيها العرق.

وصرخ الغلامان وهما ينطلقان:

ـ هي ذي القرية!

وما إن انعطفنا حول تلّ الرمل، حتى ظهرت القرية الصغيرة، متسلّقة سفح الوادي. منازل ترابيّة منخفضة، مبيّضة بالكلس، متلاصقة، الواحد بجانب الآخر. وكانت نوافذها المفتوحة كبقع سوداء تشبه جماجم مبيضّة محصورة بين الحجارة.

ولحقت بزوربا. وقلت له بصوت منخفض:

ـ انتبه يا زوربا، ليكن سلوكك كما يجب، وقد أصبحنا الآن في القرية. يجب ألّا يشكّوا في شيء، زوربا! لنظهر بمظهر رجال الأعمال الجدّيّين: أنا الرئيس وأنت المشرف على العمّال. أعلم أنّ الكريتيّين لا يمزحون. فما إن يقع نظرهم عليك ويجدون فيك عيبًا، حتى يُلصقوا بك لقبًا. وبعد ذلك لن نجد أيّة وسيلة للتملّص منه، وستجري ككلب عُلّقت في ذنبه قدر.

وأخذ زوربا شاربه بجماع يده وغرق في التأمّل، وأخيرًا قال:

ـ أصغِ، أيّها الرئيس، إذا كانت هناك أرملة في القرية، فلست بحاجة للخوف، أمّا إذا لم تكن هناك أرملة...

وفي تلك اللحظة، عند مدخل القرية، ركضت متسوّلة ملفّعة بالأسمال، ممدودة اليد. كانت شديدة السمرة، متّسخة، لها شارب أسود كثّ. وصرخت بزوربا:

ـ أيّها الرجل، أيّها الرجل! هل لك روح؟

وتوقّف زوربا وأجاب بجدّيّة:

ـ لي روح.

ـ إذن أعطني خمسة دريهمات!

فأخرج زوربا من جيبه حافظة بالية وقال:

ـ خذي!

وانفرجت شفتاه المريرتان عن ابتسامة. والتفت قائلاً:

ـ الحياة هنا ليست غالية على ما أرى: الروح بخمسة دريهمات.

وأسرعت كلاب القرية نحونا، وانحنت النساء من فوق الأسطحة، وراح الأولاد يقلّدون خطواتنا وهم يصرخون. كان البعض ينبح، وآخرون يبوّقون كالسيّارات، وغيرهم يتقدّموننا وهم ينظرون إلينا بعيون كبيرة مبهوتة.

ووصلنا إلى ساحة القرية. كانت فيها شجرتان ضخمتان من الحور الأبيض محاطتان بجذعين منحوتين بدون إتقان على شكل مقاعد، ويواجههما مقهى تعلوه يافطة عديمة اللون «مقهى ومجزرة الاحتشام».

وسألني زوربا:

ـ لماذا تضحك، أيّها الرئيس؟

لكن لم يتح لي الوقت للإجابة. إذ خرج من المقهى ـ المجزرة خمسة أو ستّة رجال طوال يرتدون قمصانًا زرقًا قاتمة لها أحزمة حمراء، وهتفوا:

ـ أهلاً وسهلاً. تفضّلا لتناول كأس من العرق. إنّه لا يزال حارًّا، فقد قُطّر منذ لحظات.

ولعق زوربا لسانه:

ـ ما رأيك، أيّها الرئيس؟

والتفت إليّ وغمز بعينه:

ـ أنشرب قدحًا؟

وشربنا قدحًا أحرق أحشاءنا. وجاءنا صاحب المقهى ـ المجزرة،

وهو شيخ صلب العود ما يزال محتفظًا بصحّته ونشاطه، بمقعدين.

وسألته أين نستطيع أن نقطن. فصرخ أحدهم:

ـ اذهبا إلى السيّدة هورتانس.

فقلت مذهولاً:

ـ فرنسيّة؟

ـ لقد جاءت من الطرف الآخر من العالم. لقد عاشت، وساحت قليلاً في كلّ مكان، وعندما شاخت جاءت إلى هنا، وفتحت نزلاً.

وألقى طفل بهذه الجملة:

ـ هي تبيع أيضًا سكاكر!

وصرخ آخر:

ـ إنّها تتزيّن بالطحين والصباغ! ولها وشاح حول عنقها... وعندها أيضًا ببّغاء.

فسأل زوربا:

ـ أرملة؟ أهي أرملة؟

ولم يجب أحد.

وعاد إلى السؤال، واللعاب في فمه:

ـ أرملة؟

وأمسك صاحب المقهى بلحيته الرماديّة الكثيفة وقال:

ـ كم في هذه اللحية من الشعر، أيّها الصديق؟ كم... حسنًا، لقد ترمّلت بعدد هذا الشعر. أفهمت؟

فأجاب زوربا وهو يلعق مشفريه:

ـ فهمت.

ـ يمكنها أن تكون أرملتك أيضًا.

ـ خذ حذرك، أيّها الصديق!

هتف بذلك عجوز، وقهقه الآخرون.

وظهر صاحب المقهى من جديد وهو يحمل على صحفة خبز شعير، وجبن ماعز، وإجّاصًا. وصرخ:

ـ هيّا، دعوهما في سلام! ليس لأيّة سيّدة أهمّيّة! سوف يبيتان عندي.

فقال العجوز:

ـ أنا الذي سيأخذهما، يا كوندومانوليو! إذ ليس عندي أطفال، وبيتي كبير، وفيه متّسع.

فهتف صاحب المقهى وهو ينحني على أذن العجوز:

ـ عفوًا، أيّها العمّ أنانيوستي. لقد كنتُ السابق إلى قول ذلك.

فأجاب العجوز أنانيوستي:

ـ ليس عليك إلّا أن تأخذ الآخر، أمّا أنا فسآخذ العجوز.

فقال زوربا وقد تملّكه الغيظ بسرعة:

ـ أيّ عجوز؟

فقلت، وأنا أشير إلى زوربا بألّا يغضب:

ـ إنّنا لن نفترق. لن نفترق. وسنذهب إلى السيّدة هورتانس... أهلاً وسهلاً! أهلاً وسهلاً!

وظهرت، عند شجرتي الحور، امرأة قصيرة القامة، بدينة، بهت لون شعرها، وأصبح لونها بلون الكتّان، وهي تتهادى على ساقيها، ممدودة الذراعين. وكان ثمّة خال، تتدلّى منه شعرات أشبه بوبر الخنزير، يزيّن ذقنها. وكانت تضع على رقبتها وشاحًا مخمليًّا أحمر، وخدّاها الذابلان مطليّان بمسحوق بنفسجي. وثمّة خصلة صغيرة لعوب تتأرجح على جبهتها، فتجعلها شبيهة بسارة برنار في دور العجوز بمسرحيّة «النسر الصغير»[١].

فأجبت وأنا أتهيّأ لتقبيل يدها، وقد تملّكتني بشاشة مفاجئة:

---

(١) مأساة شعريّة من ستّة فصول لإدمون روستان. «المترجم».

ـ سعيد لتعرّفي إليك، أيّتها السيّدة هورتانس.

وبدت لي الحياة فجأة مثل حكاية، مثل ملهاة لشكسبير، ولنقل إنّها «العاصفة». لقد نزلنا من السفينة، كلّنا بلل، بعد حادثة الغرق الوهميّة. كنّا نستكشف الشواطئ الساحرة ونحيّي سكّان المكان بأبّهة. إنّ السيّدة هورتانس هذه تبدو لي وكأنّها ملكة الجزيرة، نوع من عجول البحر، أشقر ولمّاع، قد سقط، وهو على وشك الإنتان، معطّرًا وملتحيًا بشارب فوق ذلك الشاطئ الرملي. وراءها شعب «كاليبان» برؤوسه المتّسخة الكثيرة، الكثيفة بالشعر، والمليئة بالروح المرحة، ينظر إليها بكبرياء واحتقار.

وكان زوربا، الأمير المتنكّر، يتأمّلها، هو أيضًا، جاحظ العينين، وهي أشبه برفيقة قديمة، بسفينة حربيّة قديمة حاربت في بحار بعيدة، كانت تنتصر مرّة وتُهزم مرّة، فغارت كوى مدافعها، وتحطّمت صواريها، وتمزّقت أشرعتها ـ وهي الآن، بعد أن تخدّدت بالشقوق التي تسدّها بالمعجونات والمسحوقات، قد انسحبت إلى هذا الساحل وراحت تنتظر. إنّها ـ ولا شكّ ـ تنتظر زوربا. القبطان ذا المئة ندب. وكنت مسرورًا لرؤية هذين الممثّلين يلتقيان أخيرًا في هذا الديكور الكريتي، الذي وُضع على المسرح ببساطة، ودُهن بضربات كبيرة من الفرشاة.

وقلت وأنا أنحني أمام ممثّلة الحبّ الكوميديّة العجوز:

ـ سريران، يا سيّدتي هورتانس! سريران بلا فسافس...

فهتفت وهي ترميني بنظرة طويلة متحدِّية:

ـ بلا فسافس، نعم، بلا فسافس!

فصرخت أفواه شعب «كاليبان» ساخرة:

ـ يوجد فسافس! يوجد فسافس!

فقالت وهي تضرب الحجارة بقدمها القصيرة السمينة، الملتفحة بجورب ضخم أزرق سماوي:

ـ لا يوجد فسافس! لا يوجد فسافس!

وكانت تحتذي خفّين مشقوقين، مزيّنين بعقدة صغيرة ظريفة من الحرير.

ـ هو! هو! ليأخذك الشيطان، أيّتها المغنّية!

قهقه بذلك أيضًا شعب كاليبان.

لكنّ السيّدة هورتانس كانت قد سارت، وكلّها وقار، وشقّت لنا الدرب. وكانت رائحة المسحوقات والصابون الرخيص تفوح منها.

ومشى زوربا وراءها وهو يفترسها بعينيه. وقال لي بصوت خافت:

ـ قل إذن، وتحقّق من هذا، أيّها الرئيس. كيف تتبختر، العاهرة: بلاف! بلاف! كتلك النعجات التي لها إليات مليئة بالدهن!

وسقطت قطرتان أو ثلاث ضخام، وأظلمت السماء. وشقّت الجبل بروق زرق. وراحت فتيات صغيرات، متلفّحات بأغطيتهنّ الصغيرة البيضاء المصنوعة من وبر الماعز، ترجع كلٌّ منهنّ بسرعة من المرعى بعنزة العائلة وخروفها. وأشعلت النساء، المقرفصات أمام المدفأة، نار المساء.

وعضّ زوربا بعصبيّة على شاربه، دون أن يكفّ عن النظر إلى ردف السيّدة المدوّر. وتمتم فجأة متنهّدًا:

ـ همْ! إنّ هذه الحياة العاهرة لا تضنّ أبدًا بالمفاجآت.

ـ ٣ ـ

كان فندق السيّدة هورتانس الصغير يتألّف من حجرات قديمة للحمّام، ملتصقة بعضها ببعض. والحجرة الأولى كانت الدكّان. وفيها سكاكر، وسجائر، وفستق عبيد، وفتائل للمصابيح، وأبجديّات، وشموع، ولبان، ثم أربع حجرات أخرى متتالية تشكّل غرف النوم. وفي الخلف، في الساحة، كان هناك المطبخ، والمغسلة، والقنّ، ومكو الأرانب. وحولها، شجيرات الخيزران الكثيفة وأشجار التين البرّيّة، مغروسة في الرمل الناعم. وكان هذا كلّه يفوح برائحة البحر، والروث، والبول. لكن بين الفينة والفينة، عندما تمرّ السيّدة هورتانس، تتبدّل رائحة الجوّ، وكأنّهم أفرغوا تحت أنفك طست الحلّاق.

وعندما هُيّئ السريران، استلقينا عليهما ولم نستيقظ إلّا عند الصباح. ولا أذكر أنّني حلمت، لكنّني كنت، عندما استيقظت، خفيفًا ونشيطًا وكأنّني خارج البحر.

كان اليوم يوم أحد، وسيأتي العمّال في الغد من القرى القريبة ليبدأوا العمل في المنجم. فعندي متّسع من الوقت إذن لأقوم بجولة في هذا اليوم لأعرف على أيّ شواطئ ألقى بي القدر. عندما خرجت كان الفجر يكاد يلوح، وتجاوزت البساتين، وسرت على شاطئ البحر، وتعرّفت بسرعة إلى الماء، إلى الأرض، إلى هواء المنطقة، وقطفت نباتات بريّة، وتعطّرت راحتاي بالصعتر، والقويسة، والنعناع.

وصعدت إلى تلّة، ونظرت. منظر أجرد، من الغرانيت والصخور الكلسيّة الشديدة القسوة. أشجار خرنوب قاتمة، وأشجار زيتون لجينيّة، وأشجار تين وعنب. وفي التلاع المخفيّة، بساتين من أشجار البرتقال والليمون والزعرور، وعلى مقربة من الشاطئ، المباقل. وفي الجنوب كان البحر يهجم على كريت ويتأكّلها، البحر الذي لا يزال ثائرًا، هائلاً، قادمًا من السواحل الإفريقيّة، هادرًا، وعلى مسافة قريبة جدًّا، جزيرة صغيرة منخفضة، رمليّة، لونها، تحت الأشعّة الأولى، ورديّ عذريّ.

كان هذا المنظر الكريتي يشبه، على ما بدا لي، نثرًا جيّدًا: متقن الصنعة، بسيطًا، خاليًا من التكلّف، قويًّا، جزلاً. إنّه يعبّر عمّا هو أساسي بأبسط الوسائل. إنّه لا يتبختر، ويرفض استعمال أقلّ تصنّع. إنّه يقول ما عليه أن يقوله بصرامة رجوليّة. لكنّنا نلمح السطور القاسية حساسيّة وليونة غير متوقّعتين، ففي التلاع المخفيّة، كانت أشجار البرتقال والليمون تعبق، ومن بعيد ينبع، من البحر اللامتناهي، شعر لا ينفد... وتمتمت:

ـ كريت... كريت...

وكان قلبي يخفق.

وانحدرت من فوق التلّ الصغير وسرت بمحاذاة الماء. وظهرت صبايا يثرثرن، بمناديل بيض كالثلج، وأحذية عالية صفر، وتنّورات مرفوعة، وكنّ ذاهبات لسماع القدّاس في الدير الذي يشاهد هناك، متألّقًا بالبياض، عند ساحل البحر.

وتوقّفت. وما إن شاهدنني، حتى انطفأت ضحكاتهنّ. لقد انغلقت أوجههنّ، عند رؤية رجل غريب. واتّخذن موقف الدفاع من أعلى رؤوسهنّ إلى أخمص أقدامهنّ، وتشبّثت أصابعهنّ بعصبيّة بصداريهنّ المزرّرة بشدّة. لقد ذعر دمهنّ. إنّ القراصنة، على طول هذه السواحل الكريتيّة المتّجهة نحو إفريقيا، كانوا يقومون، خلال قرون كاملة، بغزوات مفاجئة، ويخطفون النعاج، والنساء، والأطفال، ويربطونهم بأحزمتهم الزرقاء،

ويلقون بهم في قعر السفينة، ويقلعون لبيعهم في الجزائر، والإسكندريّة، وبيروت. إنّ البحر، خلال قرون كاملة، قد ضجّ بالبكاء، على هذا الساحل المزدهر بالضفائر السود. ورحت أنظر إلى الصبايا وهنّ يقتربن، مستوحشات، ملتصقات بعضهنّ ببعض، وكأنّهنّ يردن تشكيل سدّ لا يمكن تخطّيه. حركات أكيدة، كان لا بدّ منها في القرون الماضية، تعود اليوم للظهور دون سبب، حسب إيقاع الضرورة التي اختفت.

لكن عندما مرّت الصبايا أمامي ابتعدت بهدوء وأنا أبتسم. وسرعان ما أضاءت وجوههنّ، وكأنّهنّ أحسسن فجأة أنّ الخطر قد زال منذ قرون، بعد أن استيقظن في عصر الأمن هذا، وانفرج خطّ القتال المصنوع من الصفوف المتراصّة، وتمنّين لي جميعًا، بأصوات مرحة صافية، صباحًا خيّرًا. وفي اللحظة نفسها، ملأت أجراس الدير البعيد، السعيدة، المرحة، الفضاء بتهاليلها.

كانت الشمس قد أصبحت مرتفعة، والسماء صافية. وربضت بين الصخور، مختبئًا كطير الزمج في حفرة، وتأمّلت البحر. وكنت أحسّ بجسدي ممتلئًا قوّة، رطبًا، طيّعًا. وتموّج فكري وهو يتبع الأمواج وخضع هو أيضًا، دون أيّة مقاومة، لإيقاع البحر.

وشيئًا فشيئًا، امتلأ قلبي، وراحت أصوات غامضة، آمرة متضرّعة، تصعد في داخلي. كنت أعلم من الذي يدعو. فما إن أبقى بمفردي لحظة، حتى يهدر في داخلي، وقد أقلقته الإحساسات الفظّة، والمخاوف المجنونة، والهذيان، ويروح ينتظر منّي الإنقاذ.

وفتحت بسرعة كتاب دانتي «رفيق السفر» كي أطرد الشيطان الرهيب، ولا أستمع إليه. وقلبت صفحاته، وأنا أقرأ بيتًا من هنا، ومقطوعة من هناك، معيدًا إلى ذاكرتي النشيد كلّه، ومن خلال هذه الصفحات الحارّة كانت أرواح الملعونين تتصاعد معوِلة. وإلى الأعلى، نفوس جريحة تحاول أن تتسلّق جبلاً وعرًا عاليًا. وإلى الأعلى أيضًا، كانت أرواح السعداء

تجول في مروج زمرّديّة. كالحباحب اللاّمعة. كنت أذهب وأجيء من أعلى مبنى القدر الرهيب إلى أسفله، وأجول على مهل في الجحيم، والمطهر، والفردوس، وكأنّني في مسكني الخاصّ. كنت أتعذّب، أو آمل، أو أتذوّق السعادة، تحملني الأشعار الرائعة إن شاءت.

وفجأة أغلقت كتاب دانتي ونظرت على مدّ البصر. كان أحد طيور الزمج مسندًا بطنه إلى الموجة، يصعد، ويهبط معها، متلذّذًا، بسعادة، بغبطة اللامبالاة. وظهر صبي صغير أسمر بحذاء الماء عاري القدمين، وهو يغنّي أغاني الحبّ. ولعلّه كان يفهم الألم الذي تعبّر عنه، لأنّ صوته أخذته بحّة كصوت ديك صغير.

إنّ أشعار دانتي كانت تنشد، خلال سنين، وقرون، على النحو نفسه، في بلد الشاعر. وكما أنّ أغنية الحبّ تهيّئ الصبيان والصبايا للحبّ، كذلك كانت هذه الأشعار الفلورنسيّة تهيّئ الإيطاليّين البالغين للنضال من أجل الخلاص. كانوا جميعًا، من جيل إلى جيل، يتّصلون بروح الشاعر، محوّلين عبوديّتهم إلى حرّيّة.

وسمعت ضحكًا خلف ظهري. وتدحرجت دفعة واحدة من الذرى الدانتيّة، والتفتّ ورأيت زوربا واقفًا ورائي، وهو يضحك بملء وجهه. وهتف:

ـ ما هذه الحركات، أيّها الرئيس؟ إنّني أبحث عنك منذ ساعات، لكن أين أستطيع أن أكتشف مخبأك؟

ولمّا رآني صامتًا، بلا حراك، صرخ:

ـ لقد مضى الظهر، ونضجت الدجاجة، إنّها ستذوب كلّها، المسكينة! أتفهم؟

ـ أفهم، لكنّني غير جائع.

ـ لست جائعًا! قال زوربا ذلك وهو يضرب ساقيه. لكنّك لم تأكل شيئًا منذ هذا الصباح. يجب أن تهتمّ بالجسد أيضًا، أشفق عليه. أطعمه،

أيّها الرئيس، أطعمه، فهو حمارنا الصغير، كما ترى. فإذا لم تطعمه، تركك في منتصف الطريق.

إنّني أحتقر ملاذّ الجسد، منذ سنوات، ولو كان مناسبًا، لأكلت في الخفاء، وكأنّني أرتكب عملاً مخجلاً. لكنّني قلت كي لا يحتجّ زوربا:

ـ حسنًا، إنّني قادم.

واتّجهنا نحو القرية. لقد مضت الساعات بين الصخور كما تمضي ساعات الحبّ، بأسرع من البرق. وكنت لا أزال أحسّ بنفحة الشعر الفلورنسي المحرقة على وجهي. وسألني ببعض التردّد:

ـ فأجبت ضاحكًا:

ـ وبأيّ شيء آخر تريدني أن أفكّر؟ غدًا، سنبدأ العمل. فكان لا بدّ من أن أقوم بالحسابات.

ورمقني زوربا بطرف عينه وصمت. وفهمت أنّه ما يزال يزيّنني، ولا يعرف بعد أعليه أن يصدّق أم لا. وسألني مرّة أخرى، بتقدّم حذر:

ـ ونتيجة حساباتك؟

ـ علينا أن نستخرج عشرة أطنان من اللينيت يوميًا، مدّة ثلاثة أشهر، لتغطية التكاليف.

ونظر إليّ زوربا من جديد، لكن بقلق هذه المرّة. ثم قال بعد فترة.

ـ ولماذا، بحقّ الشيطان، ذهبت إلى شاطئ البحر لتقوم بالحسابات؟ اعذرني أيّها الرئيس، إذا كنت أسألك ذلك، لكنّني لا أفهم. أنا، عندما أعلق بالأرقام، أودّ لو أحشر نفسي في جوف الأرض، كي لا أرى شيئًا. أمّا إذا رفعت عينيّ ورأيت البحر، أو شجرة، أو امرأة، ولو عجوزًا، فقد قُضي الأمر! وراحت الحسابات وخنازير الأرقام تفلت من مخّي، وكأنّما نبتت لها أجنحة...

وقلت كي أغيظه:

ـ لكنّها غلطتك يا زوربا! فأنت لست قادرًا على تركيز أفكارك.

ـ أنا لست أدري، أيّها الرئيس. لكلّ حالة وضعها الخاصّ. هناك حالات لا يستطيع حتى سليمان الحكيم. . . فمثلاً، كنت مارًا، ذات يوم، في قرية صغيرة. كان ثمّة جدّ هرم في التسعين يغرس شجرة لوز. فقلت له: «إيه أيّها الأب الصغير، أتزرع شجرة لوز؟». فالتفت إليّ وهو محنيّ كما كان وقال: «إنّني أتصرّف، يا بنيّ، وكأنّني لن أموت أبدًا» فأجبته: «وأنا أتصرّف وكأنّني سأموت في كلّ لحظة». من كان منّا المحقّ. أيّها الرئيس؟

ونظر إليّ بانتصار، وقال:

ـ ها هنا أنتظرك.

وصمت. كان ثمّة ممرّان صاعدان وجريئان يمكن أن يؤدّيا إلى القمّة. أن نتصرّف وكأنّ الموت غير موجود، وأن نتصرّف ونحن نفكّر بالموت في كلّ لحظة، لعلّ الأمرين سواء. لكنّني لم أكن أعرف في اللحظة التي سألني فيها زوربا. وقال هازئًا:

ـ إذن؟ لا تغضب، أيّها الرئيس، فلن تخرج بنتيجة. لنتكلّم في أمر آخر. إنّني، في هذه اللحظة، أفكّر بالغداء، بالدجاجة، بالأرزّ المرشوش بالقرفة، ورأسي يدخّن مثل الأرزّ. لنأكل أوّلاً، ثم لنرَ ـ. كلّ شيء في وقته. أمامنا الآن الأرزّ، إذن يجب أن يتّجه فكرنا نحو الأرزّ. وغدًا، سيكون أمامنا اللينيت، إذن فسيتّجه فكرنا إلى اللينيت. لا حلول وسطى، أفهمت؟

ودخلنا القرية. كانت النسوة جالسات على العتبات يثرثرن، وكان الشيوخ مستندين إلى عصيّهم، صامتين. وتحت شجرة رمّان حاملة، جلست عجوز ضئيلة متغضّنة، تفلّي حفيدها من القمل.

أمام المقهى، كان يقف شيخ مستقيم القامة، قاسي الوجه منقبضه، أقنى الأنف، تبدو عليه ملامح السادة الكبار. إنّه مافراندوني، شريف القرية السابق الذي أجّرنا منجم اللينيت. وقد مرّ البارحة عند السيّدة هورتانس ليأخذها إلى بيته. كان قد قال:

ـ إنّه لعار كبير علينا أن تظلاّ في فندق، وكأنّه ليس في القرية من يستطيع استقبالكما.

كان وقورًا، وكلماته متّزنة. رفضنا. فاستاء، لكنّه لم يلحّ. وقال وهو ذاهب:

ـ لقد فعلت واجبي، لكما الحرّيّة.

وبعد فترة أرسل لنا كرتين من الجبن، وسلّة رمّان، وجرّة من الزبيب. وتينًا، ونصف دنّ من العرق.

وقال الخادم وهو ينزل الحمل من فوق الحمار الصغير:

ـ تحيّة من قبل الكابتن مافراندوني ـ وهو يقول: قليل من الأشياء، وكثير من القلب.

وحيّينا شريف القرية السابق بفيض من العبارات الودّيّة.

فقال وهو يضع يده على صدره:

ـ حياة طويلة لكما!

وصمتّ، وتمتم زوربا:

ـ إنّه لا يحبّ التكلّم كثيرًا، إنّه رجل قوي الشكيمة.

وقلت:

ـ وصلف، إنّه يعجبني.

كنّا قد وصلنا. كان منخرا زوربا يختلجان مرحًا. وما إن رأتنا السيّدة هورتانس عند العتبة، حتى أطلقت صرخة وهرعت إلى المطبخ.

ووضع زوربا المائدة في الباحة، تحت الدالية العارية من أوراقها. وقطع شرائح كبيرة من الخبز، وجاء بالخمر، ووضع الصحاف وأدوات المائدة. والتفت ونظر إليّ بخبث، وأشار إلى المائدة: لقد وضع ثلاث صحاف مع أدواتها! وهمس:

ـ أتفهم أيّها الرئيس؟

فأجبت:

ـ إنّني أفهم، إنّني أفهم، أيّها الفاسق العجوز.

قال وهو يلعق شفتيه:

ـ إنّ الدجاجات العجوز هي التي تصنع المرق الطيّب. أنا أعرف شيئًا عن ذلك.

كان يهرع، خفيفًا، عيناه تقدحان شررًا، ويدندن بأغاني حبّ قديمة.

ـ إنّها الحياة، أيّها الرئيس، الحياة الطيّبة. وها أنا الآن أتصرّف وكأنّني سأموت بعد دقيقة. وأسرع كي لا أموت قبل أن آكل الدجاجة.

وهتفت السيّدة هورتانس آمرة:

ـ إلى المائدة!

ورفعت القدر ووضعتها أمامنا. لكنّها وقفت فاغرة الفم، إذ رأت الصحاف الثلاث. ونظرت إلى زوربا وقد أصبح لونها بلون القرمز، والتمعت عيناها الصغيرتان الحامضتان، الزرقاوان. وقال لي زوربا بصوت منخفض:

ـ لقد دبّت النار في سراويلها.

ثم التفت إلى السيّدة بتهذيب كبير وقال:

ـ يا جنّيّة المياه الجميلة، لقد غرقنا وألقانا البحر في مملكتك: تنازلي وقاسمينا طعامنا، يا فاتنتي!

وفتحت المغنّية العجوز ذراعيها بكلّ مداهما، ثم أطبقتهما وكأنّها تريد أن تضمّنا كلينا، وتمايلت بلطف، ولامست زوربا، ثم لامستني، وركضت هادلة، إلى غرفتها. وبعد قليل، عادت إلى الظهور، مرتعشة ومتهادية، مرتدية أفضل ثيابها: ثوبًا مخمليًا عتيقًا أخضر، رثًا مزيّنًا بشرائط صفر متباعدة. وكان نصف فستانها من الأعلى مفتوحًا على مداه، وقد شكّت عند صدرها وردة من نسيج متألّق. وكانت تمسك بيدها بقفص الببّغاء، الذي علّقته بالدالية.

وأجلسناها في الوسط، زوربا إلى يمينها، وأنا إلى يسارها. وهجمنا، نحن الثلاثة، على الغداء. ومضى وقت طويل لم نفه خلاله بكلمة. كان الحيوان في داخلنا يتغذّى، ويروي ظمأه، والغداء يتحوّل بسرعة إلى دم، والعالم يصبح أجمل، والمرأة التي إلى جانبنا تصغر في كلّ لحظة وتمّحي غضونها. وكان الببّغاء المعلّق تجاهنا، بردائه الأخضر وصدريّته الصفراء، ينحني لينظر إلينا، فيبدو لنا تارة مثل رجل ساذج مسحور، وطورًا مثل روح المغنّية العجوز بثيابها الخضراء والصفراء. وفوق رؤوسنا امتلأت الدالية العارية فجأة بعناقيد كبيرة من العنب الأسود.

وأدار زوربا عينيه، فتح ذراعيه على مداهما، وكأنّه يريد أن يعانق العالم، وهتف مذهولاً:

ـ ما الذي يحدث، أيّها الرئيس؟ ما إن نشرب قدحًا صغيرًا من الخمر، حتى يفقد العالم رشده. ومع ذلك، فما الحياة، أيّها الرئيس! قل لي بدينك، هذا الذي يتدلّى فوق رؤوسنا، أهو عنب، أم ملائكة، إنّني لا أستطيع التمييز. أم أنّ هذا لا شيء مطلقًا، ولا شيء موجود، لا دجاجة، ولا جنّيّة، ولا كريت؟ قل، أيّها الرئيس، قل وإلّا جُننت!

كان المرح قد تملّك زوربا. لقد انتهى من الدجاجة وراح ينظر بنهم إلى السيّدة هورتانس. كانت عيناه تهاجمانها، وتصعدان وتهبطان، وتتغلغلان في صدرها المنتفخ، وتجسّانه وكأنّهما يدان. وكانت عينا سيّدتنا الطيّبة تلمعان أيضًا، إنّها تتذوّق الخمر وقد جرعت عددًا لا بأس به من الكؤوس. وأعادها شيطان الخمر المعربد إلى الأيّام الماضية الطيّبة. ونهضت، وقد عادت إليها رقّتها وبشاشتها وانطلاقها، وأغلقت الباب الخارجي بالمزلاج كي لا يراها القرويّون ـ «المتوحّشون» كما تدعوهم ـ وأشعلت لفافة وراح أنفها الصغير الأقصى على الطريقة الفرنسيّة ينفث دوائر الدخان.

إنّ جميع أبواب المرأة تتفتّح، في مثل هذا الحين، وينام الحرّاس

وتصبح للكلمة الطيّبة الواحدة قوّة الذهب أو الحبّ. أشعلت إذن غليوني ولفظت الكلمة الطيّبة:

ـ أيّتها السيّدة هورتانس، إنّك تذكّرينني بسارة برنار... عندما كانت شابّة. لم أكن أتوقّع أن أجد في هذا المكان المتوحّش مثل هذه الأناقة، وهذه الكياسة، وهذا الجمال. وهذا الأنس. فأيّ شكسبير أرسلك إلى هنا، بين المتوحّشين؟

فقالت وقد جحظت عيناها الصغيرتان المغرورقتان:

ـ شكسبير؟ أيّ شكسبير؟

وطارت نفسها، بسرعة، إلى المسارح التي شاهدتها، وجالت، في لمح البصر، في المقاهي الغنائيّة، من باريس إلى بيروت، ومن هناك على طول شواطئ آسيا الصغرى، وفجأة تذكّرت: كان ذلك في الإسكندريّة، في قاعة كبيرة عامرة بالثريّات، والمقاعد المخمليّة، والرجال والنساء، والظهور العارية، والعطور، والأزهار. وفجأة ارتفع الستار وظهر عبد مرعب...

وقالت من جديد وقد أخذتها هزّة الكبرياء لأنّها تذكّرت أخيرًا:

ـ أيّ شكسبير؟ أهو الذي يدعونه أيضًا عطيل؟

ـ هو نفسه. أيّ شكسبير ألقى بك، أيّتها السيّدة النبيلة، فوق هذه الصخور المتوحّشة؟

ونظرت حولها. كانت الأبواب مغلقة، والببّغاء نائمًا، والأرانب تتبادل الحبّ. وكنّا وحيدين. وأخذت تفتح لنا قلبها منفعلة، كما يفتح صندوق قديم مليء بالعطور، والبطاقات الصفراء الناعمة، وأدوات الزينة النفيسة...

كانت تتكلّم اليونانيّة كيفما اتّفق، وتلحن في الكلمات، وتختلط المقاطع. ومع ذلك كنّا نفهمها تمامًا، وأحيانًا يصعب علينا كتمان ضحكتنا، وأحيانًا أخرى ـ وكنّا قد شربنا أكثر من اللازم ـ نفيض بالدموع...

ـ حسنًا، أنا التي تحدّثكما، لم أكن مغنّية في الكباريات، كلّا! كنت فنّانة مشهورة. كنت أرتدي فساتين حريريّة مخرّمة. لكنّ الحبّ. . .

وتنهّدت بعمق، وأشعلت لفافة أخرى من لفافة زوربا:

ـ كنت مغرمة بأميرال. كانت الثورة تجتاح كريت، وأساطيل الدول الكبرى قد أرست قلوعها في مرفأ سودا. وبعد عدّة أيّام، أرسيت قلوعي أنا أيضًا هناك، يا للعظمة! كان عليكما أن تشاهدا الإميراليّة الأربعة: الإنجليزي، والفرنسي، والإيطالي، والروسي، كلّهم متلفّحون بالذهب، بأحذية لامعة، والريش على الرأس. مثل الديوك. ديوك كبيرة يزن الواحد منها بين الثمانين والمئة كيلو. ويا لتلك اللحى! متجعّدة حريريّة، سمراء، شقراء، رماديّة، كستنائيّة، وما كان أطيب رائحتها! كان لكلّ منهم عطره الخاصّ، وبهذه الطريقة كنت أميّزهم في الليل. كانت تفوح من إنجلترا رائحة ماء الكولونيا، ومن فرنسا البنفسج، ومن روسيا المسك، ومن إيطاليا، آه! إيطاليا كانت مشغوفة بالعنبر! يا لتلك اللّحى، يا إلٰهي، يا لتلك اللّحى!

«كنّا نجتمع غالبًا في سفينة القيادة، ونتحدّث عن الثورة. كانت جميع البزّات مفكوكة العرى، ولم أكن أرتدي سوى ثوب من الحرير يلتصق بجلدي، لأنّهم كانوا يغرقونه في الشمبانيا. كان ذلك في الصيف، أتفهم. كنّا نتحدّث إذن عن الثورة، أحاديث جدّيّة، وكنت أمسك بلحاهم وأتضرّع إليهم ألّا يطلقوا مدافعهم على الكريتيّين المساكين الأعزّاء. كنّا نراهم بالمنظار، على صخرة، قرب كارنيه، ضئيلين، ضئيلين، مثل النمل، وهم مرتدون أحذية زرقاء وصفراء. وكانوا يصرخون، ويصرخون، وكان معهم علم. . .».

وتحرّكت القصبات التي تشكّل سياج الباحة. وتوقّفت المناضلة العجوز، مذعورة. ولمعت بين أوراق الأشجار عيون خبيثة. لقد شمّ أطفال القرية رائحة مرحنا وراحوا يرقبوننا.

وحاولت المغنّية أن تنهض، لكنّها لم تتمكّن: لقد أكلت كثيرًا وشربت كثيرًا، فعادت إلى الجلوس والعرق ينسال منها. وتناول زوربا حجرًا، فتفرّق الأطفال وهم يصيحون.

وقال زوربا وهو يقرّب مقعده قليلاً:

ـ تابعي، يا جميلتي، تابعي، يا كنزي!

ـ كنت أقول إذن للأميرال الإيطالي، الذي كنت أجد معه حرّيّة أكبر، كنت أقول له وأنا أمسك لحيته: «كانافارو ـ هكذا كان اسمه ـ يا صغيري كانافارو، لا تفعل بُمْ! بُمْ! لا تفعل بُمْ! بُمْ!».

«كم من المرّات، أنا التي تحدّثكما، أنقذت الكريتيّين من الموت! كم من المرّات كانت المدافع مستعدّة للإطلاق، لكنّني كنت أمسك بلحية الأميرال ولا أتركه يفعل بُمْ! بُمْ! لكن من الذي يعترف بجميلي؟ بدلاً من وسام...».

لقد كانت السيّدة هورتانس غاضبة من نكران البشر للجميل. وضربت المائدة بقبضتها الصغيرة اللدنة المتغضّنة. ومدّ زوربا يده إلى الركبتين المنفرجتين، وأمسكهما، وقد تملّكه انفعال متصنّع وهتف:

ـ يا بوبولينتي(١)، أرجوك، لا تفعلي بُمْ! بُمْ!

فقالت سيّدتنا الطيّبة وكأنّها دجاجة تنادي أفراخها:

ـ ارفع يديك! ماذا تظنّني، أيّها العجوز؟

ورمقته بنظرة مرتخية، وقال المحتال العجوز:

ـ يوجد إلٰه رحيم، لا تحزني يا بوبولينتي. نحن هنا، يا عزيزتي، لا تخافي!

ورفعت الجنّيّة العجوز إلى السماء عينيها الصغيرتين الزرقاوين

---

(١) بوبولينا: بطلة حرب الاستقلال اليونانيّة (١٨٢١ ـ ١٨٢٨) حاربت في البحر ببسالة.

اللاذعتين، ورأت ببّغاءها نائمًا في قفصه، أخضر اللون. وهدلت بحبّ:

ـ كانافارو، يا صغيري كانافارو!

وفتح الببّغاء عينيه، عندما عرف صوتها، وتشبّث بقضبان القفص وراح يصرخ بصوت مبحوح أشبه باستغاثة غريق:

ـ كانافارو! كانافارو!

ـ حاضر! هتف زوربا وهو يضع من جديد يده على هاتين الركبتين اللتين خدمتا كثيرًا، وكأنّه يريد امتلاكهما.

واستدارت المغنّية العجوز فوق مقعدها، وفتحت من جديد فمها الصغير المتغضّن:

ـ لقد حاربت أنا أيضًا، صدرًا لصدر، ببسالة. . . لكنّ الأيّام السيّئة جاءت. فقد تحرّرت كريت، تلقّت الأساطيل الأمر بالعودة. «وأنا، ما الذي سأصير إليه، كنت أهتف بذلك وأنا أمسك اللحى الأربع. أين ستتركونني؟ لقد اعتدت على العظمة، اعتدت على الشمبانيا والفراريج المحمّرة، اعتدت على البحّارة الصغار الجميلين الذي يحيّونني بالتحيّة العسكريّة. ما الذي سأصير إليه، أربع مرّات أرملة، يا سادتي القوّاد؟».

«أمّا هم، فكانوا يضحكون. آه! يا للبشر! وأغرقوني بالجنيهات الإنجليزيّة، والليرات الإيطاليّة، والروبلات والفرنكات. وضعت منها في جواربي، في قميصي، في حذائي. وفي المساء الأخير، رحت أبكي وأصرخ، فأشفق الإميراليّة عليّ. فملأوا المغطس بالشمبانيا، وغطّسوني فيه ـ كنّا متآلفين جدًّا كما ترى ـ ثم شربوا كلّ الشمبانيا على شرفي، فسكروا. بعد ذلك أطفأوا الأنوار. . .».

«عند الصباح، شممت الروائح الأربع: البنفسج، وماء الكولونيا، والمسك والعنبر. كنت أمسك بالدول الأربع الكبرى ـ إنجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا ـ كنت أمسكها هنا، على ركبتيّ، وأجسُّها، انظر هكذا!».

وحرّكت السيّدة هورتانس ذراعيها الصغيرين النحيلين، بعد أن

باعدتهما، من الأسفل إلى الأعلى، وكأنّها تلاعب طفلاً صغيرًا على ركبتيها.

ـ هنا هكذا! هكذا!

«وعندما طلع النهار بدأوا يطلقون المدافع، إنّني لا أكذب، أقسم لك بشرفي، وجاء زورق أبيض فيه اثنا عشر جذّافًا، ليأخذني ويضعني على البرّ».

وأخذت منديلها الصغير وراحت تبكي، بلا عزاء. وهتف زوربا ملتهبًا:

ـ يا بوبولينتي، أغلقي عينيك. . . أغلقي عينيك يا كنزي. إنّني أنا كانافارو!

ـ ارفع يديك، قلت لك! صرخت من جديد سيّدتنا الطيّبة وهي تتدلّل. انظر إلى هذا الرأس! أين هي الشارات الذهبيّة، والقلنسوة، واللحية المعطّرة؟ آه! آه!

وشدّت بلطف على يد زوربا وعادت إلى البكاء.

وبرد الطقس. وصمتنا لحظة. كان البحر، وراء القصب، يتنهّد، باطمئنان وحنان. وسكنت الريح، وغابت الشمس. ومرّ غرابان من غربان المساء فوقنا، وصفّرت أجنحتهما وكأنّهما قطعة من حرير تمزّق، ولنقل قميص مغنّية حريري.

وحلّ الغسق كغبار ذهبي واجتاح الباحة. والتهبت عقدة السيّدة هورتانس المجنونة وتأرجحت في نسيم المساء، وكأنّها تريد أن تطير لتحرق الرؤوس المجاورة. واكتسى بالذهب صدرها نصف العاري، وركبتاها المتباعدتان اللتان هدّلهما العمر، وغضون عنقها، وخفّاها المتثنّيان.

وارتعدت جنيّتنا العجوز. وراحت تنظر بعينيها الصغيرتين نصف المغلقتين المحمرّتين بسبب الدموع والخمر، تارة إليّ وتارة إلى زوربا، الذي ارتمى، وقد جفّت شفتاه، على صدرها. واشتدّ الظلام. كانت تنظر

إلينا نظرة استفهام، محاولة أن تميّز أيّنا كانافارو.

وهمس زوربا بشغف وهو يلصق ركبته بركبتها:

ـ يا بوبولينتي، لا يوجد إلٰه، ولا شيطان، فلا تهتمّي. ارفعي رأسك الصغير، وأسندي يدك إلى خدّك وغنّي لنا أغنية. لتحيَ الحياة، وليفطس الموت!...

كان زوربا يشتعل اشتعالاً. وبينما كانت يده اليسرى تسوّي شاربه، كانت يده اليمنى تنساب فوق المغنّية النشوى. كان يتكلّم ولهاثه متقطّع، وعيناه متعبتان. ولا شكّ أنّه لم يكن يرى أمامه تلك العجوز المحنّطة المطليّة بالمساحيق الكثيرة، بل كلّ «الجنس الأنثوي»، كما اعتاد أن يسمّي المرأة. وراحت الفرديّة تختفي، والوجه يمّحي. سواء كانت شابّة أم هرمة، جميلة أم قبيحة، فهذه لم تعد سوى صور لا أهمّيّة لها. فوراء كلّ امرأة ينتصب وجه أفروديت، صارمًا، مليئًا بالأسرار.

كان ذاك هو الوجه الذي يراه زوربا، وإليه كان يتحدّث، وإيّاه يشتهي، ولم تكن السيّدة هورتانس إلّا قناعًا موقّتًا شفّافًا يمزّقه زوربا ليقبّل الفم الخالد.

وعاد صوته المتضرّع اللاهث يقول:

ـ ارفعي عنقك الثلجي، يا كنزي، ارفعي عنقك الثلجي، وانطلقي في أغنيتك.

وأسندت المغنّية العجوز خدّها على يدها النحيلة، التي خدّدها الغسيل، وارتخت نظرتها. وأطلقت صرخة نادبة ووحشيّة، وبدأت أغنيتها المفضّلة، المكرّرة ألف مرّة، وهي تنظر إلى زوربا، إذ كان اختيارها قد تمّ ـ بعينين منهزمتين، نصف مطفأتين:

عند نهاية عمري.

لماذا التقيت بك...

وقفز زوربا، وذهب ليأتي بالسانتوري، وجلس على الأرض الأربعاء،

ونضا الغلاف عن آلته، وأسندها على ركبتيه، ومدّ رجليه الضخمتين، وصرخ:

ـ آي! آي! خذي سكّينة واذبحيني، يا بوبولينتي.

عندما بدأ الليل يرخي سدوله، وتدحرجت في السماء نجمة المساء، وارتفع صوت السانتوري، مداهنًا متملّقًا، تمدّدت السيّدة هورتانس، وقد اكتظّت بالدجاج والأرزّ واللّوز المحمّص والخمر، بكلّ ثقلها على كتف زوربا وتنهّدت. وتدلّكت قليلاً بخاصرتيه البارزة عظامهما، وتثاءبت وتنهّدت من جديد.

وأشار زوربا إليّ، وهمس بصوت منخفض:

ـ إنّ النار تشتعل في سراويلها، أيّها الرئيس، اذهب!

ـ ٤ ـ

طلع النهار، وفتحت عينيّ، ورأيت أمامي زوربا، جالسًا مثنيّ القدمين عند طرف سريره، كان يدخّن، وهو غارق في تأمّل عميق. وكانت عيناه الصغيرتان المستديرتان تحدّقان بالنافذة التي صبغتها أشعّة الفجر الأولى ببياض حليبي. كانت عيناه منتفختين، ورقبته العارية النحيلة ممتدّة، بطولها غير العادي، كرقبة طائر صيد.

كنت قد انسحبت البارحة مبكرًا، وتركته وحده مع الجنّيّة العجوز. وقلت له:

ـ إنّني ذاهب، ألهُ جيّدًا، يا زوربا. وتشجَّع يا فتاي!

فأجاب زوربا:

ـ إلى اللقاء، أيّها الرئيس. دعنا نسوّ قضيّتنا، مساء الخير، أيّها الرئيس، نم جيّدًا!

والظاهر أنّهما قد سوّيا قضيّتهما، إذ بدا لي في نومي أنّني سمعت هديلاً مكتومًا، وهزّات تقلقل الغرفة المجاورة في إحدى اللحظات. ثم عدت إلى النوم. وبعد زمن طويل على مضي نصف الليل، دخل زوربا عاري القدمين وتمدّد على سريره، بهدوء كبير، كي لا يوقظني.

والآن، عند الفجر، كان هناك، عيناه ضائعتان بعيدًا، نحو النور، ونظرته مطفأة. وكان ما يزال غارقًا في خدر خفيف، وصدغاه لم يتحرّرا بعدُ من النعاس. واستسلم بهدوء وسلبيّة إلى تيّار من نوْر كثيف كالعسل.

كان الكون يجري: الأراضي، والمياه، والأفكار، والبشر، نحو بحر بعيد، وزوربا يجري معه، دون مقاومة، دون تساؤل، وبحبور.

بدأت القرية تستيقظ ـ ضجيج خليط من أصوات الديكة، والخنازير، والحمير، والبشر. وأردت أن أقفز من الفراش، وأصرخ: «أيْ زوربا، لدينا اليوم عمل!» لكنّني كنت أحسّ أنا نفسي بهناء كبير إذ أستسلم هكذا، دون كلمات، دون حركات، لتسرّبات الفجر، القلقة، الرائعة. في مثل هذه الدقائق السحريّة، تبدو الحياة كلّها خفيفة كالزغب. وتتشكّل الأرض وتتعدّل بنفح الرّيح، وكأنّها غيمة متموّجة، رخوة.

كنت أنظر إلى زوربا يدخّن، ورغبت في التدخين أنا أيضًا، فمددت ذراعي وأخذت غليوني. ونظرت إليه بانفعال. إنّه غليون إنجليزي ضخم وثمين أهدانيه صديقي ـ ذو العينين الرماديّتين الخضراوين واليدين الضامرتي الأصابع ـ في ظهر أحد الأيّام، منذ عدّة سنوات، في بلد أجنبي. كان سيسافر، بعد أن أنهى دراسته، إلى اليونان في مساء اليوم نفسه. فقال له: «دعك من السجائر، إنّك تشعلها وتدخّن نصفها ثم ترميها وكأنّها بغيّ. هذا عار. تزوّج الغليون، فهو المرأة المخلصة. عندما تعود إلى بيتك، تجده هناك دومًا، ينتظرك دون أن يتحرّك. فتشعله، وتتطلّع إلى الدخان وهو يصعد في الهواء، وتتذكّرني».

كان الوقت ظهرًا، وكنّا خارجين من أحد متاحف برلين، حيث ذهب ليودّع لوحته العزيزة «المحارب» لرامبراندت. بخوذته البرونزيّة، وخدّيه الهزيلين، ونظرته المتألّمة العنيدة. وتمتم وهو ينظر إلى المحارب الحاقد واليائس:

«إذا ما قمت في حياتي بعمل جدير بإنسان، فسأكون مدينًا به له».

كنّا في باحة المتحف، مستندين إلى عمود. وأمامنا كان تمثال من البرونز: فارسة عارية تمتطي، برشاقة لا توصف، حصانًا متوحّشًا. وحطّ عصفور صغير رمادي، من نوع الذعرة، على رأس الفارسة لحظة، ثم

التفت نحونا، وهزّ ذنبه هزّات صغيرة عنيفة، وصفّر مرّتين أو ثلاثًا لحنًا هازئًا وطار.

وارتعدت ونظرت إلى صديقي، وسألته:

ـ أسمعت العصفور؟ لقد بدا عليه أنّه قال لنا شيئًا.

ابتسم صديقي وأجاب مستشهدًا ببيت من أغانينا الشعبيّة:

ـ «إنّه عصفور، دعه يغنِّ، إنّه عصفور، دعه يتكلّم!».

كيف تعود، في هذه اللحظة، عند طلوع النهار، فوق هذا الساحل الكريتي، كيف تعود هذه الذكرى إلى ذاكرتي مع هذا البيت الحزين الذي يغرق نفسي بالمرارة؟

وحشوت غليوني ببطء وأشعلته. لكلّ شيء معنًى خفي في هذا العالم. هكذا قلت في نفسي. البشر، والحيوانات، والأشجار، والنجوم، كلّها ليست إلّا خطوطًا هيروغليفيّة، وسعيد هو الذي بدأ بحلّها وإدراك ما تعنيه، لكن يا لتعاسته أيضًا! إنّه لا يفهمها عندما يراها. فهو يعتقد أنّها بشر، وحيوانات، وأشجار، ونجوم. ثم يكتشف، بعد عدّة سنوات، بعد فوات الأوان، معناها الحقيقي.

المحارب ذو الخوذة البرونزيّة، وصديقي المستند إلى العمود، والنور الكثيف في ظهر ذلك اليوم، وعصفور الذعرة وما قاله لنا وهو يصفّر، وبيت الأغنية الحزينة، كلّ ذلك يمكن أن يكون له معنًى خفي، هكذا أفكّر اليوم، لكن ما هو؟

وتتبّعت بعينيّ الدخان الذي كان يلتفّ وينتشر في نور الشفق العاتم وينقشع ببطء. وكانت روحي تندمج بهذا الدخان، وتتلاشى في دوائر زرق. ومضى زمن طويل وكنت أحسّ، دون تدخّل المنطق، وبيقين لا يوصف، بأصل العالم وتفتّحه وزواله. وكأنّني قد غرقت من جديد في بوذا، لكن هذه المرّة بدون الكلمات الخادعة، وألعاب الفكر البهلوانيّة والوقحة. إنّ هذا الدخان هو خلاصة تعاليمه، وهذه الدوائر المتلاشية هي الحياة التي

تؤدّي، بهدوء واطمئنان وسعادة، إلى النيرڤانا الزرقاء. لم أكن أفكّر بشيء، ولا أبحث عن شيء، ولا أشكّ بشيء. كنت أعيش في اليقين.

وتنهّدت بهدوء. وكأنّ هذه التنهيدة أعادتني إلى اللحظة الحاضرة، فنظرت حولي ورأيت الكوخ الخشبي البائس، ومرآة صغيرة معلّقة على الحائط، قد سقط عليها شعاع الشمس الأوّل، فراحت تقدح بالشرر. وكان زوربا جالسًا أمامي، فوق فراشه، مديرًا ظهره لي، يدخّن.

وفجأة هدر في نفسي يومُ أمس بكلّ أحداثه المضحكة ـ المبكية. روائح البنفسج الفائحة، البنفسج، وماء الكولونيا، والمسك والعنبر. وببّغاء، أو كائن شبه إنساني قد استحال إلى ببّغاء، كان يضرب بجناحيه قضبان قفصه الحديدي وهو يدعو حبيبًا قديمًا، وسفينة عجوزًا، هي الوحيدة من أسطول كامل لا تزال على قيد الحياة، تروي معارك بحريّة قديمة...

سمع زوربا تنهّدتي، فهزّ رأسه واستدار متمتمًا:

ـ لقد أسأنا التصرّف، لقد أسأنا التصرّف، أيّها الرئيس. لقد سخرت وكذلك أنا، ورأتنا المسكينة؟ ثم ذهبت، دون أن تمهّد لذلك، وكأنّها عجوز عمرها ألف عام، يا للعار! ليس هذا بالأدب، أيّها الرئيس، ليس هكذا يجب أن يتصرّف الرجل، كلّا، اسمح لي أن أقول لك ذلك! إنّها امرأة، بعد كلّ شيء، أليس كذلك؟ مخلوق ضعيف، سريع البكاء. ولحسن الحظّ بقيت أنا لأعزّيها.

فقلت ضاحكًا:

ـ لكنْ ماذا تقول يا زوربا، أتعتقد جدّيًا أنّ جميع النساء ليس في رؤوسهنّ غير ذلك؟

ـ نعم. ليس في رؤوسهنّ غير ذلك. صدّقني، أيّها الرئيس. أنا الذي رأيت وعاشرت من جميع الألوان. وإنّ لي، كما يقولون، بعض الخبرة. ليس للمرأة شيء آخر في رأسها، إنّها مخلوق مريض، أقول لك، سريعة

البكاء. فإذا لم تقل لها إنّك تحبّها وإنّك تشتهيها، تأخذ بالبكاء. قد تقول لك لا، وقد لا تعجبها مطلقًا، وقد تثير اشمئزازها، لكنّ هذه قصّة أخرى. إنّ من يرونها، عليهم أن يشتهوها. هذا ما تريده، المسكينة، إذن فأنت تستطيع أن تسرّها!

«أنا، كانت لي جدّة، وكانت في الثمانين. إنّ قصّة هذه المرأة لرواية حقيقيّة. لكن حسنًا، إنّ هذه أيضًا قصّة أخرى... كانت إذن في الثمانين تقريبًا، وأمام بيتنا كانت تقطن فتاة شابّة نضرة كالزهرة. كانت تُدعى كريستالو. وفي مساء كلّ سبت، كنّا نحن، أغرار القرية، نذهب لشرب قدح، ونتنشي بالخمر. ونضع غصنًا من الحبق خلف أذننا، ويأخذ ابن عمّ لي قيثارة ونذهب للسيرينادا. يا للنار! يا للهوى! كنّا نخور كالجواميس. كنّا جميعًا نريدها، ومساء كلّ سبت كنّا نذهب قطيعًا واحدًا لتختار منه.

«حسنًا! هل تصدّقني، أيّها الرئيس؟ إنّه لسرّ محيّر، إنّ في المرأة جرحًا لا يلتئم أبدًا. إنّ جميع الجراح تلتئم، لكنّ هذا، لا تصغِ إلى ما تقوله كتبك، لا يلتئم أبدًا. لأنّ المرأة قد بلغت الثمانين؟ إنّ الجرح يبقى دومًا مفتوحًا.

«إذن، كلّ سبت، كانت العجوز تجرّ فراشها قرب النافذة، وتأخذ خفية مرآتها الصغيرة، وتمشّط الشعرات القليلات التي بقيت، وتفرقها إلى فرقين، وتنظر حواليها بطرف خفي خشية أن يشاهدها أحد، وإذا ما اقترب إنسان تنكمش على نفسها بهدوء كأنّها قدّيسة تدّعي التقوى، وتتظاهر بالنوم. لكن كيف تنام؟ إنّها تنتظر السيرينادا. في الثمانين! أترى، أيّها الرئيس، إنّ هذا يدفعني إلى الرغبة في البكاء اليوم. لكنّي في ذلك الوقت لم أكن إلّا طائشًا، لا أفهم شيئًا، وكان يُثير سخريّتي. ذات يوم، غضبت عليها. كانت تسيء معاملتي لأنّني أجري وراء الفتيات، فصارحتها مرّة بحقيقة أمرها: «لماذا تمسحين شفتيك بورق الجوز كلّ سبت، وتمشّطين شعرك؟ لعلّك تتصوّرين أنّنا نقوم بالسيرينادا من أجلك؟ نحن، إنّما نريد

كريستالو. أمّا أنت، فتفوح منك رائحة الجثث!».

«صدّقني، أيّها الرئيس! في ذلك اليوم، عندما رأيت دمعتين كبيرتين تنسابان من عينيْ جدّتي، فهمت لأوّل مرّة ما هي المرأة. فقد تقوقعت في زاويتها ككلبة وراح ذقنها يرتعد. وصرخت وأنا أقترب منها كي تسمعني جيّدًا: «كريستالو»، «كريستالو!». إنّ الشباب حيوان مفترس، لا إنساني، لا يفهم. ورفعت جدّتي ذراعيها الضامرتين نحو السماء وهتفت: «ألعنك من أعماق قلبي». ومنذ ذلك اليوم، أخذت تهبط المنحدر، وتتلاشى، وبعد شهرين كانت على وشك الموت. وفي اللحظة التي كانت تحتضر فيها، شاهدتني. فتنهّدت كالسلحفاة ومدّت يدها اليابسة لتخدشني: «أنت الذي قتلتني يا ألكسيس، يا لعين. لتحلّ اللعنة عليك ولتتألّم أنت أيضًا بقدر ما أتألّم!».

وابتسم زوربا وقال وهو يداعب شاربه:

ـ آه! إنّ لعنة العجوز لم تخطئني. إنّني في الخامسة والستّين، على ما أعتقد، لكنّني لن أصبح حكيمًا أبدًا، حتى ولو عشت مئة عام. سأحمل دومًا مرآة صغيرة في جيبي وسأركض وراء الجنس الأنثوي.

وابتسم مرّة أخرى، وألقى سيجارته من النافذة، وتمدّد قائلاً:

ـ لديّ أكداس من النقائص، لكنّ هذه النقيصة ستقتلني!

وقفز من سريره:

ـ هذا يكفي. لقد تحدّثنا كثيرًا. اليوم، سنعمل!

ولبس ثيابه في أقلّ من ثانية، وانتعل حذاءه وخرج.

ورحت أجترّ كلمات زوربا، ورأسي محنيّ على صدري. وفجأة عادت إلى صورة ذهني مدينة بعيدة مغطّاة بالثلج. كنت واقفًا أنظر، في معرض لأعمال رودان، إلى يد ضخمة من البرونز، «يد الله». كانت الراحة نصف مغلقة، وفي تلك الراحة رجل وامرأتان يتدافعان ويتمازجان، مأخوذين بالنشوة، متعانقين.

واقتربت صبيّة ووقفت إلى جانبي. وراحت تنظر، مضطربة هي أيضًا، إلى عناق الرجل والمرأة، القلق الخالد. كانت نحيفة، أنيقة الثياب، ولها شعر كثيف أشقر، وذقن قويّ، وشفتان ضيّقتان. كان فيها ثمّة شيء مصمّم ورجولي. ولا أدري ما الذي دفعني إلى التكلّم، مع أنّني أكره الدخول في محادثات سهلة. فالتفتّ قائلاً:

ـ بمَ تفكّرين؟

فتمتمت بتحدٍّ:

ـ لو نستطيع الهرب!

ـ للذهاب إلى أين؟ إنّ يد الله في كلّ مكان. لا سلام. آآسفة لذلك؟

ـ كلّا. من الممكن أن يكون الحبّ أعظم فرح على هذه الأرض. هذا ممكن. لكنّني أودّ أن أهرب، إذ أرى الآن هذه اليد البرونزيّة.

ـ أتفضّلين الحرّيّة؟

ـ نعم.

ـ لكن ما العمل إن لم تكن حرّيّتنا إلّا في طاعة اليد البرونزيّة؟ وإذا كانت كلمة «الله» ليس لها المعنى الشائع الذي تعطيه الجماهير لها؟

فنظرت إليّ بقلق. كانت عيناها بلون المعدن الرمادي، وشفتاها جافّتين ومريرتين. وقالت:

ـ إنّني لا أفهم.

وابتعدت وكأنّها خائفة. ثم اختفت. ولم تعد إلى خاطري قطّ منذ ذلك الحين. لكنّها كانت تعيش بالتأكيد في داخلي، تحت بلاطة صدري، وها هي اليوم فوق هذا الساحل القفر، تخرج من أعماق نفسي، شاحبة نائحة.

نعم، لقد أسأت التصرّف، إنّ زوربا على حقّ. لقد كانت تلك اليد البرونزيّة ذريعة حسنة، وكنّا نستطيع، بعد أن نجح الاحتكاك الأوّل وقيلت الكلمات الأولى اللطيفة، أن نتعانق، رويدًا رويدًا، دون أن ينتبه أحدنا، ونتّحد بهدوء تامّ في راحة الله. لكنّني اندفعت فجأة من الأرض إلى

السماء، فذعرت المرأة وهربت.

وصاح الديك في باحة السيّدة هورتانس. إنّ النهار يتسرّب الآن، شديد البياض، من النافذة الصغيرة. ونهضت دفعة واحدة.

أخذ العمّال يجيئون حاملين معاولهم وعتلاتهم ومجارفهم. وسمعت زوربا يصدر الأوامر. لقد انهمك فجأة في عمله، وأصبح ذلك الرجل الذي يعرف كيف يأمر، والذي يحبّ المسؤوليّة.

ومددت رأسي من النافذة ورأيته واقفًا، كعملاق ضخم وسط ثلاثين من الرجال، النحيفين، القساة، السمر، القصيري القامة. كانت ذراعه تمتدّ بشكل آمر، وكلماته مختصرة ودقيقة. وبعد لحظة أمسك بعنق فتًى صغير كان يتمتم ويتقدّم بتردّد. وصرخ:

ـ أهناك شيء تودّ أن تقوله؟ قله بصوت عالٍ! إنّني لا أحبّ الهمهمات. لكي تشتغل، لا بدّ أن تكون مستعدًّا، فإذا لم تكن كذلك، فأسرع إلى الحانة.

وعندئذ ظهرت السيّدة هورتانس، شعثاء الشعر، منتفخة الخدّين، غير مخضّبة الوجه، مرتدية قميصًا عريضًا قذرًا وخفّين طويلين باليين. وسعلت سعالاً جافًّا كسعال المغنّيات العجائز، أشبه بالنهيق، وتوقّفت ونظرت إلى زوربا باعتزاز. واضطربت عيناها. وسعلت من جديد كي يسمعها، ومرّت قربه وهي تتأرجح وتهزّ ردفيها. ولم يبق إلّا قيد شعرة لتمسّه بكمّها الواسع. لكنّه لم يلتفت حتى لمجرّد النظر إليها. وأخذ من أحد العمّال قطعة من كعكة مصنوعة من الشعير، وقبضة من الزيتون. وصرخ:

ـ هيّا، أيّها الرفاق، ارسموا إشارة الصليب!

وبخطًى عريضة، قاد الفريق في خطّ مستقيم نحو الجبل.

لن أصف ها هنا أعمال المنجم. إنّ ذلك يتطلّب الصبر، وليس لديّ شيء منه. لقد بنينا قرب البحر كوخًا من القصب والخيزران وصفائح الوقود. كان زوربا يستيقظ عند الفجر، ويتناول معوله، وينطلق إلى المنجم قبل العمّال، ويحفر دهليزًا، ويتركه، ويجد عرقًا من اللينيت اللامع كالفحم

الحجري ويرقص من الفرح. لكنّ العرق كان يضيع بعد عدّة أيّام، فيلقي زوربا بنفسه على الأرض، رافعًا ساقيه في الهواء، ويأخذ برجليه ويديه يتحدّى السماء.

كان يشتغل من كلّ قلبه. ولم يكن ليستشيرني. وبعد عدّة أيّام، كان الهمّ كلّه والمسؤوليّة كلّها قد انتقلا من يدي إلى يده. إنّه هو الذي يقرّر وينفّذ. أمّا أنا فعليّ أن أدفع ثمن الجرار المكسورة ـ وهذا لم يكن ليزعجني بالأصل ـ لأنّني أحسّ جيّدًا أنّ هذه الأشهر من حياتي ستكون من أسعد الأشهر على الإطلاق. وهكذا، بعد أن قمت بجميع حساباتي، كنت أدرك أنّني أشتري سعادتي بقليل من التكاليف.

كان جدّي لأمّي، الذي كان يسكن في قرية صغيرة بكريت، يأخذ كلّ مساء فانوسه ويقوم بجولة في القرية ليرى إذا كان أحد الغرباء قد جاء إليها مصادفة. كان يأخذه إلى منزله، ويقدّم له كثيرًا من الطعام والشراب، ثم يجلس على الأريكة، ويشعل غليونه التركي الطويل، ويلتفت نحو ضيفه ـ الذي حان أن يوفّي ما عليه ويقول له بلهجة آمرة:

ـ حدّثني!

ـ عمَّ أحدّثك، أيّها الأب موستيوري؟

ـ ما بك؟ من أنت؟ من أين قدمت؟ ما المدن وما القرى التي شاهدتها عيناك؟ كلّ شيء، حدّثني عن كلّ شيء. هيّا تكلّم!

ويبدأ الضيف بالحديث، كيفما اتّفق، خالطًا الحقائق بالأكاذيب، بينما يدخّن جدّي غليونه، ويصغي إليه ويسافر معه، وهو جالس بهدوء على الأريكة. وإذا ما أعجبه الضيف، يقول له:

ـ ستبقى غدًا أيضًا، لن تذهب. ما زال لديك أشياء لترويها.

إنّ جدّي لم يغادر قريته. بل إنّه لم يذهب حتى إلى «كاندي» أو إلى «كانيه». كان يقول: «أأذهب إليها، لماذا؟ هناك سكّان من كانيه وكاندي يمرّون من هنا، إنّ كاندي وكانيه تأتيان إليّ. لست بحاجة إلى الذهاب إليهما!».

إنّني اليوم أستمرّ في عادة جدّي فوق هذه الأرض الكريتيّة. لقد وجدت أنا أيضًا ضيفًا، وكأنّني بحثت عنه بضوء فانوسي. إنّني لن أتركه يذهب. وهو يكلّفني أكثر بكثير من ثمن عشاء، لكنّه يستحقّ ذلك. كلّ مساء، أنتظره بعد العمل، وأجعله يجلس بمواجهتي، ونأكل، ثم يأتي الوقت الذي يجب أن يدفع فيه، وأقول له: «حدّثني!». وأدخّن غليوني وأصغي إليه. لقد جاب هذا الضيف الأرض كثيرًا، وسبر غور الروح الإنسانيّة جيّدًا، وأنا لا أشبع من الإصغاء إليه.

ـ حدّثني، زوربا، حدّثني!

وما إن يفتح فاه حتى تتجلّى كلّ ماسيدونيا أمامي، وتمتدّ في الفسحة الصغيرة التي بيني وبين زوربا، بجبالها، وغاباتها وسهولها، وجنودها غير النظاميّين، ونسائها اللواتي لا يشقّ عليهنّ العمل، ورجالها الغلاظ القساة. وكذلك جبل آتوس بديوره الواحد والعشرين، وترساناته، وساكنيه الكسالى.

ويهزّ زوربا عنقه وهو ينهي قصصه عن الرهبان، ويقول وهو ينفجر ضاحكًا: ليحفظك الله، أيّها الرئيس، من مؤخّرات البغال ومن مقدّمات الرهبان!».

كلّ مساء، يأخذني زوربا للنزهة عبر اليونان، وبلغاريا والقسطنطينيّة، وأغلق عينيّ وأرى. لقد جاب البلقان، ولاحظ كلّ شيء بعينيه المرتبكتين القلقتين الصغيرتين اللتين تشبهان عيني الصقر، واللتين يجحظهما في كلّ لحظة، وقد تملّكه الذهول. إنّ الأشياء التي اعتدنا عليها، والتي نمرّ بها لا مبالين، تنتصب أمام زوربا وكأنّها ألغاز مخفيّة. فهو إن رأى امرأة تمرّ، يتوقّف مبهوتًا ويسأل:

«ما هذا السرّ؟ ما المرأة، ولماذا تجعل عقلنا يدور؟ ما معنى هذا، قل لي قليلاً؟».

إنّه يتساءل بالذهول نفسه أمام رجل، أو شجرة مزهرة، أو قدح من

الماء البارد. إنّ زوربا يرى يوميًا كلّ الأشياء للمرّة الأولى.

كنّا جالسين البارحة أمام الكوخ. وبعد أن شرب كأسًا من الخمر، التفت نحوي مذعورًا:

ـ ما هذا الماء الأحمر، أيّها الرئيس، قل لي! جذع شجرة عجوز ينبت أغصانًا، وثمّة أنواع من الزخارف الحامضة المتدلّية، ويمضي الوقت، وتنضجها الشمس، فتصبح حلوة كالعسل، وعندها تسمّى عنبًا، وتُداس بالأقدام، ويُستخرج منها العصير الذي يوضع في براميل، ويتخمّر من تلقاء نفسه، ويُفتح في عيد القدّيس جورج السكّير، فإذا هو خمر! ما هذه المعجزة أيضًا! وتشرب هذا العصير الأحمر، فإذا بروحك تعظم، ولا تعود تستطيع البقاء في الجسد العجوز، وتتحدّى الإله للمعركة. ما هذا، أيّها الرئيس، قل لي؟

لم أتكلّم. كنت أحسّ، وأنا أصغي إلى زوربا، ببتوليّة العالم تتجدّد. وراحت جميع الأشياء العاديّة الباهتة تستعيد تألّق أيّامها الأولى، لحظة خرجت من يدي الله. وعاد الماء، والمرأة، والنجمة، والخبز، إلى النبع البدائي الغامض، وانطلقت الدوّامة السماويّة من جديد في الجوّ.

لهذا كنت، كلّ مساء، أنتظر زوربا وأنا متمدّد على حصى الشاطئ، بشوق شديد. وكان يخرج من أحشاء الأرض، مليئًا بالوحل وملوّثًا بالفحم، وكأنّه فأرة ضخمة بقامته الطويلة المتهادية. ومن بعيد كنت أحزر كيف سار العمل في ذلك اليوم، من هيئة جسده، من رأسه المنحني أو المنتصب عاليًا، من اهتزاز ذراعيه الكبيرتين.

في البدء، كنت أذهب معه، وأراقب العمّال. كنت أجهد نفسي للسير في درب جديدة، وللاهتمام بالأعمال اليدويّة، ولمعرفة المادّة الإنسانيّة التي سقطت بين يديّ ولمحبّتها، وللإحساس بالفرح الذي طالما تمنّيته، فرح العمل مع بشر أحياء لا مع كلمات. وكنت أقوم بمشاريع رومانتيكيّة ـ فاستخراج اللينيت يتمّ بسرعة ـ لتنظيم نوع من الكومونة نعمل فيها جميعًا.

وكلّ شيء يكون فيها مشتركًا، فنأكل معًا جميعًا من الطعام نفسه ونرتدي الثياب نفسها، كالإخوة. كنت أخلق في ذهني رهبانيّة جديدة، خميرة حياة جديدة...

لكنّني لم أكن قد قرّرت بعد أن أطلع زوربا على مشاريعي. وكان ينظر إليّ، بانزعاج، وأنا أذهب وأجيء بين العمّال، أسأل، وأتدخّل، وأدافع دومًا عن العامل. ويزمّ زوربا شفتيه ويقول لي:

ـ أيّها الرئيس، ألا تودّ أن تقوم بجولة في الخارج؟ إنّ الشمس رائعة هناك!

ولكنّني كنت أصرّ في الأيّام الأولى، ولا أذهب. كنت أسأل وأثرثر، وأطّلع على تاريخ جميع عمّالي: الأطفال الذين عليهم أن يطعموهم، والأخوات اللواتي عليهم أن يزوّجوهنّ، والوالدين العجوزين العاجزين، وهمومهم، وأمراضهم، ومشاغلهم.

وكان زوربا يقول لي بغضب:

ـ لا تنبش هكذا تاريخ حياتهم. فسيميل قلبك نحوهم، وتحبّهم أكثر ممّا يجب، وأكثر ممّا تقتضي مصلحة عملنا. وستسامحهم مهما فعلوا... وإذ ذاك، فيا لشقائهم هم أيضًا، يجب أن تعرف ذلك. عندما يكون الرئيس صلبًا، يخشاه العمّال، ويحترمونه، ويشتغلون. وعندما يكون الرئيس ضعيفًا، يضعون الرسن في عنقه، ويجرّونه بهدوء. أتفهم؟

وذات مساء، بعد أن انتهى العمل، ألقى بمعوله أمام الكوخ، متعبًا، وصرخ:

ـ أرجوك، أيّها الرئيس، لا تتدخّل في أيّ شيء. أنا أبني وأنت تهدم. ما هذه القصص التي كنت ترويها لهم اليوم؟ اشتراكيّة وهراء! أأنت واعظ أم رأسمالي؟ يجب أن تختار.

لكن كيف أختار؟ كانت الرغبة الساذجة تتأكّلني في أن أجمع الأمرين معًا، وأن أجد التركيب الذي تتآخى فيه التناقضات التي لا سبيل للتوفيق

بينها، وأن أكسب في آن واحد الحياة الأرضيّة وملكوت السماوات. إنّ هذا قد بدأ منذ سنوات، منذ حداثتي. فمنذ أن كنت في المدرسة، نظّمت مع صفوة أصدقائي «أخوّة ودّيّة»، وهو الاسم الذي أعطيناه للمنظّمة، وأقسمنا، وقد أغلقنا على أنفسنا الغرفة بالمفتاح، أنّنا سنكرّس كلّ حياتنا للنضال ضدّ الظلم. وقد انسابت دموع كبيرة من أعيننا، عندما أقسمنا وأيدينا فوق قلوبنا.

مُثل عُليا صبيانيّة! ومع ذلك، فيا لشقاء من يضحك إذا سمعها! وإنّني إذ أرى إلى أين انتهى أعضاء «الأخوّة الودّيّة» ـ أدعياء طبّ ومحاماة، وعطّارون، وسياسيّون دجّالون، وصحافيّون صغار ـ فإنّ قلبي لينقبض. إنّ مناخ هذه الأرض فظّ وقاسٍ على ما يبدو، وأثمن البذور لا تنبت فيه أو هي تختنق في الشوك والقرّاص. ومع أنّني أرى ذلك الآن بوضوح، إلّا أنّني لم أصبح منطقيًّا بعد. ألا فليتمجّد اسم الله! فأنا أحسّ بأنّني على استعداد لألقي بنفسي في غزوات دونكيشوتيّة.

كنّا نستعدّ ليوم الأحد، وكأنّنا عروسان يريدان الزواج، فنحلق، ونرتدي قمصانًا بيضاء جديدة، ونذهب، وفي نهاية بعد الظهر، عند السيّدة هورتانس. وكانت، في كلّ يوم أحد، تذبح لنا دجاجة، ونجلس من جديد، نحن الثلاثة، لنشرب ونأكل، ثم يمدّ زوربا يديه الطويلتين إلى صدر السيّدة الطيّبة المضياف، ويمتلكه. وعندما يرخي الليل سدوله، نعود إلى شواطئنا، وتبدو لنا الحياة بسيطة ومليئة بالنوايا الطيّبة، وعجوزًا، لكنّها لطيفة جدًّا ومضيافة، مثل السيّدة هورتانس.

وذات أحد، قرّرت، ونحن عائدان من وليمتنا الوفيرة، أن أحدّث زوربا وأطلعه على مشاريعي. وأصغى إليّ فاغر الفم، وهو يرغم نفسه على الصبر. ومن لحظة إلى أخرى فقط كان يهزّ رأسه الضخم بغضب، وما إن سمع الكلمات الأولى، حتى طارت السكرة من عقله، وصفا ذهنه. وعندما انتهيت، انتزع بعصبيّة شعرتين أو ثلاثًا من شاربه. وقال:

ـ بالإذن منك، أيّها الرئيس، فأنا أحسّ بأنّ عقلك ليس صلبًا جدًا، بل هو أشبه بالمعجّنات حقًّا. كم عمرك؟

ـ خمس وثلاثون.

ـ إذن! فهو لن يصبح صلبًا مطلقًا.

وقهقه ضاحكًا. وأحسست بأنّني لُسِعت، وصرخت:

ـ ألا تؤمن بالإنسان، أنت؟

ـ لا تغضب، أيّها الرئيس. كلّا أنا لا أؤمن بشيء. لو كنت أؤمن بالإنسان، لآمنت أيضًا بالله، ولآمنت أيضًا بالشيطان. وتلك مشكلة. إنّ الأمور يلتبس بعضها ببعض، وهذا يسبّب لي، أيّها الرئيس، كثيرًا من الإزعاج.

وصمت، وخلع قلنسوته، وحكّ رأسه بعصبيّة، وشدّ أيضًا شاربه وكأنّه يريد انتزاعه. أراد أن يقول شيئًا ما لكنّه امتنع. ونظر إليّ من جانب عينه، ثم نظر إليّ ثانية وقرّر. وصرخ وهو يضرب الحجارة بعصاه بعنف:

ـ الإنسان بهيمة؟ بهيمة كبيرة. إنّ سيادتك لا تعرف ذلك، وكلّ شيء على ما يبدو كان سهلاً بالنسبة لك، لكن اسألني أنا. أنا بهيمة، أقول لك! إذا كنت سيّئًا معه احترمك وخافك. وإذا كنت طيّبًا فقأ عينيك. «حافظ على المسافات، أيّها الرئيس، لا تشجّع البشر كثيرًا، ولا تقل لهم إنّنا جميعًا متساوون، وإنّ لنا جميعًا الحقوق نفسها. وإلّا فإنّهم سيدوسون حقّك أنت، ويسرقون خبزك ويتركونك تفطس من الجوع. حافظ على المسافات، أيّها الرئيس، من أجل الخير الذي أريده لك».

فصرخت غاضبًا:

ـ لكن ألا تؤمن بشيء إذن؟

ـ كلّا، لا أؤمن بشيء، كم مرّة يجب أن أقول لك ذلك؟ إنّني لا أؤمن بشيء، ولا بأيّ شخص آخر، بل بزوربا وحده. ليس لأنّ زوربا أفضل من الآخرين، ليس ذلك مطلقًا، مطلقًا! إنّه بهيمة هو الآخر. لكنّني

أؤمن بزوربا لأنّه الوحيد الذي يقع تحت سلطتي، الوحيد الذي أعرفه، وكلّ الآخرين إنّما هم أشباح. إنّني أرى بعينيه، وأسمع بأذنيه، وأهضم بأمعائه. وكلّ الآخرين، أقول لك، أشباح. عندما أموت أنا، فكلّ شيء يموت. إنّ كلّ العالم الزوربي سينهار دفعة واحدة!

فقلت ساخرًا:

ـ أنت تتحدّث بأنانيّة!

ـ إنّني لا أستطيع شيئًا، أيّها الرئيس! الأمر هكذا: إذا أكلت فولاً فإنّني أتحدّث عن الفول، وأنا زوربا، إذن فأنا أتحدّث عن طريقة زوربا.

لم أقل شيئًا. كنت أحسّ بكلمات زوربا وكأنّها صفعات سوط. إنّني أُعجب لقوّته هذه، ولمقدرته على احتقار البشر إلى هذا الحدّ، وفي الوقت نفسه لوجود مثل هذه الرغبة عنده في أن يعيش ويعمل معهم. أمّا أنا فإنّني إمّا أن أصبح ناسكًا، وإمّا أن أزيّن البشر بريش زائف كي أستطيع تحمّلهم.

والتفت زوربا ونظر إليّ. وعلى ضوء النجوم، تبيّنت وجهه الذي شقّته ابتسامة حتى أذنيه.

وقال وهو يتوقّف فجأة:

ـ أأغضبتك، أيّها الرئيس؟

كنّا قد وصلنا إلى الكوخ. ونظر إليّ زوربا بعطف وقلق.

لم أجب. كنت أحسّ بأنّ عقلي على اتّفاق مع زوربا، لكنّ قلبي كان يقاوم، يريد الانطلاق، والهرب بعيدًا عن البهيمة، وفتح طريق له.

وقلت:

ـ إنّني لا أشعر بالنعاس، يا زوربا، هذا المساء، اذهب للنوم، أنت.

كانت النجوم تتلألأ، والبحر يتنهّد ويلعق الأصداف، وأضاءت إحدى الحباحب تحت بطنها منارتها الصغيرة الفاضحة. وكان شعر الليل يقطر ندًى.

وتمدّدت على الشاطئ، وغرقت في الصمت، دون أن أفكّر بشيء.

وأصبحت أنا والليل والبحر كلًّا واحدًا، وأحسست بروحي وكأنّها حباحب قد وقفت، بمنارتها الذهبيّة الخضراء المضيئة، فوق أرض رطبة وسوداء، وراحت تنتظر.

كانت النجوم تسافر، والساعاتَ تمضي. وعندما نهضت كنت قد رسمت في نفسي نهائيًّا، دون أن أدري كيف، المهمّة المزدوجة التي عليّ أن أقوم بها على هذا الشاطئ:

أن أهرب من بوذا، وأتخلّص في الكلمات من كلّ همومي الميتافيزيقيّة، وأحرّر روحي من قلق غير مجدٍ.

ثم أقيم، بدءًا من الآن، احتكاكًا عميقًا ومباشرًا مع البشر.

وقلت في نفسي: «لعلّ الوقت لم يفت بعد».

ـ ٥ ـ

«العم أنانيوستي، المختار السابق، يحيّيكما ويسألكما إذا كان يسرّكما أن تأتيا إلى منزله لتناول الطعام. إنّ البيطري سيمرّ اليوم على القرية ليخصي الخنازير. وستطبخ لكما كيرا ماروليا، زوجة المختار، «الأعضاء». وستمنّيان أيضًا عيدًا سعيدًا لحفيدهما ميناس، فاليوم عيده».

إنّه لمصدر فرح كبير أن تدخل إلى منزل فلّاحين كريتيّين. فكلّ ما يُحيط بك يدلّ على سيطرة الأب: المدفأة، وقنديل الزيت، والدنان المصفوفة على طول الجدار، ومائدة، وبضعة مقاعد، وإلى يسار المدخل، داخل تجويف الجدار، خابية الماء البارد. ومن عوارض المنزل الخشبيّة تتدلّى سبّحات السفرجل، والرمّان والنباتات العطريّة: القويسة والنعناع المفلفل، والعبيثران، والصعتر.

وفي الداخل، أربع أو خمس درجات خشبيّة تؤدّي إلى الدهليز الذي فيه السرير العالي، وفوقه الأيقونات المقدّسة والقنديل المشتعل دومًا. إنّ المنزل يبدو له فارغًا، ومع ذلك ففيه كلّ ما لا بدّ منه، ما دام الإنسان الحقيقي يحتاج إلى قليل من الأشياء.

كان النهار رائعًا، وشمس الخريف كثيرة العذوبة. وجلسنا أمام المنزل، في الحديقة الصغيرة، تحت شجرة زيتون حاملة. وبين الأوراق اللجينيّة، كان البحر يتألّق من بعيد، هادئًا، ساكنًا. وثمّة غيوم متبخّرة تمرّ فوقنا، فتحجب الشمس، ثم تنقشع عنها، وكأنّ الأرض تتنفّس، فرحة تارة، وحزينة أخرى.

وفي آخر الحديقة، داخل زريبة مقفلة، كان الخنزير المخصي يصرخ ألمًا ويصمّ آذاننا. ومن المدفأة، كانت رائحة «الأعضاء» المشويّة فوق الجمر تملأ أنوفنا.

وتحدّثنا عن أشياء خالدة: عن الحبوب، والكروم، والمطر. كنّا مضطرّين لأن نرفع أصواتنا، فالمختار العجوز لا يسمع جيّدًا. إنّه يقول إنّ أذنه متكبّرة جدًّا. ولقد كانت حياة هذا الكريتي العجوز مستقيمة وهادئة كحياة شجرة في وادٍ لا تصله الرياح. لقد وُلد، ثم كبر، ثم تزوّج. وكان له أطفال وأحفاد. كثيرون منهم ماتوا، لكنّ الآخرين لا يزالون أحياء، فالذرّيّة إذن باقية.

وتذكّر الكريتي العجوز الأيّام الماضية، أيّام الترك، وعادت إلى ذهنه كلمات والده، والمعجزات التي كانت تحدث في ذلك الزمان، لأنّ الناس كانوا يخشون الله ويؤمنون.

ـ إليكما، أنا الذي يحدّثكما، أنا العمّ أنانيوستي، لقد وُلدت بمعجزة. نعم بمعجزة. وعندما سأروي لكما كيف، ستدهشان وتقولان: «الرحمة، أيّها الربّ!». وستذهبان إلى دير العذراء لتشعلا لها شمعة. ورسم إشارة الصليب، وبدأ يتحدّث بهدوء تامّ وبصوته العذب:

ـ في تلك الأيّام. كانت في قريتنا امرأة تركيّة غنيّة ـ عليها اللعنة ـ وذات يوم حبلت اللعينة. وجاء ميعاد وضعها. فحُملت إلى الأريكة وراحت تصرخ كالعجل ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ. لكنّ الطفل لم يخرج. وقدّمت لها صديقة ـ عليها اللعنة هي الأخرى! ـ نصيحة: «ظافرة هانم، يجب أن تستدعي لنجدتك الأمّ ميره!». والأمّ ميره هو الاسم الذي يُطلقه الأتراك على العذراء. فصرخت ظافرة الكلبة «أأستدعي هذه؟ هذه؟ أفضّل الموت!» لكنّ الآلام كانت شديدة. وأمضت أيضًا نهارًا وليلة. كانت تصرخ باستمرار، ولا تستطيع الوضع. ما العمل؟ إنّها لم تعد تستطيع تحمّل الآلام. إذ ذاك أخذت تصرخ: «أيّتها الأمّ ميره! أيّتها الأمّ ميره!».

لقد صرخت كثيرًا ما استطاعت، لكنّ الآلام لم تتركها والطفل لا يأتي. فقالت لها عندئذ صديقتها: «إنّها لا تسمعك وهي لا تعرف التركيّة. ناديها باسمها المسيحي»، فصرخت الكلبة عند ذاك: «يا عذراء الروميّين! يا عذراء الروميين!». لكن عبثًا، فالآلام تزداد. فقالت الصديقة من جديد: «إنّك لا تنادينها كما يجب، يا ظافرة هانم، إنّك لا تنادينها كما يجب ولهذا فهي لا تأتي». عندئذ لمّا رأت تلك الكلبة الكافرة الخطر أطلقت صرخة كبيرة: «أيّتها العذراء القدّيسة!» وانساب الطفل دفعة واحدة من بطنها كسمكة حنكليس. «جرى ذلك يوم الأحد، وفي الأحد التالي فاجأت الآلام والدتي بدورها. كانت تتألّم هي أيضًا، المسكينة، كانت تتألّم، وتصرخ والدتي المسكينة، وتهتف: «أيّتها العذراء، القدّيسة! أيّتها العذراء القدّيسة!» لكنّها لم تر الخلاص يأتي مطلقًا. وكان والدي جالسًا على الأرض وسط الباحة، وكان يتألّم كثيرًا حتى إنّه لم يستطع لا الشرب ولا الأكل، ويوجّه اللوم إلى العذراء القدّيسة: «أترون، لقد نادتها تلك الكلبة ظافرة في المرة الماضية، فأسرعت إليها حتى كادت تدقّ عنقها لتخليصها، أمّا الآن...».

وفي اليوم الرابع لم يعد والدي يستطيع التحمّل، فتملّكه غضب شديد. فأخذ عصاه وذهب إلى ديره «العذراء الذبيحة». كانت في عوننا! ووصل، ودخل الكنيسة حتى بدون أن يرسم إشارة الصليب، بسبب غضبه الشديد، وأغلق وراءه الباب بالمزلاج ووقف أمام الأيقونة، وصرخ: «قولي إذن، أيّتها العذراء القدّيسة، إنّ امرأتي كرينيو، أنت تعرفينها، فهي تحمل إليك الزيت مساء كلّ سبت وتشعل قناديلك، إنّ امرأتي كرينيو في آلام المخاض منذ ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ وهي تدعوك، أفلا تسمعينها؟ لا بدّ أنّك قد أصبحت صمّاء حتى لا تسمعيها. بالتأكيد، لو كانت كلبة مثل ظافرة، قاذورة من قاذورات الأتراك، لرأيناك تدقّين عنقك لإنقاذها. لكنّك أصبحت صمّاء بالنسبة إلى امرأتي، المسيحيّة، ولا تسمعينها! حسنًا، لو لم تكوني العذراء القدّيسة، لأدّبتك كما يجب، بهذه الهراوة التي ترينها!».

«ولمّا انتهى من ذلك، أدار ظهره دون أن يسجد، ليخرج. لكنّ الأيقونة أخذت تصرّ في اللحظة نفسها بصوت عالٍ، وكأنّها تذوب. إنّ الأيقونات تصرّ هكذا عندما تصنع المعجزات، اعلم ذلك إذا كنت تجهله. وفهم والدي فورًا، فالتفت وركع على ركبتيه ورسم إشارة الصليب وصرخ: «لقد أخطأت، أيّتها العذراء القدّيسة، افترضي أنّني لم أقل شيئًا ممّا قلته!».

«وما كاد يصل إلى القرية حتى بُشِّر بالنبأ السعيد: «تهانينا، يا كوستاندي، لقد وضعت زوجتك.. إنّه صبي: وكان أنا، أنانيوستي العجوز. لكنّي وُلدت وأذني متكبّرة[1] قليلاً. ولقد جدّف والدي، كما تريان، ونعت العذراء بالصمّاء.

ولا بدّ أنّ العذراء قد قالت: آه! أهكذا إذن؟ حسنًا؟ انتظر قليلاً، سأجعل ابنك أصمّ، وسيعلّمك هذا كيف تجدّف!».

ورسم العمّ أنانيوستي إشارة الصليب وقال:

ـ وهذا ليس بمهمّ، لأنّها كانت تستطيع أن تجعلني أعمى أو أبله، أو أحدب، أو كانت تستطيع ـ ليحفظني الله! ـ أن تجعلني بنتًا. هذا ليس بمهمّ، إنّني أسجد أمام نعمتها!

وملأ الكؤوس وقال وهو يرفع كأسه:

ـ لتكن في عوننا!

ـ في صحّتك، أيّها العمّ أنانيوستي، إنّني أتمنّى لك أن تعيش مئة عام وأن ترى أبناء أحفادك!

وجرع العجوز كأسه دفعة واحدة ومسح شاربه وقال:

ـ كلّا، يا ابني، هذا يكفي. لقد رأيت أحفادي، هذا يكفي! يجب ألّا نطلب كثيرًا. لقد حانت ساعتي. وها أنا الآن عجوز، أيّها الأصدقاء، لم

---

(١) تعبير بالفرنسيّة يقصد به ثقل السمع. «المترجم».

تعد لي قوّة، ولا أستطيع شيئًا، لكن ليست الشهوة هي التي تنقصني، إلّا أنّه لم يعد بإمكاني أن أبذّر الأطفال، إذن فماذا أفعل بالحياة؟

وملأ الكؤوس من جديد، وأخرج من حزامه جوزات وتينات يابسة ملفوفة بورق الغار، وتقاسمها معنا. وقال:

ـ كلّ ما أملكه أعطيته لأولادي. ولقد واجهنا الفاقة، نعم الفاقة، لكنّ هذه آخر همومي. إنّ الله لكبير؟

فهمس زوربا في أذن العجوز:

ـ الله كبير، أيّها العمّ أنانيوستي. الله كبير... لكنّنا نحن صغار!

وقطّب المختار العجوز حاجبيه، وقال بقسوة:

ـ قف، لا تسئ معاملته هكذا، أيّها الصديق. لا تسئ معاملته هكذا! هو أيضًا، يعتمد علينا، المسكين!

وفي تلك اللحظة، جاءت الأمّ أنانيوستي، بصمت وخضوع، في صحن من الخضار «بأعضاء» الخنزير وبدلو كبير من النحاس مملوء بالخمر، ووضعت هذه الأشياء فوق المائدة، وظلّت واقفة، وصلّبت يديها وخفضت عينيها.

وأحسست بالقرف من تذوّق هذه المقبّلات، لكنّني خجلت، من جهة أخرى، من الرفض. ونظر إليّ زوربا من طرف عينه وهو يبتسم بخبث، وقال:

ـ إنّه أطيب لحم، أيّها الرئيس. لا تقرف.

وضحك العجوز أنانيوستي بابتسامة صغيرة.

ـ إنّه ينطق بالحقّ، إنّه ينطق بالحقّ، جرّب تَرَ. إنّه مثل النخاع! عندما مرّ الأمير جورج بالدير، هناك، على الجبل، هيّأ الرهبان وجبة ملكيّة مع اللحم للجميع. ولم يكن للأمير إلّا صحفة حساء. وأخذ الأمير الملعقة وراح يحرّك حساءه. وسأل مدهوشًا: «لوبياء؟ بيضاء؟». فقال له رئيس الدير العجوز «كل يا أميري، كل ثم سنتحدّث عن ذلك فيمًا بعد». وذاق

الأمير ملعقتين، اثنتين، ثلاثًا، وأفرغ صحنه ولعق شفتيه. وقال: «ما هذه الآية؟ ما ألذّ هذه اللوبياء! إنّها أشبه بالنخاع! فقال رئيس الدير: إنّها ليست لوبياء، أيّها الأمير، ليست لوبياء. إنّما خصينا كلّ ديكة الجوار».

وشكّ العجوز بشوكته، وهو يضحك، قطعة من «أعضاء» الخنزير. وقال:

ـ طعام أمراء! افتح فمك.

وفتحت فمي ودسّ فيه القطعة.

وملأ الكؤوس من جديد وشربنا نخب صحّة حفيده. ولمعت عينا الجدّ. وسألته:

ـ ماذا تريد أن يصبح حفيدك، أيّها العمّ أنانيوستي؟ قل لنا حتى نتمنّى له.

ـ ماذا يمكنني أن أريد يا ابني.. حسنًا، ليسر في الطريق الصالح، وليصبح رجلاً شجاعًا، وربّ عائلة صالحًا، وليكن له، هو الآخر، أبناء وأحفاد، وليشبهني أحد أبنائه. كي يقول الشيوخ وهم ينظرون إليه: «انظر، ما أشبهه بالعمّ أنانيوستي! ليرقد بسلام، فقد كان رجلاً شجاعًا..».

وقال دون أن ينظر إلى زوجته:

ـ ماروليا، ماروليا، املئي إبريق الخمر!».

وفي تلك اللحظة انفتح باب الزريبة، بدفعة قويّة، وأسرع الخنزير في الحديقة مدمدمًا. فقال زوربا مشفقًا:

ـ إنّه يتألّم، هذا الحيوان المسكين...

فصرخ العجوز الكريتي ضاحكًا:

ـ بالتأكيد إنّه يتألّم! لو فعلوا بك الشيء نفسه، ألا تتألّم، أنت؟

فنقر زوربا على الخشب وتمتم خائفًا:

ـ ابلع لسانك، أيّها الأصمّ العجوز!

كان الخنزير يذهب ويجيء أمامنا وينظر إلينا غاضبًا. فقال العمّ أنانيوستي، وقد طرب للقليل من الخمر الذي شربه:

ـ وربّي، كأنّه يفهم أنّنا نأكلها له!

لكنّنا رحنا نتابع الأكل، بهدوء، مسرورين، وكأنّنا من أكلة لحوم البشر، ونحن نحتسي النبيذ، وننظر، من خلال أغصان الزيتون الفضّيّة، إلى البحر الذي تورّد لونه ساعة المغيب.

عندما أرخى الليل سدوله، غادرنا منزل مختار القرية السابق، وكان زوربا، وقد انتشى هو أيضًا، يرغب في الكلام، وقال لي:

ـ ما الذي كنّا نقوله أوّل أمس، أيّها الرئيس؟ أنت تريد أن تُنير الشعب، كما قلت، وأن تفتح عيونه! حسنًا، انظر! حاول أن تفتح عيني العمّ أنانيوستي! لقد رأيت كيف كانت امرأته تقف أمامه، منتظرة الأوامر، ككلب مطيع؟ اذهب الآن وعلّمهم أنّها لوحشيّة أن نجلس هناك ونحن نأكل قطعة من لحم الخنزير وهو يئنّ أمامنا من الألم الشديد، أو أنّ للمرأة حقوق الرجل نفسها. ما الذي سيفقده هذا الإبليس المسكين، العمّ أنانيوستي، من كلّ هذه الترّهات البيانيّة؟ إنّك لن تفعل أكثر من أن تسبّب له الإزعاج. وما الذي ستفيده الأمّ أنانيوستي؟ ستبدأ الخصومات، فالدجاجة تريد أن تصبح ديكًا، ولن يبقى في المنزل إلّا مناقير تتشابك... دع الناس مطمئنّين، أيّها الرئيس، لا تفتح أعينهم. إذا فتحت أعينهم، فما الذي سيرون؟ بؤسهم! دعهم إذن مستمرّين في أحلامهم!

وصمت لحظة، وحكّ رأسه. كان يفكّر. وأخيرًا قال:

ـ إلّا، إلّا إذا...

ـ ماذا؟ دعنا نَرَ قليلاً.

ـ إلّا إذا كان لديك، عندما يفتحون أعينهم، عالم أفضل من عالم الظلمات الذي يعيشون فيه الآن. ألديك هذا العالم؟

لم أكن أعرف. كنت أعلم جيّدًا ما سيتهدّم، لكنّني لا أعرف ما الذي

سيُبنى فوق الأنقاض. وفكّرت في أنّ ما من شخص يستطيع معرفة ذلك، بشكل يقيني. إنّ العالم القديم متين، ملموس، ونحن نعيشه ونناضل معه كلّ لحظة، إنّه موجود. وعالم المستقبل لم يولد بعد، وهو غير قابل للّمس، مائع، مصنوع من النور الذي نسجت منه الأحلام، إنّه غيمة تتقاذفها رياح عنيفة: الحبّ والحقد والخيال والصدفة والله. . . . إنّ أكبر نبي لا يمكنه أن يعطي للبشر إلّا كلمة أمر، وكلّما كانت كلمة الأمر هذه غير دقيقة، كان النبي أعظم.

وأجبت غاضبًا:

ـ لديّ هذا العالم.

ـ ألديك؟ دعنا نرَ!

ـ لا أستطيع أن أقول لك، فلن تفهم.

فقال زوربا وهو يهزّ رأسه:

ـ إيه! هذا يعني أنّه ليس لديك! لا تتصوّر أنّني أبله أيّها الرئيس. وإذا قيل لك ذلك، فهم قد خدعوك. إنّني جاهل كالعمّ أنانيوستي، لكنّني لست أبله مثله، آه! كلّا! إذن ما دمت أنا لن أفهم، فكيف تريد أن يفهموا، هم، أن يفهم ذلك الساذج نصف الأحمق، وكلّ أنانيوستي في العالم؟ إنّها إذن ظلمات جديدة تلك التي سيرونها؟ إذن دع لهم الظلمات القديمة، فهم قد اعتادوا عليها. لقد عرفوا كيف يتدبّرون أمرهم حتى الآن، ألا تعتقد ذلك؟ إنّهم يعيشون ويعيشون جيّدًا، وينجبون الأطفال والأحفاد أيضًا. وحتى لو جعلهم الله صمًّا، عميًا، فإنّهم سيهتفون «ليتمجّد الله!». إنّهم مرتاحون في بؤسهم. إذن دعهم والزم الصمت.

ولزمت الصمت. ومررنا أمام حديقة الأرملة. فتوقّف زوربا لحظة، وتنهّد دون أن يقول شيئًا. ولا بدّ أنّها أمطرت في مكان ما. كان الجوّ يعبق برائحة الأرض، المليئة بالرطوبة. وظهرت النجوم الأولى. ولمع القمر الجديد، حنونًا، بلونه الأصفر ـ الأخضر، وطفحت السماء بالعذوبة.

وفكّرت في نفسي: «إنّ هذا الرجل لم يذهب إلى المدرسة، ولم يتبلبل عقله. لقد رأى من جميع الألوان، وانفتحت نفسه، واتّسع قلبه، دون أن يفقد شجاعته البدائيّة. إنّ جميع المشاكل المعقّدة، التي تبدو لنا بلا حلّ، يحسمها، هو، بضربة واحدة من السيف، مثل مواطنه إسكندر الكبير. إنّ من العسير عليه أن يسقط على جانبه، لأنّه يستند بأجمعه، من القدمين إلى الرأس، إلى الأرض. إنّ متوحّشي أفريقيا يعبدون الثعبان لأنّه يلمس الأرض بكلّ جسده فيعرف جميع أسرار العالم. إنّه يعرفها ببطنه، بذنبه، برأسه. إنّه يلمسها، يتّحد بها، يشكّل كلًّا واحدًا مع الأمّ. وهكذا كان زوربا. أمّا نحن، المثقّفين، فإنّنا لسنا إلّا طيورًا طائشة في الفضاء».

وتكاثرت النجوم، متوحّشة، مزدرية، قاسية، غير مشفقة على البشر.

ولم نكن لنفوه بحرف. كنّا ننظر إلى السماء بخوف، ونرى في كلّ لحظة نجومًا أخرى تشتعل في الشرق، والحريق يمتدّ.

ووصلنا إلى الكوخ. لم تكن لي أيّة رغبة في الأكل وجلست على صخرة قرب البحر. وأشعل زوربا النار، وأكل، وهمّ بالمجيء نحوي، لكنّه بدّل رأيه، واستلقى على الفراش ونام.

كان البحر ساكنًا، والصمت مخيّمًا فوق الأرض الراقدة تحت ألق النجوم. لم يكن ثمّة كلب ينبح، ولا طائر ليلي يشكو. صمت شامل، خفي، خطر، مصنوع من آلاف الصرخات، الشديدة البعد، أو العمق، الكامنة فينا إلى حدّ أنّنا لا نسمعها. كنت أحسّ فقط بهدير دمي وهو يضرب صدغي وأوردة عنقي.

وقلت في نفسي وأنا أرتعد «إنّها ترنيمة النمر!.. في الهند، عندما يرخي الليل سدوله، يغنّون بصوت منخفض لحنًا مؤلمًا ورتيبًا، أغنية وحشيّة وبطيئة وكأنّها تثاؤب بعيد لحيوان مفترس: ترنيمة النمر. ويطفح قلب الإنسان بانتظار راجف».

وبينما أنا أفكّر بالترنيمة المرعبة، امتلأ فراغ صدري شيئًا فشيئًا.

واستيقظت أذناي، وأصبح الصمت صراخًا. وكأنّ الروح، المصنوعة هي أيضًا من الترنيمة نفسها، تفلت خارج الجسد لتصغي.

وانحنيت، وملأت راحة يدي بماء البحر، وبلّلت جبيني وصدغيّ. وأحسست بالرطوبة تدبّ فيّ من جديد. وفي أعماقي، ثمّة صرخات تهدر، مهدّدة، مختلطة، عديمة الصبر: إنّ النمر في داخلي يزأر.

وفجأة سمعت الصوت بوضوح:

ـ بوذا! بوذا!

صرخت وأنا أنهض دفعة واحدة.

وأخذت أمشي بسرعة كبيرة، بمحاذاة الماء، وكأنّني أريد الهرب. منذ فترة، عندما أكون بمفردي ليلاً، والصمت سائد، أسمع صوته، حزينًا في البدء، متضرّعًا وكأنّه يندب، ثم يغضب شيئًا فشيئًا، ويوبّخ، ويأمر. ويضربني في صدري وكأنّه جنين حان أوانه.

لا بدّ أنّ الوقت منتصف الليل. ثمّة غيوم سوداء قد تجمّعت في السماء. وقطرات ضخمة تسقط على يديّ. ولكنّني لم أعرها انتباهًا. كنت غارقًا في جوّ محموم، وأشعر، من اليمين واليسار، على صدغيّ، بخصلتين من نار.

وقلت في نفسي وأنا أرتعد: لقد حان الوقت، إنّ الدولاب البوذي ليشدّني، لقد حان الوقت لأتحرّر من الحمل الرائع.

وعدت بسرعة إلى الكوخ وأشعلت القنديل. وحرّك زوربا جفنيه، حين سقط عليه النور، وفتح عينيه ونظر إليّ وأنا أنحني على الورق وأكتب. وتمتم بشيء ما لم أسمعه، واستدار فجأة نحو الجدار، وغرق في النور من جديد.

كنت أكتب بسرعة كبيرة. كنت مستعجلاً. «بوذا» كلّه كان فيّ، وكنت أراه يتدحرج خارج نفسي وكأنّه شريط حريري أزرق مليء بالإشارات، كان يتدحرج بسرعة وأنا أسرع للّحاق به. وأكتب. لقد أصبح كلّ شيء سهلاً،

بسيطًا جدًا. لم أكن أكتب، بل أنسخ. ثمّة عالم كامل يتبدّى لي، مصنوع من الشفقة، من الرفض، من الهواء: قصور بوذا، ونساء الحريم، والعربة الذهبيّة، واللقاءات الثلاثة المشؤومة بين العجوز والمريض والموت، والهرب، والتصوّف، والخلاص، وإعلان النجاة. وامتلأت الأرض بالأزهار الصفراء، وارتدى المتسوّلون والملوك أثوابًا صفراء، وخفّ ثقل الأحجار، والغابات، والأجساد. وأصبحت النفوس هواء، أصبحت روحًا، والروح تتبدّد. وتعبت أصابعي، لكنّني لم أكن أريد، لم أكن أستطيع التوقّف، كانت الرؤية تمرّ، سريعة، وتهرب، وعليّ أن أمسك بها.

وعند الصباح، وجدني زوربا نائمًا، ورأسي فوق المخطوط.

ـ ٦ ـ

كانت الشمس على ارتفاع اثنتي عشرة قدمًا عندما استيقظت. كانت يدي اليمنى قد خدرت بسبب الكتابة، ولم أعد أستطيع ضمّ أصابعي. لقد مرّت العاصفة البوذيّة فوقي، وتركتني متعبًا فارغًا.

وانحنيت لأجمع الأوراق المبعثرة على الأرض. لم تكن لي الرغبة ولا القوّة للنظر إليها. وكأنّ كلّ ذلك الإلهام الآسر لم يكن إلّا حلمًا لا أريد أن أراه سجين الكلمات، ذليلاً لها.

كانت تمطر في ذلك اليوم، بلا صوت، برخاوة. وقبل أن يذهب زوربا أشعل الموقد، ولبثت طيلة اليوم جالسًا، مثنيّ الساقين، ويداي ممدودتان فوق النار، دون أن آكل، ساكنًا، أصغي إلى المطر الأوّل وهو يسقط بهدوء. لم أكن أفكّر بشيء. وراح عقلي الذي تقوقع كخلد في أرض رطبة، يستريح. كنت أسمع حركات الأرض الخفيفة، وضوضاءها وقرقعتها، والمطر الذي يسقط والحبوب التي تنضج. وأحسست بالسماء والأرض تمتزجان كما كانتا في العصور البدائيّة تتّحدان كرجل وامرأة وتلدان الأطفال. وأمامي، على طول الشاطئ كنت أسمع البحر يهدر وأمواجه تتطاول كأنّه حيوان مفترس يمدّ لسانه ليشرب.

إنّني سعيد، أنا أعرف ذلك. عندما نعيش سعادة ما، فنادرًا ما نحسّ بذلك. وإنّما عندما نمضي وننظر إلى الوراء، نحسّ فجأة ـ وأحيانًا بدهشة ـ كم كنّا سعداء. أمّا أنا، فوق هذا الساحل الكريتي، فأعيش السعادة وأعلم أنّني سعيد.

البحر الأزرق القاتم، الواسع، يمتدّ حتى الشواطئ الأفريقيّة. وغالبًا ما تهبّ ريح جنوبيّة حادّة جدًّا، «الليفاس»، تأتي من الرمال البعيدة الحارّة. وعند الصباح يعبق البحر كالبطّيخ الأحمر، وفي الظهيرة يتبخّر ساكنًا، مع تموّجات خفيفة كأثداء لمّا تتكوّر تمامًا. وعند المساء، يتنهّد، ولونه بلون الورد، والخمر، والباذنجان، والزرقة القاتمة.

وألهو، بعد الظهر، بملء يدي بالرمل الناعم الأشقر، ثم أحسّ به وهو ينساب ويفلت، حارًّا رخوًا، من بين أصابعي. إنّ اليد ساعة رمليّة تفلت الحياة منها وتضيع. تضيع وأنا أنظر إلى البحر، وأسمع زوربا، وأحسّ بصدغيّ ينبضان من السعادة.

إنّني أذكر، ذات يوم، أنّ ابنة أخي الصغيرة ألكا، وهي لم تتجاوز الرابعة، قد استدارت نحوي، ونحن ننظر، عشيّة رأس السنة، إلى واجهة مليئة باللعب، وقالت لي هذه الجملة المدهشة: «يا عمّي الغول، إنّني مسرورة جدًّا لأنّه نبتت لي قرون!». وشدهت. يا للحياة من معجزة، وكيف تلتقي جميع النفوس وتمتزج عندما تمدّ جذورها عميقة جدًّا! لأنّني سرعان ما تذكّرت رأسًا لبوذا منحوتًا من الأبنوس، رأيته في متحف بعيد. لقد تحرّر بوذا وغمره الفرح الأعظم، بعد نزع دام سبع سنين. ولقد انتفخت أوردة جبينه، من اليمين واليسار، إلى حدّ أنّها نبقت خارج الجلد واستحالت إلى قرنين قويّين ملتويين وكأنّهما نابضان من الفولاذ.

وبعد العصر انقطع المطر الخفيف، وعادت السماء صافية. كنت جائعًا، ومسرورًا لأنّني جائع، فسوف يأتي زوربا الآن، ويشعل النار، ويبدأ بحفلة المطبخ اليوميّة.

كان زوربا يقول غالب الأحيان وهو يضع القدر فوق النار:

ـ وهذه هي قصّة أخرى بلا نهاية! ليست المرأة ـ عليها اللعنة! ـ هي وحدها قصّة بلا نهاية، بل هناك أيضًا الطعام.

ولأوّل مرّة، أحسست فوق هذا الساحل بعذوبة الطعام. كان زوربا،

عند المساء، يشعل النار بين حجرين ويعدّ الطعام، ثم نبدأ بالأكل والشرب، ويحتدّ الحديث، وأخيرًا فهمت أنّ الأكل أيضًا عمليّة روحيّة، وأنّ اللحم، والخبز، والخمر، هي الموادّ الأوّليّة التي تُصنع منها الروح.

وعند المساء، قبل الطعام والشراب، يكون زوربا، بعد تعب العمل، قد فقد كلّ بشاشته، فعباراته ثقيلة، لا يتكلّم إلّا إذا انتزعت منه الكلمات انتزاعًا. لكن ما إن يلقي، كما يقول، بالفحم إلى الآلة، حتى ينتعش كلّ مصنع جسده الخامد المتعب، ويندفع، ويبدأ بالعمل، وتشتعل عيناه، وتطفح ذاكرته، وتنبت له أجنحة في قدميه، ويرقص.

ـ قل لي ماذا تفعل بما تأكله فأقول لك من أنت. هناك من يحوّلون هذا إلى شحم وإلى قذارات، وآخرون إلى عمل وإلى مزاج طيّب، وغيرهم إلى إله، كما سمعتهم يقولون. إذن فهناك ثلاثة أنواع من البشر. أمّا أنا فلست من أشرارهم، ولا من أخيارهم. إنّني أضع نفسي بين النوعين. وما آكله أحوّله إلى عمل وإلى مزاج طيّب. هذا ليس سيّئًا جدًّا!

ونظر إليّ بخبث وأخذ يضحك. ثم قال:

ـ أمّا أنت، أيّها الرئيس، فإنّني أعتقد أنّك تحاول أن تحوّل ما تأكله إلى إله. لكنّك لا تستطيع ذلك وتعذّب نفسك. لقد حدث لك ما حدث للغراب.

ـ ما الذي حدث للغراب، يا زوربا؟

ـ كان يمشي، كما تعلم، بشكل محترم، مناسب، مثل غراب حقًّا. لكنّه رغب ذات يوم في أن يمشي متبخترًا كالحجل. ومنذ ذلك الحين، نسي المسكين حتى مشيته الخاصّة، ولم يعد يعرف ماذا يفعل، وأخذ يعرج.

* * *

رفعت رأسي. وسمعت وقع خطى زوربا وهو يصعد من النفق. وبعد قليل رأيته يقترب، متطاول الوجه، عابسًا، وذراعاه الطويلتان تتأرجحان،

مخلّعتين. وقال بطرف شفتيه:

ـ مساء الخير، أيّها الرئيس!

ـ مرحبًا، أيّها العجوز، كيف سار العمل اليوم؟

لم يجب. ثم قال:

ـ سأشعل النار وأعدّ الطعام.

وأخذ قبضة من الأغصان من الزاوية، وخرج، ووضع حزمة الأغصان بحذق بين الحجرين وأشعل النار. ووضع قدر الفخّار، وصبّ ماء فيها، مع البصل والبندورة والأرزّ وبدأ الطبخ. وأثناء ذلك، كنت أضع أدوات المائدة على الطاولة المستديرة الواطئة، وأقطع قطعًا سميكة من خبز القمح، وأصبّ الخمر من الدنّ في القرعة المزيّنة بالرسوم التي أهدانا إيّاها العمّ أنانيوستي في الأيّام الأولى.

كان زوربا راكعًا على ركبتيه أمام القدر، ينظر إلى النار، بعينيه الواسعتين، صامتًا. وفجأة سألته:

ـ ألك أولاد، زوربا؟

فالتفت إليّ:

ـ لِمَ تسأل عن هذا؟ لي بنت.

ـ متزوّجة؟

وأخذ زوربا يضحك.

ـ لِمَ تضحك، زوربا؟

فقال:

ـ هذا لا يُسأل. بالتأكيد، متزوّجة، إنّها ليست حمقاء. كنت أعمل في منجم للنحاس، في «برافيتسا» بمقاطعة «شالسيديك». وذات يوم تلقّيت رسالة من أخي «ياني». هذا صحيح، لقد نسيت أن أقول لك إنّ لي أخًا، إنّه رجل خبيء النفس، عاقل، متديّن، مرابٍ، مراءٍ، رجل كما يجب، من

أعمدة المجتمع. إنّه عطّار في «سالونيك». لقد كتب لي: «ألكسيس أخي، لقد سارت ابنتك «فروسو» في طريق السوء، وجلبت العار لاسمنا. إنّ لها عشيقًا، وقد ولدت منه، ممّا نال من سمعتنا. سأذهب إلى القرية لأذبحها».

ـ وأنت، ماذا فعلت يا زوربا؟

فهزّ زوربا كتفيه:

ـ «أفّ! يا للنساء!» قلت، ومزّقت الرسالة.

وحرّك الأرزّ، ووضع ملحًا، وضحك.

ـ لكن انتظر، سترى ما هو أغرب من ذلك. بعد شهرين تلقّيت من أخي الأحمق رسالة ثانية، يقول فيها: «لتعش في صحّة وسرور. لقد عاد الشرف إلى مكانه، وتستطيع الآن أن ترفع جبهتك عاليًا، لقد تزوّج الرجل المذكور فروسو!».

والتفت زوربا إليّ. وعلى بصيص سيجارته الهزيل رأيت عينيه تقدحان بالشرر. وهزّ كتفيه ثانية، وقال باحتقار لا يمكن وصفه:

ـ أفّ للرجال!

وبعد قليل أضاف:

ـ ما الذي يمكننا أن ننتظره من النساء؟ أن يلدن الأطفال من أوّل قادم. ما الذي يمكننا أن ننتظره من الرجال؟ أن يقعوا في الفخّ. احفظ ذلك، أيّها الرئيس!

ورفع القدر من فوق النار وأخذنا نأكل.

وغرق زوربا من جديد في تأمّلاته. ثمّة همّ يقلقه. كان ينظر إليّ، ويفتح فمه، ثم يغلقه. وعلى ضوء مصباح الزيت، كنت أرى بوضوح عينيه المكدودتين القلقتين.

ولم أعد أستطيع صبرًا، فقلت:

ـ زوربا، لديك شيء تريد أن تقوله لي، قله. إنّ معدتك تؤلمك، فارقد!

ولم يتكلّم زوربا. بل تناول حجرًا صغيرًا وألقاه بقوّة من الباب المفتوح.

ـ دع الحجارة، تكلّم!

فمدّ زوربا عنقه المتغضّن، وسألني قلقًا، وهو يحدّق في عينيّ:

ـ أتثق فيّ، أيّها الرئيس؟

فأجبت:

ـ نعم، زوربا. مهما فعلت، فإنّك لا تستطيع أن تخطئ. حتى لو أردت، فإنّك لن تستطيع. أنت كأسد، أو بالأحرى، كذئب. إنّ هذه الحيوانات لا تتصرّف مطلقًا كخرافٍ أو حمير، إنّها لا تبتعد مطلقًا عن طرق طبيعتها. أنت أيضًا، إنّك زوربا حتى منتهى أظافرك. فهزّ زوربا رأسه، وقال:

ـ لكنّني لم أعد أعرف إلى أين أسير!

ـ أنا أعرف، لا تهتمّ بذلك. سرْ إلى الأمام!

فصرخ:

ـ قل ذلك ثانية، أيّها الرئيس، حتى أتشجّع!

ـ سرْ إلى الأمام!

ولمعت عينا زوربا شررًا، وقال:

ـ الآن أستطيع أن أحدّثك. منذ أيّام وفي رأسي مشروع كبير، فكرة مجنونة. فهل نحققها؟

ـ وتسأل عن ذلك؟ لكن إنّما لهذا جئنا إلى هنا: لنحقّق أفكارًا معيّنة.

ومدّ زوربا عنقه، ونظر إليّ بفرح وخوف، وهتف:

ـ تكلّم بوضوح، أيّها الرئيس! ألم نأت إلى هنا من أجل الفحم؟

ـ إنّ الفحم ليس إلّا ذريعة، كي لا يتدخّل الناس في شؤوننا. كي يظنّوا أنّنا مقاولون عاقلون، فلا يضربونا بالبندورة. أتفهم، زوربا؟

وظلّ زوربا فاغر الفم. إنّه يستبسل كي يفهم، لكنّه لا يستطيع أن يؤمن بهذا القدر الكبير من السعادة. وفجأة فهم. وأسرع إليّ، وأخذني من كتفيّ وسألني بحماسة:

ـ أترقص؟ أترقص؟

ـ كلّا.

ـ كلّا؟

وأسبل ذراعيه، مذهولاً، ثم قال بعد لحظة:

ـ حسنًا. إذن فسأرقص أنا أيّها الرئيس. اجلس بعيدًا حتى لا أصدمك؟ هاي! هاي!

وقفز، ووثب خارج الكوخ، ورمى حذاءيه، ورداءه، وصدريّته، ورفع سراويله حتى ركبتيه، وأخذ يرقص. كان وجهه الذي لا يزال ملوّثًا بالفحم، أسود تمامًا، وعيناه البيضاوان تلمعان.

وغرق في الرقص، وهو يضرب بيديه، ويقفز، ويدور في الهواء، ويسقط على ركبتيه المثنيّتين، ثم يقفز من جديد مثنيّ الساقين، وكأنّه من مطّاط. وفجأة، وثب عاليًا جدًّا وكأنّه يريد أن يقهر قوانين الطبيعة الكبرى ويطير. إنّك لتحسّ في هذا الجسم الرميم بالروح وهي تناضل لتجذب الجسد وتلقي بنفسها معه، في الظلمات، ككوكب سماوي. إنّها تدفع الجسد الذي يعود للسقوط، إذ لا يستطيع الثبات في الجوّ طويلاً، وتدفعه من جديد، بلا شفقة، أعلى قليلاً هذه المرّة، لكنّ المسكين يعود للسقوط، لاهثًا.

وقطّب زوربا حاجبيه، وبدا وجهه جدّيًّا قلقًا. إنّه لم يعد يصرخ. بل يحاول، بفكّيه المشدودين، أن يبلغ المستحيل. وصرخت:

ـ زوربا! زوربا! هذا يكفي!

لقد خشيت ألّا يستطيع الجسد العجوز مقاومة هذا القدر الكبير من الجهد، فيتناثر فجأة في كلّ اتّجاه، ألف قطعة.

كنت أستطيع أن أصرخ كثيرًا. لكن كيف تريدون أن يسمع زوربا صراخ الأرض؟ لقد أصبحت أحشاؤه كأحشاء الطيور.

ورحت أتتبّع بقلق خفيف الرقصة الوحشيّة البائسة. عندما كنت طفلاً، كانت مخيّلتي تعمل دون توقّف، وأروي لأصدقائي أكاذيب ضخمة أؤمن بها أنا أيضًا.

سألني، ذات يوم، رفاقي الصغار في المدرسة الابتدائيّة: «كيف مات جدّك؟».

ورحت فورًا أختلق أسطورة، وكنت بمقدار ما أستمرّ في اختلاقها، أزداد إيمانًا بها:

«كان جدّي يحتذي حذاءين من المطّاط. وذات يوم، عندما ابيضّت لحيته، قفز من سطح بيتنا. لكنّه ما إن لمس الأرض حتى قفز من جديد ككرة، وارتفع أعلى من البيت، أعلى باستمرار، وأعلى، حتى اختفى بين الغيوم ـ هكذا مات جدّي».

ومنذ اليوم الذي اختلقت فيه هذه الأسطورة، وفي كلّ مرّة أذهب فيها إلى كنيسة سان مينا الصغيرة وأرى، في أسفل الهيكل، صورة صعود المسيح، أمدّ يدي وأقول لرفاقي:

ـ انظروا، هو ذا جدّي بحذاءيه المطّاطيّين.

وفي هذا المساء، بعد العديد من السنين، عشت من جديد، وأنا أرى زوربا يقفز في الفضاء، تلك الحكاية الصبيانيّة، بخوف، وكأنّني أخشى أن أرى زوربا يختفي بين الغيوم. وصرخت:

ـ زوربا! زوربا! هذا يكفي!

لقد جلس الآن زوربا على الأرض لاهثًا. كان وجهه يتألّق، سعيدًا، وشعره الرمادي قد التصق بجبينه، والعرق ينسال من خدّيه وذقنه، ممزوجًا بالغبار.

وانحنيت فوقه قلقًا. وبعد لحظة قال:

ـ لقد أعاد هذا الهدوء إلى نفسي. كأنّني فُصدت. والآن أستطيع أن أتحدّث.

ودخل إلى الكوخ، وجلس أمام الموقد، ونظر إليّ، مشعّ الوجه.

ـ ما الذي جعلك ترقص؟

ـ ما الذي تريد أن أعمله، أيّها الرئيس؟ كان الفرح يخنقني، وعليّ أن أروِّح عن نفسي. وكيف أروِّح عن نفسي؟ بالكلمات؟ بفّ!

ـ أيّ فرح؟

وأظلم وجهه. وأخذت شفته ترجف.

ـ أيّ فرح؟ إذن فكلّ ما قلته قد قلته هكذا، هباء، دون أن تفهمه أنت نفسك؟ لقد قلت إنّنا لم نأتِ إلى هنا من أجل الفحم. لقد قلت ذلك هكذا. لقد جئنا لنمضي الوقت. نذرّ الرماد في عيون الناس، كي لا يظنّونا مجانين ويرمونا بالبندورة! لكنّنا عندما نكون بمفردنا لا يرانا أيّ إنسان، ننفجر ضاحكين! هذا، بشرفي، ما أريده أنا أيضًا، لكنّني لم أكن أفهم ذلك جيّد الفهم. أحيانًا أفكّر بالفحم، وأحيانًا بالأمّ بوبولينا، وأحيانًا بك... خليط عجيب. وعندما أشقّ نفقًا، أقول: «إنّ الفحم هو ما أريد!». ومن أخمص قدمي إلى رأسي، أصبح فحمًا. لكن بعد ذلك، عندما ينتهي العمل، وأداعب تلك الخنزيرة العجوز، أرمي بكلّ اللينيت وبجميع أرباب العمل خارجًا، ومعهم زوربا، من أجل شريط عنقها الصغير. وأفقد صوابي. وأخيرًا، عندما أصبح بمفردي ولا يبقى لديّ ما أعمله، أفكّر بك، أيّها الرئيس، ويذوب قلبي. لقد كان ذلك يثقل على نفسي، وأصرخ: «هذا عار، يا زوربا، عار أن تخدع ذلك الرجل الطيّب، وتبلع فلوسه. إلى متى تظلّ نذلاً؟ ألم تكتفِ!».

إنّني أقول لك، أيّها الرئيس، لقد فقدت صوابي. إنّ الشيطان يجذبني من ناحية، والرحمن من ناحية، وهكذا أتمزّق بين الاثنين. ثم تحدّثت، أيّها الرئيس، جيّدًا، واتّضح لي كلّ شيء. لقد فهمت! واتّفقنا. والآن نضع

النار في البارود! كم بقي لديك من المال؟ ائت بالكلّ، فإنّنا مستهلكوه!

وجفّف زوربا عرقه وبحث حوله. كانت بقايا عشائنا متناثرة على المائدة الصغيرة. ومدّ ذراعه الكبيرة، وقال:

ـ بإذنك، أيّها الرئيس، فأنا لا أزال جائعًا.

وتناول قطعة خبز، وبصلة، وقبضة من الزيتون.

وأخذ يأكل بشراهة، ويرفع إلى فمه، دون أن يمسّ شفتيه، القرعة ويبقبق الخمر. ثم يصفق بلسانه، مغتبطًا. وقال:

ـ إنّني أحسّ بالغمّ قد انفرج عنّي.

وغمزني بعينه، وسألني:

ـ لماذا لا تضحك، أيّها الرئيس؟ لماذا تنظر إليّ؟ إنّني هكذا. في داخلي شيطان يصرخ، وأنا أفعل ما يقوله لي. وفي كلّ مرّة أكون فيها على وشك الاختناق، يصرخ: «ارقص!! وارقص». ويُعيد هذا الهدوء إلى نفسي! ذات مرّة، عندما مات صغيري ديمتراكي، في شالسيديك، وقفت هكذا ورقصت. وأسرع الأقارب والأصدقاء الذين كانوا يتطلّعون إليّ وأنا أرقص أمام الجثّة، ليوقفوني، وأخذوا يصرخون: «لقد جُنّ زوربا! جُنَّ زوربا!». لكنّني أنا، في تلك اللحظة، لو لم أرقص لجننت من الألم. ذلك لأنّه كان ابني البكر وقد بلغ الثالثة من العمر ولا أستطيع تحمّل فقده. أتفهم ما أقوله، أيّها الرئيس، أم أنّني أتكلّم مع الحيطان؟

ـ إنّني أفهم، زوربا، إنّني أفهم، إنّك لا تتكلّم مع الحيطان.

ـ ومرّة أخرى.. كنت في روسيا، بالقرب من نوفوروسيسك لأنّني ذهبت إلى هناك أيضًا، من أجل المناجم، كالمعتاد. مناجم نحاس، في تلك المرّة.

تعلّمت خمس أو ستّ كلمات روسيّة، أي ما يكفي بالضبط لشغلي: «كلّا، نعم، خبز، ماء، أحبّك، تعال، كم؟». وارتبطت برباط الصداقة مع روسي. بولشفي متحمّس. كنّا نذهب، كلّ مساء، إلى حانة المرفأ. وذات

مرّة جرعنا عددًا لا بأس به من زجاجات الفودكا، وانتشينا. وما إن بدأنا نسكر، حتى انفتح قلبانا. هو يريد أن يروي لي كلّ ما جرى له أثناء الثورة الروسيّة، وأنا أريد أن أطلعه على وقائعي وحركاتي. لقد سكرنا معًا، كما ترى، وأصبحنا أخوين. واستطعنا أن نتّفق بالحركات. كان هو الذي يتكلّم أوّلاً. وعندما أعجز عن الفهم، أصرخ به: قف! فيقوم عندئذ ليرقص. أتفهم أيّها الرئيس؟ ليرقص ما يريد أن يقوله لي. وكذلك كنت أفعل. كلّ ما لم نستطع أن نقوله بفمنا، قلناه بأرجلنا، بأيدينا، ببطننا أو بصرخات وحشيّة: هاي! هاي! هوب لا. هو هي.

وبدأ الروسي يتحدّث: كيف حملوا البنادق، كيف اندلعت الحرب، كيف وصلوا إلى نوفوروسيسك. وحين أعجز عن فهم ما يقوله لي، أرفع يدي وأصرخ: قف! وسرعان ما يندفع الروسي. وهيّا! ويأخذ بالرقص! كان يرقص كمن أصابه مسّ. وأنظر أنا إلى يديه، وقدميه، وصدره، وعينيه، وأفهم كلّ شيء: كيف دخلوا إلى نوفوروسيسك وقتلوا سادتهم، وكيف نهبوا المخازن، وكيف دخلوا إلى البيوت وخطفوا النساء. في البدء، رحن يبكين، العاهرات، ويخدشن وجوههنّ ووجوه الرجال، لكن رويدًا رويدًا، تضاءلت مقاومتهنّ، وأغلقن عيونهنّ، ورحن يصرخن من اللذّة. نساء، وأيّ نساء...

وفيما بعد، جاء دوري. ومنذ الكلمات الأولى، ولعلّ ذلك لأنّه كان أصمّ قليلاً، ولأنّ عقله لا يعمل جيّدًا، صرخ الروسي: قف! ولم أكن أنتظر غير ذلك. واندفعت، وأزحت الكراسي والطاولات، ورحت أرقص. آه! يا شيخي المسكين! لقد سقط البشر سافلاً جدًّا، يا للعار! لقد جعلوا أجسادهم خرساء ولم يعودوا يتحدّثون إلّا بالفم. لكن ماذا تريد أن يقول الفم؟ ما الذي يمكنه أن يقوله؟ لو استطعت أن ترى كيف كان الروسي يصغي إليّ، من رأسه إلى قدميه، وكيف كان يفهم كلّ شيء! ووصفت له، وأنا أرقص، مصائبي، وأسفاري، وكم مرّة تزوّجت، والمهن التي تعلّمتها:

قالع حجارة، عامل مناجم، بائع متجوّل، فخّاريّ، جندي غير نظامي، عازف سانتوري، بائع بزر اليقطين، حدّاد، وقاطع طريق: وكيف أدخلوني السجن، وكيف هربت، وكيف جئت إلى روسيا...

كلّ شيء، كان يفهم كلّ شيء، على الرّغم من صممه. كانت قدماي ويداي تتحدّث. وكذلك شعري وثيابي. وسكّين معلّقة بحزامي، كانت تتحدّث هي أيضًا. وعندما انتهيت، شدّني، الأحمق الكبير، بين ذراعيه، وقبّلني، وملأنا كؤوس الفودكا من جديد، وبكينا وضحكنا، ونحن متعانقان. وعند الفجر كنّا نفترق ونذهب لننام ونحن نترنّح. وعند المساء نعود للتلاقي. أتضحك، ألا تصدّقني، أيّها الرئيس، إنّك تقول في نفسك: ما هذه الخزعبلات التي يرويها لنا هذا السندباد البحري؟ أمن الممكن أن يتحدّث الإنسان بالرقص؟ ومع ذلك فلأذهب إلى النار، إذا لم يكن هذا ما يجب أن تتحدّث به الآلهة والأبالسة.

لكنّني أرى أنّ النعاس يداعب أجفانك. هيّا اذهب لتنام، وغدًا نعود للحديث. لديّ مشروع، مشروع عظيم، غدًا سأحدّثك عنه. سأدخّن سيجارة، بل لعلّي سأغطس على رأسي في البحر، إنّني أشتعل، يجب أن أطفئ نفسي. ليلة سعيدة!

وتأخّرت في النوم. وفكّرت في نفسي: لقد ضاعت حياتي. لو أستطيع أن آخذ إسفنجة وأمحو كلّ ما تعلّمته، كلّ ما رأيته وسمعته، ثم أدخل إلى مدرسة زوربا وأبدأ بالأبجديّة الكبيرة، الحقيقة! كم ستكون الطريق التي سأسلكها مختلفة! سأدرّب حواسّي الخمس، جلدي كلّه، كي يتمتّع ويفهم. سأتعلّم الرقص، والقتال، والسباحة، وركوب الخيل، والتجديف، وسواقة السيّارة، وإطلاق البندقيّة. سأملأ روحي بالجسد. وأملأ جسدي بالروح. سأوفّق أخيرًا، في نفسي، بين هذين العدوّين الأبديّين...

كنت أفكّر، وأنا جالس على فراشي، بحياتي التي تذهب هباء. ومن الباب المفتوح، كنت أميّز بلا وضوح، على ضوء النجوم، زوربا وهو

جالس على صخرة كطائر ليلي. إنّني أحسده. أقول في نفسي: إنّه هو الذي وجد الحقيقة، وتلك هي الطريقة المستقيمة!

إنّ زوربا، لو عاش في عصور أخرى بدائيّة وخلّاقة، لكان رئيس قبيلة، ولمشى في المقدّمة، يشقّ الدرب بفأسه. أو لكان شاعرًا مشهورًا من شعراء التروبادور، يزور القصور، ولتعلّق كلّ العالم بشفتيه الغليظتين، السادة والخدم والسيّدات النبيلات... أمّا في عصرنا الجاحد، فهو يجول، جائعًا، حول البساتين المسوّرة، كذئب، أو يسقط، بالأحرى، إلى حدّ يصبح معه مهرّجًا لكاتب رديء.

وفجأة، رأيت زوربا ينهض. خلع ثيابه، ورمى بها على الحصى، وألقى بنفسه في الماء. وكنت أرى بين الفينة والفينة، على ضوء القمر الوليد الشاحب، رأسه الضخم يظهر ثم يختفي. ومن حين إلى حين، يطلق صرخة، وينبح، ويصهل، ويقلّد صياح الديك: إنّ روحه في هذه الليلة المقفرة ترتدّ إلى الحيوانات.

وبهدوء، ودون أن أشعر، غلبني النوم. وفي الغد، عند الفجر، رأيت زوربا مبتسمًا، منشرحًا، وهو يسحبني من قدمي. وقال:

ـ انهض، أيّها الرئيس، كي أطلعك على مشروعي. أتصغي؟

ـ إنّني مصغٍ.

وجلس على الأرض متربّعًا، وراح يشرح لي كيف سيقيم مصعدًا من قمّة الجبل حتى الشاطئ، نستطيع به أن ننقل الخشب الذي نحتاج إليه للأنفاق ونستطيع أن نبيع الباقي خشبًا للبناء. ولقد كنّا قرّرنا أن نكتري غابة للصنوبر، هي ملك للدير، لكنّ النقل يكلّف غاليًا ولم نكن لنجد بغالاً. فتصوّر زوربا إذن أن نبني مصعدًا بالحبال الضخمة والأعمدة والبكرات. وعندما انتهى سألني:

ـ اتّفقنا؟ أتوقّع؟

ـ إنّني أوقّع، زوربا، اتّفقنا!

وأشعل الموقد، ووضع الدلّة على النار، وأعدّ لي قهوتي، وألقى بغطاء على قدميّ يقيني من البرد، وذهب مغتبطًا. وقال:

ـ سنحفر اليوم نفقًا جديدًا. لقد وجدت عرقًا من تلك العروق! عرق ماس حقيقي أسود!

وفتحت مخطوط بوذا وغرقت في أنفاقي الخاصّة. واشتغلت طيلة اليوم، وكلّما تقدّمت كنت أحسّ بالخلاص، ويغمرني انفعال معقّد: طمأنينة وكبرياء واشمئزاز. لكنّني تركت نفسي تستسلم للعمل، لأنّني كنت أعلم أنّني ما إن أنهي هذا المخطوط وأختمه وأطويه، حتى أعود حرًّا.

كنت جائعًا. وأكلت بعض الزبيب، ولوزًا وقطعة خبز. كنت أنتظر أن يعود زوربا، حاملاً كلّ الحسنات التي تبعث المتعة في قلب الإنسان: الضحكة الصافية، والكلمة الطيّبة، والأطعمة اللذيذة.

وظهر، عند المساء، وأعدّ الطعام، وأكلنا، لكنّ ذهنه كان في مكان آخر. وركع على ركبتيه، وغرس قطعًا صغيرة من الخشب في الأرض، ومدّ خيطًا، وعلّق عود ثقاب ببكرات صغيرة، وراح يحاول أن يجد الميل الذي يجب إعطاؤه للخيط كي لا ينهار كلّ شيء. وقال لي:

ـ إذا كان الميل أكثر من اللازم، فسيضيع كلّ شيء. وإذا كان الميل أقلّ، فسيضيع كلّ شيء أيضًا. ويجب أن نجد الميل على الشعرة. ومن أجل ذلك، أيّها الرئيس، يلزمنا خمر وذكاء.

وانفجر زوربا ضاحكًا، وقال وهو ينظر إليّ بحنان:

ـ إنّك لست أحمق.

وجلس ليستريح وأشعل سيجارة. لقد عاد إليه مرحه من جديد وانحلّت عقدة لسانه. وقال:

ـ إذا أمكن للمصعد أن ينجح فسنقطع كلّ الغابة، ونفتح مصنعًا. ونصنع ألواحًا، وأعمدة، وأخشابًا، ونجمع المال بالرفش، ثم نبني مركبًا بثلاث صوارٍ، ونقلع بكلّ ما معنا، ونذهب لرؤية العالم!

ولمعت عينا زوربا، وامتلأنا بنساء بعيدات، بمدن، بأنوار، بمنازل كبيرة، بآلات، بمراكب.

ـ ذلك لأنّ شعري قد شاب، أيّها الرئيس، وأخذت أسناني تتململ، ولم يعد لي وقت أضيّعه. أمّا أنت فشابّ، وتستطيع أن تصبر. أمّا أنا فلا أستطيع. بشرفي، إنّني كلّما كبرت، ازددت توحّشًا! ليكفّوا عن القول لي إنّ الشيخوخة تشذّب الإنسان وتهدّئ حرارته! وإنّه يمدّ عنقه للموت عندما يراه وهو يقول: «اقطع رأسي، من فضلك، كي أذهب إلى السماء!». أمّا أنا فكلّما تقدّم بي العمر، ازددت تمرّدًا. إنّني لا أستسلم، بل أريد أن أغزو العالم!

ونهض، وتناول السانتوري من على الحائط، وقال:

ـ تعال هنا قليلاً، يا إبليس. ماذا تصنع هناك، على الحائط، دون أن تقول شيئًا؟ غنِّ قليلاً!

لم أكن لأشبع من رؤية زوربا. بأيّ حذر وبأيّ حنان يخرج السانتوري من اللفائف التي غلّفه بها. كان يبدو عليه وكأنّه يقشّر تينة، أو يعرّي امرأة من ثيابها.

ووضع السانتوري على ركبتيه. وانحنى عليه، وداعب الأوتار على مهل، وكأنّه يستشيره عن اللحن الذي سيغنّيه، ويرجوه أن يستيقظ، ويأخذه باللطف كي يأتي ليصاحب روحه المعذّبة، التعبة من العزلة. وبدأ أغنية، لكنّها لم تخرج، فتركها، وبدأ أخرى، وصرّت الأوتار وكأنّها مريضة، كأنّها لا تريد. واستند زوربا إلى الحائط، وجفّف العرق الذي أخذ فجأة يرشح من جبينه. وتمتم وهو ينظر بجهد إلى السانتوري:

ـ إنّه لا يريد... لا يريد.

ولفّه من جديد بحذر، وكأنّه وحش مفترس يخشى أن يعضّه، ونهض ببطء وعلّقه على الحائط. وتمتم مرّة أخرى:

ـ إنّه لا يريد.. يجب ألّا نغصبه.

وعاد للجلوس على الأرض، وطمر بعض ثمار الكستناء في الجمر، وملأ كؤوس الخمر. وشرب، وشرب، وقشّر ثمرة كستناء وقدّمها لي. وسألني:

ـ أتفهم شيئًا أيّها الرئيس؟ أنا لا أفهم. لكلّ الأشياء روحها، الخشب، والأحجار، والخمر التي نشربها، والأرض التي نسير عليها... كلّ شيء، كلّ شيء، أيّها الرئيس. ورفع كأسه:

ـ في صحّتك!

وأفرغها وملأها من جديد. وتمتم:

ـ يا للحياة من عاهرة! العاهرة! إنّها هي أيضًا مثل الأمّ بوبولينا.

وأخذت أضحك.

أقول لك صه، أيّها الرئيس، لا تهزل. إنّ الحياة مثل الأمّ بوبولينا. إنّها عجوز، أليس كذلك؟ ومع ذلك، ففيها ما يثير. إنّها تعرف حيلاً تُفقدك الرشد. وعندما تغلق عينيك، تتصوّر أنّك بين ذراعي فتاة في العشرين. إنّها في العشرين، أقسم لك، يا صديقي، عندما تكون مستعدًا، وقد أطفأت النور.

قد تقول لي إنّها نصف ميّتة، إنّها عاشت حياة صاخبة، إنّها تعهّرت مع قباطنة، وبحّارة، وجنود، وفلّاحين، وبائعين جوّالين، وكهنة، وصيّادين، ودرك، ومعلّمي مدرسة، ووعّاظ، وقضاة صلح. ثم ماذا بعد؟ ماذا يعني هذا؟ إنّها تنسى بسرعة، النذلة، إنّها لا تتذكّر أيًا من عشّاقها. إنّها تعود لتصبح دومًا، أنا لا أمزح، حمامة بريئة، إوزّة بيضاء، يمامة صغيرة، وهي تحمرّ، تستطيع أن تصدّقني، تحمرّ وترتجف وكأنّها المرّة الأولى. إنّ المرأة لسرّ، أيّها الرئيس! إنّها تستطيع أن تسقط ألف مرّة، لكنّها تنهض ألف مرّة من جديد عذراء. لكن، قد تسألني لماذا؟ حسنًا، لأنّها لا تتذكّر.

فقلت كي أغيظه:

ـ إنّ الببّغاء يتذكّر، يا زوربا. إنّه يهتف دومًا باسم ليْس هو اسمك.

ألا يغيظك؟ في اللحظة التي تصعد معها فيها إلى السماء السابعة، أن تسمع الببّغاء يصرخ: «كانافارو! كانافارو!» ألا تتمنّى أن تمسكه من عنقه وتخنقه؟ أخيرًا، آن أن تعلّمه أن يصرخ: «زوربا! زوربا!».

فصرخ زوربا وهو يسدّ أذنيه بيديه الضخمتين:

ـ أوه! إيه إيه! يا لك من محافظ! لماذا تريد أن أخنقه؟

إنّني أهوى أن أسمعه يصرخ بالاسم الذي ذكرت. إنّها تعلّقه، العاهرة، في الليل، فوق الفراش، وما إن يرانا ونحن نتفاهم، لأنّ له عينين تثقبان الظلمة، حتى يأخذ، النذل، بالصراخ: «كانافارو! كانافارو!».

وسرعان، إنّني أقسم لك أيّها الرئيس، ولكن كيف يمكنك أن تفهم هذا، أنت الذي أفسدته تلك الكتب اللعينة! إنّني أقسم لك، سرعان ما أحسّ بحذاءين لامعين في قدمي، وبالريش على رأسي، وبلحية ملساء كالحرير تعبق بالعنبر.

صباح الخير! مساء الخير! أتأكل معكرونة[1]؟ إنّني أصبح كانافارو عن حقّ. وأصعد إلى دارعتي المثقوبة بألف ثقب وهيّا... النار في المرجل! ويبدأ إطلاق المدافع!

وانفجر زوربا ضاحكًا. وأغلق عينه اليسرى ونظر إليّ قائلاً:

ـ ستعذرني، أيّها الرئيس، لكنّني أشبه جدّي ألكسيس، ليرحم الله روحه! كان يجلس كلّ مساء، وقد بلغ المئة من العمر، أمام بابه ليرقب الصبايا الذاهبات إلى العين. كان بصره قد ضعف، ولم يعد يميّز جيّدًا. وينادي الصبايا:

«قولي، من أنتِ؟ ـ ابنة ماستراندوني! ـ تعالي قليلاً كي ألمسك! تعالي، لا تخافي!». وتمسك رغبتها في الضحك وتقترب. فيرفع عندئذ جدّي يده حتى وجه الفتاة ويجسّه ببطء، بحنان، بشراهة. وتنساب دموعه.

---

(١) بالإيطاليّة في النصّ. «المترجم».

وسألته ذات مرّة: «لماذا تبكي يا جدّي؟» فقال: «إيه! ألا تعتقد أنّ هناك ما يدعو للبكاء، يا بنيّ، عندما أكون أنا على وشك الموت مخلّفًا ورائي هذا العدد الكبير من الفتيات الجميلات؟».

وتنهَّد قائلاً:

ـ آه! يا جدّي المسكين، كم أفهمك! إنّني غالبًا ما أقول لنفسي: «آه! يا للشقاء! لو أنّ جميع النساء الجميلات يمتن على الأقلّ في الوقت الذي أموت فيه أنا!» لكنّ هاته القذارات سيعشن، ويترفّهن، ويأخذهنّ الرجال بين أذرعهم، ويقبّلونهنّ، وسيكون زوربا قد أصبح ترابًا يطأن فوقه!».

وأخرج بضع كستناءات من الجمر، وقشَّرها. وقرعنا كأسينا. ولبثنا طويلاً على هذه الحال، نشرب ونمضغ على مهل، كأرنبين كبيرين، ونسمع البحر يهدر في الخارج.

ـ ٧ ـ

لبثنا صامتين قرب الموقد، إلى ساعة متأخّرة من الليل. وأحسست من جديد ببساطة وزهادة السعادة: كأس خمر، ثمرة كستناء، مدفأة حقيرة، هدير البحر. ولا شيء آخر. وكي يحسّ الإنسان أنّ كلّ ذلك هو السعادة، يجب أن يكون له قلب بسيط وقنوع. وسألت:

ـ كم مرّة تزوّجت، يا زوربا؟

كنّا نشوانين قليلاً، لا لكثرة ما شربنا فحسب، بل أيضًا بسبب تلك السعادة الكبيرة التي لا يمكن التعبير عنها والتي كانت فينا. لم نكن إلّا حشرتين صغيرتين فانيتين، متشبّثتين بالقشرة الأرضيّة، وكنّا نحسّ ذلك بعمق، كلّ حسب طريقته. ولقد وجدنا زاوية مناسبة، قرب البحر، وراء القصب، والألواح، وآنية التنك الفارغة حيث نجلس شبه متعانقين، وأمامنا أشياء جميلة وطعام، وفي داخلنا الهدوء والحبّ والطمأنينة.

لم يسمعني زوربا. من يدري في أيّة محيطات، لا يصلها صوتي، كانت روحه تطوف. ومددت ذراعي ولمسته بطرف أصابعي. وسألته ثانية:

ـ كم مرّة تزوّجت، يا زوربا؟

وانتفض. لقد سمع هذه المرّة. وأجاب وهو يحرّك يده الضخمة:

ـ أوّاه! ما الذي ستبحث عنه الآن! بعد كلّ شيء إنّني رجل. أنا أيضًا ارتكبت «الحماقة الكبيرة». هكذا أدعو الزواج. ليسامحني كلّ الناس المتزوّجين. لقد ارتكبت إذن «الحماقة الكبيرة»، وتزوّجت.

ـ حسنًا، كم مرّة؟

وحكّ زوربا عنقه بعصبيّة. وفكّر لحظة. وأخيرًا قال:

ـ كم مرّة؟ صدقًا، مرّة واحدة، مرّة واحدة لا أكثر. وبصدق قليل، مرّتين. وبلا صدق، ألفًا، ألفين، ثلاثة آلاف مرّة. كيف تريد أن أقوم بالحساب؟

ـ حدّثني قليلاً، يا زوربا! غدًا الأحد، سوف نحلق، ونرتدي ثيابًا جميلة، ونذهب عند الأمّ بوبولينا. ليس لدينا ما نفعله، إذن نستطيع أن نسهر هذا المساء. حدّثني!

ـ أحدّثك عن ماذا؟ ليست هذه أشياء تُحكى، أيّها الرئيس! إنّ الاتّحادات الشرعيّة ليس لها طعم، إنّها طعام بدون بهار. عمَّ أحدّثك؟ عن أنّه ليست هناك أيّة لذّة في التقبيل عندما يكون القدّيسون محدّقين بك من خلال أيقوناتهم، مانحين لك البركة. إنّنا، في قريتنا، نقول: «ليس للّحم طعم إلّا إذا كان مسروقًا». أمّا امرأتك عن حقّ فهي ليست لحمًا مسروقًا. والاتّحادات غير الشريفة، كيف تريدني الآن أن أتذكّرها؟ هل تمسك الديكة دفاتر حسابات؟ أتتصوّر ذلك! ومع ذلك، عندما كنت شابًّا، كنت معتادًا على أخذ خصلة شعر من كلّ امرأة تنام معي. إذن فقد كنت أحمل دومًا مقصًّا. حتى عندما أذهب إلى الكنيسة، يكون المقصّ في جيبي! إنّنا رجال، لا ندري مطلقًا ماذا يمكن أن يحدث، أليس صحيحًا؟

إذن، فقد كنت أجمع خصل شعر: كان عندي منها خصل سوداء، وشقراء، وكستنائيّة، بل وأحيانًا تشوبها شعرات بيض. ولكثرة ما جمعت حشوت بها وسادة. ثم، بعد قليل من الزمن، قرفت منها، فقد أخذت بالإنتان، فأحرقتها.

وأخذ زوربا يضحك، وقال:

ـ ذاك كان دفتر حساباتي، أيّها الرئيس. ولقد أحرقته. لقد سئمت منه. لقد اعتقدت أنّه لن يكون عندي الكثير من ذلك، ثم تبيّنت أنّ الأمر

لن ينتهي، فرميت عند ذاك بالمقصّ.

ـ والاتّحادات نصف الشريفة، يا زوربا؟

فأجاب هازئًا:

ـ إيه! هذه الأخيرة لا ينقصها السحر. آه! يا للنساء السلافيّات! ويا للحرّيّة! لا يسألنك أبدًا: «أين ذهبت؟ لِمَ تأخّرت؟ أين نمت؟». إنّهنّ لا يسألنك شيئًا، ولا تسألهنّ شيئًا. الحرّيّة، وأيّة حرّيّة!

ومدّ يده، وتناول كأسه، وأفرغها، وقشّر حبّة كستناء. وكان يمضغ ويتكلّم في آن واحد.

ـ كانت هناك واحدة تُدعى «سوفنكا»، والأخرى «نوسا». ولقد تعرّفت على سوفنكا في قرية كبيرة قرب نوفوروسيسك. كان ذلك في الشتاء، والسماء تُثلج، وذهبت أنا لأفتّش عن عمل في منجم، وبينما كنت مارًّا بتلك القرية، توقّفت. كان يوم السوق. ومن جميع قرى الجوار نزل الرجال والنساء للشراء والبيع. مجاعة مخيفة، وبرد قارس، والناس يبيعون كلّ ما لديهم، حتى أيقوناتهم، ليشتروا خبزًا.

كنت إذن أتجوّل في القرية، عندما رأيت فلّاحة شابّة تقفز من عربة صغيرة، فتاة مرحة طولها متران وعيناها زرقاوان كالبحر، ولها ردف... كالفرس!... ووقفت مذهولاً وقلت لنفسي: «أيْ يا زوربا المسكين، لقد ضعت!».

ورحت أتتبّعها، وأنظر إليها... من المستحيل أن أشبع! كان لا بدَّ لك أن ترى ردفيها اللذين يهتزّان كأجراس الفصح. وقلت في نفسي: «لماذا أيّها المتقلّب الرأي! تلك هي المنجم الحقيقي: ألقِ بنفسك فيه وشقّ أنفاقك!».

وتوقّفت الفتاة، ساومت، وابتاعت كمّيّة من الخشب ـ يا للذراعين، يا إلٰهي! ـ وألقتها في العربة. واشترت قليلاً من الخبز وخمس أو ستّ سمكات مدخّنة. وسألت: «كم أصبح الحساب؟ ـ كذا...». وفكّت قرط

أذنها الذهبي لتدفع. فما دامت لا تملك مالاً، فستدفع قرطها. عندها لم يدر دمي سوى دورة واحدة. أأدع امرأة تدفع قرطيها، وحليّها، وصابونها المعطّر، وزجاجة الخزامى. . لو دفعت كلّ ذلك، لضاع العالم! تمامًا كما لو أنّك تنزع عن طاووس ريشه. ألك قلب لتنزع ريش طاووس؟ أبدًا! لا، لا، ما دام زوربا حيًا. فلن يحدث ذلك. هكذا قلت في نفسي، وفتحت كيس نقودي ودفعت. كان ذلك عندما أصبحت الروبلات مزقًا من الورق. بمئة درهم، كنت تشتري بغلاً، وبعشرة دراهم، امرأة.

دفعت إذن، وحدجتني الفتاة بطرف عينها. وتناولت يدي لتقبّلها. لكنّني سحبتها. ماذا، هل تظنّني شيخًا؟ وأخذت تصرخ: «سباسيبا! سباسيبا!»، وهذا يعني «شكرًا! شكرًا!». وبقفزة واحدة أصبحت في عربتها وتناولت العنان، ورفعت السوط. وقلت في نفسي: «زوربا، أيّها الهرم، احذر، إنّها ستهرب تحت نظرك». وبقفزة واحدة، كنت في العربة إلى جانبها، ولم تقل شيئًا. بل لم تلتفت لتنظر إليّ. وضربت الحصان بالسوط، وانطلقنا.

وفي الطريق، فهمت أنّني أريدها زوجة. وتمتمت كيفما اتّفق بثلاث كلمات روسيّة، ولكن بخصوص هذه القضايا، ليس ثمّة داعٍ للتكلّم كثيرًا. وتحدّثنا بالأعين، بالأيدي، بالركب. وباختصار وصلنا إلى القرية ووقفنا أمام عربة. ونزلنا. وبضربة من كتفها فتحت الفتاة الباب ودخلنا. وأنزلنا الخشب إلى الباحة، وأخذنا الخبز والسمك ودخلنا إلى الغرفة. وكانت فيها عجوز ضئيلة جالسة قرب المدفأة المطفأة، ترجف. كانت متلفّحة بأكياس، وخرق، وجلد خراف، لكنّها كانت ترجف. كان الطقس باردًا جدًا، حتى إنّ أظافرك تكاد تقع، يا إلٰهي! وانحنيت، ووضعت قبضة كبيرة من الأغصان في المدفأة وأشعلت النار. ونظرت إليّ العجوز الضئيلة مبتسمة. لقد قالت ابنتها لها شيئًا، لكنّني لم أفهم. لقد أشعلت النار، وتدفّأت العجوز، فعادت إليها الحياة قليلاً.

وأثناء ذلك، وضعت الفتاة أدوات المائدة. وجاءت بقليل من الفودكا، وشربناه. وأشعلت السماور، وصنعت شايًا، وقدّمنا للعجوز حصّتها. بعد ذلك، أعدّت السرير بسرعة، ووضعت أغطية نظيفة، وأشعلت القنديل أمام أيقونة العذراء القدِّيسة ورسمت إشارة الصليب ثلاث مرّات. ثم نادتني بإشارة، وركعنا أمام العجوز وقبّلنا يدها. ووضعت يديها البارزتي العظام فوق رأسينا وهي تتمتم بكلام ما. لقد منحتنا، على الأرجح بركتها. وهتفت: «سباسيبا! سباسيبا!» وبقفزة واحدة، كنت في الفراش مع الصبيّة.

وصمت زوربا، ورفع رأسه ونظر بعيدًا نحو البحر، ثم قال بعد قليل:

ـ كانت تدعى سوفنكا...

وعاد إلى الصمت من جديد. فسألته وقد فقدت الصبر:

ـ ثم ماذا؟ ثم ماذا؟

ـ ليس هناك «ثم!». كم أنت معتاد على «ثم» وعلى «لماذا» أيّها الرئيس! إنّ هذه الأشياء لا يجوز الحديث عنها. إنّ المرأة لنبع بارد: تنحني فوقها، وترى وجهها، وتشرب، وتشرب، وتطقطق عظامك. ثم يأتي غيرك وقد عضّه الظمأ هو أيضًا، فينحني، ويرى وجهها ويشرب. ثم شخص ثالث أيضًا... إنّ المرأة لنبع، أؤكّد لك ذلك.

ـ وبعد ذلك، أذهبت؟

ـ ماذا تريد أن أفعل؟ إنّها نبع، أقول لك، وأنا عابر السبيل، فعدت إلى الطريق من جديد. لبثت ثلاثة شهور معها. لكن في نهاية الشهر الثالث تذكّرت أنّني كنت ذاهبًا للبحث عن منجم. فقلت لها ذات صباح: «سوفنكا، عندي عمل، يجب أن أذهب». فقالت سوفنكا: «حسنًا، اذهب. سأنتظرك شهرًا، وإذا لم تعد بعد شهر، سأصبح حرّة. وأنت أيضًا. بنعمة الله!». وذهبت.

ـ وعدت بعد شهر؟..

فهتفت زوربا:

ـ لكنّك أحمق، أيّها الرئيس، مع احترامي لك! كيف أعود؟ إنّهنّ لا يتركنك هادئًا، العاهرات! بعد عشرة أيّام، في «كوبان»، التقيت بنوسا.

ـ حدّثني! حدّثني!

ـ مرّة أخرى، أيّها الرئيس. يجب ألّا نخلط بينهنّ، المسكينات! بصحّة سوفنكا!

وجرع خمره دفعة واحدة. ثم قال بعد أن أسند ظهره إلى الحائط:

ـ حسنًا، سأقصّ عليك قصّة نوسا أيضًا. إنّ رأسي مليء، هذا المساء، بروسيا. هات! سنفرغ ما لدينا!

ومسح شاربه وحرّك الجمر.

ـ تلك الأخيرة التقيت بها إذن، كما قلت لك، في قرية من قرى «كوبان». كان ذلك في الصيف. جبال من البطّيخ الأحمر والأصفر، فانحنيت وتناولت واحدة، ولم يقل لي أحد شيئًا. وقطعتها إلى قسمين: ورحت أنهشها. كلّ شيء هناك كثير، غزير في روسيا، أيّها الرئيس: اختر وخذ! ليس فقط البطّيخ الأحمر والأصفر، لكن السمك والزبدة والنساء أيضًا. قد ترى، وأنت مارّ، بطّيخة فتأخذها. وقد ترى امرأة، فتأخذها أيضًا. ليس كهنا، في اليونان، حيث لا تكاد تأخذ لأحدهم قشرة بطّيخ حقيرة حتى يجرّك أمام المحاكم، وما إن تلمس امرأة حتى يخرج أخوها سكّينه ليفرم لحمك كما تفرم النقانق. أفّ! أشحّاء، بخلاء.. اذهبوا لتشنقوا! يا عصابة القذرين! اذهبوا إلى روسيا قليلاً لتروا كيف يكون السادة العظام!

كنت مارًّا إذن بكوبان، ورأيت امرأة في بستان. وأعجبتني. يجب أن تعلم، أيّها الرئيس، أنّ السلافيّة ليست كهاته اليونانيّات النحيفات الطمّاعات اللواتي يبعنك الحبّ بالنقطة، ويفعلن كلّ شيء ليدفعن لك أقلّ ممّا يجب، ويغمطنك حقّك. أمّا السلافيّة، أيّها الرئيس، فتعطيك أكثر ممّا تستحقّ. في النوم، والحبّ، والأكل، هي قريبة جدًّا من الأرض والبهائم:

إنّها تمنح كثيرًا، إنّها ليست كتلك اليونانيّات اللواتي يساومنك طويلاً!

وسألتها: «ماذا تُدعين؟». لقد تعلّمت شيئًا من الروسيّة مع النساء، كما ترى. «نوسا. وأنت؟» ـ ألكسيس. إنّك تعجبينني جدًّا، يا نوسا. ونظرت إليّ بانتباه كما ينظر الإنسان إلى حصان يريد أن يبتاعه. قالت لي: «أنت أيضًا لا يبدو عليك أنّك مسكين. لك أسنان متينة، وشاربان كبيران، وظهر عريض، وذراعان قويّتان. إنّك تعجبني». ولم نتحدّث أكثر من ذلك، إذ لم يكن ثمّة داعٍ لذلك. وفي لحظة اتّفقنا. كان عليّ أن أذهب في المساء إلى بيتها بثياب الأحد. وسألتني نوسا: «ألديك فروة؟» ـ نعم، لكن في مثل هذا الحرّ...

ـ لا يهمّ. جئ بها. ستظهر بمظهر الغني.

عند المساء إذن ارتديت ثيابي كأنّني عريس جديد، وأخذت الفروة على ذراعي، وحملت أيضًا عصاة لها قبضة من الفضّة كانت لديّ، وانطلقت. كان بيتها عبارة عن منزل قروي كبير، فيه باحات، وأبقار ومعاصر، ونيران مشتعلة في الباحة، ومراجل فوق النار. وسألت: ما الذي يغلي هنا؟ ـ عصير البطّيخ الأحمر ـ وهنا؟ عصير البطّيخ الأصفر. وقلت في نفسي: «يا لهذه البلاد، أتسمع هذا! عصير البطّيخ الأحمر والأصفر، إنّها الأرض الموعودة! في صحّتك، زوربا، لقد وقعت كجرذ على قطعة جبن».

وصعدت الدرج، وكان ضخمًا، من الخشب الذي يصرّ. وفي أعلاه، كان يقف والدا نوسا. كان كلٌّ منهما يرتدي نوعًا من القماش الأخضر وحزامًا أحمر مزركشًا، وقبّعة ضخمة. وفتحا أذرعهما، وأقبّلك من هنا، وأقبّلك من هناك. لقد امتلأت باللعاب. كانا يتحدّثان معي بسرعة كبيرة، ولم أفهم جيّدًا، لكن من تعبير وجهيهما أدركت أنّهما لا يريدان بي شرًّا.

ودخلت إلى القاعة، فماذا رأيت؟ موائد مصفوفة، ممتلئة وكأنّها مراكب شراعيّة. كلّ الناس كانوا واقفين: الأقارب، نساء ورجالاً، وفي

المقدِّمة نوسا، متزيّنة، مرتدية أجمل ثيابها وصدرها مشرّع في الهواء كأنّه جؤجؤ السفينة. والجمال والشباب يطفحان منها. وكانت تعقد رأسها بمنديل أحمر، وقد طرّزت فوق قلبها صورة منجل ومطرقة. وقلت في نفسي: «قل إذن، يا زوربا، أيّها المحظوظ، ألك أنت كلّ هذا اللحم؟ أهذا هو الجسد الذي ستحتضنه هذا المساء بين ذراعيك؟».

ورمى الجميع بأنفسهم على الطعام، النساء كالرجال. وأكلنا كالخنازير، وشربنا كبالوعة. وسألت والد نوسا الذي كان جالسًا قربي وقد كاد ينفجر من كثرة ما أكل. «والكاهن الذي سيباركنا؟» فأجابني واللعاب يتطاير من فمه: «ليس هناك كاهن. ليس هناك كاهن. الدين أفيون الشعب».

وعلى أثر ذلك، نهض نافخًا صدره، وفكّ حزامه الأحمر، ورفع ذراعه ليصمت الحاضرون. كان يمسك بكأسه، المليئة حتى تكاد تطفح، ويحدّق في عيني. ثم بدأ يتكلّم، ويتكلّم، وألقى خطابًا، وأيّ خطاب! أمّا ما كان يقوله؟ الله وحده يعرف ذلك! وتعبت من كثرة الوقوف، ثم إنّ السكر قد بدأ يدير رأسي قليلاً. وجلست، ولصقت ركبتي بركبة نوسا التي كانت جالسة إلى يميني.

وما كان العجوز لينتهي من الكلام، وأخذ عرقه يسيل. آنذاك ألقوا بأنفسهم عليه وشدّوه بين أذرعهم كي يسكتوه. وأشارت إليّ نوسا: «هيّا، تكلّم، أنت أيضًا!».

فنهضت بدوري وألقيت خطابًا، بلغة نصفها روسيّة ونصفها يونانيّة. أمّا ما قلته؟ لتنصب مشنقتي إذا كنت أعرف. إنّني أذكر فقط أنّني في النهاية انطلقت في الأغاني الكليفتيّة وبدأت دون وعي أنهق:

صعد كليفتيّون إلى الجبل

ليسرقوا أحصنة!

لكن لم يكن هناك خيل.

إنّها نوسا التي خطفوها.

كما ترى، أيّها الرئيس، فقد حوّرت قليلاً من أجل المناسبة.

وانطلقوا، انطلقوا...

(هيّا، يا أمّي، لقد انطلقوا!)

آه! يا نوسا،

آه! يا نوسا،

آي!

وبينما كنت أصرخ «آي» ألقيت بنفسي على نوسا وقبّلتها.

كان ذلك ما يجب! فأسرع بعض الشبّان الأشدّاء من ذوي اللحى الحمراء، وكأنّني أعطيت الإشارة التي ينتظرونها، وكأنّهم لم يكونوا ينتظرون غير ذلك، وأطفأوا الأنوار.

وراحت النسوة الخبيثات يصرخن، مدّعيات الخوف. ثم رحن يطلقن، في الظلام صرخات صغيرة. وكان ذلك يبعث على الدغدغة والمرح.

أمّا ما جرى، أيّها الرئيس، فالله وحده يعرفه. لكنّني أعتقد أنّه لا يعرفه، وإلّا أرسل الصاعقة لتشوينا. وتدحرج الرجال والنساء على الأرض، الحابل بالنابل. ورحت أنا أبحث عن نوسا، لكن عبثًا! ووجدت أخرى وقمت بالعمل معها.

عند الفجر، نهضت لأذهب مع امرأتي. كان الجوّ لا يزال معتّمًا ولم أكن أرى جيّدًا. وأمسكت بقدم، وسحبتها لكنّها لم تكن قدم نوسا. وأمسكت قدمًا أخرى: الشيء نفسه! وأمسكت ثالثة، ورابعة، وفي النهاية، بعد أن سعيت ككلب، وجدت قدم نوسا، وسحبتها، وخلّصتها من بين اثنين أو ثلاثة أبالسة كانوا يسحقونها، المسكينة، وأيقظتها، قائلاً لها: «نوسا، هيّا بنا من هنا!». فأجابتني: «لا تنس ـ فروتك! هيّا!». ومضينا.

فسألت من جديد، بعد أن رأيت زوربا قد صمت:

ـ ثم ماذا؟

فقال زوربا بعصبيّة:

ـ ها أنت تعود من جديد إلى «ثم ماذا؟». وتنهّد:

ـ عشت ستّة أشهر معها. منذ ذلك اليوم، أؤكّد لك، لم أعد أخشى شيئًا. لا شيء مطلقًا، أقول لك! لا شيء سوى أمر واحد: هو أن يمحو الشيطان أو الله من ذاكرتي هذه الأشهر الستّة. أتفهم؟

وأغلق زوربا عينيه. كان يبدو شديد الانفعال. إنّها المرّة الأولى التي أراه فيها تتملّكه بمثل هذه القوّة ذكرى بعيدة. وسألته بعد عدّة لحظات:

ـ لقد أحببتها إذن كثيرًا، نوسا تلك؟

وفتح زوربا عينيه، وقال:

ـ أنت شابّ، أيّها الرئيس، أنت شابّ، لا تستطيع أن تفهم. عندما يشيب شعرك أنت أيضًا، سنعود للحديث عن تلك القصّة الخالدة.

ـ أيّة قصّة خالدة؟

ـ المرأة، بحقّ الشيطان! كم مرّة يجب أن أكرّر لك ذلك؟ المرأة قصّة خالدة. أمّا الآن، فأنت كالديكة الشابّة التي تطبق على الدجاجات ثلاث مرّات على دفعتين ثم تنفخ حوصلاتها، وتصعد على المزبلة وتأخذ بالصياح والخيلاء. إنّها لا تنظر إلى الدجاجات، بل إلى عرفها. إذن، فما الذي يمكنها أن تفهمه من الحبّ؟ لا شيء مطلقًا.

وبصق على الأرض باحتقار. ثم أدار رأسه، إذ هو لا يريد أن ينظر إليّ.

فسألته مرّة أخرى:

ـ ثم ماذا، يا زوربا؟ ونوسا؟

فأجاب زوربا ونظرته ضائعة بعيدًا نحو البحر:

ـ ذات مساء، وأنا عائد إلى المنزل، لم أجدها. لقد هربت مع عسكري جميل كان قد وصل إلى القرية منذ بضعة أيّام. لقد انتهى الأمر! وانفطر قلبي وانشطر شطرين. لكنّه سرعان ما التصق من جديد، الشرّير.

لقد رأيت، ولا بدّ، تلك الأشرعة المرقّعة بالقطع الحمراء، والصفراء، والسوداء، والمخيطة بخيط ثخين، والتي لا تتمزّق أبدًا، حتى في أسوأ العواصف؟ إنّ قلبي مثلها. فيه ستّة وثلاثون ألف ثقب، وستّة وثلاثون ألف رقصة: إنّه لا يخشى شيئًا أبدًا!

ـ ولِمَ تحقد على نوسا، زوربا؟

ـ لماذا أحقد عليها؟ تستطيع أن تقول ما تشاء، لكنّ المرأة شيء آخر، إنّها ليست بشرًا! لماذا أحقد عليها؟ إنّ المرأة شيء لا يُفهم، وكلّ قوانين الدولة والدين لا تعير هذا انتباهًا. إنّ على هذه القوانين ألّا تعامل المرأة هكذا، كلّا! إنّها قاسية جدًّا، أيّها الرئيس، ظالمة جدًّا! لو كنت أنا الذي يسنّ القوانين، فإنّني لن أسنّها واحدة للرجال والنساء. عشر، مئة، ألف وصيّة للرجل. الرجل رجل، ويستطيع أن يتحمّل هذا. لكن ثمّة توصية للمرأة. لأنّ المرأة، كم مرّة يجب أن أقول لك ذلك، أيّها الرئيس؟ لأنّ المرأة مخلوق ضعيف. في صحّة نوسا، أيّها الرئيس! وليضع الله لنا رصاصًا في مخّنا، نحن الرجال!

وشرب، ورفع ذراعه، ثم جعلها تسقط فجأة وكأنّه يمسك فأسًا، وعاد يقول:

ـ ليضع لنا رصاصًا في مخّنا، أو ليجرِ لنا عمليّة، وإلّا، يمكنك أن تصدّقني، فإنّنا هالكون!

ـ ٨ ـ

اليوم، أمطرت ببطء، واتّحدت السماء بالأرض بحنان لا متناهٍ. إنّني أذكر نقشًا هندوكيًّا من الحجارة الرماديّة القاتمة يمثّل رجلاً ملقيًا ذراعيه حول امرأة، ومتّحدًا بكثير من العذوبة والاستسلام حتى إنّك لتحسّ، بعد أن لعق الدهر الجسدين وتأكّلهما، أنّك ترى حشرتين متعانقتين بشدّة، راح المطر الناعم يتساقط فوقهما، والأرض تتشرّبه بلذّة وتمهّل.

إنّني جالس في الكوخ. أنظر إلى السماء تتكدّر، وإلى البحر يتألّق ببريق رمادي أخضر. ومن طرف الساحل إلى طرفه الآخر، ليس ثمّة إنسان، ليس ثمّة شراع، ليس ثمّة طير. رائحة وحدها تدخل من النافذة المفتوحة.

ونهضت، ومددت يدي إلى المطر كأنّني متسوّل. وفجأة، رغبت في البكاء. كان ثمّة حزن، ليس من أجلي، ليس لي، أعمق، وأظلم، يتصاعد من الأرض النديّة. إنّه كالرعب الذي يتملّك الحيوان الذي يرعى، بلامبالاة، ثم يشمّ حوله فجأة، في الفضاء، دون أن يرى شيئًا، أنّه محاصر، لا يستطيع أن يفلت.

وكدت أطلق صرخة، مدركًا أنّ ذلك سيُعيد الهدوء إلى نفسي، لكنّني خجلت.

وكانت السماء تنخفض أكثر فأكثر. ونظرت من النافذة: كان قلبي يرتعد بهدوء.

إنّها للذيذة، وحزينة جدًّا، تلك الساعات من المطر الناعم، تُعيد إلى الذهن جميع الذكريات المُرّة، المدفونة في القلب: فراق الأصدقاء، ابتسامات نساء قد انطفأت، آمال قد فقدت أجنحتها كفراشات لم يبق منها إلَّا الدود. ولقد وقف هذا الدود فوق أوراق قلبي وراح يقرضها.

ورويدًا رويدًا، عبر المطر والأرض النديّة، صعدت من جديد ذكرى صديقي، المنفي هناك، في القوقاز. وأخذت ريشتي، وانحنيت على ورقي، وأخذت أحدّثه، لأمزّق شبكة المطر وأتنفّس.

«أيّها العزيز جدًّا، أكتب إليك من شاطئ منعزل في كريت، حيث اتّفقنا، أنا والقدر، أن أبقى عدّة شهور لأمثّل، أمثّل دور الرأسمالي، مالك منجم لللينيت، رجل أعمال. وإذا نجح تمثيلي، فسأقول آنذاك إنّه لم يكن تمثيلاً، بل إنّني اتّخذت قرارًا كبيرًا، قرارًا بأن أغيِّر حياتي.

«أنت تذكر أنّك دعوتني، وأنت مغادر، «بالفأر قارض الورق» فأثرت غضبي، وقرّرت، آنذاك، أن أهجر القرطاس لفترة من الزمن ـ أو دومًا؟ ـ وألقي بنفسي في العمل. فاستأجرت تلًّا صغيرًا يحتوي على اللينيت، وتعاقدت مع عمّال، واشتريت معاول، ورفوشًا، ومصابيح الإسيتيلين، وسلالاً، وعربات، وحفرت أنفاقًا ودفنت نفسي فيها. هكذا، كي أثير غضبك. وتحوّلت، بسبب الحفر وشقّ الدهاليز في الأرض، من فأر قارض للورق إلى خُلد. فأرجو أن تسرّ لهذا التحوّل.

«إنّ أفراحي هنا كبيرة لأنّها في غاية البساطة، مصنوعة من عناصر خالدة: هواء صافٍ، وشمس، وبحر، وخبز حنطة. وعند المساء، يحدّثني، وهو جالس أمامي، سندباد بحري رائع، يتحدّث ويتّسع العالم كلّما تحدّث. وأحيانًا، عندما لا تسدّ الكلمة حاجته، ينتصب قافزًا ويرقص. وعندما لا يكفيه الرقص نفسه، يضع السانتوري على ركبتيه ويبدأ بالعزف.

«أحيانًا، يعزف لحنًا وحشيًّا، فتحسّ بأنّك تختنق، لأنّك تفهم فجأة أنّ

الحياة تافهة وبائسة، غير لائقة بالإنسان. وأحيانًا يعزف لحنًا مؤلمًا، فتحسّ بأنّ الحياة تمرّ وتنساب كما ينساب الرمل من بين الأصابع، وبأنّ الطمأنينة لا وجود لها.

«ويذهب قلبي ويجيء، من طرف صدري إلى طرفه الآخر، كمكّوك حائك. إنّه يحيك هذه الأشهر القلائل التي سأمضيها في كريت. وإنّني أعتقد ـ ليسامحني الله! ـ أنّني سعيد.

«يقول كونفوشيوس: «كثيرون يبحثون عن السعادة فيما هو أعلى من الإنسان، وآخرون فيما هو أوطى منه. لكنّ السعادة بطول قامة الإنسان». هذا صحيح. إذن فهناك عدد من السعادات بعدد ما للإنسان من قامات. تلك هي، يا تلميذي ومعلّمي العزيز، سعادتي اليوم، وإنّني لأقيسها، وأعيد قياسها، قلقًا، لأعرف ما طول قامتي الآن. لأنّ قامة الإنسان، كما تعلم، ليست دائمًا واحدة.

«إنّ البشر يبدون لي، هنا، وأنا أنظر إليهم من عزلتي، لا كالنمل، لكن على النقيض من ذلك، كوحوش هائلة، من نوع الزواحف السامّة الضخمة الطائرة المتحجّرة، تعيش في جوّ مشبع بحامض الفحم وبعفونة المستحاثّات الكثيفة. غاب غير مفهوم، عبثي، مهول. إنّ مفاهيم «الوطن» و«العرق» التي تحبّها، ومفاهيم «الوطن الأعلى» و«الإنسانيّة» التي جذبتني، لها قيمة نفحة الهدم الفائقة القوّة. إنّنا نحسّ أنّنا صعدنا من جديد لنقول بضعة مقاطع، وأحيانًا حتى ليس مقاطع، بل مجرّد أصوات لا تلفظ مثل («آ»! و«أو»! ـ ومن ثم نتحطّم. وأسمى الأفكار، لو بقرنا بطونها، لتبيّنّا أنّها، هي أيضًا، دمى محشوّة بالنخالة، ثم نجد، نابضًا من التنك مخفيًّا في النخالة.

«أنت تعرف جيّدًا أنّ هذه التأمّلات القاسية، وهي بعيدة عن أن تجعلني أستسلم، إنّما هي على النقيض من ذلك، أعواد ثقاب لا بدّ منها لشعلتي الداخليّة. لأنّني، وكما يقول معلّمي بوذا، قد «رأيت». وبما أنّني

رأيت واتّفقت بغمزة عين مع المخرج المسرحي اللاّمرئي، فإنّني أستطيع من الآن فصاعدًا، وكلّي مزاج رائق ورغبة في أن أفعل ما لا داعي له، أن أمثّل دوري على الأرض حتى النهاية، أعني بانسجام وبدون أن تثبط عزيمتي. ذلك بما أنّني رأيت، فقد اشتركت، أنا أيضًا، في العمل الذي أمثّله على مسرح الله.

«وهكذا، أراك، وأنا أنقل نظري في المسرح الكوني، هناك في مغاور القوقاز الأسطوريّة، تمثّل، أنت أيضًا، دورك، إذ تجهد نفسك لإنقاذ بضعة آلاف من أرواح عرقنا الذي يواجه خطر الموت. إنّك بروميثيوس آخر، لكنّه يتحمّل عذابات حقيقيّة وهو يناضل ضدّ قوى الظلام: الجوع، والبرد، والمرض، والموت. لكنّك تسرّ أحيانًا، لما فيك من كبرياء، من أنّ قوى الظلام كثيرة إلى هذا الحدّ وغير مرئيّة، وهكذا يصبح هدفك في أن تكون بلا أمل تقريبًا، أكثر بطولة، وتدرك روحك عظمة أشدّ فجيعة.

«إنّ هذه الحياة التي تعيشها تعتبرها، بلا شكّ، سعادة. ولمّا كنت تعتبرها هكذا، فهي كذلك. لقد فصّلت، أنت أيضًا، سعادتك على قدّك، وقدّك الآن ـ ليتمجّد الربّ! ـ يتجاوز قدّي. والمعلّم الصالح لا يريد مكافأة أروع من هذه: أن ينشئ تلميذًا يتجاوزه.

«أمّا أنا فأنسى غالبًا، وأنتقد، وأتيه، وما إيماني إلّا فسيفساء من الجحود المستمرّ. وقد أشتهي أحيانًا أن أقوم بمقايضة: أن آخذ دقيقة صغيرة وأعطي حياتي كاملة، لكنّك، أنت تمسك بالدفّة بحزم، ولا تنسى إلى أين أنت متّجه، حتى في أعذب اللحظات المميتة.

«أتذكر ذلك اليوم الذي كنّا نعبر فيه معًا إيطاليا، ونحن عائدان إلى اليونان؟ لقد عزمنا على الذهاب إلى منطقة «بونت» التي كانت في خطر آنذاك، أتذكر ذلك؟ وفي مدينة صغيرة، نزلنا من القطار بسرعة، إذ لم يكن أمامنا إلّا ساعة واحدة قبل وصول القطار الآخر. ودخلنا إلى بستان كبير كثيف، قرب المحطّة، مملوء بالأشجار ذات الأوراق العريضة، وبأشجار

الموز، وبقصب لونه معدني قاتم، وبنحلات كانت متشبّثة بغصن مزهر يرتجف، سعيدًا، لأنّه يراها تمتصّ.

«وتقدّمنا بصمت، وقد أخذتنا النشوة، وكأنّنا في حلم. وفجأة، عند منعطف الدرب المزهر، ظهرت فتاتان تمشيان وهما تقرآن. لا أذكر إن كانتا جميلتين أو قبيحتين. أذكر فقط أنّ إحداهما كانت شقراء، والأخرى سمراء، وأنّهما كانتا ترتديان ثوبين ربيعيّين.

«وبجرأة الإنسان عندما يكون حالمًا، اقتربنا منهما وقلت لهما ضاحكًا: «مهما كان الكتاب الذي تقرآنه، فسوف نتناقش حوله». كانتا تقرآن غوركي. وعند ذاك، تقدّمنا بسرعة لأنّنا كنّا مستعجلين، وأخذنا نتحدّث عن الحياة، والبؤس، وتمرّد الروح، والحبّ...

«لن أنسى أبدًا فرحنا وألمنا. كنّا قد أصبحنا، نحن وتانك الفتاتان المجهولتان، أصدقاء قدماء، أحبّاء قدماء. كنّا على عجلة من أمرنا، وقد أصبحنا مسؤولين عن روحيهما وجسديهما: فبعد بضع دقائق سنغادرهما للأبد. وفي الهواء المرتجف، كانت رائحة الاغتصاب والموت.

«ووصل القطار وصفّر. وقفزنا كأنّنا استيقظنا. وتصافحنا. كيف ننسى تعانق أيدينا الشديد واليائس، والأصابع العشر التي لا تريد أن تنفصل. كانت إحدى الفتاتين شاحبة جدًّا، والأخرى تضحك وترتعد. وأذكر أنّني قلت لك عندئذ: «هي ذي الحقيقة. أمّا اليونان، والوطن، والواجب، فهي كلمات لا تعني شيئًا». وأجبتني أنت: «اليونان، والوطن، والواجب، هذا لا يعني شيئًا بالفعل، لكنّنا من أجل هذا اللاّشيء سنذهب عن طواعية لنموت».

«لكن لماذا أكتب لك هذا؟ لأقول لك إنّني لم أنسَ شيئًا ممّا عشناه معًا. ولأتيح لنفسي أيضًا فرصة كي أعبّر عمّا كان مستحيلاً عليَّ التعبير عنه عندما كنّا معًا، بسبب تلك العادة الحسنة أو السيّئة التي كنّا نتقيّد بها والتي كانت تلزمنا بتمالك أنفسنا.

«والآن وأنت لست أمامي، ولا ترى وجهي، وأنا لا أخاطر بأن أبدو

سخيفًا، فإنّني أقول لك إنّني أحبّك كثيرًا».

وختمت رسالتي. لقد تحدّثت مع صديقي وعاد الهدوء إلى أعصابي. وناديت زوربا. وكان جالسًا على صخرة كي لا يتبلّل، يجرّب مصعده. وصرخت:

ـ زوربا تعال. انهض وهيّا إلى القرية لنتنزّه.

ـ مزاجك الآن حسن، أيّها الرئيس. إنّها تمطر. ألا تريد أن تذهب بمفردك؟

ـ نعم. لكن لا أريد أن أفقد مزاجي الحسن. وإذا كنّا معًا، فلن أخاطر بشيء. تعال.

وضحك قائلاً:

ـ إنّني سعيد لأنّك بحاجة إليّ. هيّا!

وارتدى قميصه الصوفي الصغير الكريتي ذا القبّعة المدبّبة الذي أهديته له، وخضنا في الدرب الموحل.

كانت تمطر. وقمم الجبال مخيفة، وليس ثمّة نسمة هواء، والحجارة تلمع. وكان جبل اللينيت الصغير مخنوقًا تحت الضباب. وكأنّ حزنًا بشريًّا يغلّف وجه التلّ الأنثوي، وكأنّه قد أغمي عليه تحت المطر. وقال زوربا:

ـ إنّ قلب الإنسان يتألّم عندما تمطر، ويجب ألّا نلومه على ذلك!

وانحنى على أسفل سياج وقطف أولى أزهار النرجس البرّي، ونظر إليها طويلاً، دون أن يشبع، وكأنّه يرى النرجس لأوّل مرّة، واستنشقها مغمضًا عينيه، وتنهّد وقدّمها إليّ، قائلاً:

ـ لو كنّا نعرف، أيّها الرئيس، ما تقوله الحجارة، والأزهار، والمطر! لعلّها تنادي، تنادينا، ونحن لا نسمع. متى ستنفتح آذان الناس؟ متى ستتفتّح أعيننا لنرى؟ متى سنفتح الأذرع لنعانق الجميع، الحجارة، والأزهار، والمطر، والبشر؟ ماذا تقول عن ذلك، أيّها الرئيس؟ وكتبك، ما الذي تقوله؟

فقلت مستخدمًا التعبير المفضّل عند زوربا:

ـ ليأخذها الشيطان، ليأخذها الشيطان!

وأخذ زوربا ذراعي:

ـ سأقول لك فكرة خطرت لي، أيّها الرئيس، لكن يجب ألّا تغضب: كوِّم كلّ هذه الكتب وأشعل فيها النار. وبعد ذلك، من يعلم، فأنت لست أبله، إنّك رجل شجاع. . . يمكن أن يُصنع منك شيء ما!

وهتفت في نفسي: «إنّه على حقّ، إنّه على حقّ، لكنّني لا أستطيع!». وتردّد زوربا، وفكّر. ثم بعد لحظة قال:

ـ ثمّة شيء أفهمه و. . .

ـ ماذا؟ قله!

ـ لست أدري على الضبط. يبدو لي، هكذا، أنّني أفهم شيئًا ما. لكن لو حاولت أن أقوله لهدمت كلّ شيء. وذات يوم عندما أكون مستعدًّا، سأرقصه لك.

وازداد المطر عنفًا. ووصلنا إلى القرية. كانت فتيات صغيرات يعدن بالخراف من المراعي، والحرّاث قد فكّوا الثيران، تاركين حقولهم نصف محروثة، والنساء يجرين وراء أطفالهنّ في الأزقّة. لقد تملّك القرية خوف سريع عند قدوم العاصفة المطريّة. النساء يطلقن صرخات حادّة وعيونهنّ تضحك، وقطرات المطر الضخمة تتشبّث بلحى الرجال الكثّة وشواربهم المفتولة. وتصاعدت رائحة حادّة من الأرض، من الحجارة والعشب.

ودخلنا، بعد أن تبلّلنا حتى العظام، إلى المقهى ـ المجزرة «الحياء». كانت غاصّة بالرجال، البعض يلعب بالورق، وآخرون يتناقشون بصوت عالٍ، وكأنّهم يتداعون من جبل لآخر. وفي صدر القاعة، كان يتربّع، إلى مائدة صغيرة، على مقعد خشبي، أعيان القرية: العمّ أنانيوستي، الذي يدخّن النارجيلة، وعيناه متّجهتان نحو الأرض، والمعلّم الذي انتصف به العمر، الجافّ، الوقور، المستند إلى عصاه الضخمة، والمُصغي بابتسامة

متنازلة إلى رجل عملاق كثيف الشعر قد عاد توًّا من «كاندي» وراح يصف روائع المدينة الكبيرة. وكان صاحب المقهى، الواقف أمام منضدته، سيصغي ويضحك، مراقبًا دلّات القهوة، الموضوعة على النار.

وما إن رآنا أنانيوستي حتى نهض قائلاً:

ـ تفضّلا بالحضور إلى هنا، يا مواطنيّ. إنّ سفاكيانو نيكولي يروي لنا كلّ ما رآه وسمعه في كاندي، إنّه ظريف حقًّا، تعاليا هنا.

والتفت نحو صاحب المقهى وقال:

ـ كأسين من العرق، يا مانولاكي!

وجلسنا، وانكمش الراعي المتوحّش على نفسه، عندما رأى غرباء، وصمت. وسأله المعلّم ليحمله على الكلام:

ـ إذن، لقد ذهبت أيضًا إلى المسرح، أيّها الكابتن نيكولي؟ كيف وجدته؟

وقدّم سفاكيانو نيكولي يده الضخمة، وقبض على كأس خمره، وجرعها دفعة واحدة، وتشجّع، وصاح:

ـ وكيف لم أذهب؟ لقد ذهبت إلى المسرح بالتأكيد. كنت أسمعهم دومًا يقولون: «كوتوبولي[1] هنا، كوتوبولي هناك». إذن ذات مساء، رسمت إشارة الصليب وقلت: سأذهب إلى هناك، بديني، سأذهب لأراها، أنا أيضًا.

وسأل العمّ أنانيوستي:

ـ وماذا رأيت، أيّها الشجاع؟ قل ذلك!

ـ لا شيء. لم أرَ شيئًا، أقسم لكم على ذلك. كنت أسمعهم يتحدّثون من المسرح واعتقدت أنّ ذلك مسلٍّ. لكن لم يكن الأمر كذلك. إنّني آسف للنقود التي أنفقتها. كان المسرح عبارة عن مقهى كبير، مستدير، وكأنّه

(١) ممثّلة مشهورة في اليونان، واسمها يعني دجاجة صغيرة.

حظيرة، ممتلئ بالناس حتى ليكاد ينفجر، وبالمقاعد والشمعدانات. لم أكن مطمئنًّا، وكان نظري مضطربًا، ولم أكن أرى شيئًا. وقلت في نفسي: «يا إلٰهي! لا بدّ أنّهم يعدّون لي مقلبًا. سأهرب». وفي تلك اللحظة، اقتربت منّي فتاة ترتعش كعصفور صغير، وأخذتني من يدي. فصرخت بها: «قولي، إلى أين تقودينني؟». لكنّها راحت تسحبني، وتسحبني دون أن تهتمّ بما أقوله، ثم التفتت نحوي وقالت لي: «اجلس!» وجلست. كان الناس في كلّ مكان: أمامنا، ووراءنا، ويمينًا وشمالاً، وفي السقف. واعتقدت أنّني سأختنق، بالتأكيد، وأفطس، إذ لم يكن هناك هواء! والتفتُّ نحو جاري: «من أين ستخرج الراقصات إذن، أيّها الصديق؟». فقال لي وهو يشير إلى ستار: «هناك، من الداخل».

وكان هذا صحيحًا! هناك أوّلاً جرس يُقرع، ويرتفع الستار، وتبدو كوتوبولي. لكن على الرّغم من أنّها كانت كوتوبولي إلَّا أنّها كانت امرأة، امرأة حقيقيّة، وأيّ امرأة! وأخذت تمشي وهي تتمايل على الجانبين. كانت تذهب، وتجيء، وبعد ذلك، شبع الناس منها، فراحوا يضربون بأيديهم، فهربت بنفسها».

وتلوّى الفلّاحون ضحكًا. واستاء سفاكيانو نيكولي وعبس. والتفتُّ نحو الباب. وقال كي يغيّر الحديث:

ـ إنّها تمطر!

وتابعت كلّ الأنظار نظره. وفي تلك اللحظة بالضبط، مرّت امرأة وهي تجري، وقد رفعت ثوبها الأسود حتى ركبتيها، وأسبلت شعرها على كتفيها. كانت ممتلئة، متمايلة، وثيابها ملتصقة بجلدها. تتكشّف عن جسد مثير وصلب.

وقفزت. وقلت في نفسي: أيّ حيوان مفترس هناك؟ لقد بدت لي لدنة، خطرة، تلتهم الرجال.

وأدارت المرأة رأسها لحظة وألقت نظرة هاربة تقدحُ بالشرر على

المقهى. وتمتم شابّ صغير قد بدا زغب لحيته، جالس قرب الزجاج:

ـ أيّتها العذراء القدّيسة!

وهدر مانولاكس، حارس الغابة:

ـ عليك اللعنة، يا زارعة الشقاق! إنّ النار التي تشعلينها لا تطفئينها.

وأخذ الشابّ الجالس قرب الزجاج يدندن، بهدوء وتردّد أوّلاً، ثم اخشوشن صوته شيئًا فشيئًا:

إنّ لوسادة الأرملة رائحة السفرجل.

أنا أيضًا شممتها ولم أعد أستطيع النوم.

وصرخ مافراندوني وهو يهزّ أنبوب نارجيلته:

ـ أطبق فاك!

وظلّ الشابّ هادئًا. وانحنى رجل هرم على مانولاكاس، حارس الغابة وقال بصوت خافت:

ـ ها هو عمّك قد بدأ يغضب. لو كان يستطيع لمزّقها إربًا، التعيسة! ليحمها الله!

فقال مانولاكاس:

ـ إيه! أيّها الأب أندرولي، يبدو لي أنّك، أنت أيضًا، متعلّق برداء الأرملة. ألا تخجل، أنت، أيّها القوّاس؟

ـ كلّا! أكرّر عليك ذلك: ليحمها الله! لعلّك لم ترَ الأطفال الذين يولدون في قريتنا منذ بعض الوقت؟ إنّهم جميلون كملائكة. أتستطيع أن تقول لي لماذا؟ حسنًا، هذا بفضل الأرملة! إنّها كما يقولون عشيقة جميع سكّان القرية: فأنت تطفىء النور وتتصوّر أنّها ليست امرأتك تلك التي تحتضنها بين ذراعيك، بل الأرملة. ولهذا، فإنّ قريتنا، كما ترى، تضع أطفالاً في غاية الجمال.

وصمت الأب أندرولي لحظة ثم تمتم:

ـ سعيدة هي الأفخاذ التي تعانقها! آه! يا صديقي، لو كنت في العشرين مثل بافلي، ابن مافراندوني!

فقال أحدهم وهو يضحك:

ـ سنراه الآن وهو عائد!

والتفتوا نحو الباب. كانت تمطر بغزارة. والماء يهدر فوق الحصى، وبين الفينة والفينة يشقّ البرق السماء. ولم يعد زوربا يحتمل، وقد بعث مرور الأرملة الحرارة في نفسه، وأشار لي قائلاً:

ـ إنّها لم تعد تمطر، هيّا بنا!

وعند الباب ظهر صبي شابّ، حافي القدمين، أشعث الشعر، تائه العينين، كبيرهما. هكذا كان الرسّامون يمثّلون القدّيس يوحنّا المعمدان، وقد انتفخت عيناه كثيرًا بسبب الجوع والصلاة.

وصرخ بعضهم ضاحكين:

ـ السلام، يا ميميتو!

إنّ لكلّ قرية عبيطها، وإذا لم يكن فيها أحد، فإنّهم يصنعون واحدًا لتمضية الوقت. وقد كان ميميتو عبيط القرية.

وصرخ بصوته المتلعثم والمخنّث:

ـ أيّها الأصدقاء، أيّها الأصدقاء، لقد أضاعت الأرملة سورمولينا نعجتها. من وجدها له خمسة ليترات من الخمر مكافأة!

فصرخ العجوز مافراندوني:

ـ اغرب عنّا، اغرب عنّا!

وانطوى ميميتو على نفسه، خائفًا، في الزاوية، قرب الباب.

وقال العمّ أنانيوستي مشفقًا:

ـ اجلس، يا ميميتو، تعال اشرب كأسًا من العرق ليدفّئك. إلام تصير قريتنا بدون عبيطها؟

وظهر عند العتبة شابّ يبدو مريضًا، ذو عينين زرقاوين فاتحتين. يلهث، وشعره ملصوق بجبهته يقطر ماء.

وهتف مانولاكاس:

ـ السلام، يا بافلي! السلام أيّها الصغير ابن العمّ! ادخل.

والتفت مافراندوني، ونظر إلى ابنه، وقطّب حاجبيه. وقال في نفسه:

ـ أهذا ابني؟ هذا الطرح؟ بحقّ الشيطان من يشبه؟ أودّ لو أمسكه من عنقه، وأرفعه، وأخبطه على الأرض مثل أخطبوط!

كان زوربا يجلس على أحرّ من الجمر. لقد أشعلت الأرملة لبّه ولم يعد يستطيع البقاء بين هذه الجدران الأربعة. وراح يهمس في أذني كلّ لحظة:

ـ هيّا بنا، أيّها الرئيس، هيّا بنا، إنّنا سنفطس هنا!

وبدا له أنّ الغيوم قد انقشعت وأنّ الشمس قد ظهرت من جديد. والتفت نحو صاحب المقهى وسأله وهو يتظاهر باللامبالاة:

ـ من هذه الأرملة؟

ـ فأجاب كوندو مانيولو:

ـ فرس.

ووضع إصبعًا على شفتيه وأشار بعينه إلى مافراندوني الذي اتّجهت عيناه من جديد إلى الأرض. وأضاف:

ـ فرس، دعنا من هذا الحديث عنها، كي لا نذهب إلى جهنّم.

ونهض مافراندوني ولفّ الأنبوب حول عنق النارجيلة. وقال:

ـ اعذروني. سأعود إلى بيتي. تعال ـ، بافلي، اتبعني!

وأخذ ابنه، وسرعان ما اختفى الاثنان تحت المطر. ونهض مانولاكاس وتبعه.

وتربّع كوندومانوليو على مقعد مافراندوني، وقال بصوت منخفض حتى

لا يسمعه أحد من الطاولات المجاورة:

ـ يا للمسكين مافراندوني، إنّه سيفطس من العار. إنّها لمصيبة كبيرة تلك التي حلّت ببيته. بالأمس، سمعت بافلي، بأذني، يقول له: «إذا لم تصبح زوجتي، فسأنتحر!». ولكنّها، العاهرة، لا تريده. إنّها تدعوه «الساذج!».

وكرّر زوربا قوله، وقد ازداد اشتعالاً عندما سمع الحديث يدور عن الأرملة:

ـ هيّا بنا.

وأخذت الديكة تصيح، وخفّ المطر قليلاً. فقلت وأنا أنهض:

ـ هيّا!

وقفز ميميتو من زاويته، وسار في أثرنا.

كانت الحصى تلمع، واسودّت الأبواب المبلّلة بالمطر، وخرجت العجائز القميئات بسلالهنّ ليجمعن الحلزون.

واقترب ميميتو منّي ولمس ذراعي قائلاً:

ـ أعطني سيجارة، أيّها الرئيس، فهذا يجلب لك الحظّ في الحبّ.
وأعطيته سيجارة. ومدّ يده النحيفة، التي أحرقتها الشمس وقال:

ـ أعطني أيضًا كبريتًا!

وأعطيته، واستنشق الدخان حتى أعماق رئتيه، ونفثه من منخريه وأغمض عينيه نصف إغماضة وتمتم:

ـ إنّني مبسوط مثل باشا!

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ إلى حديقة الأرملة. لقد قالت إنّها ستقدّم لي طعامًا إذا أعلنت لها عن نعجتها.

كنّا نسير بسرعة وتمزّقت الغيوم قليلاً، وظهرت الشمس. وابتسمت

القرية كلّها، بعد أن اغتسلت بالمطر.

وقال زوربا، وقد تصاعد اللعاب إلى فمه:

ـ أتعجبك، الأرملة، يا ميميتو؟

ـ ولماذا لا تعجبني؟ ألم أخرج من بالوعة، أنا أيضًا؟

فقلت مندهشًا:

ـ من بالوعة؟ ماذا تعني، يا ميميتو؟

ـ من بطن امرأة.

وارتعدت. وقلت في نفسي: إنّ شكسبير وحده، يستطيع، في مثل هذه الدقائق الخلّاقة، أن يجد تعبيرًا واقعيًّا فجًّا إلى هذا الحدّ، ليصف سرّ الولادة الغامض والمقرف.

ونظرت إلى ميميتو. كانت عيناه كبيرتين، فارغتين، حولاوين قليلاً.

ـ كيف تمضي أيّامك، يا ميميتو؟

ـ كيف تريد أن أمضيها؟ مثل باشا! أستيقظ صباحًا، وآكل قطعة من الخبز، ثم أبدأ بالعمل، وأقوم بأعمال السخرة، لا يهمّ أين، ولا ماذا. إنّني أقوم بحمل الرسائل، وأنقل السماد، وأجمع الروث. وأقطف الثمار. إنّني أسكن عند خالتي، الأمّ لينيو، النوّاحة. من المحتمل أنّك تعرفها، فكلّ الناس يعرفونها. حتى لقد صوّروها. وعند المساء، أعود إلى البيت، وآكل صحفة من الحساء وأشرب قليلاً من الخمر. وإذا لم يكن هناك خمر فإنّني أشرب ماءً، ماء الله الرحمٰن، حتى أرتوي، ويصبح بطني كالطبل. وبعد ذلك، ليلة سعيدة!

ـ ولن تتزوّج، يا ميميتو؟

ـ أنا؟ إنّني لست مجنونًا! ما الذي تقوله يا صديقي؟ آآتي بالهمّ لرأسي؟ إنّ المرأة تحتاج إلى الأحذية! فمن أين أجد لها منها؟ إنّني أسير حافي القدمين.

ـ أليس عندك حذاء؟

ـ كيف ليس عندي؟ إنّه الحذاء الذي نزعته خالتي لينيو من قدمي شخص مات في العام الماضي. لكنّني لا ألبسه إلّا في عيد الفصح لأذهب إلى الكنيسة، وأتسلّى بالنظر إلى الكهنة. وبعد ذلك، أخلعه، وأضعه في رقبتي وأعود إلى البيت.

ـ ما الذي تحبّه أكثر من أيّ شيء آخر في الدنيا، ميميتو؟

ـ أوّلاً الخبز. آه كم أحبّه! وهو ساخن! ومحمَّص، على الأخصّ إذا كان خبز حنطة! ثم، الخمر، ثم النوم.

ـ والنساء؟

ـ بف! كلْ واشربْ ونمْ، كما أقول لك. وكلّ ما تبقّى همّ؟

ـ والأرملة؟

ـ دعها للشيطان، فهذا أفضل ما تفعله! ألا ابتعد عنّي يا إبليس! وبصق ثلاث مرّات ورسم إشارة الصليب.

ـ أتعرف القراءة؟

ـ مطلقًا! عندما كنت صغيرًا، جرّوني بالقوّة إلى المدرسة، لكن سرعان ما أصبت بالتيفوس، وأصبحت أبله. وهكذا تخلّصت منها!

وضجر زوربا من أسئلتي، ولم يكن يفكّر بغير الأرملة، وقال لي وهو يأخذني من ذراعي:

ـ أيّها الرئيس...

والتفت نحو ميميتو وأمره قائلاً:

ـ سر أمامًا، فلدينا ما نتحدّث عنه.

وخفض صوته، وكان منفعلاً، وقال:

ـ أيّها الرئيس، هنا سأنتظرك. لا تلوّث اسم جنس الذكور! إنّ الشيطان، أو الرحمٰن، يرسل لك هذا الطعام الذي يمكن أن تقبله أو ترفضه. وما دامت لك أسنان، فلا ترفضه! مدّ يدك وخذه! لماذا منحنا

الخالق اليدين؟ لنأخذ! إذن، خذ. لقد رأيت من النساء في حياتي كمّيّات. لكنّ هذه الأرملة تستطيع أن تسقط قبب الأجراس، تلك اللعينة!

فقلت غاضبًا:

ـ إنّني في غنى عن الإزعاجات.

لقد ثارت عصبيّتي، لأنّني، أنا أيضًا، في داخلي، اشتهيت ذلك الجسد الفائق القوّة، الذي مرّ أمامي، كحيوان مفترس يبحث عن أنثى.

فقال زوربا مدهوشًا:

ـ ألا تريد إزعاجات؟ فماذا تريد إذن؟

ولم أجب. وتابع زوربا:

ـ إنّ هذه الحياة إزعاج. أمّا الموت فلا. أن تعيش، أتعرف ماذا يعني هذا أن تفكّ حزامك، وتبحث عن قتال.

ولم أقل شيئًا. كنت أعرف أنّ زوربا محقّ، كنت أعرف ذلك، ولكنّني أفتقد إلى الشجاعة. لقد تنكّبت حياتي الدرب الصحيح، ولم يكن احتكاكي بالبشر إلّا مونولوجًا داخليًّا. لقد انحدرت وانحدرت حتى إنّه لو كان عليّ أن أختار بين الوقوع في حبّ امرأة أو قراءة كتاب جيّد عن الحبّ، لاخترت الكتاب. وتابع زوربا:

ـ دعك من الحسابات، أيّها الرئيس، وابتعد عن الأرقام، واهدم الميزان اللعين، وأغلق الدكّان، كما أقول لك. فالآن ستنقذ روحك أو تخسرها. اسمع أيّها الرئيس، خذ ليرتين أو ثلاثًا، ولتكن ليرات ذهبيّة، فالليرات الورقيّة لا تملأ العين، واعقدها في منديل وأرسلها إلى الأرملة بواسطة ميميتو. وعلّمه ما الذي يجب أن يقوله: «إنّ رئيس المنجم يحيّيك ويرسل لك هذا المنديل الصغير. وقد قال إنّ هذه أشياء قليلة، لكنّ معها كثيرًا من الحبّ. وقال أيضًا لا تهتمّي بسبب النعجة، فإذا ضاعت، فلا تحزني. فنحن هنا، لا تخافي! لقد رآك تمرّين أمام المقهى، ومنذ ذلك الحين، لم يعد يفكّر إلّا بك».

هو ذاك! ثم، في المساء نفسه، تقرع بابها. يجب أن تطرق الحديد عندما يكون حاميًا. وتقول لها أيضًا إنّك تهت في الطريق، وإنّ الليل فاجأك وإنّك بحاجة إلى فانوس، أو إنّك أصبت بوجع على حين غرّة، وإنّك تريد قدح ماء. أو بالأحرى، تشتري نعجة، وتأخذها وتقول: «خذي، يا جميلتي، تلك هي النعجة التي أضعتها، لقد وجدتها!». وثق بي، أيّها الرئيس، فستكافئك الأرملة وستدخل ـ آه! لو كنت أستطيع أن أجلس وراءك على الحصان! ـ ستدخل على الحصان إلى الجنّة. وأؤكّد لك، يا صديقي، أنّه ليست هناك جنّة أخرى غير هذه. لا تصغِ إلى ما يقوله الكهنة، فليس هناك جنّة أخرى!

ولا بدّ أنّنا اقتربنا من حديقة الأرملة، لأنّ ميميتو تنهَّد، وأخذ بصوته المتلعثم، يغنّي ألمه:

إنّ الكستناء تحتاج إلى خمر والجوز إلى عسل،

والفتاة إلى شابّ والشابّ إلى فتاة.

وحثّ زوربا خطاه. واختلج منخراه. وتوقّف، وتنهَّد بعمق ونظر إليّ، وقال وقد فقد الصبر:

ـ إذن؟

فأجبت بجفاء:

ـ لنذهب!

وحثثت خطاي.

وهزّ زوربا برأسه ودمدم بشيء ما لم أسمعه. وعندما وصلنا إلى الكوخ، جلس، متصالب القدمين، ووضع السانتوري على ركبتيه، وخفض رأسه، غارقًا في التأمّل. كأنّه يصغي إلى أغانٍ لا تحصى ويحاول أن يختار واحدة منها، أكثرها جمالاً أو يأسًا. وأخيرًا قام باختياره، وأنشد لحنًا مؤسيًا. وكان، بين الفينة والفينة، يرمقني بطرف عينه. وأحسست أنّ كلّ ما لا يستطيع أو يجرؤ على قوله بالكلمات، يعبّر عنه بالسانتوري. وكان هذا

السانتوري يقول إنّني أفسدت حياتي، وإنّني أنا والأرملة حشرتان لا تعيشان إلّا لحظة واحدة تحت الشمس، ثم تموتان إلى الأبد. وبعد ذلك لا شيء! لا شيء!

ونهض زوربا بقفزة. لقد فهم فجأة أنّه يتعب نفسه بلا جدوى. واستند إلى الحائط وأشعل سيجارة، ثم قال بعد فترة:

ـ أيّها الرئيس، سأسرّ لك بشيء قالته لي ذات يوم في سالونيك خادمة عجوز، سأسرّ لك به، حتى ولو كان لا يفيد شيئًا.

في ذلك الوقت، كنت أعمل كبائع جوّال في ماسيدونيا. كنت أذهب إلى القرى لأبيع مكبّات الخيطان، والإبر، وحياة القدّيسين، واللبان، والبهار. كان لي صوت رائع، صوت بلبل حقًّا. ويجب أن تعلم أنّ النساء يؤخذن بالصوت أيضًا. (وبماذا لا يؤخذن، العاهرات؟). الله يعلم ما الذي يجري في أحشائهنّ! يمكنك أن تكون قبيحًا، أعرج، أحدب، لكن إذا كان صوتك عذبًا وتعرف الغناء، فإنّك تسبي عقولهنّ.

كنت بائعًا جوّالاً في سالونيك أيضًا، وأمرّ حتى بالأحياء التركيّة. وقد جذب صوتي، على ما يبدو، امرأة مسلمة غنيّة، إلى حدّ أنّها لم تستطع النوم. فاستدعت عند ذاك خادمة عجوزًا وملأت كفّها بالمجيديّات وقالت لها: «آمان، قولي للبائع الجوّال الكافر أن يأتي، آمان! يجب أن أراه! لم أعد أستطيع!».

وجاءتني الخادمة وقالت لي: «أيّها الرومي الشابّ، تعال معي». فأجبتها: «لن آتي. إلى أين تريدين أخذي؟ ـ هناك ابنة باشا كالماء العذب تنتظرك في غرفتها، تعال ـ أيّها الرومي الشابّ!» لكنّني كنت أعلم أنّهم يقتلون المسيحيّين، ليلاً، في الأحياء التركيّة. وقلت: «كلّا، لن آتي» ـ ألا تخشى الله إذن، أيّها الكافر؟ ـ ولماذا أخشاه؟ ـ لأنّ الذي يستطيع، أيّها الرومي الشابّ، أن ينام مع امرأة، ولا يفعل ذلك، يرتكب خطيئة كبيرة. عندما تدعوك امرأة لتقاسمها الفراش، يا ولدي، ثم لا تذهب، فإنّ روحك

تهلك! إنّ هذه المرأة ستتنهّد يوم دينونة الله، وهذه التنهّدة، مهما كنت، وعلى الرّغم من كلّ الأعمال الصالحة التي قمت بها، ستسرع بك إلى جهنّم!

وتنهَّد زوربا، وقال:

ـ إذا كانت الجحيم موجودة، فسأذهب إليها، وسيكون هذا هو السبب. ليس لأنّني سرقت، وقتلت ونمت مع نساء الآخرين، لا، لا! هذا كلّه ليس بشيء ذي بال. إنّ الرحمٰن يغفر هذه الأمور. لكنّني سأذهب إلى جهنّم، لأنّ امرأة كانت تنتظرني، تلك الليلة، في فراشها ولم أذهب إليها..

ونهض، وأشعل النار، وبدأ يطبخ. ونظر إليّ من طرف عينه وابتسم باحتقار، وتمتم.

ـ هناك أسوأ ممّن هو أصمّ، وهو الذي لا يريد أن يسمع! وانحنى، وراح ينفخ بشدّة على الأغصان الرطبة.

ـ ٩ ـ

بدأ النهار يقصر، والنور يغرب بسرعة، والقلب يقلق في نهاية كلّ عصر. وتملّكنا من جديد رعب أسلافنا البدائي، الذين كانوا، خلال أشهر الشتاء، يرون الشمس تنطفئ قبل أوانها باستمرار، كلّ مساء. كانوا يقولون في أنفسهم، يائسين: «غدًا ستنطفئ تمامًا»، ويمضون الليلة كلّها على المرتفعات يرتعدون.

كان زوربا يحسّ بهذا القلق، بشكل أعمق وأكثر بدائيّة منّي. وكي يتخلّص منه، لم يعد يخرج من الأنفاق الأرضيّة إلّا بعد أن تشتعل النجوم في السماء.

كان قد وجد عرقًا طيّبًا من اللينيت، ليس فيه رماد كثير، قليل الرطوبة، غنيًّا بالحريرات، وكان فرحًا لأنّ الربح كان يبعث في مخيّلته، فجأة، تغيّرات رائعة، ويصبح أسفارًا، ونساء، ومغامرات جديدة. كان ينتظر، بنفاد صبر، اليوم الذي سيربح فيه كثيرًا، والذي سينمو فيه جناحاه ـ فقد كان يدعو المال أجنحة ـ ليطير. وهكذا يمضي الليالي الكاملة وهو يجرّب مصعده الصغير، باحثًا عن الميل المضبوط، كي تهبط الجذوع على مهل، كما يقول، وكأنّ ملائكة تحملها.

وذات يوم، أخذ ورقة طويلة، وأقلامًا ملوّنة، ورسم الجبل والغابة، والمصعد، والجذوع الهابطة المثبّتة بالحبال، وكلّ واحدة منها مجهَّزة بجناحين كبيرين بلون اللازورد. ورسم، في الخليج الصغير المستدير،

مراكب سوداء عليها بحّارة خضر مثل ببّغاوات صغيرة، وزوارق تحمل جذوع أشجار صفراء. وفي الزوايا الأربع يقف أربعة رهبان، ومن أفواههم تطير شرائط ورديّة مكتوب عليها بأحرف سوداء كبيرة: «أيّها السيّد، ما أعظمك وما أعظم أعمالك!»:

منذ بضعة أيّام، وزوربا يشعل النار بسرعة، ويعدّ الطعام، ونأكل. ثم ينطلق نحو طريق القرية. وبعد قليل من الوقت، يعود عابسًا. وكنت أسأله:

ـ إلى أين ذهبت أيضًا، يا زوربا؟

فيقول:

ـ لا تهتمّ بذلك أيّها الرئيس.

ويطرق حديثًا آخر.

وذات مساء، سألني، بعد أن عاد، بقلق:

ـ هل الله موجود، نعم أو لا؟ ما رأيك، أيّها الرئيس؟ وإذا كان موجودًا ـ وكلّ شيء ممكن ـ فكيف تتمثّله؟

وهززت كتفي دون أن أجيب.

ـ لا تضحك، أيّها الرئيس، إنّني أتمثّل الله شبيهًا بي، إنّما أكبر، وأقوى، وأكثر همومًا. وقبل كلّ شيء خالد. إنّه يجلس مرتاحًا فوق جلود خرافٍ لدنة، وكوخه هو السماء. إنّه ليس مصنوعًا من صفائح الوقود مثل كوخنا، من الغيوم. وبيده اليمنى لا يمسك سيفًا أو ميزانًا ـ فهذه الآلات إنّما هي للجزّارين والعطّارين ـ بل يمسك بإسفنجة مليئة بالماء، وكأنّها غيمة من المطر. وعن يمينه، الفردوس، وعن يساره، الجحيم. وعندما تأتي روح من الأرواح، مرتجفة، عارية تمامًا، المسكينة، لأنّها أضاعت جسدها، فينظر إليها الله وهو يُخفي ضحكته، لكنّه يتظاهر بالغضب، ويقول لها بصوت جهوري: «تعالي هنا، أيّتها اللعينة!».

ويبدأ الاستجواب. وتلقي الروح بنفسها على قدمي الله. وتصرخ به: «الرحمة! سامحني!». وتبدأ بتعداد خطاياها. تعدّ ولا تنتهي. ويتملّك

الضجر الله. ويتثاءب. ويصرخ بها: «اسكتي، فقد صدّعت رأسي!». وبلمحة بصر، يمسح بالإسفنجة كلّ خطاياها. ويقول لها: «هيًّا غنِّي، اغربي إلى الفردوس! يا بطرس، أدخل أيضًا هذه الفتاة المسكينة!».

لأنّ الله، أيّها الرئيس، يجب أن تعلم ذلك، سيّد كبير، والنبل هو أن تغفر!

وفي ذلك المساء، تذكّرت أنّني كنت أضحك بينما كان زوربا منطلقًا في هذره العميق. لكنّ «نبل» الله هذا راح يتجسَّد وينضج فيّ، وكلّه إشفاق، وكرم، وقدرة فائقة.

وفي مساء آخر، بينما كانت السماء تمطر ونحن متكوّمان في كوخنا، مشغولان بشيّ الكستناء في الموقد، أدار زوربا عينيه نحوي ونظر إليّ مليًّا وكأنّه يريد أن يكشف سرًّا كبيرًا. وفي النهاية، لم يعد يستطيع. قال:

ـ أريد أن أعرف، أيّها الرئيس، ما الذي يمكن أن تجده عندي؟ ما الذي تنتظر لتأخذني من أذني، وتلقي بي خارجًا؟ لقد قلت إنّهم يدعونني «مليديو» لأنّني حيثما ذهبت لا أترك حجرًا على حجر... إنّ أعمالك صائرة إلى الدمار. ألقِ بي خارجًا، أقول لك!

فأجبت:

ـ إنّك تعجبني. لا تطلب أكثر من ذلك.

ـ ألا تفهم إذن، أيّها الرئيس، أنّه ليس لمخِّي ثقل! لعلّ عندي أكثر، أو أقلّ، لكن ليس الثقل اللازم، يقينًا لا! اسمع، ستفهم: ها قد مرّت أيّام وليالٍ منذ أن تركتني الأرملة بدون راحة. ليس من أجلي، كلّا، أقسم لك. أنا، تلك قضيّة مضمونة، لن أتعرّض لها. إنّها ليست من أجل منقاري، ليأخذها الشيطان! لكنّني لا أريد أن يفقدها جميع الناس، لا أريد أن تنام لوحدها. سيكون ذلك أمرًا يدعو للأسف، أيّها الرئيس، إنّني لا أستطيع تحمّله. إذن، فإنّني أتسكّع ليلاً حول حديقتها. أتعرف لماذا؟ لأرى إذا كان ثمّة شخص سينام معها، فأستطيع الاطمئنان!

وأخذت أضحك.

ـ لا تضحك، أيّها الرئيس! إذا نامت امرأة لوحدها، فهذه خطيئتنا، نحن الرجال. سنقدّم جميعًا الحساب يوم الدينونة الأخير. إنّ الله يغفر جميع الخطايا، كما يقال، ففي يده الإسفنجة، لكنّ هذه الخطيئة، لن يغفرها. يا لشقاء الرجل الذي كان يستطيع أن ينام مع امرأة ولم يفعل! أيّها الرئيس. ويا لشقاء المرأة التي كانت تستطيع أن تنام مع رجل ولم تفعل! تذكّر ما قالته العجوز التركيّة.

وصمت قليلاً ثم سأل فجأة:

ـ وعندما يموت الإنسان، هل يستطيع أن يعود إلى الأرض بشكل آخر؟

ـ لا أعتقد ذلك، يا زوربا.

ـ ولا أنا. لكن لو كان يستطيع، فإنّ هؤلاء البشر الذين أحدّثك عنهم، الذين رفضوا أن يخدموا، ولنقل هربوا من الحبّ، سيعودون إلى الأرض، أتعرف كيف؟ مثل البغال!

وصمت من جديد وغرق في التفكير. فجأة شعَّت عيناه وقال، وقد أثاره اكتشافه:

ـ من يعرف، فلعلّ جميع البغال التي نراها اليوم في العالم، هي هؤلاء الناس، الغليظون، الذين كانوا أثناء حياتهم رجالاً ونساء دون أن يكونوا كذلك حقًّا، ولهذا انقلبوا إلى بغال. ولهذا يرفسون دومًا. ما رأيك في ذلك، أيّها الرئيس؟

فأجبت ضاحكًا:

ـ أظنّ أنّ عقلك يزن بالتأكيد أقلّ من اللازم. قم، وتناول السانتوري.

ـ لا يوجد سانتوري هذا المساء، أيّها الرئيس، يجب ألّا تغضب. إنّني أتحدّث، وأتحدّث، وأقول الحماقات، أتدري لماذا؟ لأنّ في رأسي همومًا عظيمة. إزعاجات كبيرة. إنّ النفق الجديد سيحدث لنا متاعب.

وأنت تتحدّث عن السانتوري. . .

وعلى أثر ذلك، أخرج بعض الكستناء من الرماد، وقدّم لي قبضة منها، وملأ كأسينا بالعرق. وقلت وأنا أقرع كأسي بكأسه:

ـ ليكن الله في عوننا!

فكرّر زوربا:

ـ ليكن الله في عوننا، إذا شئت. . . لكن، حتى الآن، لم يأتِ هذا بفائدة. . .

وجرع السائل الحارّ دفعة واحدة وتمدّد على فراشه. وقال:

ـ غدًا، سأحتاج إلى قوّة كبيرة. فعليّ أن أقاتل ضدّ ألف شيطان. ليلة سعيدة!

في اليوم التالي، عند الفجر، نزل زوربا إلى المنجم. كانوا قد حفروا نفقًا طويلاً في العرق الطيّب، وراح الماء يرشح من السقف، والعمّال يغوصون في الوحل الأسود.

وكان زوربا، منذ أوّل أمس، قد جاء بالخشب ليدعم النفق. لكنّه كان قلقًا. فجذوع الأشجار لم تكن ضخمة كما يجب. وبغريزته العميقة، التي تجعله يحسّ بالذي يجري في تلك المتاهة الأرضيّة، كما يحسّ بما يجري في جسده بالذات، كان يعلم أنّ التدعيم بالخشب ليس مضمونًا، ويسمع صريرًا خافتًا، لم يستطع الآخرون بعد أن يميّزوه، وكأنّ دعامات السقف تئنّ تحت الثقل.

وثمّة شيء آخر كان يزيد في قلق زوربا، ذلك المساء، ففي اللحظة التي كان يستعدّ فيها للنزول إلى النفق، مرَّ كاهن القرية، الأب إسطفان، على بغله، وهو متّجه بسرعة نحو الدير المجاور، ليمنح الأسرار إلى راهبة تحتضر. ولحسن الحظّ تمكّن زوربا أن يبصق ثلاث مرّات على الأرض، قبل أن يوجّه إليه الكاهن الكلام.

وردّ، بطرف أسنانه، على تحيّة الكاهن:

ـ صباح الخير، أيّها الكاهن!

وبصوت أخفض تمتم:

ـ لتحلّ لعنتك عليّ!

ومع ذلك أحسّ أنّ هذه الرقيّة ليست كافية، ونزل، بعصبيّة، إلى النفق الجديد.

كانت تفوح رائحة ثقيلة من اللينيت وغاز الاستصباح. بينما كان العمّال قد بدأوا بتعزيز العضادات وتدعيم النفق، فتمنّى لهم زوربا صباحًا خيّرًا، وبجفاء، وعبوس، شمّر عن ساعديه وبدأ يعمل.

كان اثنا عشر عاملاً يفتّتون العرق بضربات المعاول، ويجمعون الفحم عند أقدامهم، فينقله عمّال آخرون بالرفش إلى عجلات يدويّة صغيرة، ويحملونه خارجًا.

وتوقّف زوربا فجأة وأشار إلى العمّال أن يفعلوا مثله وأصاخ سمعه. وكما يتّحد الفارس بحصانه ويشكّل معه كلًّا واحدًا مثل القبطان وسفينته، كذلك كان حال زوربا مع المنجم، فيحسّ بالنفق وهو يتشعّب كالأوردة في جسده، وما لم تكن كتل الفحم السوداء تستطيع أن تحسّ به، كان زوربا يحسّ به بصفاء بشري واعٍ.

وراح يتنصّت، وقد مدّ أذنه الكبيرة المليئة بالشعر. وفي تلك اللحظة وصلت. وكنت قد استيقظت قافزًا، وكأنّ نذيرًا ما، كأنّ يدًا دفعتني. ولبست بسرعة ووثبت خارجًا، دون أن أدري لِمَ أنا مستعجل هكذا ولا إلى أين أذهب، لكنّ جسدي أخذ، دون تردّد، طريق المنجم. ووصلت في اللحظة التي كان زوربا يرهف فيها أذنه، قلقًا، لينصت.

وقال بعد لحظة:

ـ لا شيء... خيّل إليّ... إلى العمل، أيّها الأولاد!

والتفت، ورآني، وزمّ شفتيه:

ـ ما الذي تفعله هنا، باكرًا جدًّا، أيّها الرئيس؟

واقترب منّي وهمس:

ـ ألا تصعد لاستنشاق الهواء، أيّها الرئيس؟ عد في يوم آخر إلى هنا لتقوم بنزهتك القصيرة.

ـ ما الذي يجري، زوربا؟

ـ لا شيء... لقد تخيّلت أشياء. رأيت كاهنًا في الصباح الباكر. اذهب!

ـ إذا كان هناك خطر، أفليس من العار أن أذهب؟

فأجاب زوربا:

ـ نعم.

ـ أكنت ذهبت، أنت؟

ـ كلّا.

ـ إذن؟

فقال بعصبيّة:

ـ إنّ التدابير التي آخذها من أجل زوربا، ليست نفسها من أجل الآخرين. لكن ما دمت قد فهمت أنّ من العار أن تذهب، فلا تذهب إذن. ابقَ. على رسلك!

وأخذ مطرقته، وانتصب على أطراف قدميه وراح يثبّت بمسامير ضخمة خشب السقف. وتناولت من فوق إحدى العضادات مصباحًا بغاز الاستصباح، ورحت أذهب وأجيء في الوحل، وأنا أنظر إلى العرق الأسمر القاتم اللامع. لقد دفنت هنا غابات شاسعة، وانقضت آلاف السنين، ومضغت الأرض، وهضمت، وحوّلت أطفالها. وأصبحت الأشجار لينيتًا، واللينيت فحمًا، وجاء زوربا...

أعدت المصباح إلى مكانه ونظرت إلى زوربا وهو يعمل. كان منصرفًا بكلّيّته إلى الشغل، وذهنه خلو من أيّ شيء آخر، وهو متّحد بالأرض والمعول والفحم. لقد انقلب هو والمطرقة والمسامير إلى جسد واحد،

ليناضل ضدّ الخشب. وكان يتألّم مع سقف النفق الذي يتكوّر. كان يناضل ضدّ الجبل كلّه ليمسك الفحم بالحيلة، بالعنف. إنّ زوربا يشمّ المادّة بثقة لا تخطئ، ويضربها دون أن يخطئ، في مواطن الضعف التي يمكن أن تقهر منها. وبدا لي، كما رأيته في تلك اللحظة، متّسخًا، مليئًا بالغبار، لم يبقَ فيه موضع أبيض سوى عينيه، وكأنّه تنكّر بالفحم، وأصبح فحمًا، كي يستطيع بسهولة أكبر أن يقترب من الخصم ويدخل إلى تحصيناته.

وصحت، وقد امتلكني إعجاب ساذج:

ـ هيّا، يا زوربا الشجاع!

لكنّه لم يلتفت. كيف يمكنه أن يتحدّث في هذه اللحظة مع فأر قارض للورق، يمسك في يده، بدلاً من المعول، طرف قلم صغير؟ كان مشغولاً، لا يتنازل للحديث. لقد قال لي ذات مساء: «لا تحدّثني عندما أشتغل، فقد أطقّ. ـ تطقّ، لماذا يا زوربا؟ ـ ها قد عدت إلى «لماذا». مثل غلام. كيف أشرح لك؟ إنّني غارق في العمل بكلّيّتي، أكون متوتّرًا، متصلّبًا، من أصابع قدمي حتى رأسي، ملتصقًا بالصخر أو بالفحم، أو بالسانتوري. فإذا ما لمستني فجأة، إذا ما حدّثتني والتفتُّ، فإنّني قد أطقّ. هكذا».

ونظرت إلى ساعتي: إنّها العاشرة. فقلت:

ـ حان وقت الإفطار، لقد تأخّرتم عن الموعد.

وسرعان ما ألقى العمّال بأدواتهم في زاوية، وجفّفوا العرق عن وجوههم، واستعدّوا للخروج من النفق. لكنّ زوربا لم يسمع شيئًا، لأنّه كان غارقًا في العمل، ولو سمع، لما تحرّك. وأصاخ سمعه من جديد، قلقًا. وقلت للعمّال:

ـ انتظروا، هاكم السجائر!

وبحثت في جيوبي، وكان العمّال حولي ينتظرون.

وفجأةً وثب زوربا. وألصق أذنه بجدار النفق. وعلى ضوء غاز الاستصباح لمحت فمه المفتوح متشنّجًا. وصرخت:

ـ ماذا بك، زوربا؟

لكن، في تلك اللحظة، خُيّل إلينا أنّ سقف النفق كلّه قد رجف فوقنا. وصرخ زوربا بصوت مبحوح:

ـ اهربوا! اهربوا!

وأسرعنا نحو المخرج، لكن ما إن بلغنا العضادة الأولى حتى سمعنا، فوق رؤوسنا، طقطقة أخرى أقوى. وكان زوربا، في تلك الأثناء، يرفع جذع شجرة ضخمة ليدعم به العضادة التي أخذت تتخاذل. وإذا استطاع أن يفعل ذلك بسرعة، فلعلّه سيسند السقف، بضع ثوانٍ، ويمنحنا الوقت الكافي لنهرب.

وصرخ زوربا ثانية بصوت أصمّ، هذه المرّة، وكأنّه خارج من أحشاء الأرض:

ـ اهربوا!

وأسرعنا جميعًا، بذلك الجبن الذي يتملّك الرجال غالبًا في اللحظات الحرجة إلى الخارج، دون أن نهتمّ بزوربا. لكن بعد بضع لحظات استطعت أن أهدّئ روعي وانطلقت نحوه، وصرخت:

ـ زوربا! زوربا!

لقد خُيّل إليّ أنّني صرخت، لكنّني فهمت بعد ذلك أنّ الصرخة لم تخرج من حنجرتي، لقد خنق الرعب صوتي.

وتملّكني الخجل. وتراجعت خطوة إلى الوراء ومددت ذراعي. كان زوربا قد انتهى من تدعيم العضادة الضخمة، ثم زحف في الوحل، وقفز نحو المخرج، شبه المظلم. وسقط عليّ، بسبب اندفاعه. وعلى دون إرادة منّا، سقط كلٌّ منّا بين ذراعي الآخر.

وصاح بصوت مخنوق:

ـ لنهرب! لنهرب!

ورحنا نركض ووصلنا إلى الضوء. وكان العمّال المتجمّعون عند

المدخل يترقّبون، شاحبين، دون كلام.

وسمعنا طقطقة ثالثة، أقوى، كطقطقة شجرة حطّمتها العاصفة. وفجأة انفجر هدير قوّي، وتعالى مزمجرًا كالرعد، وهزّ الجبل، وانهار النفق.

وتمتم العمّال وهم يرسمون إشارة الصليب:

ـ يا للرحمة الإلٰهيّة!

وصرخ زوربا غاضبًا:

ـ أتركتم معاولكم، في الداخل؟

فصمت العمّال. فصرخ من جديد، مغيظًا:

ـ لماذا لم تأخذوها؟ لقد فعلتموها في سراويلكم، أيّها الشجعان! يا حسرتي على الأدوات!

فقلت متدخّلاً:

ـ أهذا هو الوقت لنهتمّ بالمعاول، يا زوربا! لنفرح لأنّ أحدًا لم يصب بأذى! إنّنا مدينون لك بشمعة كبيرة، يا زوربا، فبفضلك أنت نحن لا نزال أحياء.

فقال زوربا:

ـ إنّني جائع. لقد هدّني الحادث.

وأخذ كيسه الذي فيه إفطاره، ووضعه على صخرة، وفتحه، وأخرج خبزًا، وزيتونًا، وبصلاً، وبطاطا مسلوقة، وكوز خمر صغيرًا.

وقال، وفمه ممتلئ:

ـ هيّا، أفطروا، أيّها الرفاق!

كان يبلع بشراهة، بسرعة، كأنّه فقد فجأة كثيرًا من القوى، فهو يريد أن يعوّض عنها.

وأكل بصمت، محنيّ الظهر، وأخذ الكوز، وألقى برأسه إلى الوراء وصبّ الخمر في حلقومه اليابس.

وتشجَّع العمّال أيضًا، وفتحوا زوّاداتهم وبدأوا يأكلون. كانوا جميعًا قد جلسوا، متربّعين حول زوربا، يأكلون وهم ينظرون إليه. لقد ودّوا لو يلقون بأنفسهم على قدميه، ويقبّلون يديه، لكنّهم كانوا يعلمون أنّه سريع الغضب، غريب المزاح، ولم يجرؤ أيّ واحد منهم على البدء بذلك.

في النهاية، حزم ميشيليس أمره، وهو أكبرهم سنًّا، وله شاربان رماديّان، وتكلّم قائلاً:

ـ لو لم تكن موجودًا، أيّها المعلّم ألكسيس، لكان أطفالنا قد أصبحوا أيتامًا الآن.

فقال زوربا وفمه مليء:

ـ أطبق فمك!

ولم يجرؤ أحد على التفوّه بكلمة واحدة.

ـ ١٠ ـ

«من الذي خلق إذن تلك المتاهة من الشكّ، ذلك المعبد من الخيلاء، ذلك الدنّ من الخطايا، ذلك الحقل المزروع بألف خدعة، ذلك الباب المؤدّي إلى جهنّم، تلك السلّة الطافحة بالأكاذيب، ذلك السمّ الذي يشبه العسل، تلك السلسلة التي تربط الأنام بالأرض: المرأة!».

كنت أنسخ، ببطء، بصمت، هذا النشيد البوذي، وأنا جالس على الأرض، قرب الموقد المشتعل، ورحت أجهد، آخذًا برقيّة تلو برقيّة، لطرد جسد مبلّل بالمطر من ذهني، كان يتبختر، ويمرّ ويمرّ، طيلة ليالي الشتاء تلك، أمامي في الهواء الرطب. ولست أدري، على أثر انهيار النفق، إذ كادت روحي تنتهي، كيف انبجست الأرملة في دمي، وراحت تناديني، كحيوان مفترس، بلهجة آمرة، مليئة بالتأنيب. كانت تصرخ:

ـ تعالَ، تعالَ، ليست الحياة إلّا كالبرق، سريعة الزوال. تعال مسرعًا، تعالَ، تعالَ، قبل أن يفوت الأوان!

كنت أعلم جيّدًا أنّ هذا هو «مارا»، روح الشرّ، يتستّر في جسد امرأة، قويّة الردفين. وكنت أقاوم. ورحت أكتب «بوذا»، كما كان المتوحّشون يرسمون في مغاورهم بحجر مدبّب أو يصوّرون بالأحمر والأبيض الحيوانات المفترسة التي تجول حولهم جائعة. كانوا يحاولون، هم أيضًا، أن يثبّتوها، برسمها وتصويرها، على الصخرة، ولو لم يفعلوا ذلك لانقضّت عليهم.

منذ اليوم الذي كدت أُسحق فيه، والأرملة تمرّ في فضاء وحدتي الملتهب، وتشير إليّ وهي تهزّ كشحيها بتلذّذ. في النهار، أكون قويًّا، متيقّظ الذهن، فأستطيع طردها. وأكتب كيف تمثّل المجرّب لبوذا، وكيف تستّر في ثياب امرأة، وكيف أسند المشرئبّين إلى ركبتي الناسك، وأخيرًا، كيف رأى بوذا الخطر، فاستنفر كلّ كيانه واضطرّ إبليسَ إلى الهرب. وأتمكّن، أنا أيضًا، من اضطرارها إلى الهرب.

كانت الطمأنينة تعود إليّ، عند كلّ كلمة أكتبها، وأتشجّع، وأشعر بإبليس وهو ينسحب، مطرودًا بقوّة الرقية الفائقة: الكلمة. كنت أناضل، نهارًا، بكلّ قواي، لكنّ عقلي يضع سلاحه، ليلاً، وتنفتح الأبواب الداخليّة وتدخل الأرملة.

وأستيقظ، صباحًا، منهكًا، مقهورًا، وتبدأ الحرب من جديد. أحيانًا أرفع رأسي، فأرى النهار قد أوشك على الغروب، والنور يتراجع مطاردًا، وتنهار الظلمة فوقي فجأة. كان النهار يتقاصر باستمرار. واقترب عيد الميلاد، واندفعت في المعركة وأنا أقول في نفسي: «إنّني لست بمفردي. إنّ قوّة كبيرة، النور، تحارب، هي أيضًا، فتارة تنتصر وطورًا تغلب، لكنّها لا تيأس. وأنا أحارب وآمل معها!».

وخُيّل إليّ، وقد شجّعني ذلك، أنّني أخضع لنغم كوني كبير بنضالي ضدّ الأرملة. وكنت أقول في نفسي: «هذا هو الجسد الذي اختارته المادّة المخاتلة لتقهر بهدوء الشعلة الحرّة التي تتصاعد فيَّ ولتطفئها». وأقول أيضًا: «إلٰهيّة هي القوّة التي لا تفنى، والتي تحوّل المادّة إلى روح. إنّ في كلّ إنسان جزءًا من هذه الدوّامة الإلٰهيّة، ولهذا فهو ينجح في تحويل الخبز والماء واللحم إلى فكر وعمل. إنّ زوربا على حقّ: قل لي ماذا تفعل بما تأكله، أقل لك من أنت!».

رحت إذن أجهد، بمشقّة، في تحويل رغبة الجسد العنيفة هذه إلى «بوذا». وقال لي زوربا، ذات مساء عشيّة الميلاد، وكان يشكّ في الشيطان الذي أحارب ضدّه:

ـ فيمَ تفكّر؟ إنّك لا تبدو على ما يرام، أيّها الرئيس.

وتظاهرت بأنّني لم أسمع. لكنّ زوربا ما كان ليستسلم بسهولة، فقال:

ـ إنّك شابّ، أيّها الرئيس.

وفجأة، رنّ صوته مريرًا غاضبًا:

ـ إنّك شابّ، قويّ، تأكل جيّدًا، تشرب جيّدًا، تتنشّق هواء البحر المنعش، تكدِّس قواك، وماذا تفعل بكلّ ذلك؟ إنّك تنام لوحدك. هذا يدعو للأسف! هيّا، هذا المساء بالذات، لا تضع الوقت، كلّ شيء في العالم بسيط، أيّها الرئيس. كم مرّة يجب أن أكرّر عليك ذلك؟ فلا تعقِّد إذن كلّ شيء!

كان مخطوط «بوذا» مفتوحًا أمامي، ورحت أقلّبه، مصغيًا إلى كلمات زوربا، وأنا عالم أنّها تفتح دربًا أمينًا. ومعها، كانت أيضًا روح مارا، الوسيط المخاتل، تنادي.

وأصغيت له، دون أن أفوه بكلمة، عازمًا على المقاومة، وأنا أقلّب ببطء المخطوط، وأصفّر كي أخفي اضطرابي. لكنّ زوربا، وقد رآني صامتًا، انفجر:

ـ إنّها ليلة الميلاد، هذا المساء، يا صديقي، أسرع، واذهب لتجدها قبل أن تذهب إلى الكنيسة. في هذا المساء يولد المسيح، فقم بمعجزتك، أيّها الرئيس، أنت أيضًا!

ونهضت، متضايقًا، وقلت:

ـ هذا يكفي، يا زوربا. إنّ كلّ إنسان يتبع طريقه الخاصّ. إنّ الإنسان، اعلم ذلك، شبيه بالشجرة. هل سمعت ذات مرّة إلى خصام شجرة تين لأنّها لا تحمل كرزًا؟ إذن، اصمت! إنّ الساعة تقارب منتصف الليل، فهيّا إلى الكنيسة، لنرى، نحن أيضًا، ولادة المسيح.

ووضع زوربا على رأسه قبّعته الشتويّة الضخمة، وقال سئمًا:

ـ حسنًا! هيّا! لكنّني أصرّ على أن أعلّمك أنّ الله سيُسرّ أكثر لو ذهبت

هذا المساء إلى الأرملة، مثل الملاك جبريل. ولو سار الله في الطريق نفسه الذي سرت فيه، أيّها الرئيس، لما ذهب أبدًا إلى مريم ولما ولد المسيح. ولو سألتني في أيّ طريق سار الله، لقلت لك: في الطريق الذي يؤدّي إلى مريم. ومريم، هي الأرملة.

وسكت منتظرًا الجواب، لكن عبثًا. وفتح الباب بقوّة، وخرجنا. وأخذ يضرب، بطرف عصاه، الحصى، بنفاد صبر. وكرّر بعناد:

ـ نعم، نعم، إنّ مريم هي الأرملة!

فقلت:

ـ هيّا، سر! لا تصرخ!

ومشينا، بخطًى سريعة، في الليلة المشتية. كانت السماء صافية إلى حدّ مدهش، والنجوم تلمع، ضخمة، واطئة، مثل كرات ناريّة معلّقة في الفضاء. وكان الليل يزداد هديرًا، كلّما تقدّمنا على طول الشاطئ، مثل حيوان أسود كبير ممدّد على ساحل البحر.

وقلت في نفسي: «بدءًا من هذا المساء، سيأخذ النور الذي زحمه الشتاء في التغلّب. وكأنّه يولد في هذه الليلة مع الطفل الإله».

كان القرويّون جميعًا قد تجمّعوا في خليّة الكنيسة الدافئة العبقة. الرجال في المقدّمة، وفي الخلف النساء، وقد صلّبن أذرعهنّ. وكان الكاهن إسطفان، الطويل، وقد أحنقه صومه أربعين يومًا، يجري، هنا، وهناك، مرتديًا حلّته الذهبيّة الثقيلة، بخطًى عريضة، يحرّك المبخرة، يغنّي بأعلى صوته، مستعجلاً رؤية ولادة المسيح والعودة إلى بيته ليرتمي على الحساء الدسم، والنقانق واللحوم المدخّنة...

لو قالوا: «اليوم يولد النور»، لما هزّ ذلك قلب الإنسان، ولما أصبحت الفكرة أسطورة ولما غزت العالم، إنّها ما كانت لتعبّر إلّا عن ظاهرة فيزيائيّة عاديّة، ولما أثارت مخيّلتنا، أقصد روحنا. لكنّ النور الذي يولد في قلب الشتاء أصبح طفلاً، وأصبح الطفل إلٰهًا، وها قد انقضى

عشرون قرنًا وروحنا تحتفظ به في صدرها وترضعه. . .

بعد منتصف الليل بقليل، انتهى الاحتفال الصوفي. لقد وُلد المسيح. وأسرع القرويّون إلى منازلهم، جائعين، فرحين، ليصفّوا الموائد ويحسّوا، حتى أعماق بطونهم، بسرّ التجسّد. إنّ البطن هو الأساس المتين، فالخبز والخمر واللحم قبل كلّ شيء، ولا يمكن إلّا بالخبز والخمر واللحم خلق الله.

كانت النجوم تلمع، كبيرة كالملائكة، فوق قبّة الكنيسة البيضاء. وكان درب المجرّة، مثل نهر، يجري من طرف السماء إلى طرفها الآخر. وتلألأت نجمة خضراء فوقنا كأنّها زمرّدة. وتنهّدت، قلقًا.

والتفت زوربا نحوي:

ـ أتؤمن بذلك، أيّها الرئيس، أتؤمن بأنّ الله قد أصبح إنسانًا وولد في إصطبل؟ أتؤمن بذلك أم أنّك تسخر من الناس؟

فقلت:

ـ من الصعب إجابتك، يا زوربا. لا أستطيع أن أقول لك إنّني أؤمن بذلك ولا إنّني لا أؤمن. وأنت؟

ـ بالحقّ، إنّني، أنا أيضًا، لست أدري. عندما كنت غلامًا، لم أكن أؤمن مطلقًا بقصص الجنّيّات التي ترويها جدّتي، ومع ذلك، كنت أرتعد من الانفعال، وأضحك، وأبكي، وكأنّني أؤمن بها. وعندما نبتت لي لحية في ذقني، أهملت كلّ تلك القصص، بل سخرت منها أيضًا. لكن، ها أنا الآن، أيّها الرئيس، في أيّامي الأخيرة، ألين وأؤمن بها من جديد. . . يا للإنسان من آلة غريبة!

وسرنا في الطريق المؤدّي إلى منزل السيّدة هورتانس، وحثثنا الخطى، كأنّنا حصانان جائعان استنشقا رائحة الإصطبل. وقال زوربا:

ـ إنّهم في غاية الخبث، آباء الكنيسة أولئك! إنّهم يأخذونك من بطنك، فكيف تستطيع أن تفلت منهم؟ إنّهم يقولون إنّ عليك ألّا تأكل

لحمًا، ولا تشرب خمرًا، خلال أربعين يومًا: إنّه الصوم. لماذا؟ كي تشتهي اللحم والخمر. آه! يا لهم من خنازير سمينة، تعرف كلّ الحيل!

وحثّ خطاه وقال:

ـ أسرع، أيّها الرئيس، فلا بدّ أنّ الدجاجة الهنديّة قد نضجت! عندما دخلنا إلى غرفة سيّدتنا الطيّبة الصغيرة، بسريرها الكبير المغري، كانت المائدة مغطّاة بسماط أبيض، والدخان يتصاعد من الدجاجة، وقد امتدّت أطرافها إلى الأعلى متباعدة، ومن الموقد المشتعل تأتي حرارة بالغة العذوبة.

كانت السيّدة هورتانس قد عقدت شعرها خصلاً، وارتدت روب دي شامبر طويلاً، له وردة قديمة وكمّان عريضان وتخاريم منسّلة. وكان يحيط بعنقها المجعّد، في ذلك المساء، شريط عرضه أصبعان، لونه أصفر كناريّ، وقد ضمَّخت إبطيها بماء زهر البرتقال.

وقلت في نفسي: «ما أشدّ انسجام كلّ شيء فوق هذه الأرض! ما أشدّ انسجام الأرض مع القلب البشري! هي ذي هذه المغنّية العجوز تسقط الآن، بعد أن طافت في كلّ مكان، فوق هذا الساحل المنعزل، فتجمع في هذه الغرفة الحقيرة كلّ اعتناء المرأة المقدّس وحرارتها».

الطعام الغزير المعتنى به، والموقد المشتعل، والجسد المزيّن، المتبرّج، وعطر أزهار البرتقال... كيف تتبدّل كلّ هذه المتع الجسديّة البالغة الإنسانيّة، وبأيّة بساطة وسرعة، إلى فرحة للروح عارمة.

وفجأة، امتلأت عيناي بالدموع. وشعرت بأنّني لم أكن، في هذه الليلة الحافلة، وحيدًا، هنا، على ساحل البحر المقفر. كان ثمّة مخلوق أنثوي يتقدّم نحوي، مليئًا بالإخلاص، وبالحنان والصبر: إنّها الأمّ، الأخت، المرأة. وأحسست فجأة، أنا الذي كان يظنّ أنّه لا يحتاج إلى شيء، أنّني محتاج إلى كلّ شيء.

ولا بدّ أنّ زوربا، بدوره، قد أحسّ بهذا الانفعال العذب، لأنّنا ما

كدنا ندخل، حتى اندفع وأخذ بين ذراعيه المغنّية المتبرّجة. وهتف:

ـ لقد وُلد المسيح! السلام لك، أيّتها المرأة!

والتفت نحوي ضاحكًا:

ـ انظر قليلاً إلى المخلوق المحتال الذي هو المرأة! لقد تمكّنت من إغراء الله بالذات!

وجلسنا إلى المائدة، وارتمينا على الصحاف، وشربنا الخمر، وأحسّ جسدنا بأنّه قد شبع، وارتعدت روحنا من الغبطة. ومن جديد، اشتعل زوربا، وراح يصرخ بي كلّ لحظة:

ـ كلْ واشرب، كلْ واشرب، أيّها الرئيس، وامرح. غنِّ، أنت أيضًا، يا رفيقي، غنِّ كالرعاة: «المجد لله في العلى!...». لقد وُلد المسيح، وليس هذا بالشأن القليل. أطلق أغنيتك، كي يسمعك الربّ ويتهلّل!

لقد عاد إليه حبوره وانطلق:

ـ لقد وُلد المسيح، يا كاتبي، يا عالمي الكبير. لا تصدّع رأسك: أوُلد أم لم يولد؟ يا صديقي، فلا تتحامق! إذا أخذت عدسة مكبّرة لتنظر إلى الماء الذي تشربه ـ لقد قال لي ذلك مهندس ـ فسترى أنّ الماء مليء بالديدان الصغيرة جدًّا، التي لا تُرى بالعين المجرّدة. سترى الديدان ولن تشرب. لن تشرب وستفطس من العطش. حطّم العدسة، أيّها الرئيس، حطّمها حتى تختفي الديدان الصغيرة فورًا فتستطيع أن تشرب وترتوي!

والتفت نحو رفيقتنا المزجّجة، وقال وهو يرفع كأسه:

ـ إنّني سأشرب هذه الكأس، يا بوبولينا العزيزة جدًّا، يا رفيقتي القديمة في المعركة، في صحّتك! لقد رأيت، في حياتي، عددًا لا بأس به من وجوه مقدّمات السفن، إنّها تتسمّر في مقدّمة المركب، ممسكة بأثدائها، وخدودها وشفاهها مطليّة بالأحمر الناري. لقد طافت في كلّ البحار، ودخلت إلى جميع المرافئ، وعندما يبلى المركب، تهبط إلى الأرض المتينة وتظلّ مستندة حتى نهاية أيّامها بجدار حانة للبحّارة يأتي إليها القباطنة ليشربوا.

يا بوبولينتي، إنّك في هذا المساء الذي أراك فيه، على هذا الشاطئ، بعد أن أكلت جيّدًا، وشربت جيّدًا، وتفتّحت عيناي، تبدين لي كوجه مقدِّمة سفينة كبيرة. وأنا مرفؤكِ الأخير، يا دجاجتي، أنا الحانة التي يأتي إليها القباطنة ليشربوا. تعالي، واستندي إليّ، وهلمّي بأشرعتك! إنّني أشرب هذه الكأس من الخمر، يا جنّيّتي، في صحّتك!

وأخذت السيّدة هورتانس تبكي، منفعلة، مضطربة، واستندت إلى كتف زوربا. وهمس زوربا في أذني:

ـ سترى كيف ستحصل لي إزعاجات، بسبب خطابي الجميل. إنّها لن تتركني هذا المساء، العاهرة! لكن ماذا تريد: إنّني أشفق عليهنّ، المسكينات، نعم، إنّني أشفق عليهنّ!

وصرخ بملء قوّته بجنّيّته:

ـ لقد وُلد المسيح! في صحّتنا!

وأمرّ ذراعه تحت ذراع السيّدة الطيّبة، وأفرغ الاثنان كأسيهما بجرعة واحدة، متعانقين، وهما يتبادلان النظرات بنشوة.

لم يكن الفجر بعيدًا عندما تركت بمفردي الغرفة الصغيرة الدافئة بسريرها الكبير وسرت في درب العودة. لقد احتفلت كلّ القرية، وها هي الآن تنام، والأبواب والنوافذ مغلقة، تحت نجوم الشتاء الضخمة.

كان الطقس باردًا، والبحر يهدر، ونجمة الزهرة معلّقة عند الشرق، تتراقص، عنيدة. ومشيت على طول الشاطئ، ألاعب الأمواج: كانت تنقضّ عليّ لتبلّلني، فأفلت منها، كنت سعيدًا أقول لنفسي:

«تلك هي السعادة الحقيقيّة: ألّا يكون لي أيّ مطمح، وأن أشتغل كعبد، وكأنّ عندي كلّ المطامح. أن أعيش بعيدًا عن البشر، ألّا أحتاج إليهم وأحبّهم. أن أكون في عيد الميلاد، وبعد أن أشرب هنيئًا وآكل مريئًا، أهرب بنفسي بعيدًا عن كلّ فخّ، وفوقي النجوم، والأرض عن يساري، والبحر عن يميني، وفجأة أتبيّن أنّ الحياة قد أتمّت في قلبي معجزتها

النهائيّة: إنّها قد أصبحت قصّة من قصص الجنّيات».

وتمضي الأيّام. كنت أتظاهر بالقوّة والشجاعة، لكنّني كنت أحسّ، في أعمق أعماق قلبي، بأنّني حزين. طيلة أسبوع الأعياد هذا، صعدت الذكريات، مالئة صدري بموسيقى بعيدة وبمخلوقات حبيبة. ومرّة أخرى بدت لي عدالة الأسطورة القديمة: إنّ قلب الإنسان عبارة عن حفرة مليئة بالدم، وعلى أطراف هذه الحفرة يرتمي الأموات الأحبّاء على بطونهم ليلعقوا الدم وتعود الحياة إليهم، وكلّما كانوا عزيزين عليك أكثر شربوا من الدم أكثر.

وفي ليلة رأس السنة، جاءت عصابة من غلمان القرية، يحملون مركبًا كبيرًا من الورق، حتى كوخنا، وبدأوا، بأصواتهم الحادّة والمرحة، ينشدون أغنية «الكالاندا»[1]: «لقد وصل القدّيس باسيل من مسقط رأسه، من مدينة قيصريّة، ووقف هنا، أمام هذا الشاطئ الكريتي الصغير بلونه الأزرق النيلي، ثم اتّكأ على عكّازه، وسرعان ما امتلأ العكّاز بالأوراق، والأزهار، وتعالت أنشودة رأس السنة: «ليمتلئ مسكنك، أيّها المعلّم، بالقمح، بزيت الزيتون والخمر، ولتدعم امرأتك، كعمود من رخام، سقف بيتك، ولتتزوّج ابنتك وتلد تسعة صبيان وفتاة، وليحرّر أبناؤك القسطنطينيّة، مدينة ملوكنا! سنة طيّبة، أيّها المسيحيّون!».

كان زوربا يصغي، مفتونًا، ثم أمسك بطبل الأطفال الصغير، وراح يقرعه مسعورًا.

كنت أنظر، وأصغي، دون أن أقول شيئًا. وأحسست بقلبي تنفصل عنه ورقة أخرى، وتقدّمت خطوة أخرى نحو الحفرة السوداء.

وسأل زوربا الذي كان يغنّي بأعلى صوته مع الصبيان، ويضرب على الطبل:

---

(١) أغنية شعبيّة يونانيّة عن رأس السنة.

ـ ماذا بك، أيّها الرئيس؟ أيّها الرفيق؟ إنّ لونك بلون الأرض، لقد شخت، أيّها الرئيس. إنّني، في مثل هذه الأيّام، أعود من جديد صبيًّا صغيرًا، إنّني أولد ثانية، كالمسيح. ألا يولد، هو، في كلّ السنين؟ وأنا كذلك.

وتمدّدت على سريري وأغلقت عينيّ. لقد كان قلبي مستوحشًا هذا المساء، لا أريد التكلّم.

ولم أستطع النوم. ومرّت كلّ حياتي أمام عينيّ من جديد، سريعة، غير منسجمة، متردّدة كحلم، ورحت أنظر إليها يائسًا، وكأنّ عليّ أن أؤدّي الحساب، هذا المساء، عن كلّ أعمالي. ومثل غيمة زغباء، تسعفها رياح الأعالي، راحت حياتي يتبدّل شكلها، تنحلّ، وتتركّب من جديد. كانت تمسخ ـ بجعًا، كلبًا، شيطانًا، عقربًا، قردًا ـ وراحت الغيمة تتمزّق، وتتفرّق بلا انقطاع، مليئة بقوس قزح، بالريح.

وطلع النهار. لم أفتح عينيّ، بل حاولت أن أركّز رغبتي الآسرة، في تحطيم قشرة المخّ والدخول إلى القناة المظلمة الخطرة حيث تختلط كلّ نقطة بشريّة بالمحيط الكبير. كنت أودّ لو يتمزّق هذا الحجاب بسرعة لأرى ما تحمله لي السنة الجديدة...

ـ صباح الخير، أيّها الرئيس، سنة طيّبة!

وألقاني صوت زوربا بوحشيّة فوق الأرض المتينة من جديد. وفتحت عينيّ، ولمحت زوربا وهو يلقي على عتبة الكوخ برمّانة كبيرة. وتطايرت الياقوتات الطازجة حتى سريري، فجمعت بعضها، وأكلتها، وترطّب حلقي. وصرخ زوربا بمرح:

ـ إنّني أتمنّى لنا أن نربح كثيرًا وأن تحفظنا فتيات جميلات!

ونهض، وحلق، وارتدى أجمل ثيابه ـ سروالاً من الجوخ الأخضر، وسترة من الصوف الخشن الأسمر، وصدرة مصنوعة من وبر الماعز نصف منجردة. ووضع أيضًا قبّعته الصوفيّة الروسيّة، ورفع شاربه وقال:

ـ سأظهر، أيّها الرئيس، في الكنيسة، كممثّل للشركة. ليس من مصلحة المنجم أن يقال عنّا إنّنا ماسونيّان. لن أخسر شيئًا، أليس كذلك! ثم إنّني سأمضي الوقت.

وحنى رأسه وغمز بعينه متمتمًا:

ـ ولعلّني سأرى أيضًا الأرملة.

إنّ الله، ومصالح الشركة، والأرملة الجميلة، تشكّل خليطًا منسجمًا في ذهن زوربا. وسمعت خطاه الخفيفة تبتعد، ووثبت قائمًا. لقد زال السحر، وعادت روحي من جديد إلى سجن الجسد.

* * *

ارتديت ملابسي وسرت على شاطئ البحر. كنت أمشي بسرعة، فرحًا، كأنّني أفلت من خطر أو إثم. وبدت لي فجأة رغبتي المكشوفة عند الصباح في التجسّس على المستقبل والإمساك به قبل أن يولد، كأنّها انتهاك للقدسيّات.

إنّني أذكر صباح يوم اكتشفت فيه شرنقة في قشرة شجرة، في اللحظة التي كانت فيها الفراشة تحطّم الغرف وتتهيّأ للخروج. وانتظرت فترة طويلة، لكنّها تأخّرت، وكنت مستعجلاً. وبعصبيّة، انحنيت وأخذت أدفّئها بأنفاسي. كنت أدفّئها، بنفاد صبر، وبدأت المعجزة تتمّ أمامي، بأسرع ممّا تتمّ عادة. وانفتح الغلاف، وخرجت الفراشة تجرّ نفسها جرًّا. ولن أنسى مطلقًا الشناعة التي شعرت بها عندئذ، فجناحاها لم يكونا قد تفتّحا بعد، وراحت تحاول بكلّ جسدها الصغير المرتعد أن تنشرهما. وأخذت أساعدها بأنفاسي، وأنا منحنٍ فوقها. لكن عبثًا. كان لا بدّ لها من نضج بطيء، ولا بدّ للأجنحة من أن تنمو ببطء تحت الشمس، أمّا الآن فقد فات الأوان. لقد أجبرت أنفاسي الفراشة على الظهور، مثخنة، قبل موعدها وارتجفت يائسة، وبعد عدّة ثوانٍ ماتت في راحة يدي.

هذه الجثّة الصغيرة هي أشدّ ما يثقل على ضميري، على ما أعتقد.

لأنّ اغتصاب القوانين الكبرى، وأنا أفهم الآن ذلك جيّدًا، خطيئة مميتة. يجب ألّا نستعجل، ألّا نفقد الصبر، وأن نتبع بثقة النسق الأبدي.

وجلست على صخرة لأتمثّل بهدوء فكرة رأس السنة هذه. آه! لو تستطيع هذه الفراشة الصغيرة أن تطير أمامي من جديد وتهديني إلى الطريق!

ـ ١١ ـ

استيقظت فرحًا وكأنّني أمسك بهدايا العيد. وكانت الريح باردة، والسماء صافية والبحر يلمع.

وسرت في درب القرية. لا بدّ أنّ القدّاس قد انتهى. وبينما أنا أتقدّم، تساءلت في نفسي بقلق لا مبرّر له عمّن سيكون الشخص الأوّل ـ أيجلب الحظّ؟ أم الشؤم؟ ـ الذي سأراه في بداية هذه السنة. وقلت في نفسي: لو يكون طفلاً صغيرًا، يحمل لعب رأس السنة بين ذراعيه، أو شيخًا صلبًا يرتدي قميصًا أبيض عريض الكمّين، مطرّزهما، مغتبطًا وفخورًا لأنّه أدّى واجبه على الأرض بشجاعة! وكلّما تقدّمت واقتربت من القرية، كان هذا القلق الذي لا مبرّر له يزداد.

وفجأة تخاذلت ركبتاي، فعلى طريق القرية، تحت أشجار الزيتون، ظهرت الأرملة، وهي تسير بخطًى متوازنة، عاقدة منديلها الأسود على رأسها، وقد احمرّ جلدها، رشيقة مندفعة.

كانت مشيتها المتهادية تشبه عن حقّ مشية سوداء، وخُيِّل إليّ أنّ رائحة مسك حادّة تعبق في الجوّ. لو أستطيع الهرب! قلت ذلك في نفسي. وشعرت أنّ هذا الحيوان الحانق لا يرحم، وأنّ النصر الوحيد الممكن تجاهه هو الهرب. لكن كيف أهرب؟ كانت الأرملة تقترب. وخُيِّل إليّ أنّ الحصباء تصرّ وكأنّ جيشًا يمرّ فوقها. ولمحتني، وهزّت برأسها، انزلق منديلها، وظهر شعرها، لامعًا، بلون الفحم. ورمقتني بنظرة ذابلة

وابتسمت. كانت في عينيها عذوبة وحشيّة. وبسرعة كبيرة أصلحت من وضع منديلها، وكأنّها خجلت من أنّها تركت سرّ المرأة العميق يظهر: شعرها.

وددت لو أحدّثها، وأتمنّى لها «سنة طيّبة»، لكنّ حنجرتي كانت جافّة، جفافها يوم انهار النفق وتعرّضت حياتي للخطر، واضطرب القصب الذي يتشكّل منه سياج حديقتها. وسقطت شمس الشتاء على الليمون الذهبي والبرتقال ذي الأوراق الكامدة اللون. وتلألأت الحديقة كلّها كأنّها فردوس.

توقّفت الأرملة، ومدّت ذراعها، ودفعت الباب بعنف وفتحته. وفي تلك اللحظة مررت أمامها. والتفتت، وتركت نظرتها تنساب عليّ، وهي تلاعب حاجبيها.

وتركت الباب مفتوحًا، ورأيتها تختفي، وهي تتمايل على الجنبين، وراء أشجار البرتقال.

عليّ أن أعبر العتبة، وأغلق الباب بالمزلاج، وأركض وراءها وآخذها من خصرها، ودون أن أنبس ببنت شفة أجرّها نحو سريرها الكبير، فهذا ما يدعونه أن تتصرّف كرجل! وهذا ما كان يفعله جدّي، وأتمنّى لو يفعل حفيدي مثل ذلك. أمّا أنا، فلبثت واقفًا هنا، أزن الأمر وأفكّر...

وتمتمت وأنا أبتسم بمرارة: «في حياة أخرى، في حياة أخرى سأتصرّف على نحو أفضل!».

وابتعدت في الوادي المشجّر، وأنا أحسّ بثقل على قلبي، وكأنّني ارتكبت خطيئة مميتة. وتسكّعت هنا وهناك، وكان الطقس باردًا، وأنا أرتجف. وحاولت أن أطرد من فكري اهتزاز الأرملة، وابتسامتها وعينيها، وصدرها، لكنّها كانت تعود بلا انقطاع، وانقبض صدري.

لم تكن أوراق الأشجار قد نبتت بعد، لكنّ البراعم كانت قد انتفخت، وتفتّقت، مليئة بالنسغ. وكان كلّ برعم يعد بأنوار، بأزهار، بثمار قادمة،

لا تزال خبيئة متجمّعة، مستعدّة للانطلاق نحو النور. كانت معجزة الربيع الكبرى تنمو، تحت القشر اليابس، دون صوت، خلسة في قلب الشتاء.

وفجأة أطلقت صرخة فرحة. فأمامي، في حفرة محميّة من الريح، كانت شجرة لوز جريئة قد أزهرت في قلب الشتاء، ممهّدة الطريق لكلّ الأشجار بقدوم الربيع.

وشعرت بهدوء كبير. وتنشَّقت الرائحة الخفيفة اللاذعة، وتنكّبت عن الطريق، واستلقيت تحت الأغصان المزهرة.

لبثت هناك مليًا، دون أن أفكّر بشيء، دون أيّ شاغل، مغتبطًا. كنت جالسًا في الأبديّة، تحت شجرة من أشجار الفردوس.

وفجأة، ألقاني أرضًا صوت غليظ وحشي:

ـ ماذا تفعل هنا في هذه الحفرة، أيّها الرئيس؟ منذ زمن وأنا أبحث عنك. لقد قاربت الساعة الظهر، هيّا!

ـ إلى أين؟

ـ إلى أين؟ وتسألني؟ إلى منزل أمّ الخنزير الوليد. ألست جائعًا؟ لقد خرج الخنزير الوليد من الفرن؟ إنّ له رائحة، يا صديقي... حتى إنّ فمك ليمتلئ باللعاب. هيّا!

ونهضت، وداعبت جذع شجرة اللوز القاسي، المليء بالسرّ الذي استطاع أن ينتج هذه المعجزة المزهرة. وسار زوربا في المقدِّمة، رشيقًا، مندفعًا، متلمّظًا. إنّ حاجات الإنسان الأساسيّة ـ الطعام، والشراب، والمرأة، والرقص ـ لا تزال غير مستهلكة، غضّة، في جسده الظمئ والقوي.

كان يمسك بيده شيئًا معلّقًا بورق وردي، مربوطًا بخيط ذهبي. وسألته مبتسمًا:

ـ أهديّة؟

فأخذ زوربا يضحك، محاولاً إخفاء انفعاله، وقال دون أن يلتفت:

ـ نعم. لتتدلّل قليلاً، المسكينة! إنّها ستذكّرها بالأيّام الماضية الجميلة. . . إنّها امرأة، فهي إذن، وقد سبق أن قلت ذلك، مخلوق يشتكي دومًا.

ـ أهي صور؟

ـ سترى. . . سترى، لا تستعجل الأمور. لقد صنعتها بنفسي. لنسرع.

كانت شمس الظهيرة تدفّئ العظام، والبحر يتدفأ بالشمس، سعيدًا. وبعيدًا، كانت الجزيرة الصغيرة الجرداء، المحاطة بضباب خفيف، تبدو وكأنّها ارتفعت خارج البحر وعامت.

واقتربنا من القرية. وجاء زوربا من خلفي، وقال خافضًا صوته:

ـ أتعرف، أيّها الرئيس، أنّ الشخص الذي تحدّثنا عنه كان في الكنيسة. كنت أقف في المقدِّمة، قرب المرتِّل، عندما رأيت فجأة الأيقونات المقدّسة تتلألأ. المسيح، والعذراء القدِّيسة، والاثني عشر رسولاً، كلّها تتألّق. وقلت في نفسي وأنا أرسم إشارة الصليب: «ما هذا؟ الشمس؟». والتفتّ، فإذا هي الأرملة.

فقلت وأنا أحثّ الخطى:

ـ لقد تحدّثت كثيرًا، يا زوربا، هذا يكفي!

لكنّ زوربا ركض ورائي:

ـ رأيتها عن قرب، أيّها الرئيس، إنّ لها خالاً على خدّها! إنّها لتأخذ بلبّك! إنّه لسرّ آخر، الخال الذي على خدود النساء!

وجحظ عينيه، مذهولاً.

ـ إيه، أرأيت ذلك، أيّها الرئيس؟ يكون الجلد أملس، وفجأة تجد عليه لطخة سوداء. حسنًا، هذا يكفي ليأخذ بلبّك! أتفهم شيئًا من هذا، أيّها الرئيس؟ ما الذي تقوله كتبك؟

ـ إلى الشيطان، بكتبي!

وأخذ زوربا يضحك، مسرورًا. وقال:

ـ هكذا إذن، لقد بدأت تفهم.

ومررنا بسرعة أمام المقهى، دون أن نتوقّف.

كانت سيّدتنا الطيّبة قد طبخت في الفرن خنزيرًا وليدًا، ووقفت تنتظرنا على العتبة.

لقد أحاطت عنقها من جديد بالشريط الأصفر البسيط نفسه، وطلت وجنتيها بمسحوق كثيف، ودهنت شفتيها بطبقة قرمزيّة سميكة، وكانت تبدو والهة. وما إن رأتنا، حتى أخذ جسدها يتحرّك، مغتبطًا، وتراقصت عيناها بلذّة وتشبّثتا بشاربي زوربا المفتولين.

وما إن أغلق زوربا باب الباحة، حتى أخذها من خصرها، وقال لها:

ـ سنة طيّبة يا بوبولينتي، انظري ما أحمله إليك!

وقبّلها من رقبتها السمينة المتجعّدة.

وتملّكت الجنّيّة العجوز رعدة مدغدغة، لكنّها لم تضلّ طريقها. كان نظرها متّجهًا إلى الهديّة، فتناولتها، وفكّت الخيط الذهبي، ونظرت، وأطلقت صرخة.

وانحنيت لأرى: كان زوربا الخبيث قد رسم على قطعة كبيرة من الورق المقوّى بأربعة ألوان ـ الأصهب والكستنائي، والرمادي، والأسود ـ أربع مدمّرات كبيرة مزيّنة في بحر نيلي اللون. وأمام المدمّرات، تسبح، ممدّدة على الأمواج، بيضاء، عارية، محلولة الشعر، ناهدة الصدر، لها ذيل سمكة لولبي الشكل، وشريط أصفر صغير حول عنقها، جنّيّة، هي السيّدة هورتانس. وكانت تمسك بأربعة خيطان وتسحب المدمّرات الأربع الرافعة للأعلام الإنجليزيّة، والروسيّة، والفرنسيّة، والإيطاليّة، وعند كلّ زاوية من اللوحة، تتدلّى لحية، واحدة شقراء، وواحدة كستنائيّة، وواحدة رماديّة، وواحدة سوداء.

وفهمت المغنّية العجوز فورًا، وقالت وهي تشير إلى الجنّيّة باعتزاز:

ـ أنا!

وتنهّدت. وقالت:

ـ آه! أنا أيضًا كنت دولة كبيرة، في الماضي.

ونزعت مرآة صغيرة مستديرة كانت فوق سريرها، قرب قفص الببّغاء، وعلّقت لوحة زوربا. ولا بدّ أنّ وجنتيها قد شحبتا، تحت الطلاء الكثيف.

وكان زوربا، في تلك الأثناء، قد دلف إلى الحجرة، فهو جائع. وعاد بطبق الخنزير الوليد، ووضع أمامه زجاجة خمر، وملأ الكؤوس الثلاث.

وصاح مصفّقًا بيديه:

ـ هيّا، إلى المائدة! لنبدأ بما هو رئيسي، بالمعدة. وبعد ذلك، يا طيّبتي، سننزل إلى أسفل!

لكنّ الجوّ كان مضطربًا بسبب تنهّدات جنّيّتنا العجوز. إنّ لها، هي الأخرى، في مطلع كلّ سنة، يوم دينونتها الصغيرة الأخير، فتزن حياتها وتجدها مضيّعة. إنّ المدن الكبيرة، والبشر، وأثواب الحرير، وزجاجات الشمبانيا، واللحى المعطّرة، تنبعث في الأيّام الحافلة، في رأس هذه المرأة الذي تساقط شعره، خارج قلبها وتصرخ.

وتمتمت بلهجة غنجة:

ـ إنّني لست جائعة مطلقًا. لست جائعة.. مطلقًا.. مطلقًا.

وركعت أمام الموقد وحرّكت الجدي، وانعكس على وجنتيها الواهنتين ضوء النار الشاحب، وانسابت خصلة فوق جبينها، ومسّت الشعلة، وانتشرت في الغرفة رائحة الشعر المحترق الكريهة. وتمتمت من جديد، وقد رأت أنّنا لم نهتمّ بها:

ـ لا أريد أن آكل...

وشدّ زوربا على قبضته بقوّة. وظلّ لحظة متردّدًا. إنّه يستطيع أن يتركها تتذمّر ما شاءت، بينما نظلّ نلتهم الخنزير الصغير المحمَّر. وهو يستطيع أيضًا أن يركع أمامها، ويأخذها بين ذراعيه، وبكلمة طيّبة، يعيد إليها

الرضى. وتطلّعت إليه ورأيت الموجات المتناقضة في انفعالات وجهه الدبغي المتتالية.

وفجأة، جمد وجهه. لقد اتّخذ قرارًا. فركع، وقال بصوت متمزّق وهو يمسك بركبتي الجنّيّة:

ـ إذا لم تأكلي، يا دجاجتي، فستكون نهاية العالم. كوني إذن رحيمة، يا طيّبتي، وكلي فخذ الخنزير الصغيرة هذه.

ودسّ في فمها الفخذ القضيم التي تسيل منها الزبدة. وأخذها بين ذراعيه ورفعها، وأجلسها بهدوء على مقعدها، بيننا نحن الاثنين. وقال:

ـ كلي، كلي، يا كنزي، كي يدخل القدّيس باسيل إلى قريتنا! وإلّا، وأنت تعرفين ذلك، فلن يدخل إليها، ويعود إلى وطنه، في قيصريّة، ويستعيد الورق والدواة، وكعكات الملوك، والهدايا، ولعب الأطفال، بل وهذا الخنزير الصغير، ثم، ينطلق! إذن افتحي، يا دجاجتي، فمك الصغير وكلي!

ومدّ إصبعين من أصابعه ودغدغها تحت إبطها. وهدلت الجنّيّة العجوز، ومسحت عينيها الصغيرتين المحمرّتين وراحت تمضغ ببطء الفخذ المحمرّة...

وفي تلك اللحظة، أخذ قطّان عاشقان يموءان على السطح، فوق رؤوسنا، يعويان بحقد لا يوصف، ويعلو صوتاهما، وينخفضان، مليئين بالتهديد. وفجأة سمعناهما يتدحرجان معًا ويمزّقان بعضهما بعضًا. وقال زوربا وهو يغمز الجنّيّة العجوز بعينه:

ـ مياو... مياو...

فابتسمت وضغطت على يده خفية تحت الطاولة. وارتخى بلعومها وبدأت تأكل، بمرح.

وانخفضت الشمس، ودلفت من النافذة الصغيرة، وحطّت على قدمي سيّدتنا الطيّبة. كانت الزجاجة قد فرغت. واقترب زوربا، وهو يداعب

شاربيه المنتصبين انتصاب شاربي هرّ متوحّش، من السيّدة هورتانس. وأحسّت هذه، وهي متقوقعة على نفسها، مرتجفة، وقد غار رأسها بين كتفيها، بأنفاسه الحارّة التي تفوح منها رائحة الخمر. والتفت زوربا قائلاً:

ـ ما هذا السرّ أيضًا، أيّها الرئيس؟ كلّ شيء يسير بالمقلوب، بالنسبة لي. عندما كنت طفلاً، كان يبدو عليّ أنّني عجوز قصير، إذ كنت ثقيلاً، لا أتكلّم كثيرًا، وكان صوتي غليظًا كصوت رجل عجوز. وكانوا يقولون إنّني أشبه جدّي! لكنّني كنت كلّما تقدّمت في العمر، ازددت طيشًا. وفي العشرين أخذت أرتكب حماقات، لكن ليس بكثرة، حماقات كالتي يرتكبها جميع الناس في تلك السنّ. وفي الأربعين بدأت أحسّ أنّني قد بلغت سنّ الشباب الحقّ، واندفعت عند ذاك في الحماقات الكبيرة والآن، في الستّين ـ في الخامسة والستّين، أيّها الرئيس، لكن هذا بيننا ـ الآن وقد دخلت في الستّين، أصبح العالم، أقسم لك، صغيرًا بالنسبة لي! كيف تفسّر هذا، أيّها الرئيس؟

ورفع كأسه، والتفت بوقار نحو سيّدته، وقال بصوت مهيب:

ـ صحّتك، يا بوبولينتي. إنّني لأتمنّى، في هذه السنة، أن ينبت لك أسنان، وحاجبان جميلان رفيعان، وأن يعود إليك جلدك غضًّا مثل جلد الدرّاق! عندئذٍ، ستلقين في الهواء بهذه الشرائط الصغيرة القذرة! وإنّني لأتمنّى لك أيضًا ثورة أخرى في كريت، وأن تعود الدول الأربع الكبرى، يا بوبولينتي العزيزة، بأساطيلها، وأن يكون لكلّ أسطول أميراله، ولكلّ أميرال لحيته المجعّدة المعطّرة. وأنت يا جنّيّتي، ستنبعثين من الأمواج مرّة أخرى وأنت تنشدين أغنيتك العذبة.

وعلى أثر ذلك، وضع يده الضخمة فوق ثديي السيّدة الطيّبة المتدلّيين الرخوين.

ومن جديد، اشتعل زوربا، وبحّ صوته من الشهوة. وأخذت أضحك. لقد رأيت، ذات مرّة، في السينما، باشا تركيًّا يمرح في حانة باريسيّة.

كانت على ركبتيه فتاة عاملة شقراء، وعندما اشتعلت النار في عروقه، أخذت طرّة طربوشه بالارتفاع على مهل، حتى استوت أفقيًا، ثم اندفعت فجأة وانتصبت عموديًا في الهواء. وسألني زوربا:

ـ لِمَ تضحك، أيّها الرئيس؟

لكنّ السيّدة الطيّبة كانت لا تزال أسيرة كلمات زوربا.

فقالت:

ـ آه! هل هذا ممكن، يا زوربا؟ إنّ الشباب يذهب... دون عودة.

واقترب زوربا أكثر، وتلامس المقعدان. وقال وهو يحاول أن يفكّ الزرّ الثالث، وهو الزرّ الحاسم في قميص السيّدة هورتانس:

ـ استمعي إليّ، يا دجاجتي، استمعي إلى الهديّة الكبيرة التي سأقدّمها لك: يوجد الآن طبيب يصنع المعجزات. إنّه يعطي دواء، سائلاً أو مسحوقًا، لست أدري، ويعود الإنسان إلى العشرين، أو إلى الخامسة والعشرين على الأكثر. لا تبكي، يا طيّبتي، سآتي لك به من أوروبا...

وانتفضت جنّيّتنا العجوز، ولمع جلد جمجمتها الصقيل الأحمر بين الشعر المتفرّق، وألقت بذراعيها الكبيرتين المكتنزتين حول عنق زوربا. ودمدمت وهي تحكّ نفسها بجسد زوربا مثل قطّة:

ـ إذا كان سائلاً، يا عزيزي، إذا كان سائلاً فستجلب لي منه دمجانة، وإذا كان مسحوقًا...

فقال زوربا وقد فكّ الزرّ الثالث:

ـ كيسًا كبيرًا.

وعاد القطّان، اللذان صمتا لحظة، إلى العواء. كان أحد الصوتين يتباكى ويتضرّع، والآخر حانقًا، يهدّد...

وتثاءبت سيّدتنا الطيّبة وذبلت عيناها. وهمست وهي تجلس على ركبتي زوربا:

ـ أتسمع هذه الحيوانات القذرة؟ إنّها لا تخجل...

وتمدّدت عليه وتنهّدت. لقد شربت أكثر من اللازم قليلاً، وكبتَ عيناها. وقال زوربا وهو يأخذ بثدييها في كفّيه:

ـ بِمَ تفكّرين، يا قطّتي؟

فتمتمت الجنّيّة المسافرة متباكية:

ـ الإسكندريّة... الإسكندريّة... بيروت... القسطنطينيّة... أتراك، وعرب، ومشروبات وأحذية مذهّبة، وطرابيش حمر...

وتنهّدت من جديد:

ـ عندما كان علي بك يبيت معي ـ ويا لشاربيه، وحاجبيه، وذراعيه! ـ كان يستدعي عازفي الطبل والزمر، ويلقي إليهم بالدراهم من النافذة، فيعزفون في باحتي حتى الفجر. وتموت الجارات حسدًا، ويقلن «إنّ علي بك في هذه الليلة أيضًا مع السيّدة...».

وبعد ذلك، في القسطنطينيّة، لم يكن سليمان باشا ليتركني أخرج للتنزّه يوم الجمعة. كان يخشى أن يراني السلطان وهو ذاهب إلى الجامع، فيسحره جمالي، ويأمر بخطفي. وكان عندما يخرج صباحًا من عندي، يضع ثلاثة عبيد على بابي كي لا يقترب أيّ ذكر... آه! يا صغيري سليمان!

وأخرجت من تحت قميصها منديلاً كبيرًا ذا مربّعات وعضّت عليه وهي تتنهَّد وكأنَّها سلحفاة ماء.

وتملّص زوربا منها بأن أجلسها على المقعد المجاور، ونهض، حانقًا. وذرع الغرفة مرّتين أو ثلاثًا، وهو يتنهَّد أيضًا، وبدت له الغرفة فجأة ضيّقة جدًّا، فأمسك بهراوته، واندفع إلى الباحة، وأسند السلّم إلى الحائط، ورأيته يصعد الدرجات اثنتين اثنتين، في غضب. فصرخت:

ـ من ستضرب، يا زوربا؟ سليمان باشا؟

فزمجر:

ـ القطّان القذران. إنّهما لا يريدان أن يدعانا في سلام!

وبقفزة واحدة، وثب إلى السطح.

كانت الآن السيّدة هورتانس، قد أغمضت، وهي سكرى، شعثاء الشعر، عينيها اللتين قبّلتا عشرات المرّات. لقد رفعها النوم وحملها إلى مدن الشرق الكبيرة، إلى الحدائق المسوّرة، ودور الحريم المظلمة، في منازل الباشوات العشّاق. وجعلها تعبر البحر، ورأت نفسها وهي تصيد. لقد رمت أربعة خيوط وأوقعت بأربع مدمّرات.

وراحت الجنّيّة العجوز، وقد غسلها ماء البحر وأعاد إليها النضارة، تبتسم في نومها، سعيدة.

ودخل زوربا، وهو يهزّ هراوته. فقال بعد أن رآها هكذا:

ـ أتنام؟ أتنام، العاهرة؟

فأجبت:

ـ نعم، لقد خطفها فونوروف الذي يعيد الشباب إلى الشيوخ، يا زوربا باشا، خطفها النوم. وهي الآن في العشرين، تتنزّه في الإسكندريّة، وبيروت...

فدمدم زوربا، باصقًا على الأرض:

ـ لتذهب إلى الشيطان، هذه القذارة العجوز! انظر إليها كيف تبتسم! هيّا بنا، أيّها الرئيس!

ووضع قبّعته وفتح الباب. وقلت:

ـ أنأكل كالخنازير، ثم نذهب بعد ذلك ونتركها وحيدة! هذا لا يجوز!

فصاح زوربا:

ـ إنّها ليست وحيدة، إنّها مع سليمان باشا، ألا تراها؟ إنّها في السماء السابعة، هذه الأنثى القذرة! هيّا، لنذهب!

وخرجنا إلى الهواء البارد. كان القمر يتهادى في السماء الهادئة. وقال زوربا باشمئزاز:

ـ آه! يا للنساء! أفٌّ لهنّ! لكنّها ليست خطيئتهنَّ، بل خطيئتنا، نحن المجانين، الأغبياء، وكلّ الذين على شاكلتنا، أنا وسليمان!

وبعد لحظة، أضاف حانقًا:

ـ بل إنّها ليست خطيئتنا، بل شخص واحد، خطيئة المجنون الكبير، الغبي، سليمان باشا الكبير. . . أنت تعرف منّا!

فقلت: إذا كان موجودًا، لكن إذا لم يكن موجودًا؟

ـ إذن، فقد هلكنا!

وسرنا مدّة طويلة بخطًى عريضة، دون أن نقول شيئًا. لا بدّ أنّ زوربا كان يجترّ أفكارًا متوحّشة، لأنّه راح يضرب، في كلّ لحظة، الحصى بعصاه ويبصق. وفجأة، التفت نحوي وقال:

ـ لقد كان جدِّي ـ ليرقد في سلام! ـ خبيرًا بالنساء. كان يحبّهنّ كثيرًا، الشقي، وقد أرينه من الثمار ما كان أخضر وغير ناضج. وكان يقول لي: «يا صغيري ألكسيس، سأمنحك، مع بركتي، نصيحة: لا تثق بالنساء. عندما أراد الإله الرحيم أن يخلق المرأة من ضلع آدم، تحوّل الشيطان إلى ثعبان، وفي اللحظة المناسبة، وثب وسرق الضلع. وأسرع الإله الرحيم، لكنّ الشيطان تملَّص من بين أصابعه ولم يترك له إلّا قرونه. وقال الإله الرحيم في نفسه: «إنّ ربّة البيت الصالحة، إذا لم تجد مغزلاً غزلت بالملعقة. وكذلك أنا، سأخلق المرأة من قرون الشيطان!». وخلقها من أجل شقائنا، يا صغيري ألكسيس! إذن، فنحن عندما نلمس امرأة، في أيّ موضع كان من جسدها، فإنّنا إنّما نمسّ قرون الشيطان! احذرهنّ، يا بنيّ! إنّها المرأة أيضًا التي سرقت تفّاح الفردوس، وخبّأته في صدرها. وهي الآن تتبختر به متباهية. إنّها الطاعون! ولو أكلت من تلك التفّاحات، أيّها الشقيّ، لهلكت. وإذا لم تأكل، فإنّك هالك أيضًا. أيّة نصيحة تريد أن أعطيكها، يا صغيري؟ افعل ما يعجبك!». هذا ما قاله لي جدِّي المرحوم، لكنّني لم أزدد عقلاً بسبب ذلك. لقد سرت في الدرب نفسه الذي سار فيه، ووصلت إلى هنا!

واجتزنا القرية بسرعة. كان ضوء القمر مقلقًا. تصوّر أنّك، بعد أن سكرت، خرجت لتستنشق الهواء، فوجدت العالم قد تبدّل فجأة. كانت الطرق قد أصبحت أنهارًا من اللبن، والحفر تطفح بالكلس، والجبال مغطّاة بالثلج. وترى يديك ووجهك وعنقك تشعّ بالفوسفور مثل بطن الحباحب. والقمر مثل ميداليّة مستديرة، غريبة، معلّق على صدرك.

كنّا نسير بخطّى حذرة، في صمت. ولم نكن لنحسّ، وقد انتشينا بضوء القمر وانتشينا بالخمر، بأقدامنا تمسّ بالأرض. وكانت الكلاب قد صعدت، في القرية النائمة، وراءنا إلى الأسطحة، وراحت تنبح بأسًى، وعيونها مثبّتة بالقمر. وتملّكتنا الرغبة، بدون سبب، في أن نمدّ أعناقنا ونبدأ نحن أيضًا بالعواء...

ومررنا أمام حديقة الأرملة. وتوقّف زوربا. لقد أدار الخمر والطعام الطيّب والقمر، رأسه. ومدّ عنقه، وبصوته الغليظ الأشبه بصوت حمار أخذ ينهق بهذين البيتين من الشعر، اللذين ارتجلهما، في لحظة النشوة هذه:

كم أحبّ جسدك الجميل، من خصرك حتى الأسفل!

إنّه يتلقّى الحنكليس الحيّ ويفقده الحركة بضربة واحدة!

وصاح:

ـ وهذه أيضًا قرن من قرون الشيطان! هيّا بنا، أيّها الرئيس!

كان النهار على وشك الطلوع عندما وصلنا إلى الكوخ. وألقيت بنفسي على سريري، منهكًا. واغتسل زوربا، وأشعل النار في الكانون وأعدّ القهوة. وجلس على الأرض أمام الباب، وأشعل سيجارة وأخذ يدخّن بهدوء، مستقيم الجسد، ساكنًا، ينظر إلى البحر. كان وجهه رصينًا ومركّزًا، يشبه لوحة يابانيّة أحبّها، تمثّل ناسكًا جالسًا وساقاه متصالبتان، وجهه يلمع وكأنّه منحوت من الخشب بدقّة فائقة، قد سوّدته الأمطار، وهو ينظر، مستقيم العنق، باسمًا، بدون خوف، إلى البحر المظلم أمامه...

كنت أنظر إلى زوربا على ضوء القمر الشاحب، وأعجبُ بتلك الكبرياء

وبتلك البساطة اللتين يتلاءم بهما مع العالم، وبجسده وروحه كيف يشكّلان كلًّا واحدًا منسجمًا، وبكلّ الأشياء، النساء، والخبز، والماء، واللحم، والنوم، كيف تتّحد بفرح مع جسده وتتحوّل إلى زوربا. إنّني لم أرَ في حياتي مثل هذا التفاهم بين الإنسان والكون.

أخذ القمر في هذا الوقت، وقد استدار كلّه، بلونه الأخضر الشاحب، يأفل نحو المغيب. وانتشرت عذوبة لا توصف على البحر.

وألقى زوربا سيجارته، ومدّ ذراعيه، وبحثت أصابعه في سلّة، وأخرج خيوطًا، ومكبّات، وقطعًا صغيرة من الخشب، وأشعل مصباح الزيت، وأخذ، مرّة أخرى، يقوم بتجاربه بشأن المصعد. وغرق، وهو محنيّ على لعبته البدائيّة، في الحسابات الصعبة ولا شكّ، لأنّه كان، في كلّ لحظة، يحكّ رأسه ويشتم.

وفجأة، سئم من العمليّة، فضرب برجليه وانهار المصعد.

ـ ١٢ ـ

أخذني النعاس، وعندما استيقظت كان زوربا قد ذهب. الطقس بارد، وليست لي أيُّ رغبة في النهوض. ومددت ذراعي نحو رفّ صغير فوقي، وأخذت كتابًا أحبّه كنت قد حملته معي، وهو قصائد مالارميه. وقرأت ببطء، دون تعيين، وأغلقت الكتاب، وفتحته من جديد، ثم ألقيت به. لقد بدا لي كلّ هذا، في ذلك اليوم، للمرّة الأولى، فقيرًا بالدم، منعدم الرائحة، والطعم، والجوهر الإنساني. مجرّد كلمات زرق فقدت لونها، فارغة، معلّقة في الهواء. مجرّد ماء مقطّر صافٍ تمامًا، بدون جراثيم، لكن أيضًا بدون موادّ مغذّية. بدون حياة.

إنّ هذا الشعر أشبه بالآلهة، في الأديان الفاقدة لنفتحها الخلّاقة، التي تنتهي إلى مجرّد دوافع شعريّة أو مجرّد زينة تصلح لتنميق العزلة الإنسانيّة. إنّ التطلّع الحادّ للقلب المليء بالأرض والبذور قد أصبح لعبة ذهنيّة معصومة عن الخطأ، هندسيّة هوائيّة، عالمة ومعقّدة.

وأعدت فتح الكتاب ورحت أقرأ. لماذا أمسكت بي، طوال تلك السنين العديدة، هذه الأشعار؟ الشعر الصافي! الحياة التي أصبحت لعبة ذكيّة، شفّافة، ليست مثقلة حتى بنقطة دم واحدة. إنّ العنصر البشري ثقيل بالرغبة، كدر، دنس ـ الحبّ، والجسد، والصرخة ـ فكيف يتصعّد إلى فكرة مجرّدة، وكيف يفقد مادّيّته في فرن الفكر العالي، ويتبدّد!

كم تبدو لي كلّ تلك الأشياء، التي جذبتني كثيرًا في الماضي، مجرّد

بهلوانيّات مشعوذة رفيعة، في هذا الصباح! هكذا ينتهي دومًا قلق الإنسان، عند أفول كلّ حضارة، إلى ألعاب مشعوذة، متقنة تمامًا: الشعر الصافي، والموسيقى الصافية، والفكر الصافي. إنّ الإنسان الأخير ـ الذي تخلّص من كلّ إيمان ومن كلّ وهم، والذي لم يعد ينتظر شيئًا، ولا يخشى شيئًا ـ يرى الطين الذي هو مصنوع منه، قد استحال إلى فكر، وليس للفكر مكان يلقي فيه جذوره ليمتصّ ويتغذّى. لقد تجوّف الإنسان الأخير، فلم يعد فيه زرع، ولا قذر ولا دم. إنّ كلّ الأشياء قد أصبحت كلمات، وكلّ الكلمات شعوذات موسيقيّة. إنّ الإنسان الأخير سيذهب أبعد من ذلك: إنّه سيجلس عند طرف وحدته ويحلّل الموسيقى إلى معادلات رياضيّة صامتة.

وانتفضت، وهتفت: «إنّ بوذا هو الإنسان الأخير. ذلك هو معناه السرّيّ والرهيب. إنّ بوذا هو الروح «الصافية» التي تجوّفت، إنّ فيه العدم، وإنّه العدم. إنّه يصرخ: أفرغوا أحشاءكم، أفرغوا روحكم، أفرغوا قلبكم! وأنّى وضع قدمه، امتنع الماء عن الانبجاس، والعشب عن النبت، والطفل عن الولادة».

وقلت في نفسي: «يجب حصاره، بتعبئة الكلمات الراقية، والاستنجاد بالإيقاع السحري، ورميه بسحر، لإخراجه من أحشائي! يجب أن أرميه بشبكة الصور، لأمسك به وأتخلّص منه!».

إنّ كتابة «بوذا» في النهاية، قد كفّت عن أن تكون لعبة أدبيّة، بل إنّها الآن نضال حتى الموت ضدّ قوّة تدمير عظمى كامنة فيّ، صراع مع الـ «لا» الكبرى التي تنهش قلبي، وبنتيجة هذا الصراع يتعلّق سلام روحي.

وأخذت المخطوط، بفرح، وعزم. لقد وجدت المرمى، وأنا أعرف الآن أين أوجّه ضرباتي! إنّ بوذا هو الإنسان الأخير. أمّا نحن فلسنا بعد إلّا في البداية، إنّنا لم نأكل، ولم نشرب، ولم نحبّ بما فيه الكفاية، إنّنا لم نحيَ بعد. لقد جاءنا قبل الأوان بكثير، هذا العجوز النحيف اللّاهث. فليرحل بأسرع ما يمكن!

وأخذت أكتب بغبطة. كلّا، لم أكن أكتب. إنّها لم تكن كتابة، بل حربًا حقيقيّة، مطاردة عديمة الشفقة، حصارًا وفخًّا، لإخراج الحيوان من جحره. إنّ الفنّ ليس في الحقيقة إلّا استخدامًا سحريًّا للكلمات. إنّ في أحشائنا قوى مظلمة سفّاكة، دوافع مشؤومة إلى القتل، والهدم، والكره، وتلويث الشرف. وعندئذ يظهر الفنّ، بشبّابته العذبة، ليخلّصنا.

وكتبت، بحثت، وناضلت طوال اليوم. وعند المساء كنت منهكًا، لكنّني شعرت أنّني تقدّمت، وأنّني سيطرت على عدّة مواقع أماميّة للعدوّ. إنّني أتعجّل الآن رؤية زوربا لآكل، وأنام، وأتزوّد بقوى جديدة، وأعود إلى المعركة منذ الفجر.

كان الليل قد أرخى سدوله عندما عاد زوربا. كان وجهه يتألّق. وقلت في نفسي: «لقد وجد، هو أيضًا، لقد وجد!» وانتظرت.

قبل بضعة أيّام، قلت له في غضب، وقد بدأت تتّضح لي الأمور:

ـ إنّ المال يتضاءل، يا زوربا. افعل ما يجب فعله بسرعة! لنبدأ بتنفيذ المصعد، وإذا لم ينجح الفحم، فلنتشبّث بالخشب. وإلّا فإنّنا لهالكون.

وحكّ زوربا رأسه وسأل:

ـ المال يتناقص، أيّها الرئيس؟ هذا سيّئ!

ـ لقد انتهى الأمر، فقد أنفقنا كلّ شيء، يا زوربا. تدبَّر أمرك! كيف حال تجارب المصعد؟ لا شيء بعد؟

وحنى زوربا رأسه دون أن يجيب. لقد أحسّ بالعار في ذلك المساء. فدمدم: «سأحصل عليك، أيّها المصعد اللعين!». وفي هذا المساء، عاد يتألّق. وصرخ من بعيد:

ـ لقد وجدت، أيّها الرئيس! لقد وجدت الميل المطلوب. كان ينساب من يدي، لا يريد أن يقع في الكمين، ذلك القذر، لكنّني قبضت عليه!

ـ إذن، أسرع بوضع النار في البارود، يا زوربا! ماذا تحتاج؟

ـ غدًا، يجب أن أذهب باكرًا جدًّا إلى المدينة لأشتري الموادّ

اللازمة: حبالاً غليظة من الفولاذ، وبكرات، وآلات، ومسامير، وكلّابات... وسأعود قبل أن تراني أذهب!

وأشعل النار بسرعة، وأعدّ العشاء، وأكلنا وشربنا مقبّلات ممتازة. لقد اشتغل كلانا جيّدًا، في هذا المساء.

في صباح اليوم التالي، رافقت زوربا حتى القرية. واصطدم زوربا، ونحن نهبط منحدرًا، بحجر راح يتدحرج. وتوقّف، وقد تملّكه الذهول، وكأنّه يرى للمرّة الأولى في حياته مثل هذا المشهد المدهش. والتفت نحوي، ونظر إليّ، ولمحت في نظرته خوفًا بسيطًا. وأخيرًا قال لي:

ـ هل لاحظت ذلك، أيّها الرئيس؟ إنّ الحجارة تصبح حيّة في المنحدرات.

لم أقل شيئًا، لكنّ فرحي كان كبيرًا، وقلت في نفسي: «هكذا كان كبار المتنبّئين، وكبار الشعراء، يرون كلّ شيء للمرّة الأولى كلّ صباح، يرون أمامهم عالمًا جديدًا يخلقونه بأنفسهم».

لقد كان الكون بالنسبة لزوربا، كما كان بالنسبة لأوائل البشر، رؤية ثقيلة وكثيفة: فالنجوم تنساب عليه، والبحر يتكسّر على صدغيه، وهو يعيش، دون تدخّل العقل المشوّه، الأرض، والماء، والحيوانات، والله.

كان النبأ قد بلغ السيّدة هورتاني، فانتظرتنا على عتبة بابها، مصبوغة، مدهونة بالمساحيق، قلقة. لقد تزيّنت كأنّها ذاهبة إلى حفلة شعبيّة مساء السبت. وكانت البغلة أمام الباب، فقفز زوربا على ظهرها وأمسك بالعنان.

واقتربت جنّيّتنا العجوز بخجل وأسندت يدها الصغيرة السمينة إلى لبانه، كأنّها تريد منع حبيبها من الذهاب. قالت وهي تنتصب على أطراف أصابعها:

ـ زوربا... زوربا...

فأدار زوربا رأسه إلى الجهة الأخرى، إذ كان لا يستمرئ الهذر الغزلي

في وسط الشارع. ورأت السيّدة المسكينة نظرة زوربا وارتعدت. لكنّ يدها ظلّت مستندة، مليئة بصلاة حارّة، إلى لبان البغلة. فقال زوربا منزعجًا:

ـ ماذا تريدين؟

فتمتمت ضارعة:

ـ زوربا، كن حكيمًا... لا تنسني، يا زوربا، كن حكيمًا...

وهزّ زوربا العنان، دون أن يجيب. وبدأت البغلة تسير. وصحت:

ـ رحلة موفّقة، يا زوربا! ثلاثة أيّام، أتسمع؟ ليس أكثر!

والتفت، وحرّك يده الضخمة. كانت الجنّيّة العجوز تبكي ودموعها تحفر أخاديد في المساحيق. وصرخ زوربا:

ـ لك كلمتي، أيّها الرئيس، هذا يكفي! إلى اللقاء!

واختفى تحت أشجار الزيتون. كانت السيّدة هورتانس تبكي وتنظر إلى الغطاء الأحمر الفاتح الذي وضعته المسكينة ليجلس حبيبها عليه مستريحًا، وهو يتألّق وينطفئ من بعيد إلى بعيد، عبر الأوراق اللجينيّة. وبعد فترة، اختفى الغطاء بدوره. ونظرت السيّدة هورتانس حولها: لقد تجوّف العالم.

* * *

لم أعد نحو الشاطئ، بل اتّجهت نحو الجبل. وفي اللحظة التي بلغت فيها الدرب الصاعد، سمعت بوقًا. إنّ ساعي البريد الريفي يعلن عن مقدمه إلى القرية. وصاح وهو يحرّك يده.

ـ أيّها الرئيس!

واقترب وأعطاني رزمة من الصحف، ومجلّات أدبيّة ورسالتين. وسرعان ما أخفيت إحداهما في جيبي لأقرأها مساء في الساعة التي ينتهي فيها النهار ويهدأ الفكر. كنت أعلم من كتب إليّ، وأريد أن أؤجّل فرحتي، كي تدوم أكثر.

أمّا الرسالة الأخرى، فقد عرفتها من خطّها الخشن القاطع وطوابعها الغريبة. إنّها قادمة من أفريقيا، من جبل مقفر قرب تانغانيكا، أرسلها لي

أحد رفاقي القدامى في الدراسة: كارايانيس. إنّه لشابٌ غريب، عنيف، أسمر، له أسنان ناصعة البياض. وإحدى أنيابه تبرز مثل ناب خنزير برّي. لم يكن ليتحدّث مطلقًا، بل يصرخ. ولم يكن ليناقش، بل يخاصم. ترك وطنه، كريت، حيث كان يدرس اللاهوت الكهنوتي، وهو لا يزال شابًا بعد. كان يغازل إحدى تلميذاته، ففاجؤوهما ذات يوم في الحقل متعانقين، وراحوا يصرخون بهما هازئين، وفي اليوم نفسه، رمى المعلّم الشابّ ثوب رهبانيّته، واستقلّ المركب. وجاء إلى أفريقيا، وأقام عند أحد أعمامه، وانهمك في العمل كلّيًا، وفتح مصنعًا لحبال المراكب وربح مالاً كثيرًا. ومن حين إلى حين، كان يكتب إليّ ويدعوني للإقامة عنده ستّة أشهر. وكنت أحسّ وأنا أفتح كلّ رسالة من رسائله، حتى قبل أن أقرأها، بصفحات غزيرة دومًا مدروزة بالخيطان تنشر قلوعها، وبريح هوجاء تطيّر شعري. وكنت أعزم دومًا على الذهاب إلى أفريقيا، ولا أذهب.

وابتعدت عن الدرب، وجلست على صخرة، وفتحت الرسالة وبدأت أقرأ:

«متى إذن ستعزم، أيّها المحار الملتصق بالصخرة اليونانيّة، على القدوم! أنت أيضًا، أصبحت، كجميع اليونانيّين، من روّاد الحانات. إنّك تتمرّغ في المقاهي كما في كتبك، وعاداتك، وعقائدك المشهورة. اليوم أحد، وليس عندي ثمّة نقطة مطر. هنا، عندما يهطل المطر، في نيسان، وأيّار، وحزيران، فإنّه يكون طوفانًا حقيقيًا.

«إنّني وحيد وأحبّ ذلك. ثمّة عدد لا بأس به هنا من اليونانيّين، لكنّني لا أودّ رؤيتهم. إنّهم يثيرون اشمئزازي، لأنّكم أيّها المواطنون الأعزّاء ـ ليأخذكم الشيطان ـ قد أرسلتم لنا، حتى إلى هنا، جذامكم، أهواءكم السياسيّة. إنّ السياسة هي التي تضيّع اليونان. ويوجد أيضًا ورق اللعب، ثم النقص في التعليم، والجنس.

«إنّني أكره الأوروبيّين، فلهذا أتسكّع هنا، في جبال فاسامبا. إنّني

أكره الأوروبيّين، لكنّني أكره اليونانيّين وكلّ ما هو يوناني، أكثر من أيّ شيء آخر. إنّني لن أضع قدمي ثانية مطلقًا في يونانكم. سأموت ها هنا، وقد أعددت ضريحي منذ الآن، أمام كوخي، على الجبل المقفر. بل لقد وضعت أيضًا الشاهدة وحفرت عليها بنفسي بأحرف كبيرة:

هنا يرقد يوناني يكره اليونانيّين.

«إنّني لأنفجر ضاحكًا، وأبصق، وأشتم، وأبكي، عندما أفكّر باليونان. لقد هجرت وطني كي لا أرى اليونانيّين وكلّ ما هو يوناني. لقد جئت إلى هنا، وأتيت بقدري ـ ليس قدري هو الذي أتى بي، فالإنسان يفعل ما يشاء. أتيت بقدري إلى هنا، واشتغلت، وإنّني لأشتغل مثل عبد. لقد صببت، ولا أزال أصبّ، سيولاً من العرق. إنّني أحارب الأرض، والريح، والمطر، والعمّال السود والحمر.

«ليس لي أيّ فرح. بلى، عندي فرح واحد: العمل. أعمل بجسدي وفكري، لكن بجسدي على الأخصّ. إنّني أحبّ أن أتعب، وأن ينضح منّي العرق، وأن أسمع عظامي تطقطق. إنّني أرمي بنصف مالي، وأبذّره، حيثما وكيفما بدا لي. إنّني لست عبدًا للمال، بل المال عبدي. إنّني عبد للعمل، وإنّني لأفخر بذلك. إنّني أقطع أشجارًا، وعندي عقد مع الإنجليز. إنّني أصنع الحبال، والآن أزرع أيضًا القطن. البارحة مساء، اشتبكت قبيلتان من عمّالي السود ـ الغاياي والغانغوني ـ بالأيدي من أجل امرأة: من أجل بغيّ. الكبرياء، أترى. كلّ شيء هنا كما هو عندكم، أيّها اليونانيّون. شتائم، ونزاع، وضرب بالهراوات، ودم يسيل. وأسرعت النساء في حلكة الليل وأيقظنني وهنّ يصرخن لأذهب وأحكم بينهم. وغضبت، وأرسلت بهم جميعًا إلى الشيطان، ثم إلى البوليس الإنجليزي. لكنّهم ظلّوا طوال الليل أمام بابي ينبحون. وعند الفجر، خرجت، وحكمت بينهم.

«غدًا، الإثنين في الصباح الباكر، سأتسلّق جبال فاسامبا حيث الغابات الملتفّة، والمياه الباردة، والخضرة الأبديّة. حسنًا، أيّها اليوناني، متى

ستهجر بابل الحديثة هذه، تلك «البغيّ الجالسة فوق المياه الكبيرة، التي زنى معها كلّ ملوك الأرض»: أوروبا؟ متى ستأتي لنتسلّق معًا هذه الجبال المقفرة الصافية؟

«عندي طفل من زنجيّة: إنّه بنت. لقد طردت أمّها، فقد كانت تخونني علانيّة، في هجيرة الظهر، تحت كلّ شجرة خضراء. عندئذ سئمت منها وألقيت بها على الباب. لكنّني احتفظت بالصغيرة، ولها الآن سنتان من العمر. إنّها تمشي، وقد بدأت تتكلّم، وإنّني أعلّمها اليونانيّة، وأوّل جملة علّمتها إيّاها هي: «إنّني أبصق عليك، أيّتها اليونان القذرة!».

«إنّها تشبهني، الخبيثة. وليس لها من مزايا أمّها سوى أنفها العريض، المسطّح، أحبّها، لكن كما يحبّ الإنسان كلبه أو هرّه. تعال، أنت أيضًا. ستنجب صبيًّا من إحدى نساء فاسامبا، ثم، نزوّجهما ذات يوم».

تركت الرسالة مفتوحة على ركبتي. ومن جديد انفجرت في نفسي الرغبة الحارّة في الذهاب. ليس لحاجتي إلى الذهاب، فالأمور على ما يرام فوق هذا الساحل الكريتي، وإنّني مرتاح، سعيد، حرّ. لا شيء ينقصني. لكن ثمّة رغبة حارّة قد تأكّلتني دومًا: أن أرى وألمس، أكثر ما يمكن، الأرض والبحر قبل أن أموت.

ونهضت، وبدّلت رأيي. وبدلاً من أن أتسلّق الجبل، نزلت بخطًى سريعة نحو الشاطئ. كنت أحسّ في جيب سترتي الأعلى بالرسالة الثانية، ولم أعد أطيق صبرًا. وقلت في نفسي: «لقد دام طويلاً هذا التمهيد للفرح، العذب جدًّا والمقلق جدًّا».

ووصلت إلى الكوخ، وأشعلت النار، وأعددت الشاي، وأكلت خبزًا مع الزبدة والعسل وبرتقالات وخلعت ثيابي، وتمدّدت على سريري وفتحت الرسالة:

«السلام، يا معلّمي وتلميذي الجديد!

«لقد قمت بعمل ضخم وصعب، ليتبارك «الله» ـ إنّني أضع الكلمة

الخطرة بين هلالين مزدوجين (مثل حيوان مفترس بين القضبان)، كي لا يتملّكك النزق بعد أن تفتح الرسالة. لقد قمت بعمل صعب، ليتبارك «الله»! إنّ نصف مليون من اليونانيّين يواجهون الخطر في روسيا الجنوبيّة والقوقاز. كثيرون منهم لا يتكلّمون إلّا التركيّة أو الروسيّة، لكنّ قلوبهم تتكلّم اليونانيّة بتعصّب. إنّهم من دمنا. يكفي أن تراهم: الطريقة التي تلمع بها أعينهم الناقبة والشرهة، الطريقة التي تبتسم بها شفاههم بخبث وتلذّذ، والطريقة التي نجحوا بها في أن يصبحوا سادة هنا، على هذه الأرض الروسيّة الشاسعة، وفي أن يستخدموا فلّاحين روسيّين، يكفي أن ترى ذلك حتى تفهم أنّهم أحفاد حقيقيّون لمحبوبك «أوليس». وعندئذ ستحبّهم ولا تتركهم يهلكون.

«لأنّهم يواجهون خطر الهلاك. لقد فقدوا كلّ ما لديهم، فهم جائعون، عراة. وهم مطاردون من قبل البلاشفة من جهة، ومن قبل الأكراد من جهة ثانية. من كلّ مكان، جاء اللاجئون ليتكوّموا في بضع مدن من جورجيا وأرمينيا. وليس عندهم طعام، ولا ثياب، ولا أدوية. إنّهم يتجمّعون في الموانئ، ويتفحّصون الأفق بقلق ليتبيّنوا ما إذا كانت المراكب اليونانيّة قد جاءت لإعادتهم نحو أمّهم، اليونان. إنّ جزءًا من عرقنا، جزءًا من روحنا، يعيش طريد الذعر.

«إذا تركناهم لمصيرهم، فإنّهم هالكون. لا بدّ من كثير من الحبّ والتفهّم، والحماسة والروح العمليّة ـ وهما الصفتان اللتان تحبّ أن تراهما مجتمعتين ـ كي نتمكّن من إنقاذهم ونقلهم إلى ثرانا الحرّ، هناك حيث سيقدّمون أعظم الفائدة لعرقنا ـ هناك عاليًا عند حدود ماسيدونيا، وأبعد من ذلك، عند حدود تراسيا. هكذا فقط سينقذ مئات الألوف من اليونانيّين، وننقذ أنفسنا معهم. لأنّني، منذ الدقيقة التي وصلت فيها إلى هنا، رسمت دائرة، حسب تعليماتك، وسمّيت هذه الدائرة: «واجبي». وقلت: «إذا أنقذت هذه الدائرة كلّها، فإنّني أكون قد أنقذت نفسي، أمّا إذا لم أنقذها

فإنّني لهالك». والخمسمئة ألف يوناني إنّما هم موجودون في تلك الدائرة.

«إنّني أجتاز المدن والقرى، وأجمع اليونانيّين، وأحرّر تقارير وبرقيّات، وأجاهد لأجعل حكّامنا في أثينا يقرّرون إرسال مراكب، وأغذية، وثياب، وأدوية، ولأعمل على نقل تلك المخلوقات إلى اليونان. إذا كان النضال الحادّ العنيد سعادة، فإنّني لسعيد. لست أدري إذا كنت، كما تقول، قد «فصّلت» سعادتي على قدّي، وإذا صحّ ذلك، تكون قامتي، وحمدًا للسماء، طويلة. إنّني أفضّل على كلّ حال أن أمدّ قامتي حتى أبعد حدود اليونان التي هي في الوقت نفسه حدود سعادتي. لكن، لنعلن الهدنة مع النظريّات! إنّك الآن ممدّد على ساحلك الكريتي، تصغي إلى البحر والسانتوري، ولديك الوقت، أمّا أنا فلا. إنّ النشاط ليلتهمني، وإنّي لمسرور لذلك. فالعمل هو الطمأنينة الوحيدة.

«إنّ موضوع تأمّلاتي الآن بسيط جدًّا، إنّني أقول لنفسي دفعة واحدة: «إنّ سكّان «البونت» و«القوقاز» هؤلاء، وفلّاحي «كارس»، وتجّار «تفليس» و«باتوم» و«نوفوروسيسك»، و«روستوف»، و«أوديسا»، و«كريمة» إنّما هم منّا، من دمنا، وعاصمة اليونان بالنسبة لهم، كما هي بالنسبة لنا، القسطنطينيّة. إنّ قائدنا جميعًا واحد. أنت تدعوه «أوليس» وآخرون «قسطنطين الباليولوجي»[1] ليس ذاك الذي قتل تحت أسوار بيزنطة، بل الآخر، بطل الأسطورة، الذي تحوّل إلى رخام، والذي ينتظر، واقفًا، ملاك الحرّيّة. أمّا أنا فإنّني أدعو قائد عرقنا، بعد إذنك، أكريتاس[2]. إنّ هذه الكلمة تعجبني أكثر من غيرها، فهي أشدّ صلابة وحربيّة. إنّني ما إن أسمعها، حتى ينتصب أمامي، شاكّ السلاح، الهيليني الخالد، الذي يقاتل بلا هدنة ولا نصب، في الثغور، وعند الحدود. يقاتل عند مختلف

---

(١) آخر الأباطرة البيزنطيّين قُتل في دفاعه عن القسطنطينيّة ضدّ محمّد الفاتح.

(٢) ديجينيس أكريتاس: بطل أسطوري لملحمة يونانيّة. أكريتاس كلمة تعني أمير ثغر. وديجينيس: من العرقين اليوناني والشرقي.

الحدود: القوميّة، والفكريّة، والروحيّة. وإذا ما أضفنا أيضًا «ديجينيس»، فإنّنا نكون قد عبّرنا بشكل أعمق عن عرقنا، الذي هو تركيب رائع للشرق والغرب.

«إنّني موجود الآن في «كارس»، حيث جئت لأجمع يونانيّي جميع قرى الضواحي. وفي يوم وصولي بالذات، أخذ الأكراد، عند ضواحي كارس، قسًّا ومعلّمًا يونانيّين، وسمّروا أقدامهما بنعال من حديد كالبغال. والتجأ الأعيان هلعين، إلى المنزل الذي نزلت فيه. إنّنا نسمع مدافع الأكراد وهي تقترب وقد ثبّت الجميع أعينهم عليّ، وكأنّني أنا الوحيد القادر على إنقاذهم.

«كنت عازمًا على الذهاب غدًا إلى تفليس، لكنّني أشعر بالخجل من الابتعاد الآن أمام الخطر. إنّني باقٍ إذن. لا أقول إنّني لست خائفًا، إنّني خائف، خجل. أما كان «محارب رامبراندت»، «محاربي»، ليفعل الشيء ذاته؟ لو كان محلّي لبقي، إنّني باقٍ إذن، أنا الآخر. إذا دخل الأكراد المدينة، فمن الطبيعي والعدل أن أكون أوّل من يسمّرونه. إنّك لم تكن لتتوقّع بالتأكيد، يا معلّمي، أن ينتهي تلميذك نهاية البغال هذه.

«لقد قرّرنا، بعد مناقشة طويلة جدًّا، كما هي عادة اليونانيّين، أن يجتمع الجميع هذا المساء، مع بغالهم، وأحصنتهم، وأبقارهم، وخرافهم، ونسائهم، وأطفالهم، وأن نبدأ سيرنا معًا، عند الفجر، نحو الشمال. وسأسير في الطليعة كالكبش يقود القطيع.

«يا للهجرة الرعويّة لشعب، عبر سلاسل الجبال والسهول ذات الأسماء الأسطوريّة! وأنا سأكون أشبه بموسى وهو يقود الشعب المختار نحو الأرض الموعودة، كما يدعو هؤلاء السذّج أرض اليونان. وقد كان لا بدّ بالتأكيد، كي أكون بمستوى مهمّتي الموسويّة، وكي لا أسبّب لك العار، أن أخلع حذائي الجلدي الأنيق، الذي كان موضع سخريتك، وأن ألفّ ساقيّ بعصائب من جلد الخراف. وأن تكون لي أيضًا لحية متموّجة دسمة،

وأهمّ من ذلك كلّه، أن يكون لي قرنان. لكن اعذرني، فلن أحقّق لك هذه المسرّة. إنّه لمن الأسهل عليّ أن أبدّل روحي من أن أبدّل ثيابي. إنّني أنتعل جزمة جلديّة، وإنّني لحليق مثل لبّ الملفوف، ولست متزوّجًا.

«أيّها المعلّم العزيز، أرجو أن تستلم هذه الرسالة التي قد تكون الأخيرة. لا أحد يدري. إنّني لا أثق بالقوى السرّيّة التي تحمي البشر، كما يقولون. إنّني أؤمن بالقوى العمياء التي تضرب يمينًا ويسارًا، دون خبث، دون هدف، وتقتل كلّ من تصيبه. إذا تركت (أقول «تركت» كي لا أخيفك وأخيف نفسي باستعمال الكلمة المضبوطة)، إذا تركت الأرض، فعش في صحّة جيّدة، سعيدًا، أيّها المعلّم العزيز! إنّني أخجل من أن أقول لك ذلك، لكنّ هذا واجب فاعذرني: أنا أيضًا قد أحببتك كثيرًا».

وفي أسفل الصفحة، كتب بالقلم هذه الملاحظة السريعة: «ملاحظة: إنّ الاتّفاق الذي عقدناه على المركب، يوم رحيلي، لن أنساه. إذا كان عليّ أن «أترك» الأرض، فإنّني سأعلمك، حيثما كنت، فلا تخشَ شيئًا».

ـ ١٣ ـ

مضت ثلاثة أيّام، وأربعة، وخمسة، ولم يعد زوربا.

وفي اليوم السادس، تلقّيت من «كادي» رسالة في عدّة صفحات، ذات نَفَس واحد، كُتبت على ورق ورديّ معطّر، وفي زاويتها العُليا قلب يخترقه سهم.

وحفظتها بعناية، وأعدت كتابتها محتفظًا بالتعابير المدروسة المتناثرة هنا وهناك. ولم أقم إلّا بإصلاح أخطائه الإملائيّة الساحرة. إنّ زوربا ليمسك بالريشة كما يمسك بالمعول، ويضرب بقوّة، ولهذا كانت الورقة مثقوبة وملطّخة بالحبر، في عدّة أمكنة.

«إنّني أتناول الريشة لأسأل إذا كانت صحّتك جيّدة أوّلاً، ولأقول لك ثانيًا إنّنا، نحن أيضًا، في صحّة جيّدة، وليتبارك الله!

«أمّا بالنسبة لي فقد لاحظت منذ زمن بعيد أنّني لم آتِ إلى العالم حصانًا أو ثورًا. إنّ الحيوانات هي وحدها التي تعيش لتأكل. وإنّني أخلق لنفسي أعمالاً كثيرة ليل نهار، كي أفلت من التهمة المذكورة أعلاه، وأغامر بخبزي من أجل فكرة، وأقلب الأمثال وأقول: «إنّ دجاجة تسبح في الماء أفضل من دوري في قفص».

«إنّ الكثيرين وطنيّون، لكنّ هذا لا يكلّفهم شيئًا. أمّا أنا فلست وطنيًّا. ولو سبّب لي ذلك الأذى. إنّ الكثيرين يؤمنون بالفردوس وموقنون بأنّهم سيدخلون حميرهم إلى تلك المراعي الغنيّة. أمّا أنا فليسَ عندي حمار،

إنّي حرّ، لست أخاف الجحيم، حيث قد يفطس حماري، ولست أرجو الفردوس حيث سيعلف بالفصّة. إنّني لست متعلّمًا، ولا أحسن التعبير، لكنّك تفهمني أيّها الرئيس.

«لقد خاف الكثيرون من بطلان الأشياء، أمّا أنا فلست بحاجة إلى التفكير. إنّني لا أُسَرّ للخير، ولا أحزن للشرّ، وإذا علمت أنّ اليونانيّين قد أخذوا القسطنطينيّة، فسيّان عندي أحدث ذلك أم أنّ الأتراك أخذوا أثينا.

«وإذا رأيت، بعد أن تقرأ ما أكتبه لك هنا، أنّ ذكائي قد ضعف، فاكتب لي بذلك. إنّني أذهب إلى مخازن «كاري» لشراء حبال المصعد، وأضحك.

«إنّهم يسألونني «لِمَ تضحك، أيّها الصديق؟». لكن كيف أشرح لهم؟ إنّني أضحك لأنّني، في اللحظة التي أمدّ فيها يدي لأرى إذا كانت الحبال الحديديّة جيّدة، أفكّر فجأة في ماهيّة الإنسان، وفي السبب الذي جاء من أجله إلى العالم، وفي الفائدة المرتجاة منه... وفي رأيي أنّه لا يفيد شيئًا. إنّ كلّ الأشياء متشابهة، وسيّان أكانت لي امرأة أم لم تكن، وسيّان أكنت شريفًا أم غير شريف، أم كنت باشا أو حمّالاً. الخلاف الوحيد هو أن يكون حيًّا أو ميّتًا. فإذا ما استدعاني الشيطان أو الله ـ ماذا تريد، إنّهما لشيء واحد بالنسبة لي ـ فإنّني سأفطس، وأصبح جثّة منتنة وأفسد الهواء على الناس، فيضطرّون إلى دفني على عمق أربع أقدام تحت الأرض كي لا يختنقوا.

«وبالمناسبة، أيّها الرئيس، فإنّني سأطلب منك شيئًا يخيفني ـ الوحيد الذي يخيفني ـ ولا يترك لي راحة، لا ليلاً ولا نهارًا. إنّني أخاف الشيخوخة، أيّها الرئيس، فلتقِنا السماء منها! إنّ الموت لا شيء، مجرّد بفّ! وتنطفئ الشمعة. لكنّ الشيخوخة عار.

«إنّه لعار كبيرٌ جدًّا أن أعترف أنّني أشيخ، وأقوم بكلّ ما في طاقتي كي لا يتبيّن أيّ إنسان أنّني قد شخت: إنّني أقفز، وأرقص، ويؤلمني ظهري،

لكنّني أرقص، إنّني أشرب، فأشعر بالدوار، ويختلط كلّ شيء حولي، ولكنّني لا أكبو، وأتصرّف وكأنّني ليس بي شيء. إنّني أعرق، فأغطس في البحر، فأُصاب بالبرد، وأرغب في السعال، أحم، أحم! كي أعيد الهدوء إلى صدري، لكنّني أخجل، أيّها الرئيس، فأكبت السعال بالقوّة ـ هل سمعتني بعض المرّات أسعل؟ أبدًا! وليس أمام الناس فحسب، كما يمكن أن تظنّ، لكن عندما أكون بمفردي أيضًا. إنّني أخجل أمام زوربا، أيّها الرئيس. إنّني أخجل أمامه!

«ذات يوم، في جبل آتوس ـ لقد ذهبت إلى هناك أيضًا، وأولى بي لو كسرت رجلي ولم أذهب ـ تعرّفت على راهب، الأب لافرنتيو، وأصله من «شيو». وكان هذا الإنسان المسكين يعتقد أنّ فيه شيطانًا، بل لقد أعطاه اسمًا، فيدعوه: «الخوجا». وكان لافرنتيو المسكين يصيح على عتبة الكنيسة وهو يضرب رأسه: «الخوجا يريد أن يأكل لحمًا يوم الجمعة المقدّس. الخوجا يريد أن ينام مع امرأة، الخوجا يريد أن يقتل رئيس الدير. إنّه الخوجا، الخوجا، وليس أنا!». ويضرب جبينه بالصخر.

«أنا أيضًا أيّها الرئيس، فيّ مثله شيطان وإنّني لأدعوه زوربا. إنّ زوربا الذي في داخلي لا يريد أن يشيخ، وهو لم يشخ، ولن يشيخ أبدًا. إنّه غول شعره أسود كالغراب، وله اثنتان وثلاثون سنًّا، وقرنفلة حمراء وراء أذنه. لكنّ زوربا الذي في الخارج، قد شاخ، الشيطان المسكين، ونبت له شعر أبيض، وامتلأ جلده غضونًا وتقلّص، وأخذت أسنانه تسقط، ووخط رأسه الكبير شيب الشيخوخة الأبيض، وامتلأ بشعر الحمار الطويل.

«ما العمل، أيّها الرئيس؟ إلامَ سيختصم هذان الزوربايان؟ من منهما سينتصر في النهاية؟ إذا متّ سريعًا، فهذا حسن، ولن أقلق. لكن إذا عمّرت أيضًا طويلاً، فإنّني هالك. إنّني هالك، أيّها الرئيس، فسيأتي يوم أُذلّ فيه. سأفقد حرّيّتي، وتأمرني حماتي وابنتي بأن أراقب طفلاً صغيرًا، وحشًا مريعًا، سليلهما، كي لا يحرف نفسه، ولا يقع ولا يتّسخ. وإذا ما

وسّخ نفسه، فإنّهما ستضطرّانني إلى تنظيفه! أفّ!

«أنت، ستتعرّض للعار نفسه، أيّها الرئيس. وعلى الرّغم من أنّك شابّ، كن على حذر! أصغِ إلى ما أقوله لك، واتّبع الطريق نفسه الذي اتّبعته أنا. ليس ثمّة سلام آخر، فلندلف إلى الجبال، ولنستخرج منها الفحم، والنحاس، والحديد والتوتياء، ولنربح المال كي يحترمنا الأقارب، ويلعق الأصدقاء أحذيتنا، ويرفع البورجوازيّون قبّعاتهم لنا. وإذا لم ننجح، أيّها الرئيس، فمن الأفضل أن نموت، وأن تقتلنا الذئاب والدببة، أو أيّ حيوان كاسر آخر يجدنا أمامه. وإنّما لهذا السبب أرسل الله الحيوانات المفترسة إلى الأرض. لكي تلتهم بعضًا من أفراد جنسنا، حتى لا يُذلّوا».

وهنا كان زوربا قد رسم، بالأقلام الملوّنة، رجلاً طويلاً، نحيفًا، يجري تحت أشجار خضر، وفي أثره سبعة ذئاب حمر، وتحت هذا الرسم كُتب، بأحرف كبيرة: «زوربا والخطايا السبع الرئيسيّة».

ويتابع رسالته:

«بعد أن تقرأ رسالتي، ستتبيّن أيّ إنسان تعيس أنا، وأنّني لا أرجو أيّ أمل في الخلاص من سوداويّتي إلّا عندما أحدّثك. لأنّك، أنت أيضًا، مثلي، لكنّك لا تعرف ذلك. أنت أيضًا فيك شيطان، لكنّك لا تعرف بعد ماذا يُدعى، وإنّك لتختنق بسبب ذلك. عمّده، أيّها الرئيس، وأعد الطمأنينة إلى نفسك!

«كنت أقول إذن كم كنت تعيسًا. إنّني أرى بوضوح أنّ كلّ ذكائي ليس إلّا حماقة، ولا شيء آخر. ومع ذلك، يحدث لي أن أمرّ بأيّام أفكّر فيها تفكير إنسان كبير، ولو كنت أستطيع عند ذاك أن أحقّق كلّ ما هو عليه الآن!

«ولمّا لم يكن بيني وبين حياتي عقد محدّد، فإنّني أرخي العنان عندما أصل إلى أخطر المنحدرات. إنّ حياة الإنسان طريق لها مرتفعاتها ووهادها. وذوو العقول يتقدّمون وأيديهم على العنان. أمّا أنا أيّها الرئيس،

وهنا تكمن قيمتي، فقد ألقيت بالعنان منذ زمن بعيد، لأنّ الصدمات لا تخيفني. إنّنا، نحن العمّال، ندعو الخروج عن الخطّ الحديدي اصطدامًا. ولتعلّق مشنقتي إذا كنت أعير الصدمات التي أقوم بها انتباهًا. إنّ لي في كلّ عرس قرصًا، وأنا أفعل ما يحلو لي، ولا أُبالي إن متّ. ما الذي أخشى عليه من الضياع؟ لا شيء. وعلى كلّ حال، حتى ولو عشت طويلاً، فإنّني سأموت في النهاية! هذا أكيد! إذن، فلنحرق المراحل!

«يقينًا أنّك لتضحك الآن أيّها الرئيس بسببي، لكنّني أكتب لك عن خمولي، أو، إذا كنت تفعل ذلك، عن تفكيري أو ضعفي ـ وما الفرق بين الثلاثة، إنّني، والحقّ، لا أرى فرقًا ـ إنّني أكتب لك، فاضحك أنت إذن إذا شئت. أنا أيضًا أضحك لمعرفتي بأنّك تضحك، وهكذا فإنّ الضحك لن ينتهي على الأرض. إنّ لكلّ إنسان حماقاته، لكنّ الحماقة الكبرى في رأيي هي ألّا يكون للإنسان حماقات.

«إذن فأنا أيضًا في «كاندي»، أدرس جنوني، وأكتب لك عن كلّ شيء بالتفصيل، لأنّني أريد، كما ترى، أن أسألك نصحًا. إنّك لا تزال شابًّا، أيّها الرئيس، هذا صحيح. لكنّك قرأت الحكماء الأسبقين وأصبحت ـ أرجو ـ هرمًا قليلاً، وأنا بحاجة إلى نصحك.

«إذن، فإنّني أعتقد أنّ لكلّ إنسان رائحته الخاصّة به، ونحن لا نميّزها لأنّ الروائح تختلط فلا نعرف أيّها الخاصّة بك، وأيّها الخاصّة بي... إنّنا نفهم فقط أن تفوح رائحة العفونة من ذلك، وهذا ما ندعوه «الإنسانيّة»، أعني العفونة الإنسانيّة. وثمّة من يستروحها وكأنّها رائحة الخزامى. أمّا أنا فتدفعني إلى القيء. لكن دعنا من ذلك، فتلك قصّة أخرى.

«كنت أريد بالأحرى أن أقول، وسأطلق العنان مرّة أخرى، إنّ أولئك السافلات، النساء، أنوفهنّ رطبة دومًا، كالكلبات، وهنّ يستروحن فورًا رائحة الرجل الذي يشتهيهنّ والذي لا يشتهيهنّ. ولهذا فقد كان هناك دومًا، في كلّ مدينة أحطُّ فيها قدمي، وعلى الرّغم من أنّني قد أصبحت

الآن مسنًّا وقبيحًا كقرد لا أعتني بثيابي، امرأتان أو ثلاث ليجرين ورائي. إنّهنّ يتتبّعن أثري كما ترى، أولئك الكلبات. ليباركهنّ الله!

«إذن، في اليوم الأوّل من وصولي سالمًا إلى كاندي، كان الوقت مساء، عند أفول النهار. وأسرعت فورًا إلى المخازن، لكنّ كلّ شيء كان مغلقًا. وذهبت إلى فندق، وقدَّمت علفًا لبغلتي، وأكلت أنا أيضًا، واغتسلت. وأشعلت سيجارة وخرجت لأقوم بجولة. لم أكن أعرف أيّ إنسان في المدينة، ولا أحد يعرفني. كنت حرًّا. كان بإمكاني أن أصفّر في الشارع، وأضحك، وأتكلّم بمفردي. واشتريت قليلاً من بزر اليقطين المقلي، ورحت أتسلّى به وأبصق، وأتنزَّه. كانت مصابيح الشوارع قد أُشعلت. ومضى الرجال لتناول بعض المشروب، وعادت النساء إلى منازلهنّ، وكان الجوّ عابقًا برائحة المساحيق والصابون وشرائح اللحم المقلي والعرق. ورحت أقول في نفسي: «قل إذن، أيّها العجوز زوربا، إلى متى ستظلّ حيًّا يختلج منخراك؟ لم يبقَ أمامك وقت طويل لاستنشاق الهواء، يا عجوزي المسكين، هيّا، واستنشق حتى الأعماق!».

«هذا ما كنت أقوله لنفسي وأنا أسير عرضًا وطولاً في الساحة التي تعرفها. وفجأة، سمعت صياحًا، ورقصًا، وقرع طبول، وأغاني. وأرهفت أذنيّ وأخذت أركض نحو الجهة التي تأتي منها الضجّة. كان المكان عبارة عن مقهًى وملهًى. لم أكن أطلب غير ذلك، فدخلت. وجلست إلى مائدة صغيرة، في المقدّمة. وما الذي أخشى؟ فكما قلت لك، لم يكن ثمّة إنسان يعرفني. حرّيّة كاملة!

«كانت هناك امرأة طويلة ترقص فوق المنصّة، ترفع بذلتها وترخيها، لكنّني لم أعرها انتباهًا. وطلبت زجاجة جعة، وجاءت فرخة صغيرة لتجلس إلى جانبي. فتاة لطيفة، شديدة السمرة، على وجهها طبقة كثيفة من الأصباغ.

«وقالت لي وهي تضحك: أتسمح أيّها الجدّ؟ وصعد الدم إلى رأسي.

وتملّكتني رغبة قويّة في أن أدقّ عنقها، تلك البلهاء! لكنّني تمالكت نفسي، مشفقًا عليها، وناديت النادل:

«ـ شمبانيا!

(يجب أن تعذرني، أيّها الرئيس! فقد أنفقت كلّ مالك، لكن كان لا بدّ من مواجهة الموقف، من إنقاذ شرفنا، شرفي وشرفك، كان يجب أن أجعلها تركع أمامنا، تلك البلهاء! كان لا بدّ من ذلك. إنّني أعلم جيّدًا أنّك ما كنت لتتركني هكذا، دون دفاع، في تلك اللحظة الصعبة. إذن: شمبانيا، أيّها النادل!).

«وجاءت الشمبانيا، وطلبت أيضًا حلوى، ثم شمبانيا من جديد. ومرّ رجل معه ياسمين، فاشتريت السلّة كلّها، وأفرغتها على ركبتي تلك الجبانة التي تجرّأت على إهانتنا.

«ورحنا نشرب، ونشرب، لكنّني أقسم لك أيّها الرئيس أنّني لم أمسّها. إنّني أعرف شغلي. عندما كنت شابًّا، كان أوّل ما أفعله هو المداعبة. أمّا الآن وقد أصبحت عجوزًا، فإنّ أوّل ما أفعله هو أن أنفق وأتظاهر بالظرف، وأرمي بالمال يمينًا وشمالاً. إنّ النساء يغرمن بمثل هذه الحركات، إنّهنّ يغرمن بها، العاهرات، ويمكنك أن تكون أحدب، يمكنك أن تكون حطامًا قديمًا، قبيحًا كقملة، إلّا أنّهنّ يتناسين كلّ شيء. إنّهنّ لا يرين شيئًا، السافلات، لا شيء سوى اليد التي تجعل المال ينساب وكأنّها سلّة مثقوبة. كنت أقول إذن إنّني أنفقت كثيرًا وأكثر من الكثير، لتكن مباركًا وليعوّضك الرحمٰن عنه مئة ضعف، أيّها الرئيس، وما كانت الفتاة لتنصرف. وأخذت تقترب بهدوء، وتضغط بركبتها الصغيرة على ساقيّ الطويلتين.

«لكنّني، كنت كالجليد، أمّا في داخلي فقد كنت أتحرّق. ذاك هو ما يجعل النساء يفقدن العقل، يجب أن تعرف ذلك في حالة سنوح مثل هذه الفرصة لك: أن تحسّ بأنّك تحترق في الداخل لكنّك مع ذلك لا تلمسهنّ حتى مجرّد لمس.

«باختصار، جاء منتصف الليل وانقضى. وانطفأت الأنوار شيئًا فشيئًا، وبدأ المقهى يغلق أبوابه. وأخرجت رزمة من أوراق الألف ودفعت تاركًا للنادل مبلغًا سخيًّا. وتعلّقت الصغيرة بي. وسألتني بصوت متخاذل:

ـ ما اسمك؟

فأجبت غاضبًا:

ـ الجدّ!

وقرصتني الصغيرة بقوّة وقالت بصوت منخفض:

ـ تعالَ... تعالَ...

وأخذت يدها الصغيرة، وضغطت عليها موافقًا، وأجبت بصوت مبحوح:

ـ هيّا يا صغيرتي...

«أمّا الباقي، فلا بدّ أنّك تعرفه. ثم أخذنا النعاس. عندما استيقظت، كان الوقت ظهرًا، ونظرت حولي فماذا وجدت؟ غرفة صغيرة طريفة، وأرائك، ومغسلة، وصابونًا، وزجاجات صغيرة وكبيرة، وأثوابًا زاهية معلّقة على الجدار، ومجموعة ضخمة من الصور: صور بحّارة، وضبّاط، وقوّاد، ودرك، وراقصات، ونساء ليس عليهنّ من الثياب سوى نعلين صغيرين. وإلى جانبي، في الفراش، الفتاة، مشعّثة الشعر، حارّة، يفوح منها العطر.

«وقلت في نفسي وأنا أغمض عينيّ من جديد: «آه! يا زوربا، لقد دخلت الجنّة حيًّا. المكان جيّد، فلا تتحرّك من هنا!».

«لقد قلت ذلك سابقًا، أيّها الرئيس، إنّ لكلٍّ فردوسه الخاصّ: إنّ فردوسك، سيكون محشوًّا بالكتب ودمجانات الحبر الكبيرة. وبالنسبة لإنسان آخر سيكون محشوًّا ببراميل الخمر والروم والكونياك. وبالنسبة لآخر، بأنضاد الجنيهات الإسترلينيّة. أمّا فردوسي أنا فهو هذا: غرفة صغيرة عبقة فيها أثواب زاهية، وصابون، وسرير عريض ذو نوابض، وإلى جانبي امرأة.

«إنّ الخطيئة التي تعترف بها يُغفر لك نصفها. إنّني لم أخرج طوال النهار. فإلى أين أذهب؟ وماذا أفعل؟ تصوَّر! كنت مرتاحًا هنا. وطلبت طعامًا من أفضل فندق، فجاؤونا بطبق كبير، ليس فيه إلّا كلّ ما هو مقوٍّ: كافيار أسود، وشرائح لحم، وسمك، وليمون معصور، وقطايف. وقمنا بالحبّ مرّة أخرى ثم عدنا إلى النوم. واستيقظنا حوالى المساء، وارتدينا ثيابنا وذهبنا وأذرعنا متشابكة إلى المقهى حيث تعمل.

«كي أوضح لك الأمور بكلمات قليلة، ولا أصدع رأسك بالكلام، فإنّني أقول لك إنّ هذا البرنامج لا يزال مستمرًا. لكن لا تغضب، فإنّني أهتمّ أيضًا بقضايانا. من حين لحين أذهب لإلقاء نظرة على المخازن. سأشتري الحبال وكلّ ما هو لازم، كن مطمئنًّا. قبل يوم، أو بعد أسبوع، أو حتى شهر، فماذا يعني هذا؟ وكما يقول المثل: إنّ القطّة، في عجلتها، تضع أولادها خلسة. إذن لا تتعجّل كثيرًا. إنّني أنتظر، من أجل مصلحتك، أن تتفتّح أذناي، ويتوقّد ذهني، كي لا يغشّني أحد. يجب أن تكون الحبال من النوع الأوّل، وإلّا فقد أضعنا كلّ شيء. إذن اصبر قليلاً، أيّها الرئيس، وثق فيَّ.

(على الأخصّ، لا تقلق على صحّتي. إنّ المغامرات تفيدني. في بضعة أيّام، عدت من جديد شابًّا في العشرين. إنّني أحسّ بقوّة، أؤكّد لك، إلى حدّ أنّ أسنانًا جديدة ستنبت لي. كان ظهري يؤلمني قليلاً، لكنّني أتمتّع بصحّة قويّة الآن. كلّ صباح أنظر إلى نفسي في المرآة، فأُدهش لكون شعري لم يصبح بعد أسود كالطلاء.

«لكنّك ستتساءل لماذا أكتب لك كلّ هذا. لأنّك بالنسبة لي أشبه بمعرِّف، ولست أخجل من أن أعترف لك بخطاياي. أوَتَعرف لماذا؟ لأنّك تهتمّ، على ما يبدو لي، بكلّ ما أفعله، سواء أكان خيرًا أم شرًّا، كما يهتمّ المقامر باللعب. أنت أيضًا تمسك بإسفنجة نديّة كالإله: فلاب! فلوب! إنّك تمحو كلّ شيء، أَخَيْرًا كان أم شرًّا. هذا ما يشجّعني على الاعتراف

لك بكلّ شيء. إذن، أصغ!

«لقد بدأت الأمور تختلط عليّ، وإنّني أكاد أفقد رشدي. إنّي أرجوك، في اللحظة التي تستلم فيها هذه الرسالة، أن تأخذ ريشتك وتكتب إليّ. وإلى أن أتلقّى ردًّا، فإنّني سأظلّ على أحرّ من الجمر. إنّني أعتقد أنّني منذ سنوات ليست بالقليلة لم أعد مسجّلاً في سجلّات الرحمٰن. ولا في سجلّات إبليس أيضًا. إنّني لست مسجّلاً إلّا في سجلّك، إذن فليس أمامي إنسان أتوجّه إليه إلّا سيادتك، إذن أَعِرْ أذنك لما سأقوله لك. هذا ما يجري:

«البارحة، كان يوم عيد في قرية قريبة من كاندي. وليأخذني الشيطان إذا كنت أعرف عيد أيّ قدّيس. وقالت لي لولا ـ هذا صحيح، لقد نسيت أن أقدّمها لك: إنّها تُدعى لولا:

«أيّها الجدّ (إنّها تدعوني من جديد بالجدّ، لكن على سبيل المداعبة الآن) أيّها الجدّ، إنّني أودّ الذهاب إلى العيد.

فقلت لها:

ـ اذهبي، أيّتها الجدّة، اذهبي.

ـ لكنّني أريد أن أذهب معك.

ـ إنّني لن أذهب. لديّ عمل هنا. اذهبي بمفردك.

ـ إذن، فلن أذهب أنا أيضًا.

وجحظت عيناي:

ـ لن تذهبي، لماذا؟

ـ إذا جئت معي، فسأذهب. وإذا لم تجئ، فلن أذهب.

ـ لكن لماذا؟ ألست إذن شخصًا حرًّا؟

ـ لا، إنّني لست حرّة.

ـ ألا تريدين أن تكوني حرّة؟

ـ كلّا!

وأيم الحقّ، لقد أحسست بأنّني أصبحت معتوهًا. وصرخت:

ـ ألا تريدين أن تكوني حرّة؟

ـ لا، لا أريد! لا أريد! لا أريد!

«أيّها الرئيس، إنّني أكتب لك من غرفة لولا، على ورق لولا. وحبًّا بالله، انتبه، أرجوك. أنا أعتقد أنّ الذي يريد أن يكون حرًّا هو وحده مخلوق إنساني. المرأة لا تريد أن تكون حرّة. إذن، فهل المرأة مخلوق إنساني؟

«أغثني، واكتب لي فورًا. إنّني أقبّلك من كلّ قلبي، يا رئيسي الطيّب.

«أنا، ألكسيس زوربا»

عندما أنهيت قراءة رسالة زوربا، بقيت متردّدًا مليًّا، لم أكن أدري أعليّ أن أغضب، أو أضحك، أو أُعجب بهذا الإنسان البدائي الذي يبلغ الجوهر عن طريق تحطيم قشرة الحياة؛ المنطق والأخلاق والصدق. إنّه يفتقر إلى جميع الفضائل الصغيرة، مهما كانت مفيدة. لم يبق لديه إلّا فضيلة واحدة عسيرة، صعبة، خطرة تدفعه بشكل لا يقاوم نحو الحدّ الأقصى، نحو الهاوية.

إنّ هذا العامل الجاهل ليحطّم، في فورته اللجوج، الريشة عندما يكتب. إنّه كأولئك الرجال الذين كانوا أوّل من نزعوا عن أجسادهم جلد القرود، أو كالفلاسفة الكبار، تسيطر عليه المشاكل الأساسيّة. فهو يراها وكأنّها ضرورات فوريّة وعاجلة. إنّه شبيه بالطفل، يرى الأشياء دومًا لأوّل مرّة. إنّه يندهش باستمرار ويسأل. كلّ شيء يبدو له معجزًا، وكلّ صباح، عندما يفتح عينيه ويرى الأشجار والبحر والصخور، وطائرًا ما، يقف فاغر الفم.

إنّه يصيح: «ما هذه المعجزة؟ ما هذه الأسرار التي تُدعى: شجرة: بحر، صخرة، طائر؟».

أذكر أنّنا ذات يوم، وكنّا نسير إلى القرية، صادفنا عجوزًا ضئيلاً يمتطي بغلاً. وجحظت عينا زوربا المستديرتان وهو ينظر إلى الدابّة. ولا شكّ أنّ نظرته كانت ملتهبة ونافذة جدًّا إلى حدّ أنّ الفلّاح صاح مذعورًا:

ـ حبًّا بالله، لا ترمِهِ بعين حسود!

ورسم إشارة الصليب.

والتفتُّ إلى زوربا وسألته:

ـ ما الذي فعلت للعجوز حتى صاح هكذا؟

ـ أنا؟ لم أفعل له شيئًا! لقد نظرت إلى البغل، عجبًا! أهذا لا يدهشك، أنت أيّها الرئيس؟

ـ ماذا؟

ـ أن توجد بغال على الأرض.

وفي يوم آخر، بينما كنت أقرأ مستلقيًا على الشاطئ، جاء زوربا وجلس بمواجهتي، ووضع السانتوري على ركبتيه وراح يعزف. ورفعت عينيّ ونظرت إليه. وتبدّل وجهه شيئًا فشيئًا، وتملّكه فرح وحشي وهزَّ رقبته الطويلة المصقولة وبدأ يغنّي.

ألحان ماسيدونيّة، وأغانٍ كليفتيّة، وصرخات وحشيّة. إنّ الحنجرة البشريّة تعود إلى عصور سابقة للتاريخ، كانت الصرخة فيها تركيبًا عاليًا لكلّ ما نسمّيه اليوم: موسيقى وشعرًا وفكرًا. وصرخ زوربا من أعماق أحشائه: «آخ! آخ!»، وذابت كلّ القشرة الرقيقة التي نسمّيها حضارة، وأفسحت الطريق للوحش الخالد، للإله المشعر، للغوريلّا المرعبة.

واختفى كلّ شيء: اللينيت والخسائر والأرباح، والسيّدة هورتانس ومشاريع المستقبل. لقد حملت الصرخة كلّ شيء، ولم نعد بحاجة إلى شيء. كنّا نحمل، ونحن واقفان بلا حراك فوق أرض كريت المنعزلة هذه، كلّ مرارة الحياة وعذوبتها، بل إنّ المرارة والعذوبة لم تعودا موجودتين، ثم مالت الشمس، وجاء الليل وراح الدبّ الكبير يرقص حول محور السماء

الثابت، وصعد القمر وراح ينظر مذعورًا إلى حيوانين صغيرين ينشدان فوق الرمال، لا يخشيان أحدًا.

وقال زوربا فجأة وقد انتشى بسبب الغناء:

ـ حسنًا، يا عجوزي، إنّ الإنسان حيوان مفترس، دع كتبك، ألا تخجل؟ إنّ الإنسان حيوان مفترس، والحيوانات المفترسة لا وجود لها في الكتب.

وصمت لحظة ثم أخذ يضحك وقال:

ـ أتعرف كيف خلق الإلٰه الإنسان؟ أتعرف ما الكلمات الأولى التي وجّهها هذا الإنسان الحيوان إلى الله؟

ـ كلّا، كيف تريد أن أعرف؟ إنّني لم أكن حاضرًا لحظتها.

فصرخ زوربا وقد تطايرت عيناه شررًا:

ـ أمّا أنا فقد كنت حاضرًا!

ـ إذن، قل لي!

وراح يخترع، نصف منتشٍ، نصف هازئ، حكاية خلق الإنسان الأسطوريّة:

ـ حسنًا، أصغ، أيّها الرئيس! ذات صباح، استيقظ الإلٰه الرحيم حزينًا: «أيّ نوع من الآلهة أنا؟ ليس عندي حتى بشر يحرقون لي البخور أو يقسمون باسمي، فأجد فيهم تمضية للوقت! لقد ضجرت من العيش وحيدًا وكأنّي بومة عجوز!». وبصق في يديه، وشمّر عن أكمامه، ووضع نظّارتيه، وأخذ جبلة من التراب، وبصق عليها، وأحالها إلى طين، وعجنها جيّدًا كما يجب، وصنع إنسانًا صغيرًا ووضعه في الشمس.

«وبعد سبعة أيّام، سحبه. لقد نضج. ونظر إليه الإلٰه الرحيم وأخذ يضحك، وقال:

ـ ليأخذني الشيطان! لكنّ هذا أشبه بخنزير ينتصب على قدميه الخلفيّتين! إنّه أبعد ما يكون عمّا أردت أن يكونه!

وأخذه من جلد رقبته ورفسه برجله:

ـ اذهب، هيّا! اغرب من هنا! ليس عليك إلّا أن تصنع خنازير صغيرة الآن، إنّ الأرض لك. اغرب! واحد، اثنان، إلى الأمام، سر!

«لكنّه، يا صديقي، لم يكن خنزيرًا البتّة. كان يرتدي قبّعة رخوة، وسترة ملقاة بلامبالاة على كتفيه، وسروالاً له ثنيّة، ونعلين مزدانتين بأوراد حمر. ثم إنّه كان يحمل في حزامه ـ ولا شكّ في أنّ إبليس هو الذي أعطاه إيّاه ـ خنجرًا مشحوذًا مكتوبًا عليه: «سأقتلك!».

«كان ذاك هو الإنسان. ومدَّ الإله الرحيم يده كي يقبّلها الآخر، لكنّ الإنسان فتل شاربه وقال:

ـ «هيّا أيّها العجوز، ابعد من هنا كي أمرّ!».

وتوقّف زوربا وقد رآني أتثنّى من الضحك، فعبس، وقال لي:

ـ لا تضحك، فالأمر قد جرى هكذا!

ـ لكن كيف تعرف ذلك؟

ـ هكذا أحسُّ به، وهكذا كنت سأفعل، أنا أيضًا، مكان آدم. إنّني أراهن برأسي على أنّ آدم لم يتصرّف بطريقة أخرى. لا تثق بكلّ ما ترويه الكتب، بل عليك أن تصدّقني أنا!

ومدّ يده الضخمة دون أن ينتظر جوابًا وعاد إلى العزف على السانتوري.

* * *

وكنت ما أزال أمسك برسالة زوربا المعطّرة، المرسوم عليها قلب قد نفذ فيه سهم، وعشت من جديد كلّ تلك الأيّام، الغنيّة بالجوهر الإنساني، التي أمضيتها قربه. إنّ الزمن إلى جانبه قد أصبح له طعم جديد. إنّه لم يعد مجرّد تتابع رياضي للأحداث، ولم يعد بالنسبة لي مشكلة فلسفيّة لا حلّ لها. بل كان عبارة عن رمل حارّ، مصفًّى بدقّة، وكنت أحسّ به ينساب من بين أصابعي بحنان.

وتمتمت: ليكن زوربا مباركًا! لقد أعطى جسدًا حبيبًا وحارًّا للمفاهيم المجرّدة التي كانت ترتعد في داخلي. وإنّني لأعود إلى الارتعاد عندما لا يكون هنا.

وأخذت ورقة، وناديت عاملاً، وأرسلت برقيّة عاجلة:

«عد حالاً».

ـ ١٤ ـ

يوم السبت، الأوّل من آذار، بعد الظهر. كنت مستندًا إلى صخرة تجاه البحر، وأنا أكتب. في ذلك اليوم رأيت أوّل سنونو، كنت فرحًا، وكانت عمليّة طرد بوذا تجري بلا عقبات على الورق. لقد تعدّل نضالي ضدّه. إنّني لم أعد مستعجلاً، وصرت واثقًا من الخلاص.

وفجأة سمعت وقع خطًى على الحصى. ورفعت رأسي ورأيت جنّيّتنا العجوز وهي تسعى على طول الشاطئ، متبرّجة كمركب حربي، لاهثة، مندفعة. كانت تبدو قلقة.

وصرخت بقلق:

ـ أهناك رسالة؟

فأجبت ضاحكًا، وأنا أنهض لأستقبلها:

ـ نعم! إنّه يقول لك أشياء كثيرة، إنّه يفكّر بك ليل نهار، ويقول إنّه لا يستطيع طعامًا ولا نومًا، وإنّه لا يطيق الفراق.

فأجابت المسكينة لاهثة:

ـ أهذا كلّ ما يقوله؟

وأشفقت عليها. أخرجت الرسالة من جيبي وتظاهرت بقراءتها. وفتحت الجنّيّة العجوز فمها الذي تساقطت أسنانه، والتمعت عيناها الصغيرتان، وراحت تصغي، متلاحقة الأنفاس.

وتظاهرت بالقراءة، وكنت عندما يشرد ذهني أتظاهر بأنّني أستصعب

فهم بعض الكلمات: «ذهبت البارحة أيّها الرئيس لتناول الغداء عند بائع لحم مشوي. كنت جائعًا. ورأيت صبيّة جميلة جدًّا، شبيهة بإلهة حقيقيّة، تدخل. يا للرحمٰن! كم تشبه بوبولينتي! وسرعان ما راحت عيناي تجريان كالينبوع، وانقبض زلعومي، ولم أعد أستطيع البلع! ونهضت ودفعت وانسحبت واستولى عليّ شوق شديد، وأسرعت، أنا الذي لا يفكّر بالقدّيسين إلّا مرّة كلّ سنة، أسرعت إلى كنيسة القدّيس ميناس لأشعل له شمعة. وقلت في صلاتي: «أيّها القدّيس ميناس، اجعلني أتلقّى أخبارًا طيّبة عن الملاك الذي أحبّه، اجعل أجنحتنا تتّحد في أقرب فرصة!»».

وصرخت السيّدة هورتانس التي تألّق وجهها من الفرح:

ـ هيْ! هيْ! هيْ!

فسألتها وأنا أتوقّف لأستعيد أنفاسي وأختلق أكاذيب جديدة:

ـ لماذا تضحكين، يا سيّدتي؟ لماذا تضحكين؟ إنّ هذا الكلام يدفع بي إلى البكاء، أنا.

فهدلت فجأة:

ـ لو كنت تعلم... لو كنت تعلم...

ـ ماذا؟

ـ الأجنحة... هكذا يسمّي الأرجل، السافل! هكذا يسمّيها عندما نكون منفردين. إنّه يتمنّى أن تتّحد أجنحتنا...

هيْ! هيْ! هيْ!

ـ لكن اسمعي الباقي، يا سيّدتي، إنّك ستُذهلين...

وقلبت الصفحة وتظاهرت من جديد بالقراءة:

«مررت اليوم أيضًا أمام دكّان حلّاق. وفي تلك اللحظة بالذات كان الحلّاق يفرغ خارج دكّانه طسته المليء بماء الصابون. وعبق الشارع كلّه. وفكّرت من جديد ببوبولينتي، وأخذت أبكي. إنّني لا أستطيع البقاء بعيدًا عنها، أيُّها الرئيس. سأُجنّ. تصوّر، لقد أخذت أقرض الشّعر أيضًا. لم

أستطع النوم أوّل أمس، فنظمت لها قصيدة صغيرة. أرجوك أن تقرأها لها كي ترى إلى أيّ حدّ أتألّم:

«آه! لو كنّا نستطيع أن نلتقي أنت وأنا، في درب ما.

«في درب فسيحة تتّسع لألمنا!

«إنّني حتى ولو قُطّعت إربًا إربًا ومزّقوا جسدي بالفأس!

«فإنّ حطام عظامي سيظلّ يسعى نحوك!».

كانت السيّدة هورتانس تصغي بكلّ سمعها، سعيدة، وعيناها ذابلتان نصف مغلقتين. بل إنّها حلَّت عن عنقها الشريط الذي كان يخنقها، وأعادت للغضون حرّيّتها. كانت تقف صامتة مبتسمة. وكانت روحها تطوف فرحة، سعيدة، بعيدة جدًّا، على غير هدى.

آذار، والعشب النضر، والأزاهير الحمر، والصفر، والليلكيّة، والمياه الصافية حيث تجتمع عصائب من البجع السود والبيض وهي تغنّي. إناثها بيضاء، وذكورها سود، مناقيرها أرجوانيّة مفتوحة. وراحت أسماك الجري الزرق تخرج من الماء لامعة، وتتّحد بالثعابين الصفر الكبيرة. وعادت السيّدة هورتانس من جديد إلى سنّ الرابعة عشرة، وإلى الرقص على سجّادات شرقيّة في الإسكندريّة، وبيروت، وإزمير، والقسطنطينيّة، ثم في كريت على سطوح السفن المطليّة... إنّها لم تعد تتذكّر جيّدًا. كلّ شيء اختلط عليها، وانتصب صدرها، وطقطقت الشطآن.

وفجأة بينما كانت ترقص، امتلأ البحر بسفن مطليّة من الأمام بالذهب، وفي مؤخّراتها خيام متعدّدة الألوان، وراياتها من الحرير. سفن يخرج منها باشاوات تتدلّى من طرابيشهم الحمر طرر ذهبيّة، وبكوات أغنياء جاؤوا للحجّ. وأيديهم مثقلة بالهدايا الثمينة، وأبناء بكوات مرّت في وجوههم كآبة. سفن يخرج منها إميراليّون بقبّعاتهم المثلّثة اللامعة، وبحّارة بياقاتهم المتألّقة البياض وسراويلهم العريضة الخافقة. سفن يخرج منها شبّان كريتيّون بثيابهم الزرق الفاتحة المنتفخة، وأحذيتهم الصفر، وقد

عقدوا مناديل سودًا حول رؤوسهم. سفن يخرج منها أيضًا زوربا، لامتناهيًا، قد أهزله الحبّ، في إصبعه خاتم خطوبة ضخم، وعلى شعره الرمادي إكليل من أزهار البرتقال. . .

من بين جميع الرجال الذين عرفتهم في حياتها المغامرة، لم يغب أيّ منهم، حتى ولا البحّار العجوز، الأحدب الذي تساقطت أسنانه، والذي أخذها ذات مساء لتتنزّه في مياه القسطنطينيّة. كان الليل قد أرخى سدوله، ولم يعد يلمحهم أحد. وخرجوا جميعًا، بينما كانت أسماك الجري والثعابين والبجع تتزاوج وراءهم.

خرجوا وانضمّوا إليها، مجتمعين، كالثعابين العاشقة التي تتلاصق في الربيع حزمًا حزمًا، بشكل مستقيم، وهي تصفّر. وفي وسط المجموعة، كانت سيّدة عمرها أربعة عشر، وعشرون، وثلاثون، وأربعون، وستّون عامًا، السيّدة هورتانس، تصفّر، بيضاء اللون، عارية، يبلّلها العرق، وشفتاها تنفرجان عن أسنانها الصغيرة الحادّة، بلا حراك، لا ترتوي.

لم يضع أيّ شيء، ولم يمت أيّ عاشق. إنّهم يُبعثون جميعًا، في صدرها الذابل، شاكي السلاح. فكأنّ السيّدة هورتانس سفينة حربيّة عظيمة لها ثلاث صوار، وكأنّ جميع عشّاقها ـ وهي لا تزال تعمل منذ خمسة وأربعين عامًا ـ يتسلّقونها، ويحتلّون مخازنها وسطحها وحبالها، بينما تتابع هي سيرها، بعد أن ثقبت أكثر من ألف مرّة ورُمّمت أكثر من ألف مرّة، نحو المرفأ الأخير الذي كانت تتمنّاه بحرارة منذ زمن طويل: الزواج. ويتّخذ زوربا ألف وجه: أتراك، وغربيّون، وأرمن، وعرب، ويونانيّون، فتعانق السيّدة هورتانس، بمعانقتها له، كلّ ذلك الموكب المقدّس اللامتناهي. .

وتبيّنت الجنّيّة العجوز فجأة أنّني قد توقّفت، واختفت رؤياها دفعة واحدة، ورفعت جفنيها المثقلين وتمتمت بصوت مؤنّب، وهي تلعق شفتيها بشره:

ـ ألا يقول شيئًا آخر؟

ـ ماذا تريدين أكثر من ذلك، يا سيّدتي هورتانس؟ ألا ترين؟ إنّ الرسالة كلّها لا تتحدّث إلّا عنك. انظري، أربع ورقات. وهناك أيضًا قلب، انظري، هنا، في الزاوية. زوربا يقول إنّه رسمه بنفسه. انظري، إنّ الحبّ يخترقه من الطرف إلى الطرف. وتحته، انظري، حمامتان تتعانقان، وعلى أجنحتهما كُتب بأحرف صغيرة غير مقروءة بالحبر الأحمر اسمان متعانقان: هورتانس ـ زوربا.

لم يكن هناك حمامتان ولا كتابة، لكنّ عيني الجنّيّة العجوز انتفختا بالدموع، وأصبحتا تريان كلّ ما تودّان رؤيته.

وسألت من جديد دون أن ترتوي:

ـ ألا شيء آخر؟ ألا شيء آخر؟

كلّ ذلك ـ الأجنحة، ومياه الحلّاق الصابونيّة، والحمام الصغير ـ لم يكن إلّا مجرّد كلمات، لا شيء. لكنّ عقلها العملي كامرأة كان يطلب شيئًا محسوسًا أكثر من ذلك، وموثوقًا أكثر. الكلمات الطيّبة، كم مرّة سمعتها في حياتها!؟ ما الذي أفادته منها؟ إنّها الآن، بعد سنين كثيرة من العمل القاسي، وحيدة، لا تملك شيئًا.

وتمتمت من جديد مؤنّبة:

ـ ألا شيء آخر؟ ألا شيء آخر؟

وحدّقت في عينيّ وكأنّها ظبي مطارد. فأشفقت عليها، وقلت:

ـ إنّه يقول أيضًا شيئًا هامًا، هامًّا جدًّا، يا سيّدتي هورتانس. ولهذا أبقيت عليه إلى النهاية.

فقالت وقد فقدت السيطرة على نفسها تمامًا:

ـ هاتِ. . .

ـ إنّه يكتب أنّه سيلقي بنفسه على قدميك، عندما يعود، ليرجوك، والدموع في عينيه، أن تتزوّجيه. إنّه لم يعد يطيق. إنّه يريد أن يجعل منك

امرأته الصغيرة، السيّدة هورتانس زوربا، كي لا تفترقا أبدًا.

وفي هذه المرّة أخذت العينان المغرورقتان تبكيان عن حقّ. كان ذاك هو الفرح الأكبر، المرفأ الذي طالما اشتهته، كان ذاك هو الأسف على حياتها كلّها! إنّها ستجد الطمأنينة، وتتمدّد على فراش شريف، ولا شيء أكثر من ذلك!

وغطّت عينيها. وقالت بتنازل سيّدة كبيرة: حسنًا، إنّني أقبل. لكن اكتب له، من فضلك، أنّه ليس في القرية أكاليل من أزهار البرتقال. عليه أن يأتي بها من كاندي. وليأتِ أيضًا بشمعتين بيضاوين مزدانتين بشرائط حريريّة ورديّة، وبملبّس صنع من اللوز الطيّب. ثم ليشترِ لي ثوب زفاف. أبيض، وكلسات حريريّة، وخفّين من الأطلس. واكتب له ألّا يأتي بأغطية للسرير، لأنّ عندنا منها. وعندنا أيضًا سرير.

ونظّمت قائمة طلباتها، إذ هي قد أصبحت ترى من الآن في زوجها رسولاً يلبّي حاجاتها. ونهضت، واتّخذت فجأة مظهر امرأة متزوّجة، وقالت:

ـ لديّ شيء أقترحه عليك، شيء هامّ جدًّا... (وتوقّفت منفعلة).

ـ قولي، يا سيّدتي هورتانس، إنّني تحت أوامرك.

ـ إنّنا نميل إليك، زوربا وأنا. إنّك كريم ولا تشعرنا بالخجل. هل تريد أن تكون شاهدنا؟

وارتعدت. كان لأهلي في الماضي خادم عجوز، تُدعى دياماندولا، قد تجاوزت الستّين، عانس عجوز نصف مجنونة بسبب العذريّة، عصبيّة، متغضّنة الجلد، بدون صدر، ولها شارب. فوقعت في غرام ميتسو، أجير عطّار الحيّ، وهو فلّاح بخيل، بدين، أمرد.

وكانت تسأله كلّ يوم أحد:

ـ متى ستتزوّجني؟ تزوّجني! كيف تستطيع أن تقاوم، أنت! أنا لا أستطيع!

فيُجيب العطّار الخبيث الذي كان يداريها ليؤمّن على زبائنه:

ـ ولا أنا، يا طيّبتي دياماندولا، لكن اصبري أيضًا قليلاً. اصبري قليلاً أيضًا إلى أن ينبت شاربي، أنا أيضًا...

ومضت السنوات هكذا ودياماندولا العجوز تصبر. هدأت أعصابها، وتناقصت أوجاع رأسها، وأخذت شفتها المريرة التي تجهل القبل تبتسم. وصارت تعتني أكثر بغسل الثياب، وتكسر عددًا أقلّ من الصحاف، وتحرص على ألّا يحترق الطعام.

وسألتني ذات يوم خلسة:

ـ هل تريد أن تكون شاهدنا، أيّها الرئيس الصغير؟

فأجبت بينما انقبضت حنجرتي من المرارة:

ـ إنّني أريد من كلّ قلبي، يا دياماندولا.

لقد سبّبت لي تلك القصّة ألمًا شديدًا، لهذا لمّا سمعت السيّدة هورتانس تُعيد الجملة نفسها، ارتعدت. وأجبت:

ـ أريد من كلّ قلبي. إنّه لشرف لي، يا سيّدتي هورتانس.

فنهضت، وسوّت خصل شعرها التي كانت تنساب من تحت قبّعتها الصغيرة، ولعقت شفتيها. وقالت:

ـ ليلة سعيدة، يا صديقي. ليلة سعيدة، وليعد إلينا بسرعة!

ونظرت إليها وهي تبتعد، متمايلة، تثني قامتها العجوز كما تفعل الصبايا. لقد منحها الفرح أجنحة، وراحت نعلاها العتيقتان المعقوفتان تخلّفان في الرمل ثقوبًا صغيرة عميقة.

وما كادت تغادر الشاطئ حتى تعالت منه صرخات حادّة وصوت بكاء.

فنهضت ورحت أركض. هناك، في الجانب المقابل من الشاطئ، كانت ثمّة نساء يعولن، وكأنّهنّ ينشدن رثاء يائسًا. وصعدت إلى صخرة وأخذت أراقب. كان الرجال والنساء يقبلون من القرية، والكلاب وراءهم

تنبح. وكان هناك فارسان أو ثلاثة في المقدّمة، يثيرون وراءهم غيمة كثيفة من الغبار.

وقلت في نفسي: «هناك مصيبة»، ونزلت بسرعة نحو الشاطئ.

كانت الضجّة تزداد. وثمّة غيمتان أو ثلاث من غيوم الربيع، ورديّتان، ساكنتان في السماء حيث تغرب الشمس. وكانت تينة الآنسة قد امتلأت بأوراق خضراء فتيّة.

وعادت السيّدة هورتانس أدراجها، شعثاء الشعر، لاهثة، وقد أضاعت إحدى نعليها. وكانت تمسك بها في يدها وهي تركض باكية. وصرخت بي:

ـ يا إلٰهي.. يا إلٰهي..

وتعثّرت وكادت تسقط فوقي، فأمسكت بها:

ـ لِمَ تبكين؟ ماذا هناك؟

وساعدتها على ارتداء نعلها المتثنّية.

ـ إنّني خائفة... خائفة...

ـ مِمّ؟

ـ من الموت.

لقد استروحت في الجوّ رائحة الموت، وسيطر الرعب عليها.

وأخذتُ ذراعها المترهّلة، لكنّ الجسد العجوز ظلّ يقاوم ويرتجف وصرخت:

ـ لا أريد... لا أريد...

كانت المسكينة تخاف من الاقتراب من منطقة ظهر فيها الموت. يجب ألّا يراها «كارون»[1] فيتذكّرها... إنّها كسائر العجائز، تجهد نفسها في الاختفاء بين عشب الأرض والتلوُّن بلونه الأخضر، في الاختفاء في

---

(١) كارون: رسول الموت في الأساطير.

الأرض والتلوّن بلونها الأسمر القاتم، كي لا يستطيع «كارون» تمييزها.
كانت ترتجف، وقد أدخلت رأسها بين كتفيها البدينتين المحدودبتين.

وجرّت نفسها إلى قرب شجرة زيتون، ومدَّت معطفها المرقّع. وقالت:

ـ دثّرني، دثّرني، واذهب لترى ما هناك.

ـ أتشعرين بالبرد؟

ـ إنّني أشعر بالبرد، دثّرني.

ودثّرتها، بأمهر ما يمكن، بحيث إنّها امتزجت بالأرض، وذهبت.

اقتربت من الشاطئ الصخري، وصرت أميِّز الأناشيد الجنائزيّة. ومرّ «ميميتو» أمامي وهو يركض. فصحت:

ـ ما هناك، يا ميميتو؟

فأجابني دون أن يتوقّف:

ـ لقد أغرق نفسه! لقد أغرق نفسه!

ـ من؟

ـ بافلي. ابن مافراندوني.

ـ لماذا؟

ـ الأرملة...

وتجمّدت الكلمة في الهواء. وانبجس جسد الأرملة الخطر واللدن من الظلمة.

كنت قد بلغت الصخور التي اجتمعت عندها كلّ القرية. كان الرجال صامتين، عاري الرؤوس، والنساء يشددن شعورهنّ ويطلقن صرخات حادّة، وقد ألقين بمناديلهنّ على أكتافهنّ. وكان ثمّة جسد شاحب ومنتفخ ممدّد على الحصى. والعجوز مافراندوني يقف فوقه، بلا حراك، يتأمّله. كان يستند بيده اليمني على عصاه، وبيده اليسرى يقبض على لحيته الرماديّة المجعّدة.

وتعالى فجأة صوت ثاقب:

ـ عليكِ اللعنة، أيّتها المجرمة! سيجازيك الله على هذا!

ووثبت امرأة والتفتت إلى الرجال:

ـ إذن، ألا يوجد بينكم رجل ليذبحها على ركبته مثل خروف؟ أفٍّ! يا لجبنكم!

وبصقت على الرجال الذين كانوا ينظرون إليها دون أن ينبسوا ببنت شفة.

وردّ عليها كوندو مانوليو، صاحب المقهى، صائحًا:

ـ يجب ألّا تذلّينا، يا ديليكاتيرينا، لا يجب، يوجد شجعان في قريتنا، وسترين!

ولم أعد أستطيع تمالك نفسي فصحت:

ـ هذا مخجل، أيّها الأصدقاء! ما جرم تلك المرأة؟ لقد كان ذلك مكتوبًا. ألا تخشون الله إذن؟

لكن لم يجب أحد.

وحنى «مانولاكاس»، ابن عمّ الغريق، جسده الضخم، ورفع الجثّة بين ذراعيه وشقّ، قبل الجميع، طريقه إلى القرية.

كانت النساء يعولن ويخدشن وجوههنّ ويشددن شعورهنّ. وعندما رأين الجسد يُحمل، أسرعن ليتشبّثن به. لكنّ العجوز مافراندوني رفع عصاه وأبعدهنّ، وأخذ مكانه على رأس الموكب. فتبعنه عند ذاك وهنّ ينشدن المراثي النادبة، وفي المؤخّرة، سار الرجال صامتين.

واختفوا في عتمة الغسق. وعاد البحر من جديد إلى تنفّسه الهادئ. ونظرت حولي. لم يبقَ غيري. وقلت في نفسي: «سأعود. إنّه يوم آخر نال حصّته من المرارة!».

وسرت في الدرب مفكّرًا. إنّني لمعجب بهؤلاء الناس، الممتزجين بقوّة وحرارة في الآلام البشريّة: السيّدة هورتانس، وزوربا، والأرملة،

والمسكين بافلي الذي ألقى بنفسه بشجاعة في البحر ليطفئ ألمه. وديليكاتيرينا التي كانت تصرخ بذبح الأرملة كخروف، وماغراندوني الذي كان يرفض أن يبكي أو حتى أن يصرخ أمام الآخرين. أنا الوحيد الذي كان عاجزًا ومنطقيًا، ولم يغلِ دمي، ولم أحبّ ولم أحقد بقوّة. إنّني أرغب الآن أيضًا في أن أسوّي الأمور بإلقاء مسؤوليّة كلّ شيء، بجبن، على عاتق القدر.

ولمحت، في الظلمة الشفّافة، العمّ أنانيوستي الذي ما يزال هناك، جالسًا على صخرة. كان يسند ذقنه إلى عصاه الطويلة وينظر إلى البحر. وناديته، فلم يسمع. فاقتربت، فرآني وهزّ رأسه وتمتم:

ـ يا للإنسانيّة البائسة! يا للشباب الضائع! لكنّ المسكين لم يكن ليحتمل حزنه، فألقى بنفسه في الماء، وغرق. وهكذا أنقذ نفسه.

ـ أنقذ نفسه؟

ـ أنقذ نفسه، يا بنيّ، أنقذ نفسه. ما الذي كان يستطيع أن يفعل بحياته؟ لو تزوّج الأرملة، لما تأخّر الخصام، بل والعار أيضًا. إنّها كفرس تمامًا، الفاجرة. فعندما يقترب منها رجل تأخذ بالصهيل. ولو لم يتزوّجها، لقضى حياته في عذاب، ولتصوّر أنّه أضاع سعادة كبرى! الهاوية من الأمام، والجرف من الوراء.

ـ لا تتكلّم هكذا، أيّها العمّ أنانيوستي، إنّ من يسمعك لتتخاذل ركبتاه.

ـ دعك من هذا! لا تخف. ليس ثمّة إنسان يسمعني. ولو سمعوني لما صدّقوني. انظر، هل وجد إنسان محظوظ مثلي؟ كانت لي حقول، وكروم، وبساتين زيتون ومنزل بطابقين. كنت غنيًّا، ووقعت في حبّ امرأة طيّبة ومطيعة لم تكن لتقدّم لي إلّا الذكور. لم أرها في حياتي ترفع عينيها لتنظر في وجهي، وأولادي جميعًا أرباب أسر صالحون. إنّني لا أشكو من شيء، ولي أيضًا أحفاد. إنّني لا أطلب شيئًا آخر. لقد رميت بجذور

عميقة. ومع ذلك، فلو كان عليّ أن أبدأ من جديد، لوضعت صخرة في عنقي مثل بافلي وألقيت بنفسي في البحر. إنّ الحياة قاسية، حتى بالنسبة للمحظوظين، إنّها قاسية، العاهرة!

ـ لكن ما الذي ينقصك، أيّها العمّ أنانيوستي؟ ممّ تشكو؟

ـ لقد قلت لك: لا ينقصني شيء! لكن حاول أن تسأل قلب الإنسان!

وصمت لحظة، ونظر من جديد إلى البحر الذي راح الظلام يخيّم عليه، وصاح وهو يرفع عصاه:

ـ إيه، يا بافلي، لقد فعلت حسنًا! دع النساء يصرخن، فهنّ نساء لا عقول لهنّ. ها أنت أنقذت نفسك، يا بافلي، وأبوك يعرف ذلك جيّدًا، ولهذا فهو لم يقل أفٍّ.

وطاف نظره بالسماء والجبال التي أخذت تتلفّع بالظلمة. وقال:

ـ هو ذا الليل، فلنعد.

وتوقّف فجأة، وبدا عليه أنّه أسف لكلّ الكلمات التي أفلتت منه، وكأنّه فضح سرًّا كبيرًا يحاول الآن أن يمسك به من جديد.

ووضع يده المعروقة على كتفي، وقال لي وهو يبتسم:

ـ أنت شابّ، فلا تصغ للشيوخ. لو استمع العالم للشيوخ لأسرع إلى الدمار. إذا مرّت أرملة في طريقك، فألقِ بنفسك عليها! تزوّج، وأنجب أطفالاً، لا تتردّد. إنّ الإزعاجات إنّما خُلقت للشباب!

* * *

وصلت إلى شاطئي، وأشعلت النار، وهيّأت شاي المساء. كنت متعبًا، جائعًا، فأخذت آكل بشره، مستسلمًا بكلّيّتي لهذه السعادة الحيوانيّة.

وفجأة مدّ ميميتو رأسه الصغير المسطّح من الكوّة، ونظر إليّ وأنا آكل، جاثيًا قرب النار، وابتسم بخبث.

ـ ما الذي جئت تسعى إليه، يا ميميتو؟

ـ أيّها الرئيس، إنّني أحمل لك شيئًا من قبل الأرملة.. سلّة برتقال. لقد قالت إنّها آخر ما أنتجه بستانها.

فقلت مضطربًا:

ـ من قبل الأرملة؟ ولِمَ تبعث لي بها؟

ـ لقد قالت إنّها من أجل كلمتك الطيّبة التي قلتها هذا المساء لأهالي القرية.

ـ أيّة كلمة طيّبة؟

ـ لست أدري! إنّني أكرّر ما قالته، هذا كلّ شيء!

وأفرغ سلّة البرتقال على السرير. وعبق الكوخ كلّه.

ـ ستقول لها إنّني أشكرها على هديّتها، لتكن على حذر! لتكن على حذر، ولا تظهر في القرية، أسمعت؟ لتبقَ في منزلها بعض الوقت، إلى أن تُنسى المصيبة. أفهمت، يا ميميتو؟

ـ هذا كلّ شيء، أيّها الرئيس؟

ـ هذا كلّ شيء، اذهب.

وغمز ميميتو بعينه:

ـ أهذا كلّ شيء؟

ـ أغرب!

وذهب. قشّرت تفّاحة، ناضجة، مليئة، حلوة كالعسل. وتمدّدت. ونمت. وطوال الليل، تنزّهت تحت أشجار البرتقال. وكانت ثمّة ريح حارّة تصفر، وانتفخ صدري العاري ملء رئتيه، ووضعت خلف أذني غصن ريحان صغير. كنت فلّاحًا في العشرين، أذهب وأجيء في حديقة البرتقال، وأنتظر وأنا أصفّر. من الذي كنت أنتظره، لست أدري، لكنّ قلبي كان على وشك الانفجار من الفرح. وفتلت شاربي، ورحت أصغي، طوال الليل، وراء أشجار البرتقال، إلى البحر وهو يتنهّد كامرأة.

ـ ١٥ ـ

في ذلك اليوم كانت تهبّ ريح جنوبيّة شديدة، محرقة، قادمة من وراء البحر، من رمال أفريقيا. وكانت غيوم من الرمل الناعم تحوم في الجوّ، وتتسرّب إلى الحنجرة والرئتين. والأسنان تصرّف، والعيون تحترق، وكان لا بدّ من إغلاق الأبواب والنوافذ حتى يمكن أكل قطعة خبز دون أن تتغبّر بالرمل.

كان الطقس ثقيلاً. إنّني أنا أيضًا أصبح عرضة، في مثل هذه الأيّام المبهظة التي يتصاعد فيها النسغ، لقلق الربيع. تعب، وانفعال في الصدر، وتنمُّل في الجسد كلّه والرغبة، ـ الرغبة أو الذكرى؟ ـ في سعادة كبرى وبسيطة.

وسرت في الدرب الجبليّة الكثيرة الحصى. لقد تملّكتني الرغبة فجأة في أن أذهب حتى المدينة المينوسيّة الصغيرة التي انبجست من الأرض بعد ثلاثة أو أربعة آلاف عام، لتتدفّأ من جديد تحت شمس كريت الحبيبة. وقلت في نفسي: لعلّ التعب، بعد مسير ثلاث أو أربع ساعات، سيهدّئ هذا القلق الربيعي.

صخور رماديّة جرداء، وعري وضيء، والجبل الوعر المقفر كما أحبّه. كانت بومة، أعماها النور الشديد، تجثم، بعينيها الصغيرتين المستديرتين، فوق إحدى الصخور، وقد بدت مهيبة، ساحرة، مليئة بالأسرار. ومشيت بخفّة، لكنّها ذُعرت وطارت دونما صوت بين الصخور واختفت.

كان الجوّ عابقًا برائحة الصعتر. وأولى أزهار شجر الرتم الصفراء الحانية أخذت تتفتّح بين الأشواك.

عندما وصلت إلى المدينة الصغيرة الخربة، وقفت مرتعشًا. لا بدّ أنّ الوقت كان ظهرًا. فالنور يسقط عموديًّا ويغرق الأنقاض. إنّها لساعة خطرة في المدن القديمة الخربة، يكون الجوّ فيها مليئًا بالصرخات والأرواح. فما إن ينكسر غصن، أو ينساب ضبّ، أو تمرّ غيمة معها ظلّها، حتى يتملّكك الرعب. إنّ كلّ بوصة من الأرض تطؤها إن هي إلّا قبر، والأموات يتنهّدون.

وشيئًا فشيئًا تعتاد العين النور الباهر. إنّني ألمح الآن بين هذه الصخور يد الإنسان: شارعان عريضان مفروشان ببلاط لامع. وإلى اليمين واليسار أزقّة ضيّقة متعرّجة. وفي الوسط ساحة مستديرة، وإلى جانبها، يقع، بتنازل ديموقراطي تامّ، قصر الملك، بأعمدته المزدوجة، وأدراجه الصخريّة العريضة وملحقاته العديدة.

في قلب المدينة، حيث وطئت أحجار الشارع أقدام الناس أكثر من أيّ مكان آخر، ينتصب المعبد، وكانت الإلهة الكبيرة هناك بثدييها الناهدين المتباعدين، وذراعيها اللتين تلتفّ حولهما الثعابين.

وفي كلّ مكان حوانيت ومخازن صغيرة: معاصر زيت، ومحلّات حدادة، ونجارة، وورشات لصنع الآنية الفخّاريّة. إنّها عبارة عن خليّة نمل، صُنعت بمهارة، في مخبأ أمين، وأُديرت شؤونها بمهارة، ثم غادرها النمل منذ آلاف السنين. في أحد المخازن، كان ثمّة صانع ينحت إناء من الصخر المعرّق، لكنّ الوقت لم يتح له لإتمامه، فقد سقط الإزميل من يديه، ثم وجدوه، بعد آلاف السنين، قرب الإناء الذي لم ينتهِ.

الأسئلة الأبديّة، اللامجدية، الحمقاء: لماذا؟ لماذا؟ تعود من جديد مرّة أخرى لتسمّم القلب. إنّ هذا الإناء غير المنتهي الذي تحطّمت عليه حميّة الصانع في أوج انطلاقها الفرح الواثق من نفسه، قد روى ظمئي من المرارة.

وفجأة انتصب أمامي، على صخرة إلى جانب القصر المنهار، راعٍ قصير القامة، لوّحته الشمس، أسود الركبتين، شعره المجعّد محاط بمنديلٍ قذر، وصاح:

ـ إيه! أيّها الصديق!

كنت أريد أن أبقى بمفردي. وتظاهرت بأنّني لم أسمع. لكنّ الراعي القصير أخذ يضحك ساخرًا:

ـ إيه! إنّك لتصمّ أذنيك! إيه! أيّها الصديق! ألديك سجائر؟ أعطني واحدة، إنّني هنا، في هذه الصحراء، متضايق.

ومطّ الكلمة الأخيرة بشكل مؤثّر جدًّا إلى حدّ أنّني أشفقت عليه.

لم يكن معي سجائر، فأردت أن أقدّم له مالاً، لكنّ الراعي القصير غضب، وصاح:

ـ إلى إبليس المال! ماذا أفعل؟ قلت لك إنّني متضايق، أعطني سيجارة!

فقلت يائسًا:

ـ ليس معي، ليس معي!

فصرخ الراعي القصير، وقد فقد السيطرة على أعصابه، وهو يضرب الأرض بعصاه بعنف:

ـ ليس معك! ليس معك! إذن فماذا يوجد في جيوبك؟ إنّها منتفخة.

فأجبت وأنا أسحب كلّ الأشياء الموجودة في جيبي، الواحد تلو الآخر:

ـ كتاب، ومنديل، وورق، وقلم، وموسى. أتريد الموسى؟

ـ لديّ واحدة. عندي من كلّ شيء، كلّ شيء! لكن ليس عندي سجائر، فكأنّه إذن ليس عندي شيء! وما الذي تبحث عنه، أنت، بين الأنقاض؟

ـ إنّني أتأمّل الآثار القديمة.

ـ وما الذي تفهمه منها؟

ـ لا شيء!

ـ لا شيء. وأنا أيضًا. إنّها ميّتة، أمّا نحن فأحياء. هيّا، اذهب!

وخُيّل إليّ كأنّ روح المكان هي التي تطردني، فقلت طائعًا:

ـ إنّني ذاهب.

وعدت بسرعة إلى الدرب، وأنا عرضة لقلق خفيف.

من حين لحين، كانت تمرّ فوقي نفحات حارّة وروائح عبقة آتية من الحدائق القريبة. كانت الأرض تعبق، والبحر يضحك، والسماء زرقاء، تلمع كالفولاذ.

إنّ الشتاء يقبض الجسد والروح، لكن ها هي الحرارة التي تشرح الصدر قادمة. وبينما كنت أتقدّم، سمعت فجأة نعيقًا مبحوحًا في الجوّ. رفعت رأسي ورأيت المشهد الرائع الذي أثارني دومًا منذ طفولتي: كانت طيور الكراكي تقف، مصطفّة كجيش على أهبة الحرب، بعد أن عادت من البلاد الحارّة، وكما تريد الأسطورة، حاملة طيور السنونو على أجنحتها وفي أجواف أجسادها المتعظّمة العميقة.

إنّ إيقاع السنة الذي لا يتبدّل، ودولاب العالم الدائر، وأوجه الأرض الأربعة، التي تُضيئها الشمس الواحد تلو الآخر، والحياة التي تمضي، كلّ ذلك ملأ قلبي من جديد باضطراب ثقيل. ومن جديد تردّد، في داخلي، مع صراخ الكراكي، الإنذار الرهيب بأنّه ليس للإنسان غير هذه الحياة، وأنّه لن تكون هناك حياة أخرى، وأنّ كلّ ما يمكن أن نتمتّع به فإنّما سنتمتّع به هنا، ولن نُمنح في الأبديّة أيّة فرحة أخرى.

إنّ الروح التي تسمع هذا التحذير القاسي ـ والمليء في الوقت نفسه بالشفقة ـ لتعزم على أن تقهر صغائرها وضعفها، أن تقهر الكسل، والآمال الكبيرة الباطلة، وعلى أن تتشبّث، بكلّيّتها، بكلّ لحظة من اللحظات التي

تمضي إلى غير رجعة.

وتتصاعد إلى الذاكرة أمثال عظيمة، ويتّضح لنا بجلاء أنّنا لسنا سوى بشر ضائعين، وأنّ الحياة تُستهلك في المسرّات الصغيرة، وفي الآلام الصغيرة، وفي لحظات تافهة. وترغب في أن نهتف: «يا للعار» ونحن نعضّ على شفاهنا.

وعبرت الكراكي السماء، واختفت نحو الشمال، لكنّها ظلّت تصرخ بصوتها المبحوح وتطير دون توقّف أينما أدرت رأسي.

وصلت إلى البحر. ومشيت بحذاء الماء بخطًى سريعة. كم هو محزن أن تسير بمفردك على ساحل البحر! كلّ موجة، كلّ طائر في السماء يدعوك ويذكّرك بواجبك. عندما يسير الإنسان بصحبة رفاقه، فإنّه يضحك، ويتحادث، وهذه الضجّة تحول بينه وبين أن يسمع ما تقوله الأمواج والطيور. ولعلّها بالأصل لا تقول شيئًا. إنّها تنظر إليك وأنت تمرّ، وكلّك ثرثرة، وتصمت. وتمدّدت على الحصى وأغمضت عينيّ. وقلت في نفسي: «ما الروح إذن؟ وأيّة علاقة خفيّة بينها وبين البحر؟ والغيوم، والعطور؟ لكأنّ الروح نفسها هي أيضًا بحر وغيم ومطر...».

ونهضت، وتابعت المسير، وكأنّني اتّخذت قرارًا. أيّ قرار؟ كنت أجهل ذلك.

وفجأة سمعت صوتًا ورائي:

ـ إلى أين أنت ذاهب، أيّها الرئيس؟ إلى الدير؟

واستدرت. كان ثمّة شيخ قوي، قصير، دون عصا، يعصب شعره الأبيض بمنديل. يحرّك يده نحوي وهو يبتسم. ووراءه تسير امرأة عجوز، ووراءها ابنتهما، وهي فتاة سمراء وحشيّة العينين، على رأسها منديل أبيض.

وسأل العجوز ثانية: «إلى الدير؟».

وتبيّنت فجأة أنّني اتّخذت قرارًا بالذهاب في تلك الجهة. منذ شهور

وأنا أريد الذهاب إلى دير الراهبات الصغير المبني قرب البحر، دون أن أستطيع العزم على ذلك. ولقد اتّخذ جسدي هذا القرار فجأة، هذا المساء، وأجبت:

ـ نعم. إنّني ذاهب إلى الدير لأسمع أناشيد العذراء.

ـ لتكن نعمتها في عونك!

وحثَّ خطاه، حتى وصل إليّ:

ـ أأنت هو، كما يُقال، شركة الفحم؟

ـ نعم.

ـ حسنًا لتأتِكَ العذراء القدّيسة بربح وفير! إنّك تفيد القرية، تقدّم لآباء الأسر الفقراء ما يطعمون به أسرهم. ليباركك الله!

وبعد فترة، أضاف الشيخ الخبيث، الذي كان ولا بدّ يعرف أنّ الأمور على غير ما يرام، هذه الكلمات المعزّية:

ـ وحتى لو لم يأتك هذا بشيء، يا بنيّ، فلا تأبه لذلك، تابع! ستخرج على كلّ حال رابحًا. ستذهب روحك مباشرة إلى الجنّة...

ـ هذا ما أتمنّاه أيضًا، أيّها الجدّ.

ـ إنّني لست مثقّفًا كثيرًا، لكنّني سمعت ذات مرّة في الكنيسة شيئًا قاله المسيح. ولقد بقي ذلك محفورًا في رأسي ولن أنساه. لقد قال: «بعْ، بعْ كلّ ما تملكه لتشتري اللؤلؤة الكبيرة». وهذه اللؤلؤة الكبيرة هي سلام النفس، يا بنيّ. وأنت، أيّها الرئيس، تسير في الطريق الذي يؤدّي إلى اللؤلؤة الكبيرة.

اللؤلؤة الكبيرة! كم مرّة تألّقت في نفسي، وسط الظلمات، وكأنّها دمعة ضخمة!

وتابعنا السير، أنا والشيخ في المقدّمة، والمرأتان خلفنا، وأيديهما متصالبة، ومن حين لحين كنّا نلقي بعبارة: «هل ستستطيع أزهار الزيتون أن تثبت؟ هل ستمطر حتى ينضج القمح؟». ولا شكّ أنّنا كنّا جائعين نحن

الاثنين، لأنّنا وجّهنا الحديث إلى الطعام ولم نشأ أن نبدّل الموضوع.

ـ ما طعامك المفضّل، أيّها الجدّ؟

ـ كلّ الأطعمة، كلّها، يا بنيّ. إنّها لخطيئة كبيرة أن تقول: هذا طيّب، وهذا سيّئ!

لماذا؟ ألا نستطيع أن نختار؟

ـ لا، بالتأكيد، لا نستطيع.

ـ لماذا؟

لأنّ هناك أناسًا جائعين.

وصمت، خجلاً. إنّ قلبي لم يبلغ قطّ مثل هذا النبل والتعاطف.

وقرع جرس الدير الصغير، بمرح، وهزل، مثل ضحكة امرأة.

ورسم العجوز إشارة الصليب. وتمتم:

ـ لتكن الذبيحة المقدّسة جدًّا في عوننا! إنّ عنقها مصاب بضربة سكّين، والدم يجري منه، في أيّام القراصنة...

وبدأ الشيخ يتحدَّث عن آلام العذراء، وكأنّه يتحدّث عن امرأة حقيقيّة، عن صبيّة لاجئة مضطهدة، مزّقها الكفّار بطعنات خناجرهم، فجاءت إلى الشرق مع طفلها وهي تبكي ـ وتابع الشيخ:

ـ ومرّة في السنة، يسيل من جرحها دم حارّ حقيقي. إنّني أذكر ذات مرّة، يوم عيدها، في تلك الأيّام التي لم يكن شاربي فيها قد نبت بعد، أنّنا نزلنا جميعًا من القرية لنسجد أمام نعمتها. كان ذلك في ١٥ آب. ورقدنا، نحن الرجال، في الباحة لننام. ورقدت النساء في الداخل. وأثناء نومي سمعت العذراء تصيح. فنهضت بسرعة، وأسرعت إلى أيقونتها، ووضعت يدي على عنقها، وماذا رأيت؟ كانت أصابعي مليئة بالدم...

ورسم العجوز إشارة الصليب، والتفت، ونظر إلى المرأتين، وصاح:

ـ هيّا، تشجّعا، لقد وصلنا!

وخفض صوته.

ـ لم أكن متزوّجًا بعد. ورميت بنفسي على الأرض، وسجدت أمام نعمتها، وقرّرت أن أهجر عالم الكذب هذا، وأن أصبح راهبًا...

وأخذ يضحك.

ـ لِمَ تضحك، أيّها الجدّ؟

ـ لأنّ هناك ما يدعو للضحك، يا بنيّ! ففي ذلك اليوم بالذات، أثناء العيد تنكّر الشيطان في ثياب امرأة وتوقّف أمامي. وكانت هي!

وبدون أن يلتفت، أشار بإبهامه إلى الوراء، إلى العجوز التي كانت تتبعنا في صمت. وقال:

ـ لا تنظر إليها الآن وقد أصبحت تثير الاشمئزاز. لقد كانت في ذلك الوقت صبيّة شابّة تقفز كالسمكة. كانوا يدعونها: «الحسناء ذات الحاجبين الطويلين» وكانت تستحقّ لقبها هذا، الخبيثة! والآن، إيه! يا لتعاستنا! أين هما حاجباها؟ لقد تساقطا!

وفي تلك اللحظة أطلقت العجوز، خلفنا، دمدمة مكبوتة مثل كلب شرس تقيّده سلسلته. لكنّها لم تفه بحرف. وقال الشيخ وهو يمدّ ذراعه:

ـ هناك، هو ذا الدير!

كان الدير الصغير يتألّق بياضًا، عند شاطئ البحر، وهو محصور بين صخرتين ضخمتين. وفي الوسط، كانت تنتصب قبّة الكنيسة التي أعيد تبييضها حديثًا، فتبدو صغيرة ومستديرة كثدي امرأة. وحول الكنيسة، خمس أو ستّ حجرات ذات أبواب زرق، وفي الباحة ثلاث أشجار سرو، وعلى طول السياج أشجار تين برّي ضخمة مزهرة.

وحثثنا الخطى. وتسرّبت إلينا من نافذة المعبد المفتوحة تراتيل متماوجة، وعبق الهواء المالح برائحة اللبان. كان الباب الخارجي المقوّس مفتوحًا على مصراعيه على الباحة النظيفة، العبقة، المليئة بالحصى الأسود والأبيض. وإلى اليمين واليسار، على طول الجدران، صفوف من أصص

العبيثران، والحبق، والريحان.

يا للهدوء! إنّ الشمس آخذة الآن بالأفول، والجدران المبيّضة بالكلس قد اتّخذت لونًا ورديًا.

كانت رائحة الشمع تفوح من الكنيسة الصغيرة، الدافئة، الخافتة الإضاءة. وثمّة رجال ونساء يتحرّكون بين دخان البخور، وخمس أو ستّ من الراهبات ينشدن، وقد تدثّرن في أثوابهنّ السوداء الضيّقة، بأصوات عذبة نحيفة، نشيد «سيّد جميع القوى». وفي كلّ لحظة كنّ يركضن، فيُسمع لثيابهنّ حفيف شبيه برفرفة الأجنحة.

إنّني لم أسمع، منذ سنين عديدة، تسابيح العذراء. كنت أمرّ، أثناء تمرّد الشباب الأوّل، أمام الكنائس وكلّي احتقار وغضب. ومع الزمن هدأت. بل صرت أذهب بين وقت وآخر إلى الأعياد الحافلة: الميلاد، والبيرمون، والبعث، وأفرح برؤية الطفل الكامن في داخلي ينبعث من جديد. إنّ رعدة الأمس الصوفيّة قد تحوّلت إلى متعة جماليّة. إنّ المتوحّشين يعتقدون أنّه عندما لا تعود إحدى الآلات الموسيقيّة تُستخدم في الطقوس الدينيّة، تفقد قوّتها الإلٰهيّة وترسل عند ذاك أصواتًا متناغمة. كذلك انحطّ الدين في داخلي، وتحوّل إلى فنّ.

ووقفت في إحدى الزوايا، واستندت إلى كرسي لامع صقلته أيدي المؤمنين حتى أصبح كالعاج. ورحت أصغي، مسحورًا، إلى الترانيم البيزنطيّة وهي تتصاعد من أعماق الزمن «السلام! أيّها العلوّ الذي لا تطاله الأفكار البشريّة. السلام! أيّها العمق الذي لا تراه حتى أعين الملائكة... السلام! أيّتها الزوجة التي لم يتزوّجها أحد، يا وردة لم تذبل قطّ...». وتخرُّ الراهبات مرّة أخرى ساجدات أرضًا، ورؤوسهنّ إلى الأمام، ويتصاعد حفيف الأثواب من جديد كحفيف الأجنحة.

وراحت الدقائق تمضي، شبيهة بملائكة لها أجنحة تعبق باللبان، وتمسك بزنابق لم تتفتّح بعد، وتتغنّى بجمال مريم. وغربت الشمس، وجاء

الغسق، أزغب أزرق. إنّني لا أذكر كيف وجدنا أنفسنا في الباحة، حيث بقيت بمفردي مع الأمّ الرئيسة العجوز، وراهبتين شابّتين، تحت أكبر شجرات السرو. وجاءت راهبة مبتدئة لتقدّم لي ملعقة المربّى والماء البارد والقهوة، وبدأت المحادثة الهادئة.

وتحدّثنا عن معجزات العذراء، والللينيت، والدجاجات التي تبدأ الآن، في الربيع، بالبيض، والأخت «أودكسي» التي أُصيبت بالشرّ الأعلى. لقد سقطت على بلاط الكنيسة وراحت ترتعد كسمكة، وتزبد، وتجدّف وتمزّق ثيابها. وأضافت الرئيسة وهي تتنهّد:

ـ إنّها في الخامسة والثلاثين، عمر ملعون، وساعات صعبة! لتساعدها قداستها، سيّدتنا الذبيحة، وستشفى. ستشفى خلال عشرة أو خمسة عشر عامًا...

فتمتمت بخوف:

ـ عشرة أو خمسة عشر عامًا...

فقالت الرئيسة بقسوة:

ـ ما قيمة عشرة أو خمسة عشر عامًا. فكّر بالأبديّة!

ولم أجب بشيء. كنت أعلم أنّ الأبديّة هي كلّ دقيقة من الدقائق التي تمرّ. وقبّلت يد الرئيسة، يدًا بيضاء وبدينة، تعبق بالبخور، وانصرفت.

كان الليل قد أرخى سدوله. وثمّة غرابان أو ثلاثة تعود، مسرعة، إلى أعشاشها، وخرجت البوم من الأشجار الجوف لتأكل، وخرج الحلزون، والفراش، والدود، والجرذان، من الأرض، لتقدّم نفسها طعامًا للبوم.

وأطبق عليّ الثعبان الغامض الذي يعضّ ذنبه ولفّني: إنّ الأرض تلد وتلتهم أبناءها، ثم تضع غيرهم لتلتهمهم من جديد.

نظرت حولي. كانت الظلمة قد أطبقت. وانصرف آخر القرويّين، وسادت وحدة تامّة، ولم يعد يراني أحد. وخلعت حذائي، وغطّست قدميّ في البحر، وتدحرجت على الرمل. لقد شعرت بالحاجة لأن ألمس،

بجسدي العاري الأحجار، والماء، والهواء. لقد أغضبتني كلمة الرئيسة «الأبديّة»، وأحسست بها تسقط فوقي مثل حبل الفارس الذي يطبق على الخيل المتوحّشة. ووثبت لأفلت منها. لقد شعرت بالحاجة لأن ألمس، صدرًا إلى صدر، الأرض والبحر، ولأن أحسّ إحساسًا أكيدًا أنّ هذه الأشياء الموقّتة والحبيبة موجودة.

وهتفت في داخلي: «أنت وحدك موجودة، يا أرض! وأنا لست إلّا وليدك الأخير. إنّني أرضع ثديك ولا أتركه. إنّك لا تتركينني أعيش إلّا دقيقة واحدة، لكنّ الدقيقة تصبح ثديًا، فأرضع».

وارتعدت. وكأنّني خاطرت في أن أهوي في تلك الكلمة التي تتغذّى بلحم البشر: «الأبديّة». إنّني لأذكر كم كنت أنحني في الماضي ـ متى؟ العام الماضي لا أكثر! ـ بحرارة عليها، مغلق العينين مفتوح الذراعين، تتأكّلني الرغبة في أن أهوي فيها.

عندما كنت في الصفّ الأوّل، في مدرسة القرية، كان القسم الثاني من كتاب الأبجديّة يحتوي على قصّة من قصص الجنّ للقراءة:

سقط طفل صغير في بئر. وهناك وجد مدينة رائعة فيها حدائق مزهرة، وبحيرة من العسل، وجبلاً من الأرزّ الحليبي، ودمى متعدّدة الألوان. وكنت كلّما أكثرت من التهجّي، شدّني كلّ مقطع أكثر فأكثر إلى أعماق الحكاية. وذات يوم، وأنا عائد من المدرسة ظهرًا، دخلت المنزل ركضًا، وأسرعت إلى حافّة بئر الباحة، تحت العريشة، وأخذت أنظر، مأسورًا، إلى صفحة الماء الصقيلة السوداء. وسرعان ما خُيِّل إليَّ أنّني أرى المدينة الرائعة، وبيوتًا وشوارع، وأولادًا وعريشة مثقلة بالعنب. ولم أعد أطيق صبرًا. فأحنيت رأسي، ومددت ذراعي، وأنا أضرب الأرض بقدمي كي أثب وأسقط. لكنّ أمّي، في تلك اللحظة رأتني. فأطلقت صرخة، وأسرعت، ووصلت في الوقت المناسب لتمسكني من حزامي...

لقد كدت أسقط، وأنا طفل، في البئر. ولمّا كبرت كدت أسقط في

كلمة «الأبديّة»، وكذلك في عدد لا بأس به من الكلمات: «حبّ»، «أمل»، «وطن»، «الله». وكنت ما إن أنعتق من كلمة، حتى أشعر وكأنّني أفلتُّ من خطر. وتقدّمت خطوة. لكن لا. كنت أغيِّر فقط الأسماء، وهذا ما كنت أدعوه بالخلاص. وها أنا معلّق منذ سنتين فوق كلمة «بوذا».

لكنّ بوذا، إنّني أحسّ بذلك جيّدًا، بفضل زوربا، سيكون البئر الأخيرة، الكلمة ـ الهاوية الأخيرة، وسأنقذ نهائيًّا. نهائيًّا؟ هذا ما نقوله في كلّ مرّة.

ونهضت بقفزة واحدة. كنت سعيدًا من أخمص قدميّ إلى قمّة رأسي. ونزعت ثيابي وارتميت في البحر. وعندما خرجت في النهاية من الماء تعبًا، جفَّفت نفسي بهواء الليل، ثم أخذت درب العودة من جديد بخطًى طويلة خفيفة وأنا أحسّ بأنّني أفلتّ من خطر كبير، وأنّني تشبّثت بقوّة أكثر من أيّة مرّة سابقة بثدي الأرض.

ـ ١٦ ـ

ما إن لمحت ساحل اللينيت، حتى توقّفت فجأة، فقد كان هناك نور في الكوخ. وقلت في نفسي فرحًا: «لا بدّ أنّ زوربا قد عاد!».

وهممت بالجري، لكنّني تمالكت نفسي. وقلت: «يجب أن أخفي فرحي. يجب أن يبدو عليّ أنّني غاضب وأن أبدأ بمهاجمته. لقد أرسلته إلى هناك لمسائل عاجلة، لكنّه ألقى بالمال من النافذة، وارتمى في أحضان المغنّيات، وعاد متأخّرًا اثني عشر يومًا. يجب أن يبدو عليّ أنّني غاضب، يجب ذلك..».

وتابعت السير بخطًى وئيدة، كي أتيح الوقت للغضب أن يتملّكني. وأجهدت نفسي في محاولة الغضب، فقطّبت حاجبيّ، وشددت على أصابعي، وقمت بكلّ الحركات التي يقوم بها إنسان غاضب، لكنّني لم أستطع أن أغضب حقًّا. بل على النقيض من ذلك. كان فرحي يزداد، كلّما تناقصت المسافة.

واقتربت على رؤوس أصابعي ونظرت من النافذة الصغيرة المضاءة. كان زوربا راكعًا على الأرض، وقد أشعل الموقد، وراح يعدّ القهوة. وذاب قلبي وصحت: ـ زوربا!

وانفتح الباب بضربة واحدة. واندفع زوربا خارجًا، عاري القدمين، دون قميص. ومدّ رقبته في الظلمة، ولمحني، وفتح ذراعيه، لكنّه سرعان ما تمالك نفسه وأسبلهما.

وقال بصوت متردّد، وهو يقف أمامي بلا حراك، متألّق الوجه:

ـ سعيد لرؤيتك من جديد، أيّها الرئيس!

وحاولت أن أجعل صوتي غليظًا، وقلت ساخرًا:

ـ سعيد لأن تكون تحمّلت مشقّة العودة. لا تقترب، فرائحة الصابون المعطّر تفوح منك.

فتمتم:

ـ آه! لو تدري كم اغتسلت، أيّها الرئيس. لقد فركت، وأيّ فرك، جلدي اللعين قبل أن أمثل أمامك! لقد ظللت أغسل نفسي ساعة كاملة. لكنّ هذه الرائحة الشيطانيّة... ومع ذلك فما الذي يمكن أن تفعله؟ إنّها ليست المرّة الأولى، ويجب أن تختفي، أشاءت أم أبت.

وقلت وأنا أكاد أنفجر ضاحكًا:

ـ لندخل.

ودخلنا. كان الكوخ يعبق برائحة العطر والمساحيق، والصابون، والمرأة.

ـ قلْ لي، وهذه الحاجات، ما شأنها؟

هتفت بذلك وأنا أرى حقائب يدويّة، وقطع صابون، وجوارب، ومظلَّة حمراء صغيرة، وحُقًّا دقيقًا من العطر، وكلّها مصفوفة على أحد المقاعد.

فتمتم زوربا، وقد خفض رأسه:

ـ هدايا...

فقلت وأنا أحاول أن أتّخذ لهجة عنيفة:

ـ هدايا؟ هدايا؟

ـ هدايا، أيّها الرئيس، لا تغضب من أجل بوبولينا المسكينة. إنّ عيد الفصح يقترب، والمسكينة...

فقلت:

ـ إنّك لم تأتها بأهمّ الأشياء...

ـ ماذا؟

ـ لماذا تتجاهل؟ أكاليل الزواج!

ورويت له القصّة التي لفّقتها على مسامع الجنيّة العاشقة.

وحكّ زوربا رأسه، وفكّر لحظة، وأخيرًا قال:

ـ إنّك لم تفعل حسنًا، أيّها الرئيس، لم تفعل حسنًا، أرجو عفوك. مزاح كهذا، أيّها الرئيس... إنّ المرأة مخلوق ضعيف، هشّ، كم مرّة يجب أن أقول لك ذلك؟ إنّ إناء من الخزف الصيني يجب أن يدارى بحذر.

وشعرت بالخجل. لقد ندمت أنا أيضًا، لكن فات الأوان. وغيّرت موضوع الحديث، وسألته:

ـ والحبال؟ والأدوات؟

ـ لقد جئت بكلّ شيء، كلّ شيء، لا تغضب! «الطعام كامل والكلب شبعان». المصعد، ولولا، وبوبولينا، كلّ شيء على أتمّ ما يرام، أيّها الرئيس!

ورفع الإبريق عن النار، وملأ فنجاني، وقدّم لي كعكًا بسمسم أتى به معه، وحلوى معسولة كان يعرف أنّني أحبّها. وقال لي بحنان:

ـ لقد جئتك بعلبة كبيرة من الحلوى، كهديّة! إنّني لم أنسك. انظر، ولقد أخذت أيضًا كيسًا صغيرًا من فستق العبيد للببّغاء. إنّني لم أنسَ أحدًا. فرأسي، كما ترى، في مكانه تمامًا، أيّها الرئيس!

وأكلت الكعك، وبعض الحلوى، وشربت القهوة وجلست أرضًا. واحتسى زوربا أيضًا قهوته، ودخّن، وراح ينظر إليَّ، وجذبتني عيناه مثل عينيْ ثعبان. وسألته محاولاً أن يكون صوتي لطيفًا:

ـ هل حللت المشكلة التي كانت تقلقك، أيّها الخبيث؟

ـ أيّة مشكلة، أيّها الرئيس؟

ـ ما إذا كانت المرأة مخلوقًا بشريًا أم لا.

فأجاب زوربا وهو يهزّ يده الضخمة:

ـ دعك من هذا! لقد انتهت المشكلة! إنّها كائن بشري، هي الأخرى، كائن بشري مثلنا تمامًا ـ بل وأسوأ! عندما ترى حافظة نقودك، تُصاب بالدوار، وتلتصق بك، وتفقد حرّيّتها وتسرّ لفقدانها، لأنّ وراءها، كما ترى، حافظة النقود التي تلمع. لكن سرعان... آه! دعك من هذا، أيّها الرئيس!

ونهض ورمى سيجارته من النافذة، وقال:

ـ والآن لنتكلّم كرجال. ها هو «الأسبوع المقدّس» قادم، ولدينا الآن الحبال، وقد آن أن نصعد إلى الدير لنتحدّث مع أولئك الخبثاء الأثرياء، ونوقّع الأوراق من أجل الغابة... قبل أن يروا المصعد، فيشمخوا برؤوسهم، ونتكاسل. يجب أن نجني شيئًا ما الآن، يجب أن تأتي المراكب لتحمل، وتغطّي النفقات... لقد كلّف السفر إلى «كاندي» كثيرًا. لعن الله الشيطان، أترى...

وصمت. وأشفقت عليه. فقد كان كطفل ارتكب حماقات ولا يدري كيف يصلحها، يرتعد بكلّ قلبه الصغير.

وهتفت في نفسي: «يا للعار! هل يمكن أن نسمح لنفس كهذه أن ترتعد من الخوف؟ انهض، فأين يمكنك أن تجد زوربا آخر؟ انهض، وخذ الإسفنجة، وامحُ كلّ شيء!».

وصحت:

ـ زوربا، دع الشيطان، فلسنا بحاجة إليه! إن هي إلّا أمور قد مضت وطواها النسيان. خذ السانتوري!

وفتح ذراعيه وكأنّه يريد من جديد أن يطوّقني. لكنّه أعاد إغلاقهما، وهو لا يزال متردّدًا.

وبخطوة واحدة، وصل إلى الجدار. وانتصب على أطراف أصابعه، وأنزل السانتوري. وفي اللحظة التي اقترب فيها من نور مصباح الزيت، لمحت شعره: كان أسود كالدهان. فصحت:

ـ قل، أيّها الخبيث، ما هذا الشعر؟ من أين جئت به؟

وطفق زوربا يضحك:

ـ لقد صبغته، أيّها الرئيس، لا تندهش، لقد صبغته، الخائن...

ـ لماذا؟

ـ بسبب الكبرياء، وحقّ إبليس! كنت أتنزّه ذات يوم مع لولا وأنا أمسك بذراعها. أعني... انظر، هكذا، بطرف أصابعي فقط! وإذا بصبي أزعر لعين، لا يصل إلى فخذي، راح يزعجنا. وأخذ ابن العاهرة يصرخ: «إيه! أيّها العجوز، إيه! إلى أين تأخذها أيّها العجوز، حفيدتك؟».

وخجلت لولا، وخجلت أنا أيضًا، كما ترى. وذهبت في ذلك المساء بالذات، كي لا تشعر لولا بالخجل بسببي، إلى الحلّاق لأعيد إلى شعري سواده.

وأخذت أضحك. ونظر إليّ زوربا بجدّيّة:

ـ هذا يبدو لك مضحكًا، أيّها الرئيس؟ ومع ذلك، انظر إلى حقيقتنا كبشر. لقد أصبحت منذ ذلك اليوم رجلاً آخر. إنّ من يرني يعتقد، وأنا أعتقد ذلك أيضًا، أنّ شعري أسود حقًّا ـ إنّنا ننسى، بسهولة كما ترى، ما لا يلائمنا. وإنّني لأقسم لك أنّ قواي قد ازدادت. ولقد تبيّنت لولا أيضًا ذلك. والألم الذي كان في ظهري، أتذكر؟ لقد زال! أنت لا تصدّقني. إنّ هذه الأشياء، كما ترى، لا تكتبها كتبك...

وضحك بسخرية، لكنّه سرعان ما أسف لذلك، وقال:

ـ اعذرني، أيّها الرئيس. إنّ الكتاب الوحيد الذي قرأته في حياتي «السندباد البحري»، أمّا الفائدة التي استخلصتها منه...

وأنزل السانتوري، ونزع الغطاء عنه بحنان وبطء، وقال:

ـ هيّا إلى الخارج، إنّ السانتوري هنا، بين هذه الجدران الأربعة، غير مرتاح. إنّه حيوان متوحّش، وهو بحاجة إلى مدًى شاسع.

وخرجنا. كانت النجوم تقدح شررًا. ودرب المجرّة تسيل من طرف السماء إلى طرفها الآخر. والبحر يغلي.

وجلسنا على الحصى. وراحت الأمواج تلعق بواطن أقدامنا. وقال زوربا:

ـ عندما تتملّكنا الكآبة، فعلينا أن نمنح أنفسنا وقتًا طيّبًا. هل تتصوّر، هي، أنّنا سنستسلم؟ تعال هنا، أيّها السانتوري!

وقلت:

ـ اعزف لحنًا ماسيدونيًّا، من بلدك، يا زوربا.

فقال زوربا:

ـ بل لحنًا كريتيًّا من بلدك أنت! سأنشدك مقطوعة تعلّمتها في «كاندي» ولقد تغيّرت حياتي منذ أن عرفتها.

وفكّر لحظة، وقال:

ـ لا، لم تتغيّر، لكنّني أفهم الآن أنّني كنت محقًّا.

ووضع أصابعه الضخمة على السانتوري ومدّ عنقه. وارتفع صوته المتوحّش، المبحوح، المتألّم:

عندما تتّخذ قرارًا، لا تخف، وإلى الأمام!

أرخِ الحبل لشبابك، ولا تقيّده!

وتفرّقت الهموم، وهربت المتاعب الوضيعة، وبلغت النفس قمّتها الخاصّة. وأصبحت لولا، واللينيت، والمصعد، و«الأبديّة»، والمتاعب الصغيرة والكبيرة، كلّ ذلك أصبح دخانًا أزرق تبدّد في الأجواء ولم يبق إلّا عصفور فولاذي، النفس الإنسانيّة التي تنشد.

وهتفت عندما انتهت الأغنية المتكبّرة:

ـ إنّني أهديك كلّ شيء، يا زوربا! إنّني أهديك كلّ ما فعلته المغنّية، وشعرك المصبوغ، والمال الذي أنفقته، كلّ شيء، كلّ شيء! أنشدني مزيدًا!

ورفع من جديد عنقه المعروق:

أيّها الشجاع، يا اسم الأسماء، تقدَّم، وليحصل ما يحصل!

فإمّا أن تخطئ ضربتك، وإمّا أن تربح!

وسمع حوالى عشرة من العمّال كانوا يرقدون قرب المنجم الأغاني، فنهضوا، ونزلوا بسرعة، وتجمّعوا حولنا. كانوا يصغون إلى لحنهم المفضّل، ويشعرون بالتنمُّل في سيقانهم.

وفجأة، برزوا من العتمة، نصف عراة، مشعّثي الشعور، بقمصانهم الفضفاضة، بعد أن أصبحوا عاجزين عن تمالك أنفسهم أكثر من ذلك، وشكّلوا دائرة حول زوربا والسانتوري وأخذوا يرقصون فوق الحصى الضخم.

ورحت أنظر إليهم منفعلاً، بصمت، وقلت في نفسي: «هو ذا العرق الحقيقي الذي كنت أبحث عنه. إنّني لا أريد غيره».

* * *

في اليوم التالي، قبل طلوع النهار، كانت الأنفاق ترنّ بضربات المعاول وصراخ زوربا. والعمّال يشتغلون بحميّة. إنّ زوربا هو الوحيد الذي يستطيع السيطرة عليهم هكذا. إنّ العمل معه يصبح خمرًا، وغناء، وحبًّا، وهم ينتشون. إنّ الحياة لتحيا في يديه. والصخور، والفحم، والخشب، والعمّال، يسيرون على إيقاعه، وتنشب حرب في الأنفاق، تحت ضوء غاز الاستصباح الأبيض، وزوربا يسير في الطليعة ويناضل جسدًا لجسد. إنّه يعطي اسمًا لكلّ نفق ولكلّ عرق، يعطي وجهًا للقوى التي لا وجه لها، وعندئذ يصبح من الصعب عليها أن تفلت منه.

كان يقول: «عندما أعرف أنّ هذا النفق هو نفق كاناڤارو (هكذا عمّد

النفق الأوّل) فإنّني أطمئنّ. إنّني أعرفه باسمه، فلا يجرؤ على عمل مقلب لي. وكذلك لا «الأمّ الرئيسة» ولا «المعوجّة الساقين» ولا «المبولة». إنّني أعرفها جميعها، أؤكّد لك، وكلًّا باسمه».

كنت قد نزلت في ذلك اليوم إلى النفق دون أن يلمحني زوربا. كان يصرخ بالعمّال حسب عادته عندما تتملّكه الحميّة:

ـ هيّا! هيّا! إلى الأمام! سنتغلّب على الجبل، أيّها الرفاق! إنّنا رجال، أليس كذلك! وحوش مفترسة، والإلٰه الطيّب يرانا ويقشعرّ بدنه. أنتم، الكريتيّين، وأنا، الماسيدوني، سنتغلّب على الجبل، وليس هو الذي سيتغلّب علينا! لقد تغلّبنا على تركيا، أليس كذلك، إذن فهل يخيفنا هذا الجبل الذي لا قيمة له؟ إلى الأمام!

وجاء أحدهم راكضًا نحو زوربا. وعلى ضوء غاز الاستصباح لمحت أنف ميميتو الضيّق. وقال بصوته الذي يأكل نصف الحروف:

ـ زوربا... زوربا...

والتفت هذا ورأى ميميتو، وفهم. ورفع يده الضخمة، وصاح:

ـ اغرب عنّي! أيّها الأبله!

لكنّ العبيط بدأ يقول:

ـ إنّني قادم من طرف السيّدة...

ـ اغرب عنّي، أقول لك! لدينا عمل.

وجرى ميميتو مهرولاً. وبصق زوربا، ثائرًا، وقال:

ـ لقد خُلق النهار للعمل. النهار رجل. وخُلق الليل للاحتفالات: الليل امرأة. يجب ألّا تخلط الأمور!

وفي تلك اللحظة، تقدّمت، وقلت:

ـ أيّها الأصدقاء، لقد انتصف النهار، وحان أن توقفوا العمل من أجل الطعام.

والتفت زوربا، ورآني وقطّب وجهه، وقال:

ـ مع إذنك، أيّها الرئيس، دعنا، اذهب لتناول الغداء، أنت. لقد أضعنا اثني عشر يومًا، فيجب أن نعوّض عنها. أرجو لك شهيّة طيّبة!

وخرجت من النفق ونزلت نحو البحر. وفتحت الكتاب الذي كنت أمسك به. كنت جائعًا، ونسيت جوعي. وقلت في نفسي: «إنّ التأمّل أيضًا منجم... هيّا!». وغرقت في أنفاق العقل الكبيرة.

كتاب مقلق عن جبال التيبيت المغطّاة بالثلوج، والأديرة والرهبان الصامتين بأثوابهم الصفراء، الذين يرغمون الأثير، بتركيز إرادتهم، على أن يأخذ شكل رغائبهم.

من أعلى القمم، هواء مسكون بالأرواح. وطنين العالم الباطل لا يصل إلى هناك. الناسك الكبير يأخذ تلاميذه، وهم صبيان بين السادسة عشرة والثامنة عشرة، ويقودهم في منتصف الليل إلى بحيرة جليديّة في الجبل. فيخلعون ثيابهم، ويحطّمون الجليد، ويغطّسون ثيابهم في الماء المتجمّد، ويعيدون ارتداءها ويتركونها تجفّ على أجسادهم. ثم يعيدون تغطيسها، ويجفّفونها من جديد، وهكذا، سبع مرّات. وبعد ذلك يعودون إلى الدير ليؤدّوا فرض الصباح.

إنّهم يصعدون إلى قمّة، على ارتفاع خمسة أو ستّة آلاف متر. ويجلسون بهدوء، ويستنشقون بعمق، وانتظام، عراة الصدر، لا يبردون. ويمسكون بكأس ماء متجمّد بين راحاتهم، وينظرون إليها، ويركّزون أنفسهم، ويرمون بقوّتهم على الماء المتجمّد فيغلي الماء. ثم يعدّون شايهم.

ويجمع الناسك الكبير تلاميذه حوله ويقول لهم: «شقيٌّ من ليس في داخله منبع السعادة!

«شقيٌّ من يريد أن يعجب الآخرين!

«شقيٌّ من لا يحسّ أنّ هذه الحياة والحياة الأخرى إن هما إلّا حياة واحدة!».

* * *

كان الليل قد أرخى سدوله، ولم أعد أرى جيّدًا حتى أستطيع متابعة القراءة. أغلقت الكتاب ونظرت إلى البحر. قلت في نفسي: «يجب، يجب أن أتخلّص من كلّ هذه الأشباح... وهتفت: شقيٌّ من لا يستطيع الخلاص من البوذاوات، والآلهة، والأوطان، والأفكار!».

كان البحر قد أصبح أسود فجأة. وراح القمر الفتيّ يتدحرج نحو مغربه. ومن بعيد، كانت كلاب، في البساتين، تعوي بحزن والوادي كلّه ينبح.

وظهر زوربا، ملوّثًا، موحلاً، وقميصه يتدلّى مزقًا.

ورقد قربي، وقال راضيًا:

ـ لقد سارت الأمور اليوم جيّدًا، وقمنا بعمل طيّب.

كنت أسمع كلمات زوربا دون أن أتمكّن من فهم معناها. كانت روحي ما تزال، بعد، فوق صخور عالية بعيدة وغامضة.

ـ بمَ تفكّر، أيّها الرئيس؟ إنّك في مكان آخر.

وعدت بنفسي والتفتّ. ونظرت إلى صديقي، وهززت رأسي. وأجبت:

ـ إنّك تتصوّر، يا زوربا، أنّك سندباد بحري رائع، وأنت تعيد البحث فيما لديك لأنّك عشت حياة رحلة ومغامرة في كلّ العالم. لكنّك لم ترَ شيئًا قطّ، أيّها الشقيّ! ولا أنا أيضًا. إنّ العالم أوسع ممّا نعتقد. إنّنا نسافر، ونطوف في البرّ والبحر، ومع ذلك فإنّنا لا نكون قد تجاوزنا عتبة بيتنا.

وثنى زوربا شفتيه، لكنّه لم يقل شيئًا. لقد دمدم فقط مثل كلب أمين عندما يُضرب. وتابعت:

ـ توجد جبال، عالية جدًّا، لا حدود لها، مليئة بالأديرة. وفي تلك الأديرة يعيش رهبان بأثوابهم الصفراء. إنّهم يظلّون جالسين، وأرجلهم متصالبة، شهرًا، وشهرين، وستّة أشهر، ولا يفكّرون إلّا بشيء واحد وحيد. واحد فقط، أتسمع؟ لا اثنين، بل واحد! إنّهم لا يفكّرون، مثلنا، بالمرأة واللينيت أو بالكتب واللينيت: إنّهم يركّزون نفوسهم على شيء واحد لا غير، ويقومون بالمعجزات. وهكذا تحدث المعجزات. هل رأيت يا زوربا، عندما تضع زجاجة مكبّرة تحت الشمس وتجمع كلّ الأشعّة على نقطة واحدة؟ إنّ هذه النقطة سرعان ما تشتعل. لماذا؟ لأنّ قوّة الشمس لم تتوزّع، لقد اجتمعت كلّها على هذه النقطة الواحدة. وكذلك روح الإنسان. إنّنا نقوم بالمعجزاتِ بتركيز روحنا على شيء واحد لا غير. أتفهم، يا زوربا؟

كان زوربا يلهث. وانتفض للحظة كأنّه يريد الهرب . لكنّه تمالك نفسه. ودمدم بصوت مخنوق:

ـ تابع.

لكنّه سرعان ما انتصب باستقامة، قافزًا. وصرخ:

ـ اصمت! اصمت! لِمَ تقول لي هذا، أيّها الرئيس؟ لِمَ تسمّم قلبي؟ لقد كنت مرتاحًا هنا، فلماذا تدفعني؟ كنت جائعًا، فألقى لي الرحمٰن أو الشيطان بعظمة فأخذت ألعقها. وأهزُّ ذنبي وأنا أصيح: «شكرًا! شكرا!». أمّا الآن...

ضرب الأرض برجله، وأدار ظهره، وقام بحركة وكأنّه يبادر بالذهاب نحو الكوخ، لكنّه كان ما يزال يغلي، فتوقّف. وزمجر:

ـ بف! ...! العظمة الجميلة... مغنّية عجوز قذرة! سفينة عجوز قذرة!

وتناول قبضة من الحصى رماها إلى البحر. وصرخ:

ـ لكن من هو، من الذي يلقي لنا بالعظام؟

وانتظر لحظة، وإذ لم يسمع أيّ جواب يأتي، توتّرت أعصابه، وصرخ:

ـ ألا تقول شيئًا، أيّها الرئيس؟ إذا كنت تعلم، فقل لي، حتى أعرف اسمه، أنا أيضًا، ولا تغضب، فسأجازيه كما يجب! لكن هكذا، على غير هدًى، دون أن أدري في أيّ اتّجاه يجب أن أسير، إنّني سأحطّم رأسي.

فقلت:

ـ الجوع. اهتمّ بالطبخ. سنأكل أوّلاً!

ـ ألا يمكننا أن نظلّ ولو مساء واحدًا بلا طعام، أيّها الرئيس؟ كان لي عمّ راهب، وكان لا يأكل أيّام الأسبوع إلّا الماء والملح. وفي أيّام الآحاد والأعياد كان يضيف قليلاً من النخالة. ومع ذلك فقد عاش مئة وعشرين عامًا.

ـ لقد عاش مئة وعشرين عامًا، يا زوربا، لأنّه كان يؤمن. لقد وجد إلٰهه، ولم يعد يشغله همّ. لكنّنا، نحن يا زوربا، ليس لنا إلٰه يغذّينا، إذن أشعل النار، فلدينا بضع سمكات. اصنع حساء حارًّا، ثقيلاً، مع كثير من البصل والفلفل، كما نحبّه. ثم سنرى.

فقال زوربا غاضبًا:

ـ ما الذي سنرى؟ فعندما تمتلئ بطوننا، سننسى كلّ ذلك.

ـ هذا ما أريده بالضبط! فتلك هي قيمة الطعام، يا زوربا. هيّا، اصنع لنا حساء من السمك، يا عجوزي، وإلّا سينفجر رأسنا!

لكن زوربا لم يحرّك ساكنًا. كان يقف، جامدًا، يحدّق فيَّ. وقال:

ـ أصغِ أيّها الرئيس. إنّني أعرف مشاريعك. فمنذ لحظة، عندما كنت تحدّثني، عبرت ذهني ومضة، ورأيت!

فسألته بتشوّق:

ـ وما مشاريعي، يا زوربا؟

ـ إنّك تريد أن تبني ديرًا، هو ذا الأمر! ديرًا تضع فيه، بدلاً من

الرهبان، بعض الكتّاب من نوع سيادتك يمضون وقتهم في التحبير ليل نهار. ثم يخرج من فمك، مثل القدِّيسين الذين نراهم على الصور، شرائط مطبوعة. قل، ألم أحزر؟

خفضت رأسي محزونًا. أحلام الشباب القديمة، وأجنحة عريضة فقدت ريشها، ورغبات ساذجة، سخيّة، نبيلة... أن نبني مجتمعًا روحيًا، ونسجن أنفسنا فيه مع عشرة من الرفاق ـ موسيقيّين ورسّامين وشعراء ـ ونعمل طوال النهار، ولا نلتقي إلّا في المساء، نأكل ونغنّي معًا، ونقرأ، ونطرح الأسئلة الكبرى، ونهدم الأجوبة القديمة. وكنت قد حرّرت دستور المجتمع. بل لقد وجدت أيضًا البناء، في منطقة «القدِّيس يوحنّا الصيّاد»، في أحد ممرّات جبل الهيميت...

وقال زوربا وكلّه سرور، وهو يراني صامتًا:

ـ لقد حزرت، إذن فسوف أطلب منك خدمة، يا رئيس الدير القدِّيس: ستأخذني، في ذلك الدير، كبوّاب، كي أقوم بقطع الطريق وأسمح من حين لحين بمرور بعض الأشياء الغريبة: النساء، والقيثارات، ودنان العرق، والخنازير الصغيرة المحمّرة... كلّ هذا كي لا تبدّد حياتك في التفاهات وحدها!

وضحك وتوجّه بحميّة نحو الكوخ. وجريت وراءه. ونظّف السمكات دون أن يفتح فمه. وجئت أنا بالخشب، وأشعلت النار. وعندما نضج الحساء، أخذنا ملاعقنا ورحنا نأكل من القدر نفسها.

لم يفه أحدنا ببنت شفة. إنّنا لم نأكل شيئًا طوال النهار. فرحنا نلتهم الحساء بوحشيّة. وشربنا خمرًا، وعاد إلينا مرحنا. وفتح زوربا فاه:

ـ إنّه لأمر مسلٍّ، أيّها الرئيس، أن تأتي الآن السيّدة بوبولينا! لا ينقصنا شيء إلّا هي. أتريد أن أقول لك، أيّها الرئيس؟ لقد سئمت منها، بحقّ إبليس!

ـ ألا تسأل الآن من الذي يلقي إليك بهذه العظمة؟

ـ وما يهمّك من الأمر، أيّها الرئيس؟ إنّها قملة بين كومة من التبن. خذ العظمة ولا تهتمّ باليد التي تلقي بها إليك، ألها طعم مستساغ؟ أعليها شيء من اللحم؟ تلك هي المسألة. أمّا الباقي...

فقلت وأنا أربّت على كتف زوربا:

ـ لقد أتمّ الطعام معجزته! لقد هدأ الجسد الجائع! إذن فقد هدأت أيضًا النفس التي تسأل. هاتِ السانتوري!

لكن في اللحظة التي نهض فيها زوربا، سمعنا وقع خطًى صغيرة مستعجلة وثقيلة على الحصى. وارتعد منخرا زوربا المشعران، وقال بصوت خافت وهو يربّت على فخذيه:

ـ «اذكر الذيب وحضّر القضيب!». ها هي! لقد استنشقت الكلبة رائحة زوربا في الهواء فجاءت.

ـ إنّني ذاهب. لقد سئمت من الأمر. سأقوم بجولة. تدبَّر أمرك!

ـ ليلة سعيدة، أيّها الرئيس!

ـ ولا تنسَ، يا زوربا! لقد وعدتها بالزواج، فلا تكذّبني.

وتنهّد زوربا:

ـ أأتزوّج مرّة أخرى، أيّها الرئيس؟ لقد سئمت!

واقتربت رائحة الصابون المعطّر.

ـ تشجّع، يا زوربا!

وخرجت بسرعة. وسمعت لهاث الجنّيّة العجوز.

ـ ١٧ ـ

في اليوم التالي أيقظني صوت زوربا، عند الفجر.

ـ ما بك في مثل هذه الساعة المبكرة؟ لماذا تصرخ؟

فقال وهو يملأ كيس طعامه:

ـ ليس الأمر خطيرًا، أيّها الرئيس. لقد جئت ببغلتين، انهض، فسنذهب إلى الدير لنوقّع الأوراق ثم نبدأ بتنفيذ المصعد. ليس هناك غير شيء واحد يخيف الأسد، وهو القملة. إنّ القمل سيأكلنا، أيّها الرئيس!

فقلت وأنا أضحك:

ـ لماذا تعامل بوبولينا المسكينة كقملة؟

لكنّ زوربا تظاهر بأنّه لم يسمع، وقال:

ـ هيَّا، قبل أن ترتفع الشمس عاليًا.

كنت راغبًا، أشدّ الرغبة، في التنزّه عبر الجبل، وتنشّق رائحة الصنوبر. وامتطينا الدابّتين، وبدأنا بالصعود. وتوقّفنا قليلاً عند المنجم حيث أبلغ زوربا توصياته للعمّال: أن يعمّقوا «الأمّ الرئيسة»، ويحفروا مجرى للماء في «المبولة»، وينظّفوا «كانافارو».

كان النهار يتألّق مثل ماسة بالغة النقاء. وكلّما ارتفعنا، ارتفعت الروح، وتطهّرت. وشعرت، مرّة أخرى، بتأثير الهواء النقي والتنفّس الخفيف والأفق الشاسع، على الروح. وكأنّ الروح، هي أيضًا، حيوان له رئتان ومنخران، فهي بحاجة إلى كثير من الأوكسجين، وتختنق في الغبار

وبين الأنفاس الخانقة الكثيرة.

كانت الشمس قد أصبحت عالية عندما دخلنا غابة الصنوبر. كان الهواء يعبق برائحة العسل، والريح تهبُّ فوقنا. هادرة كالبحر.

كان زوربا، خلال الرحلة، يتأمّل انحدار الجبل. وكان يتخيّل أنّه قد غرس الأوتاد كلّ عدّة أمتار، فيرفع عينيه ويرى الحبل يلمع تحت الشمس ويهبط مستقيمًا حتى الشاطئ. وجذوع الأشجار المقطوعة تنساب، وهي مربوطة بالحبل، تنزل كالنبال:

وراح يفرك يديه ويقول:

ـ عمل طيّب! عمل من ذهب. سنجمع المال بالرفش وسنفعل ما قلناه. ونظرت إليه مدهوشًا.

ـ إيه، إنّك تتصرّف وكأنّك نسيت! قبل أن نبني الدير، سنذهب إلى الجبل الكبير. كيف تدعوه؟ طيبة؟

ـ التيبيت، يا زوربا، التيبيت... لكن فقط نحن الاثنان. إنّ ذلك المكان لا يتحمّل النساء.

ـ ومن الذي يحدّثك عن النساء؟ ثم إنّهنّ، بعد كلّ شيء، مفيدات، المسكينات، لا تتحدّث بشرّ عنهنّ. إنّهنّ مفيدات عندما لا يكون أمام الرجل عمل رجولي عليه أن يقوم به، كأن يستخرج الفحم، ويغزو المدن، ويتحدّث عن الرحمٰن. وما الذي يبقى في هذه الحالة حتى لا يفطس؟ إنّه يشرب الخمر، ويقامر، ويداعب النساء. وينتظر... ينتظر أن تأتي ساعته ـ إذا كانت ستأتي.

وصمت لحظة. ثم عاد يقول مغضبًا:

ـ إذا كانت ستأتي! لأنّه من الجائز جدًّا ألّا تأتي أبدًا!

وبعد لحظة أضاف:

ـ إنّ الحال لا يمكن أن تستمرّ هكذا، أيّها الرئيس، فإمّا أن تصغر الأرض، وإمّا أن أكبر أنا. وإلّا فإنّني هالك!

وظهر راهب بين أشجار الصنوبر، أحمر الشعر، مصفرّ البشرة مشمّرًا عن أكمامه، وعلى رأسه قبّعة مستديرة من الصوف البنّيّ. وكان يمسك بقضيب من الحديد، ويضرب الأرض به، ويمشي بخطًى عريضة. وعندما رآنا توقّف، ورفع عصاه، وسألنا:

ـ إلى أين تذهبان، أيّها الشجاعان؟

فأجاب زوربا:

ـ إلى الدير، لنؤدّي واجباتنا.

فصرخ الراهب وعيناه الزرقاوان الباهتتان تحمرّان:

ـ عودا من حيث جئتما، أيّها المسيحيّان! عودا من حيث جئتما، من أجل الخير الذي أريده لكما! إنّ هذا الدير ليس حديقة «العذراء»، بل بستان إبليس. الفقر، والطاعة والعفّة... إكليل الراهب كما يقولون! هيْ! هيْ! هيْ! اذهبا، أقول لكما. المال، والكبرياء، والغلمان! هذا ثالوثهم الأقدس.

وهمس زوربا في أذني مسرورًا:

ـ إنّه لظريف أيّها الرئيس.

ومال نحوه وسأله:

ـ كيف تُدعى، أيّها الأخ الراهب؟ وأيّ رياح أتت بك؟

ـ إنّني أُدعى زكريّا. لقد حزمت أمتعتي، وهأنذا ذاهب. إنّني ذاهب، ذاهب، لم أعد أستطع التحمّل! أنعم عليّ بالتعرّف إلى اسمك، أيّها المواطن.

ـ كاناڤارو.

ـ إنّ الحال لا تحتمل، أيّها الأخ كاناڤارو. إنّ المسيح ليئنُّ طوال الليل ويمنعني من النوم. فأئنُّ أنا معه، وعندئذ دعاني رئيس الدير ـ لتشوّه ألسنة الجحيم! ـ باكر هذا اليوم وقال لي:

ـ حسنًا، أيّها الأخ زكريّا، ألا تدع إخوتك ينامون؟ سأطردك.

فقلت له:

ـ أنا الذي لا يدعهم ينامون؟ أأنا أم المسيح؟ إنّه هو الذي يئنّ!

عند ذاك رفع عصاه، عدوّ المسيح، انظر، انظرا! وخلع قلنسوته وكشف عن بقعة من الدم المتخثّر فوق شعره.

ـ عندئذٍ نفضت الغبار عن حذائي ومضيت.

فقال زوربا:

ـ عد معنا إلى الدير، وسأصالحك مع الرئيس. تعال، ستكون رفيقنا وتدلّنا على الطريق. إنّ السماء هي التي أرسلتك.

ففكّر الراهب لحظة. والتمعت عيناه، وقال:

ـ ماذا تريد؟

ـ كيلو من السمك المملّح وزجاجة كونياك.

وانحنى زوربا ونظر إليه وقال:

ـ بالمناسبة، ألا يسكن في داخلك إبليس، أيّها الأخ زكريّا؟

فانتفض الراهب، وسأله مذهولاً:

ـ كيف حزرت؟

فأجاب زوربا:

ـ إنّني قادم من جبل آتوس، وأنا أعرف عن مثل هذا الموضوع!

وخفض الراهب رأسه. وخفت صوته إلى حدّ أنّه لم يعد يسمع، وأجاب:

ـ نعم، في داخلي إبليس.

ـ وهو يريد السمك والكونياك، أليس كذلك؟

ـ نعم، عليه اللعنة ثلاث مرّات!

ـ حسنًا، اتّفقنا! وهو يدخّن أيضًا؟

ورمى إليه زوربا بسيجارة تلقّفها بشراهة. وقال:

ـ إنّه يدخّن، إنّه يدخّن، ليلتهمه الطاعون!

وأخرج من جيبه حجر صوّان وفتيلة، وأشعل السيجارة واستنشق من كلّ رئتيه. وقال:

ـ باسم المسيح!

ورفع عصاه، واستدار على عقبيه، وبدأ السير.

وسأله زوربا وهو يغمزني بعينه:

ـ وكيف يدعى، شيطانك؟

فأجاب الراهب دون أن يلتفت:

ـ يوسف!

إنّ رفقة هذا الراهب نصف المجنون لم تكن لتعجبني. إنّ عقلاً عاجزًا، مثل الجسد العاجز، يثير فيَّ الشفقة والاشمئزاز معًا. لكنّني لم أقل شيئًا. وتركت زوربا يفعل ما يحلو له.

وفتح الهواء النقي شهيّتنا. فجلسنا تحت شجرة صنوبر عظيمة وفتحنا كيس الطعام. وانحنى الراهب بشراهة، يبحث بعينيه عمّا يحويه. وصاح زوربا:

ـ أيْ! أيْ! لا تلعق شفتيك سلفًا، يا زكريّا! اليوم هو الإثنين المقدّس. إنّنا لَكَفَرة نحن، لهذا فسنأكل قليلاً من اللحم، ودجاجة، وليسامحني الله! لكن لدينا أيضًا حلوى وزيتون من أجل قداستك، خذ!

وداعب الراهب لحيته الدسمة وقال بندم ظاهر:

ـ أنا، أنا زكريّا، إنّني أصوم، وسآكل زيتونًا وخبزًا وسأشرب ماء باردًا... لكنّ يوسف، باعتباره شيطانًا، سيأكل قليلاً من اللحم، يا أخويَّ، إنّه يحبّ الدجاج كثيرًا وسيشرب الخمر من إبريقكما، اللعين!

ورسم إشارة الصليب، وابتلع بشراهة خبزًا وزيتونًا، وحلوى، ومسح فمه بظهر يده، وشرب ماء ثم رسم إشارة صليب ثانية وكأنّه أنهى طعامه. وقال:

ـ والآن حان دور يوسف، عليه اللعنة ثلاث مرّات. . .

وألقى بنفسه على الدجاجة. وراح يتمتم بحنق، وهو يتلقّف لقمًا كبيرة.

ـ كل، أيّها اللعين! كل!

وقال زوربا بحماسة:

ـ مرحى، أيّها الراهب! إنّ في قوسك أكثر من وتر واحد[1]، على ما أرى.

والتفت نحوي:

ـ كيف وجدته أيّها الرئيس؟

فأجبت ضاحكًا:

ـ إنّه يشبهك.

وقدّم زوربا للكاهن إبريق الخمر:

ـ يوسف، اشرب جرعة!

فقال الراهب وهو يمسك بالإبريق، ويثبّته على فمه:

ـ اشرب، أيّها اللعين!

كانت الشمس قد أصبحت قاسية، فابتعدنا قليلاً نحو الظلّ. كان الراهب تفوح منه رائحة العرق اللاذع والبخور، والعرق ينسال منه تحت الشمس وكأنّه يذوب. وقاده زوربا نحو الظلّ حتى لا تفوح منه روائح كثيرة. وسأله بعد أن أكل جيّدًا وأحسّ بالحاجة إلى الثرثرة:

ـ كيف أصبحت راهبًا؟

فقهقه الراهب:

ـ لعلّك تعتقد أنّ ذلك بسبب القداسة؟ كم أنت مخطئ! بسبب الفقر، يا أخي، بسبب الفقر. لمّا لم يكن عندي شيء آكله قلت في نفسي: ليس

---

(١) تعبير يُقال لمن لديه أكثر من وسيلة واحدة لإنجاح مشروع ما.

عليك إلّا أن تدخل كي لا تفطس من الجوع!

ـ وهل أنت مسرور؟

ـ ليتمجّد اسم الربّ! إنّني غالبًا ما أتألّم، لكن لا تهتمّ بذلك. إنّني لا أتألّم للأرض، عليها اللعنة... كلّ يوم ألعنها... لكنّني أتألّم للسماء. إنّني أروي نكتًا، وأتظاهر بالمرونة، ويضحك الرهبان عندما يرونني. إنّهم يقولون إنّني ممسوس، ويشتمونني. لكنّني أقول لنفسي: «هذا ليس ممكنًا، بل من المؤكّد أنّ الإلٰه الطيّب يحبّ المزاح. ادخل يا مهرّجي، ادخل يا صغيري! هكذا سيقول لي ذات يوم. تعال ـ لتضحكني!». وهكذا، كما ترى، فإنّني سأدخل إلى الجنّة كمهرّج.

فقال زوربا وهو ينهض:

ـ أعتقد، يا صديقي، أنّ رأسك على كتفيك حقًّا! هيّا، قبل أن يفاجئنا الليل!

ومن جديد، سار الراهب في المقدِّمة. وبدا لي، وأنا أصعد الجبل، أنّني أتسلّق في داخلي مشاهد روحيّة، وأنّني أمرّ من هموم وضيعة إلى هموم أكثر سموًّا، ومن حقائق السهل البسيطة إلى نظريّات وعرة.

وفجأة توقّف الراهب، وقال وهو يرينا كنيسة صغيرة تعلوها قبّة مستديرة مهيبة:

ـ سيّدة الانتقام!

وسجد ورسم إشارة الصليب.

ونزلت عن البغل، ودخلت إلى صحن الكنيسة الرطب. ولمحت في إحدى الزوايا أيقونة قديمة سوّدها الدخان، مثقلة بالنذور: قطع رقيقة من الفضّة حُفرت عليها، بدون إتقان، صور أرجل، وأيدٍ، وأعين، وقلوب... وكان ثمّة قنديل من الفضّة يشتعل أمام الأيقونة، لا ينطفئ أبدًا.

واقتربت بصمت: كان ثمّة تمثال مستوحش للعذراء المحاربة، بعنقها

المشدود، ونظرتها القاسية القلقة العذريّة، وهي تمسك، ليس بالطفل الإلٰهي، بل بحربة طويلة مستقيمة. وقال الراهب بخوف:

ـ شقيّ من يمسّ الدير بسوء؟ إنّها تثب عليه وتبقره بحربتها. لقد جاء الأمر، في الماضي، وأحرقوا الدير. لكن انتظر، سترى ما كلّفهم هذا الأمر، الكفرة: ففي اللحظة التي مرّوا فيها أمام هذه الكنيسة، اندفعت العذراء القدّيسة من الأيقونة وأسرعت إلى الخارج. وهيّا، فها هي تأخذ حربتها وتضرب. تضرب هنا، وتضرب هناك، وقتلتهم جميعًا. إنّ جدّي لا يزال يذكر عظامهم وقد ملأت الغابة كلّها. ومنذ ذلك الحين، سمّوها «سيّدة الانتقام». وكانوا قبل ذلك يسمّونها «سيّدة الرحمة».

فسأل زوربا:

ـ ولماذا لم تقم بمعجزتها قبل أن يحرقوا الدير، أيّها الأب زكريّا؟

فأجاب الراهب وهو يرسم إشارة الصليب ثلاث مرّات؟

ـ إنّها إرادة القدير جدًّا!

فتمتم زوربا وهو يمتطي ظهر البغل من جديد:

ـ يا للقدير جدًّا: إلى الأمام!

وبعد فترة قصيرة، ظهر دير العذراء، فوق هضبة، محاطًا بالصخور والصنوبر. وبدا لي هذا الدير، الهادئ، المبتسم، المنعزل عن العالم، في حضن هذه القمّة الخضراء العالية، المنسجم بعمق مع سموّ الذرى وعذوبة السهل. كملجأ أُحسن اختياره للتأمّل البشريّ.

وقلت في نفسي: «إنّ نفسًا صابرة وعذبة تستطيع، هنا، أن ترفع قمّة الإنسان إلى الوجه الديني. إنّها ليست قمّة وعرة فوق القدرة البشريّة، ولا سهلاً كسولاً مريحًا، بل كلّ ما يلزم كي ترتفع النفس دون أن تفقد عذوبتها الإنسانيّة. إنّ مثل هذا المكان لا يصنع لا أبطالاً ولا خنازير. إنّه يصنع بشرًا».

إنّ هذا المكان يصلح ليكون إطارًا رائعًا لمعبد مهيب من اليونان

القديمة، أو لمسجد إسلامي مرح. ولا بدّ أن ينزل الله هنا بثيابه البشريّة البحتة. لا بدّ أن يمشي عاري القدمين على العشب الربيعي، ويتحادث بألفة واطمئنان مع البشر.

وتمتمت:

ـ يا للروعة، يا للعزلة، يا للغبطة!

ونزلنا عن الدابّتين، وعبرنا الباب المقوّس الشكل، وصعدنا إلى قاعة الاستقبال حيث قُدّمت لنا الوجبة التقليديّة، مع العرق والمربّى والقهوة. وجاء الأب المضيف، وأحاطنا الرهبان، وبدأ الحديث. عيون خبيثة، وشفاه لا ترتوي، ولحى، وشوارب، وآباط تفوح منها رائحة الخراف. وسألنا راهب قلق:

ـ ألم تأتيا بجريدة؟

فقلت مندهشًا:

ـ جريدة؟ وما حاجتكم إليها هنا؟

فهتف راهبان أو ثلاثة باستنكار:

ـ جريدة لنرى، أيّها الأخ، ماذا يجري للعالم!

كانوا واقفين، متشبّثين بقضبان الشرفة، ينعقون كغربان، ويتحدّثون بحماسة عن إنكلترا، وروسيا، وفينزيلوس، والملك. لقد نفاهم العالم، لكنّهم، هم، لم ينفوا العالم. كانت أعينهم مليئة بمدن كبيرة، ودكاكين، ونساء، وصحف...

ونهض راهب بدين، كثّ الشعر، وقال لي وهو يشهق:

ـ لديّ شيء أريد أن أريكه، وستقول لي رأيك فيه، أنت أيضًا. سأذهب لآتي به.

وذهب، ويداه المشعرتان القصيرتان فوق بطنه، وهو يجرّ نعليه المصنوعتين من الجوخ، واختفى وراء الباب.

وقهقه الرهبان بخبث، وقال الأب المضيف:

ـ لقد ذهب الأب ديميتيوس، ليأتي من جديد بتمثال الراهبة الغضاري. لقد طمرها الشيطان في الأرض لمأرب في نفسه، وذات يوم بينما كان ديميتيوس يجتاز الحديقة، وجدها، وجاء بها إلى صومعته، ومنذ ذلك الحين، فقد المسكين القدرة على النوم. ولن يتأخّر به الحال عن فقدان عقله أيضًا.

ونهض زوربا. فقد يكاد يختنق، وقال:

ـ لقد جئنا لنرى قداسة رئيس الدير، ولنوقّع الأوراق.

فأجاب الأب المضيف:

ـ إنّ قداسة رئيس الدير ليس موجودًا، لقد ذهب هذا الصباح إلى القرية. عليك بالصبر.

وظهر الأب ديميتيوس من جديد، كانت يداه ممدودتين ومضمومتين، وكأنّه يحمل الكأس المقدّسة. وقال وهو يفتح يديه بحذر:

ـ ها هي!

اقتربت، ورأيت تمثالاً صغيرًا جدًّا من صنع «تاناغرا» يبتسم، نصف عارٍ، بظرف، بين راحتي الراهب البدينتين. وكانت الراهبة تمسك بيدها الوحيدة الباقية رأسها. وقال ديميتيوس:

ـ حتى تشير إلى رأسها، فلا بدّ أنّ فيه حجرًا كريمًا، من الجائز ماسة، أو لؤلؤة. ما رأيك؟

فقاطعه أحد الرهبان بسخرية مرّة:

ـ أنا أعتقد أنّ رأسها يوجعها.

لكنّ ديميتيوس البدين ظلَّ ينظر إليّ، وشفتاه متدلّيتان كشفتي تيس، وينظر بالتياع شديد. وقال:

ـ من رأيي أن نكسرها لنرى... إنّ النوم لم يعد يطرق جفوني... ماذا لو كانت فيها ماسة؟

ونظرت إلى الفتاة الشابّة الجليلة بثدييها الصغيرين الناهدين، المنفيّة

هنا بين روائح البخور والآلهة المصلوبين الذين يلعنون الجسد والضحك والقبلة.

آه! لو كنت أستطيع إنقاذها!

وتناول زوربا تمثال الغضار، وجسَّ جسد المرأة النحيف، وتوقّفت أصابعه مرتجفة فوق الثديين المدبّبين الناهدين. وقال:

ـ لكن ألا ترى، أيّها الراهب الطيّب، أنّها الشيطان؟ إنّه هو بشخصه، وليس هناك مجال للخطأ. لا تهتمّ، فأنا أعرفه جيّدًا، هذا اللعين. انظر إلى صدرها، أيّها الأب ديميتيوس، مستديرًا، ناهدًا، لدنًا. هكذا هو صدر الشيطان، إنّني أعرف شيئًا عن ذلك!

وظهر راهب شابّ عند العتبة. وأضاءت الشمس شعره الذهبي ووجهه المستدير المزغب.

وغمز الراهب ذو لسان الأفعى بعينه الأب المضيف. وابتسم كلاهما ابتسامة خبيثة. وقالا:

ـ أيّها الأب ديميتيوس، هو ذا تلميذك، غابرييل.

وأمسك الراهب بالمرأة الصغيرة الغضاريّة واتّجه نحو الباب، وهو يتدحرج كبرميل. وكان التلميذ الجميل يسير في المقدِّمة، بصمت، بخطوات متوازنة. واختفى الاثنان في الرواق الطويل شبه المتهدّم.

وأشرت لزوربا وخرجنا. كانت الحرارة عذبة، في وسط الباحة تعبق شجرة برتقال مزهرة، وبالقرب منها يتدفّق الماء هادرًا من فم كبش من الرخام القديم. ووضعت رأسي تحت الفم، وشعرت بنفسي قد عادت إلى الرطوبة. وقال زوربا باشمئزاز:

ـ قل إذن، ما لهؤلاء الناس؟ إنّهم ليسوا رجالاً، ولا نساء، إنّما بغال. أفٍّ! أحرى بهم أن يشنقوا أنفسهم!

وغطّس رأسه أيضًا في الماء البارد وأخذ يضحك، وكرّر:

ـ أفٍّ! أحرى بهم أن يشنقوا أنفسهم! إنّ الشيطان يسكنهم جميعًا. أحدهم يريد امرأة، والآخر سمكًا، والآخر مالاً، والآخر صحفًا... مجموعة من الحميّات! لماذا لا ينزلون إلى العالم، ليشبعوا من كلّ ذلك، ويطهّروا عقولهم؟!

وأشعل سيجارة وجلس على مقعد تحت شجرة البرتقال المزهرة. وقال:

ـ أنا، عندما أرغب في شيء ما، أتعرف ماذا أفعل؟ إنّني آكل منه حتى التقزّز، كي أتخلّص منه ولا أفكّر به مطلقًا. أو أفكّر به باشمئزاز. عندما كنت طفلاً، كنت مجنونًا. لم يكن لديّ مال كثير، لهذا كنت لا أشتري كثيرًا منه دفعة واحدة، وبعد أن آكل ما أشتريه، تظلّ بي شهوة إلى المزيد منه. كنت لا أفكّر ليل نهار إلّا بالكرز، ويسيل لعابي، وأتألّم حقًّا! لكنّني ذات يوم غضبت بشدّة، أو بالأحرى خجلت، لست أدري على الضبط! لقد أحسست بأنّ الكرز يفعل بي ما يشاء، وبأنّ هذا يجعلني مضحكًا، إذن، فما الذي فعلت؟ نهضت في الليل خلسة، وبحثت في جيوب أبي، ووجدت «مجيديّة» من الفضّة، فأخذتها، وفي الصباح الباكر ذهبت إلى بقّال. واشتريت سلّة من الكرز، وجلست في حفرة، أخذت بالأكل. وأكلت، وأكلت، حتى انتفخ بطني. وبعد فترة أخذ بطني يؤلمني وتقيّأت. وتقيّأت، وتقيّأت أيّها الرئيس، ومنذ ذلك الحين انتهت قصّة الكرز. بل إنّني لم أعد أستطيع حتى أن أتصوّره. لقد تخلّصت. صرت أنظر إليه وأقول: لست بحاجة إليك. وفعلت الشيء نفسه فيما بعد مع الخمر والتبغ. إنّني لا أزال أدخّن، وأشرب. لكن عندما أريد أن أكفّ، أكفّ. إنّ الرغبة لم تعد مسيطرة عليّ. والشيء نفسه، بالنسبة للوطن، لقد رغبت فيه، فأكلت منه حتى الشبع، وتقيّأت، وتخلّصت منه.

فسألته:

ـ والنساء؟

ـ إنّ دورهنّ سيأتي أيضًا، العاهرات، سيأتي! لكن عندما أبلغ السبعين.

وفكّر لحظة، وبدا له أنّ ما قاله قليل، فقال:

ـ بل الثمانين. إنّ هذا يضحك أيّها الرئيس، لكن هيّا، فأنت تستطيع أن تضحك كثيرًا! إنّ الإنسان يتحرّر هكذا، أصغِ جيّدًا إلى ما أقول لك، إنّه يتحرّر هكذا، بأن يشبع من كلّ شيء يخطر له، لا بأن يزهد فيه. كيف تستطيع، يا صديقي، أن تتخلّص من الشيطان، إذا لم تصبح أنت بنفسك شيطانًا ونصف شيطان؟

وظهر ديميتيوس في الباحة دهشًا، يتبعه الراهب الشابّ الأشقر، فتمتم زوربا، وهو يتأمّل وحشيّته ومهابة شبابه:

ـ إنّه لأشبه بملاك غاضب!

واقتربا من الدرج الحجري الذي يقود إلى الصومعات العالية. والتفت ديميتيوس، ونظر إلى الراهب الصغير وقال له شيئًا ما. وهزّ الراهب الصغير برأسه، وكأنّه يرفض. لكنّه سرعان ما انحنى بخضوع. وأحاط خصر الراهب الهرم بذراعه وصعدا الدرج ببطء.

وسألني زوربا:

ـ أترى؟ أترى؟ سادوم وعامورة!

ومدّ راهبان رأسيهما. وتغامزا، وتهامسا شيئًا ما، وأخذا يضحكان. ودمدم زوربا:

ـ يا للخبث! إنّ الذئاب لا تأكل بعضها بعضًا، أمّا الرهبان، فبلى! انظر إليهم وهم يتعاضّون، الواحدة تعضّ الأخرى.

فقلت ضاحكًا:

ـ الواحد يعضّ الآخر.

ـ لكنّ الشيء واحد، هنا، يا صديقي، لا تتعب رأسك، إنّني أقول لك، إنّهم بغال، أيّها الرئيس! تستطيع أن تقول، حسب مزاجك، غابرييل

أو غابريبلا، ديميتيوس أو ديميتيا. هيّا بنا، أيّها الرئيس، لنوقّع الأوراق بسرعة، ولنذهب. إنّ الأمر سينتهي بنا هنا، بشرفي، إلى أن نقرف من الرجال والنساء معًا.

وخفض صوته وقال:

ـ لديّ أيضًا مشروع...

ـ أعمل جنوني آخر، يا زوربا؟ ألا ترى أنّك فعلت ما فيه الكفاية؟ هيّا، قل لي مشروعك!

فرفع زوربا كتفيه وقال:

ـ كيف أقوله لك، أيّها الرئيس؟ إنّك، أستميحك عفوًا، رجل شجاع، إنسان يهتمّ بأصغر هموم الآخرين. إنّك إذا وجدت قملة إلى جانب لحافك، أيّام الشتاء، فإنّك تضعها تحته كي لا يصيبها برد. كيف تستطيع أن تفهم لصًّا هرمًا، مثلي؟ إنّني لو وجدت قملة لسحقتها. ولو وجدت خروفًا لحززت عنقه، ووضعته على السفّود، وتلذّذت بأكله مع الرفاق. قد تقول لي: إنّ هذا الخروف ليس لك. إنّني أعترف بذلك. لكن دعنا، أيّها الأخ، لنأكله في البدء، وبعد ذلك نتحدّث ونتناقش بكلّ هدوء عمّا هو «ملكك» وعمّا هو «ملكي». إنّك تستطيع أن تتكلّم قدر ما تشاء، بينما أكون أنا منهمكًا في تنظيف أسناني بعود ثقاب.

ورنّت الباحة بقهقهته. وظهر زكريّا، مرتبكًا. ووضع أصبعًا على شفتيه واقترب على أطراف أصابعه. وقال:

ـ صمتًا! لا تضحكا! انظرا، هناك في الأعلى، وراء النافذة المفتوحة، إنّ الأسقف يعمل. إنّها المكتبة. وهو يكتب. إنّه يكتب طوال اليوم، هذا الرجل القدّيس، لا تصرخا!

فقال زوربا وهو يجرّ الراهب من ذراعه:

ـ ها أنت، إنّني أودّ محادثتك، أيّها الأب يوسف! هيّا إلى غرفتك، لنتحدّث قليلاً.

وأضاف وهو يستدير نحوي:

ـ اذهب، أنت، أثناء ذلك، لزيارة الكنيسة وتأمّل الأيقونات القديمة. أمّا أنا فسأنتظر رئيس الدير، إنّه لن يتأخّر. وعلى الأخصّ لا تتدخّل في أيّة قضيّة لأنّك ستضرّ بنا! دعني أعمل، فلديَّ خطّتي.

ومال على أذني:

ـ سنحصل على الغابة بنصف الثمن... لا تقل شيئًا.

ومضى بسرعة، وذراعه في ذراع الراهب المجنون.

ـ ١٩ ـ

عبرت عتبة الكنيسة وغرقت في عتمتها الشفّافة الرطبة العبقة.

كانت الكنيسة مقفرة. شمعدانات البرونز تُرسل نورًا شاحبًا، والهيكل المشغول بدقّة يحتلّ آخر الكنيسة، أشبه بدالية ذهبيّة محمّلة بالعناقيد. وكانت الجدران مغطّاة، من أعلاها إلى أسفلها، بزخارف نصف ممحوّة تمثّل نسّاكًا مخيفين أشبه بالهياكل العظيمة، وآباء الكنيسة، ودرب آلام المسيح الطويل، وملائكة أقوياء وغاضبين، تحيط بشعورهم شرائط عديمة اللّون.

وفي الأعلى، على القبّة، تقف «العذارء»، ممدودة الذراعين، ضارعة. وكان ثمّة نور راجف ينبعث من قنديل ثقيل من الفضّة يشتعل أمامها، ويلعق ويداعب بكسل وجهها الطويل المعذّب. إنّني لن أنسى أبدًا عينيها المتألّمتين، وفمها المزموم المستدير، وذقنها العنيد. وقلت في نفسي: هي ذي «الأمّ» راضية تمامًا، سعيدة تمامًا، حتى في أصعب لحظاتها ألمًا، لأنّها تحسّ بأنّه قد خرج من أحشائها الفانية شيء ما خالد.

عندما تجاوزت عتبة الكنيسة من جديد، كانت الشمس آخذة بالغروب. فجلست تحت شجرة البرتقال، سعيدًا. كانت قبّة السماء تتورّد، وكأنّ الفجر يشرق. ومضى الرهبان إلى غرفهم ليستريحوا. إنّهم بحاجة إلى هذه الراحة، لأنّهم لن ينامو الليل. فالمسيح سيبدأ، هذا المساء، بتسلّق الجلجلة، وعليهم أن يصعدوا معه. وكانت ثمّة خنزيرتان سوداوان،

ضروعهما ورديّة، تتناومان، وهما مستلقيتان تحت شجرة خرنوب. والحمامات فوق الأسطحة، تتزاوج.

وقلت في نفسي: إلى متى سأظلّ حيًّا، قادرًا على الإحساس بعذوبة الأرض، والهواء، والصمت، ورائحة شجرة البرتقال المزهرة؟ كان قلبي قد طفح بالسعادة عندما تأمّلت في الكنيسة أيقونة للقدّيس باخوس. وتجلّى أمامي من جديد كلّ ما يثير انفعالي بعمق: الاتّحاد في الرغبة، والاستمرار في الجهد. لتتبارك تلك الأيقونة الصغيرة الرائعة التي تمثّل الفتى المسيحي بشعره المجعّد المتساقط على جبهته كعناقيد سوداء. إنّ ديونيزوس، إله الخمر والنشوة الجميل، والقدّيس باخوس، يمتزجان فيَّ، ويأخذان الوجه نفسه. تحت أوراق العنب ثوب الراهب، كان يختلج نَفَس الراجف الذي حرقته الشمس: اليونان.

وعاد زوربا. وقال لي فورًا:

ـ لقد وصل رئيس الدير، وتحدّثنا قليلاً، لكنّه أصمّ أذنيه، فهو لا يريد أن يتخلّى عن الغابة من أجل قطعة خبز، كما قال. إنّ المحتال يطلب أكثر من ذلك، لكنّني سأتغلّب عليه.

ـ لماذا أصمّ أذنيه؟ ألم نكن متّفقين؟

فقال زوربا ضارعًا:

ـ لا تتدخّل في الأمر، أيّها الرئيس، أرجوك. ستهدم كلّ شيء. وها أنت تتحدّث عن الاتّفاق القديم. لقد دفنّاه! لا تقطّب حاجبيك. إنّني أقول لك: لقد دفنّاه! سنحصل على الغابة بنصف الثمن.

ـ لكن ما الذي تهيّئه أيضًا، يا زوربا؟

ـ لا تهتمّ بذلك. إنّه شغلي. سأضع زيتًا على البكرة، وستأخذ بالدوران، أتفهم؟

ـ لكن لماذا؟ إنّني لا أفهم؟

ـ لأنّني أنفقت أكثر ممّا يجب في كاندي. لأنّ لولا قد أكلت مالي،

أعني أنّها أكلت كمّيّة لا بأس بها من مالك، أتتصوّر أنّني نسيت؟ إنّ لي كبريائي، فما الذي تظنّ؟ لا أريد أن تلطّخ سمعتي! لقد أنفقت، وسأدفع. لقد قمت بالحساب: لقد كلّفت لولا سبعة آلاف درهم، وسأعوّض عن المبلغ من الغابة. إنّ رئيس الدير، والدير، والقدّيسة العذراء، هم الذين سيدفعون بدلاً من لولا. هذه هي خطّتي، أتعجبك؟

ـ مطلقًا. ما مسؤوليّة العذراء القدّيسة عن هباتك السخيّة؟

ـ إنّها مسؤولة بل وأكثر من مسؤولة. إنّها ولدت ابنها. وابنها هو الله. ولقد خلقني الله، أنا، زوربا، وأعطاني الأدوات التي تعرفها. وهذه الآلات اللعينة تفقدني رشدي وتفتح كيس نقودي ما إن أصادف الجنس الأنثوي. أتفهم؟ إذن، فقداستها مسؤولة وأكثر من مسؤولة. عليها أن تدفع.

ـ إنّني لا أحبّ هذا، يا زوربا.

ـ تلك هي مسألة أخرى، أيّها الرئيس. لننقذ أوّلاً السبعة آلاف ليرة. ثم نتناقش بعد ذلك. «قبّلني، يا صغيري، ثم ارجع من جديد عمّتك...». أتعرف الأغنية؟

وظهر الأب المضيف، البدين وقال بلهجة رجال الكهنوت المرائية:

ـ تفضّلا بالدخول، فقد أُعِدّ العشاء.

ونزلنا إلى قاعة الطعام، وهي عبارة عن غرفة كبيرة فيها مقاعد وموائد طويلة ضيّقة. كان الجوّ يعبق برائحة الزيت الدهنيّة الحادّة. وفي آخر القاعة زخرفة قديمة تمثّل «العشاء الأخير». التلاميذ المخلصون الأحد عشر، متجمّعون كالخراف حول المسيح، وفي مواجهتهم يقف يهوذا، النعجة الجرباء، الأحمر الشعر، المحدودب الجبهة، الأقنى الأنف، بمفرده، مديرًا ظهره. ولم يكن المسيح ينظر إلّا إليه.

وجلس الأب المضيف، أنا إلى يمينه، وزوربا إلى شماله. وقال:

ـ إنّنا صائمون، ستعذروننا: لا زيت ولا خمر على الرّغم من أنّكما مسافران. أهلاً بكما!

ورسمنا إشارة الصليب، ورحنا نأكل بصمت زيتونًا وبصلاً أخضر، وفولاً طازجًا وحلوى. كنّا ثلاثتنا نمضغ ببطء كأرانب. وقال المضيف:

ـ هذه هي الحياة هنا: صليب وصوم. لكن صبرًا، يا إخوتي، صبرًا، فها هو البعث قادم مع الحمل، وها هو ملكوت السموات آتٍ.

وسعلت. وداس زوربا على قدمي كأنّه يقول لي: «اصمت!». وقال ليغيّر الموضوع:

ـ لقد رأيت الأب زكريّا...

فانتفض الأب المضيف وسأل زوربا بقلق:

ـ هل قال ذلك الممسوس شيئًا؟ إنّ فيه الشياطين السبعة، لا تصغِ إليه! إنّ روحه ملوّثة وهو يرى الدنس في كلّ مكان.

وقرع الجرس، بأسًى، بدء الأسبوع الحزين. فرسم الأب المضيف إشارة الصليب ونهض قائلاً:

ـ إنّني ذاهب، فآلام المسيح قد بدأت. هيّا إذن نحمل الصليب معه. تستطيعان أن تستريحا هذا المساء، فأنتما متعبان بسبب الطريق. لكن غدًا في قدّاس منتصف الليل...

وما كاد الراهب يخرج حتى دمدم زوربا بين شفتيه:

ـ أشرار! أشرار! كذّابون! بغال! بغال!

ـ ما بك، يا زوربا؟ هل قال لك زكريّا شيئًا ما؟

ـ دعك من هذا أيّها الرئيس، لكن لا تغضب إذا كانوا لا يريدون التوقيع، سأريهم عن حقّ من أنا!

وصعدنا إلى الغرفة التي أُعدّت لنا. في إحدى زواياها، كانت هناك أيقونة تمثّل العذراء وهي تضع خدّها على خدّ ابنها، وعيناها الكبيرتان مليئتان بالدموع.

وهزّ زوربا رأسه:

ـ أتعرف لماذا تبكي، أيّها الرئيس؟

ـ كلّا.

ـ لأنّها ترى. لو كنت، أنا رسّام أيقونات، لرسمت العذراء دون عينين، دون أذنين، دون أنف. لأنّني أشفق عليها.

وتمدّدنا على فراشينا القاسيين. كانت تفوح من العوارض رائحة السرو. ومن النافذة المفتوحة كانت تدخل أنفاس الربيع المحمّلة بأريج الزهور. ومن حين إلى حين، كانت الأنغام الجنائزيّة تأتي من الباحة، وكأنّها نفحات ريح. وراح بلبل يغنّي قرب النافذة، وتبعه آخر، على مسافة أبعد قليلاً، وآخر أيضًا. كان الليل يطفح بالحبّ.

لم أستطع النوم. وامتزج نشيد بندب المسيح، وحاولت، أنا أيضًا، أن أتسلّق الجلجلة، بين أشجار البرتقال المزهرة، مستدلًّا بقطرات الدم الكبيرة. ولمحت، في الليل الربيعي الأزرق، عرق المسيح البارد يتلألأ على جسده الشاحب المنهك. ورأيت يديه تمتدّان راجفتين، كأنّه يتضرّع، كأنّه يتسوّل. وكان أهل الجليل المساكين يسرعون في أثره ويهتفون: «هوسنا! هوسنا!»، وهم يحملون سعف النخيل. ويفرشون معاطفهم تحت قدميه. وكان هو ينظر إلى الذين يحبّهم، لكن لم يكن ثمّة أحد منهم يدرك يأسه. كان هو الوحيد الذي يعرف أنّه ذاهب إلى الموت. وتحت النجوم، راح يبكي بصمت ويعزّي قلبه البشري المسكين المليء بالهلع: «أنت أيضًا يا قلبي عليك، مثل حبّة القمح، أن تثوي تحت التراب وتموت. لا تخف. وإلّا فكيف ستتحوّل إلى سنبلة؟ كيف ستستطيع أن تغذّي البشر الذين يموتون جوعًا؟».

لكنّ قلبه المرتعد كان، على الرّغم منه، يرجف ولا يريد الموت...

وسرعان ما طفحت الغابة، حول الدير، بأناشيد البلابل التي تتصاعد من أوراق الشجر النديّة، منسوجة من الحبّ والرغبة. وكان القلب الإنساني

المسكين يرجف ويبكي وينتفخ معها.

وشيئًا فشيئًا، دون أن أشعر، دخلت، مع آلام المسيح، ومع نشيد البلبل، في النوم، كما تدخل النفس إلى الجنّة.

* * *

لم يمضِ على نومي ساعة حتى استيقظت واثبًا، هلعًا، وصحت:

ـ زوربا، هل سمعت؟ طلقة مسدّس!

لكنّ زوربا كان جالسًا في فراشه يدخّن. وقال وهو يجهد في محاولة السيطرة على أعصابه:

ـ لا تهتمّ، أيّها الرئيس، دعهم يسوّوا حساباتهم.

وسمعنا صراخًا في الممرّ، وفتحت الباب. وانتصب أمامي شيخ معروق. ومدّ ذراعه كأنّه يسدّ عليّ الطريق. كان يرتدي قبّعة بيضاء مدبّبة، وقيمصًا أبيض يصل حتى ركبته.

ـ من أنت؟

فقال بصوت يرتعد:

ـ الأسقف...

وكدت أنفجر ضاحكًا. أسقف؟ أين هي زينته: حلّة القدّاس المذهّبة، والتاج، والعكّاز، والجواهر الزائفة الملوّنة... إنّها المرّة الأولى التي أرى فيها أسقفًا في قميص النوم.

ـ ما طلقة المسدّس تلك، يا مونسينيور؟

فتمتم وهو يدفعني بلطف إلى الغرفة:

ـ لست أدري، لست أدري...

وانفجر زوربا، في فراشه، ضاحكًا، وقال:

ـ أأنت خائف، أيّها الأب الصغير؟ ادخل، هيّا أيّها الشيخ المسكين. إنّنا لسنا رهبانًا، فلا تخف.

فقلت بصوت خافت:

ـ زوربا، تحدّث باحترام أكبر. إنّه الأسقف.

ـ يا صديقي، الإنسان لا يكون أسقفًا، عندما يكون في قميص النوم! ادخل، أقول لك.

ونهض، وأخذه من ذراعه، وجرّه إلى الداخل وأغلق الباب. وأخرج من كيسه زجاجة روم وملأ قدحًا صغيرًا. وقال له:

ـ اشرب، أيّها الشيخ، فهذا سيقوّي من عزيمتك.

وأفرغ الشيخ الضئيل الكأس، وعاد إلى نفسه. وجلس على سريري، واستند إلى الحائط. وقلت:

ـ أيّها الأب الفائق الاحترام، ماذا كانت طلقة المسدّس تلك؟

ـ لست أدري، يا بنيّ... قد اشتغلت حتى منتصف الليل، ثم ذهبت لأنام عندما سمعت، إلى جواري، في غرفة الأب ديميتيوس...

فقهقه زوربا قائلاً:

ـ آه! آه! لقد كنت محقًّا جدًّا، يا زكريّا!

وخفض الأسقف رأسه. وتمتم:

ـ لا بدّ أنّه لصّ.

كانت الجلبة في الممرّ قد انقطعت، وغرق الدير في الصمت من جديد. ونظر إليّ الأسقف، بعينيه الطيّبتين المذعورتين، ضارعًا، وسألني:

ـ أناعسٌ أنت، يا بنيّ؟

وشعرت بأنّه لا يريد الانصراف والعودة إلى غرفته بمفرده. كان خائفًا. فأجبت:

ـ كلّا، لست ناعسًا، ابق.

ورحنا نتحدّث. ولفّ زوربا، وهو مستند إلى وسادته، سيجارة. وقال لي الشيخ الضئيل:

ـ يبدو عليك أنّك فتًى مثقّف. إنّني لا أجد هنا إنسانًا أتحدّث إليه. وعندي ثلاث نظريّات تلطّف من حياتي. وددت لو أطلعتك عليها، يا ولدي.

ولم ينتظر جوابي، بل بدأ يقول:

ـ نظريّتي الأولى هي هذه: إنّ أشكال الزهور تؤثّر على ألوانها، وألوانها تؤثّر على خواصّها. وهكذا فإنّ لكلّ زهرة تأثيرها المختلف على جسم الإنسان، وبالتالي على روحه. لهذا فعلينا أن نأخذ حذرنا تمامًا عندما نعبر حقلاً مزهرًا.

وصمت وكأنّه ينتظر رأيي. ولمحت الشيخ الضئيل يتسكّع في الحقل المزهر، ينظر إلى الأرض، برعدة سرّيّة، حيث الأزهار وأشكالها وألوانها. ولا بدّ أنّ الشيخ المسكين كان يرتعد من خوف صوفي، فالحقل، في الربيع، يمتلئ بالملائكة والشياطين المتعدّدي الألوان.

ـ وهذه هي الآن نظريّتي الثانية: كلّ فكرة لها تأثير حقيقي، لها أيضًا وجود حقيقي، إنّها هنا. إنّها لا تجري في الهواء غير مرئيّة. إنّ لها جسدًا حقيقيًّا: عينين، وفمًا، وقدمين، ومعدة. إنّها رجل أو امرأة، وهي تتبع الرجال أو النساء. لهذا فإنّ الإنجيل يقول: «لقد تجسّدت الكلمة...».

ونظر إليّ من جديد بقلق، وقال بسرعة، وهو لا يتحمّل صمتي:

ـ نظريّتي الثالثة هي هذه: هناك أبديّة، حتى في حياتنا الفانية، لكن من الصعوبة علينا بمكان أن نكتشفها بمفردنا. إنّ الهموم اليوميّة تبعدنا عنها. إنّ البعض فقط، النخبة، يتوصّلون إلى أن يعيشوا الأبديّة، حتى أثناء حياتهم الفانية. ولمّا كان الآخرون سيهلكون، فقد أشفق الله عليهم وأرسل إليهم الدين، وهكذا أصبح بإمكان الجماهير أن تعيش الأبديّة أيضًا.

لقد انتهى. وكان من الواضح أنّه ارتاح لأنّه تكلّم ورفع عينيه الصغيرتين اللتين بلا أهداب، ونظر إليّ مبتسمًا. وكأنّه يقول «خذ، إنّني أعطيك كلّ ما أملك، خذه!». وشعرت بنفسي تنفعل، وأنا أرى هذا الشيخ

الضئيل يقدّم لي هكذا، بطيبة قلب، وهو لم يتعرّف إليّ بعد تمامًا، ثمار حياته كلّها.

كانت الدموع قد ملأت عينيه. وسألني وهو يأخذ يدي بين يديه ويحدّق فيّ، وكأنّ جوابي سيكشف له عمّا إذا كانت حياته قد أجدت فتيلاً أم لم تُجد:

ـ ما رأيك في نظريّاتي؟

إنّني أعرف أنّ فوق الحقيقة يوجد واجب آخر أهمّ. وأكثر إنسانيّة، لهذا أجبت:

ـ إنّ هذه النظريّات يمكن أن تنقذ كثيرًا من النفوس.

وتألّق وجه الأسقف. لقد كان هذا تبريرًا لحياته كلّها.

وهمس وهو يشدّ على يدي بحنان:

ـ شكرًا، يا بنيّ.

وقفز زوربا من زاويته، وصاح:

ـ أنا عندي نظريّة رابعة!

ونظرت إليه بقلق. والتفت الأسقف نحوه:

ـ تكلّم، يا بنيّ، لتتبارك فكرتك! أيّة نظريّة؟

فقال زوربا بجدّيّة:

ـ إنّ اثنين واثنين يساويان أربعة!

ونظر إليه الأسقف فاغر الفم. وتابع زوربا:

ـ ونظريّة خامسة أيضًا، أيّها الشيخ الطيّب: إنّ اثنين واثنين لا يساويان أربعة. اختر التي توافقك!

فتمتم الأسقف وهو يسألني بعينيه:

ـ إنّني لا أفهم.

فقال زوربا وهو ينفجر ضاحكًا:

ـ ولا أنا.

والتفتُّ نحو الشيخ الضئيل المضطرب وغيّرت موضوع الحديث بسؤاله:

ـ ما الدراسات التي تكرّس نفسك لها، هنا، في الدير؟

ـ إنّني أُعيد نسخ مخطوطات الدير القديمة، يا بنيّ! وفي هذه الأيّام أجمع كلّ الصفات التي تحدّثت فيها كنيستنا عن «العذراء».

وتنهّد قائلاً:

ـ إنّني مسنّ، لا أستطيع أن أفعل شيئًا آخر. إنّني أهدّئ نفسي بجمع كلّ ألقاب العذراء، وأنسى شقاء العالم.

واستند إلى الوسادة، وأغلق عينيه. وأخذ يتمتم، كأنّه يهذي: «الوردة التي لا تفنى، الأرض الخصبة، الكرمة، العين، النبع الذي ينشر المعجزات، السلّم الذي يصعد إلى السماء، طائر البحر، مفتاح الجنّة، الفجر، القنديل الأبدي، العمود المتأجّج، البرج الثابت، الحصن المنيع، العزاء، الفرح، نور العمى جميعًا، أمّ اليتامى كافّة، المائدة، الغذاء، السلام، الاطمئنان، العسل واللبن...».

وقال زوربا بصوت خافت:

ـ إنّه يهذي، هذا الساذج... سأغطّيه حتى لا يُصاب ببرد...

ونهض وألقى عليه بغطاء، وأصلح وضع الوسادة، وقال:

ـ هناك سبعة وسبعون نوعًا من الجنون، على ما سمعت، لكنّ هذا هو النوع الثامن والسبعون.

كان النهار يشرق. وسمعنا صوت مزهر. وانحنيت من النافذة الصغيرة. ولمحت، على نور الفجر الأوّل، راهبًا نحيفًا، وعلى رأسه غطاء أسود طويل، يدور في الباحة ببطء وهو يضرب بمطرقة صغيرة على لوح صغير من الخشب يصدر ألحانًا متناغمة رائعة. كان صوت المزهر ينتشر في الجوّ الصباحي، مليئًا بالعذوبة والانسجام والنداء. وكان البُلبل قد صمت،

وبدأت العصافير الأولى تغرّد، بين الأشجار.

ورحت أصغي، مسحورًا، إلى لحن المزهر العذب الموحي. وقلت في نفسي: إنّ إيقاعًا مرتفعًا لحياة يستطيع، حتى في لحظة انحطاطه، أن يحتفظ بشكله الخارجي كلّه، آسرًا مليئًا بالنبل! إنّ الروح تهرب، لكنّها تترك مقامها سليمًا، هو الذي ظلّت تشكّله طوال قرون، كالصّدفة، رحبًا، معقّدًا، لتقيم فيه مرتاحة.

إنّ الكاتدرائيّات الرائعة التي نصادفها في المدن الكبيرة الوثنيّة المليئة بالضجيج، لهي أشبه بصدفات فارغة. مسوخ من زمن ما قبل التاريخ لم يبق منها إلّا الهيكل العظمي الذي تأكّلته الأمطار والثلوج.

وقُرع باب غرفتنا. وسمعنا صوت الأب المضيف الذي يتحدّث من حلقه:

ـ هيّا، انهضا من أجل قدّاس الصباح أيّها الأخوان!

فقفز زوربا، وصرخ على الرّغم منه:

ـ ماذا كانت طلقة المسدّس تلك؟

وانتظر قليلاً. صمت مطبق، ومع ذلك فقد كان الراهب لا يزال وراء الباب، لأنّنا كنّا نحسّ بأنفاسه المبهورة. وضرب زوربا برجله. وعاد يسأل حانقًا:

ـ ماذا كانت طلقة المسدّس تلك؟

وسمعنا خطًى تبتعد بسرعة. وبقفزة واحدة وصل زوربا إلى الباب وفتحه، وقال وهو يبصق على الراهب الذي كان يهرب بنفسه:

ـ كومة حمقى! أيّها الكهنة، والرهبان، والراهبات، والأبرشيّون، والسكرستانيّون، إنّني أبصق عليكم.

قلت:

ـ هيّا بنا، توجد رائحة دم هنا.

فدمدم زوربا:

ـ لو كان دمًا فقط! ستذهب أنت إلى القدّاس، إذا كنت راغبًا. أمّا أنا فذاهب لأنقّب هناك لعلّي أكتشف شيئًا ما.

فقلت من جديد، بانقباض:

ـ هيّا بنا. وأرجو، من فضلك، ألّا تدسّ أنفك فيما لا يعنيك.

فصرخ زوربا:

ـ لكنّني أريد أن أدسّه هنا بالذات، أنفي!

وفكّر لحظة ثم ابتسم بخبث قائلاً:

ـ إنّ الشيطان ليقدّم لنا خدمة رائعة! أعتقد أنّه سيوصل الأمور إلى الغاية المطلوبة. أتعرف، أيّها الرئيس، كم يمكن أن تكلّف الدير، طلقة المسدّس تلك؟ سبعة آلاف ورقة!

ونزلنا إلى الباحة. عبق الأشجار المزهرة، وعذوبة الصباح، والغبطة السماويّة. وكان زكريّا ينتظرنا. وأسرع إلى زوربا وأمسك به من ذراعه. وتمتم وهو يرتعد:

ـ أيّها الأخ كاناڤارو. تعال، هيّا بنا من هنا!

ـ ماذا كانت طلقة المسدّس تلك؟ لقد قُتل أحد؟ هيّا، أيّها الراهب، تكلّم أو أخنقك!

كان ذقن الراهب يرتعد. ونظر حوله. كانت الباحة خالية، والغرف مقفلة، ومن الكنيسة المفتوحة تنساب الألحان متموّجة. وتمتم:

ـ اتبعاني. سادوم وعامورة!

واجتزنا الباحة، ونحن ننساب على طول الجدران، وخرجنا من البستان. على بعد مئة متر تقريبًا من الدير كانت تقع المقبرة. ودخلنا إليها.

وخطونا فوق القبور، ودفع زكريّا باب الكنيسة ودخلنا في أثره. في الوسط، على بساط، كان ثمّة جسد ممدّد، مغطّى بثوب راهب. وإلى جانب رأسه شمعة مشتعلة، وعند قدميه شمعة أخرى.

فتمتمت وأنا أرتعد:

ـ الراهب الصغير! راهب الأب ديميتيوس الصغير الأشقر!

عند باب المعبد كان الملاك ميخائيل يقدح شررًا، وقد فتح جناحيه، واستلّ سيفه، وانتعل نعلين أحمرين.

وصرخ الراهب:

ـ أيّها الملاك ميخائيل! أرسل النار واللهيب، وأحرقهم جميعًا! أيّها الملاك ميخائيل، ارفس رفسة، واندفع خارج أيقونتك! ارفع سيفك، واضرب! ألم تسمع طلقة المسدّس؟

ـ من الذي قتله؟ من؟ ديميتيوس؟ تكلّم، يا ذا اللحية!

وانفلت الراهب من يديْ زوربا، وسقط على وجهه عند قدمي الملاك. ولبث فترة ساكنًا، منصوب الرأس، جاحظ العينين، فاغر الفم، وكأنّه يرقب شيئًا ما.

وفجأة نهض من جديد فرحًا، وقال بلهجة حاسمة:

ـ سأحرقهم. لقد تحرّك الملاك، لقد رأيته، لقد أشار إليّ.

واقترب من الأيقونة، وألصق شفتيه الغليظتين على سيف الملاك، وقال:

ـ ليتبارك الله! لقد عاد الاطمئنان إليّ.

وأمسك زوربا بالراهب من تحت ذراعيه من جديد وقال:

ـ تعال هنا، يا زكريّا، هيّا، ستفعل ما سأقوله لك.

والتفت نحوي:

ـ أعطني المال، أيّها الرئيس، سأوقّع الأوراق بنفسي. إنّهم جميعهم، هناك في الداخل، ذئاب، أمّا أنت فحمل، إنّهم سيلتهمونك. دعني أفعل. لا تغضب، إنّهم بين يديّ، أولئك الغلاظ! سنغادرهم عند الظهر، والغابة في جيبنا. هيّا يا صاحبي زكريّا!

وانسابا خلسة نحو الدير. وذهبت أنا لأتنزّه تحت شجر الصنوبر.

كانت الشمس قد علت ظهر السماء، والندى يتلألأ على الأوراق. وطار شحرور أمامي، وحطّ على غصن شجرة كمثري بريّة، وحرّك ذنبه، وفتح منقاره، ونظر إليّ وصفّر مرّتين أو ثلاثًا بسخرية.

كنت ألمح الرهبان، عبر أشجار الصنوبر، في الباحة، وهم يخرجون صفوفًا، منحنين، على أكتافهم براقع سود. كان القدّاس قد انتهى. وهم ذاهبون الآن إلى قاعة الطعام.

وقلت في نفسي: «يا للخسارة أن يكون مثل هذا التقشّف، ومثل هذا النبل، دون روح من الآن فصاعدًا!».

كنت متعبًا، لم أنم جيّدًا، فتمدّدت على العشب. كانت أزهار البنفسج البرّيّة، والوزّال، والعبيثران، والقويسة، تعبق. والحشرات تطنّ، جائعة، وتنقضّ على الأزهار كالقراصنة وتمتصّ العسل. ومن بعيد كانت الجبال تقدح بالشرر، شفّافة، هادئة، مثل كتلة بخار متحرّكة في نور الشمس المحرق.

وأغلقت عينيّ، بخدر. وتملّكني فرح خفيّ، غامض، وكأنّ هذه المعجزة الخضراء التي تحيطني كلّها هي الجنّة، وكأنّ هذه الرطوبة، وهذه الخفّة، وهذه النشوة المعتدلة، كلّها هي الله. إنّ الله يبدّل وجهه في كلّ لحظة. وسعيد من يستطيع أن يتعرّفه تحت كلّ أقنعته! فهو تارة قدح ماء بارد، وتارة أخرى ابن يثب على ركبتيك، أو امرأة ساحرة، أو بكلّ بساطة نزهة صباحيّة صغيرة.

وشيئًا فشيئًا، أصبح كلّ شيء حولي، دون أن يبدّل شكله، حلمًا. كنت سعيدًا. إنّ الأرض والجنّة قد اتّحدتا فإذا هما كلّ واحد. وبدت لي الحياة كزهرة حقل، في قلبها قطرة عسل كبيرة، وروحي كنحلة متوحّشة ترتشف الرحيق.

وفجأة خرجت بعنف من هذه الغبطة، فقد سمعت خلفي وقع أقدام

وهمسات. وفي اللحظة نفسها تعالى صوت مبحوح:

ـ أيّها الرئيس، إنّنا ذاهبون!

ووقف زوربا أمامي، وعيناه الصغيرتان تتألّقان ببريق شيطاني. وقلت باطمئنان:

ـ أذاهبون؟ هل انتهى كلّ شيء؟

فقال زوربا وهو يربّت على جيب سترته الأعلى:

ـ كلّ شيء! إنّها هنا، تلك الغابة، فلتأتنا بالحظّ! وهي ذي السبعة آلاف ورقة التي أخذتها منّا لولا!

وأخرج من جيبه الداخلي رزمة أوراق. وقال:

ـ خذها، إنّني أدفع ديوني، ولن أشعر بالخجل أمامك بعد الآن. إنّ فيها أيضًا الجوارب، والحقائب، والعطور ومظلّة السيّدة بوبولينا. وكذلك فستق الببّغاء! وبالإضافة إلى ذلك، الحلوى التي جئتك بها!

فقلت:

ـ إنّني أهديكها، يا زوربا، فاذهب وأشعل شمعة بطولك للعذراء التي أهنتها.

واستدار زوربا. كان الأب زكريّا يتقدّم بقلنسوته المخضرّة القذرة وحذاءيه الباليين. وكان يجرّ بغلين بالرسن. وأشار زوربا إليه برزمة المال وقال:

ـ سنتقاسمها، أيّها الأب يوسف، ستشتري مئة كيلو من السمك المملّح وتأكل منها، يا صاحبي المسكين، ستأكل منها حتى ينفجر بطنك. حتى تتقيّأ وتتخلّص! تعال، افتح يدك.

وتلقّف الراهب كدسة المال وخبّأها في صدره. وقال:

ـ سأشتري بترولاً.

ـ يجب أن يكون الوقت ليلاً، والجميع نيامًا، والريح ناشطة. ستصبّ

على الجدران من الزوايا الأربع. ليس عليك إلّا أن تغطّس المزق، والمسّاحات، وقطع القماش، وكلّ ما تجد، في البترول وتضرم فيها النار. أفهمت؟

كان الراهب يرتعد.

ـ لا ترتعد هكذا يا صاحبي! لقد أصدر إليك الملاكِ الأمر؟ إذن عليك بالبترول، كثير من البترول!... ولترافقك العافية!

وامتطينا الدابّتين. وألقيت نظرة أخيرة على الدير. وسألت:

ـ هل علمت شيئًا، يا زوربا؟

ـ بخصوص طلقة المسدّس؟ لا تهتمّ بالأمر، أيّها الرئيس. إنّ زكريّا على حقّ: سادوم وعامورة! لقد قتل ديميتيوس الراهب الصغير الجميل. هذا هو الأمر!

ـ ديميتيوس؟ لماذا؟

ـ دعك من الأمر، أقول لك، أيّها الرئيس، إنّه ليس إلّا قذارات ونتنًا.

واستدار نحو الدير. كان الرهبان يخرجون من قاعة الطعام، محنيّي الرؤوس، متصالبي الأيدي، ذاهبين إلى غرفهم ليسجنوا أنفسهم فيها. وصاح:

ـ لعنتكم عليّ، أيّها الآباء المقدّسون!

ـ ٢٠ ـ

كان أوّل شخص التقينا به ونحن نترجّل عن دابّتينا، على شاطئنا، بعد أن أرخى الليل سدوله، هو بوبولينا، وقد انكمشت على نفسها أمام الكوخ. وعندما أشعلنا المصباح ورأيت وجهها، ارتعدت فرائصي.

ـ ماذا بك، أيّتها السيّدة هورتانس؟ أأنت مريضة؟

كانت جنّيّتنا العجوز قد فقدت كلّ إغرائها المشبوه الذي لا يمكن تحديده، منذ اللحظة التي راحت فيها تداعب، في صدرها الكبير، الزواج. فقد راحت تجهد نفسها لمحو كلّ الماضي ولاطّراح الريش الفاقع اللون الذي تزيّنت به، والذي نزعته من الباشاوات، والبكوات والأميراليّة. إنّها لم تعد تطمح إلّا في أن تصبح زاغًا جادًّا ومستقيمًا. امرأة شريفة. إنّها لم تعد تتخضّب، ولا تتزيّن، بل تركت نفسها على ما هي.

ولم يفتح زوربا فاه. بل راح يفتل بعصبيّة شاربه الذي لم يمضِ وقت طويل على صبغه. وانحنى، وأشعل الموقد، ووضع ماء ليصنع قهوة.

وقال فجأة صوت المغنّية العجوز الأبحّ:

ـ وحش!

ورفع زوربا رأسه ونظر إليها. وعادت عيناه إلى عذوبتهما. كان من المستحيل عليه أن يسمع امرأة تخاطبه بصوت ممزّق، دون أن يتبدّل تمامًا. إنّ دمعة امرأة يمكن أن تغرقه.

لم يقل شيئًا، بل وضع البنّ والسكّر، وحرّك الماء. وهدلت الجنّيّة العجوز:

ـ لماذا تتركني أنتظر طويلاً قبل أن تتزوّجني؟ إنّني لم أعد أجرؤ على الظهور في القرية. لقد فقدت شرفي! سأنتحر!

كنتُ قد تمدّدت، متعبًا، على سريري. ورحت، وأنا مستند إلى الوسادة، أتذوّق هذا المشهد المضحك المثير للأعصاب.

ـ لماذا لم تأتِ بأكاليل الزواج؟

وشعر زوربا بيد بوبولينا البدينة ترتعد على ركبته. لقد كانت هذه الركبة آخر مكان ثابت في الأرض تتشبّث به هذه المخلوقة التي أُغرقت ألف مرّة ومرّة.

ولا شكّ في أنّ زوربا قد فهم ذلك، وأنّ قلبه قد لان. لكنّه لم يقل شيئًا هذه المرّة أيضًا. وصبّ القهوة في ثلاثة فناجين. وكرّرت بصوت راجف:

ـ لماذا لم تأتِ بالأكاليل، يا عزيزي؟

فأجاب زوربا بلهجة جافّة:

ـ لا يوجد في كاندي أكاليل جميلة.

وقدّم إلى كلّ فنجانه وقبع في زاوية، وأضاف:

ـ لقد كتبت إلى أثينا ليرسلوا لنا أكاليل جميلة، وأوصيت أيضًا على شموع بيضاء، وملبّس محشوّ بالشوكولا واللوز المحمّص.

كان كلّما أغرق في الكلام، زاد خياله اشتعالاً. وكانت عيناه تقدحان شررًا. وراح زوربا، وهو أشبه بالشاعر في لحظة الخلق، يحلّق في الأجواء التي تمتزج فيها الرؤية والحقيقة وتصبحان كالأختين. كان قابعًا، يستريح. ويرتشف بصوت مسموع قهوته، وأشعل سيجارة ثانية: فقد كان اليوم طيّبًا، والغابة الآن في جيبه، وقد دفع دينه، فهو مسرور.

وانطلق قائلاً:

ـ يجب أن يُثير زواجنا ضجّة، يا بوبولينتي الصغيرة. سترين أيّة قبّعة للعرس أوصيت لك بها! ولهذا السبب بقيت طويلاً في كاندي! يا حبّي. لقد استقدمت خيّاطتين من أثينا وقلت لهما: «إنّ المرأة التي سأتزوّجها لا مثيل لها لا في الشرق ولا في الغرب! لقد كانت ملكة الدول الأربع! لكنّها اليوم أرملة، إذ إنّ الدول قد ماتت، لذا فهي تقبلني زوجًا. إذن أريد أن يكون ثوب عرسها لا مثيل له، وهي أيضًا تريده هكذا: كلّه من حرير، مزيّنًا باللآلئ وبالنجيمات الذهبيّة!». فأطلقت الخيّاطتان صيحات عالية: «لكنّه سيكون جميلاً جدًّا! ستبهر عيون جميع المدعوّين!». فقلت: «ليصبهم ما يصيبهم. فما شأني بهم؟ بشرط أن تكون محبوبتي مسرورة!».

كانت السيّدة هورتانس تصغي، مستندة إلى الحائط، وابتسامة كثيفة، مليئة، قد ربضت على وجهها الصغير الجافّ المتجعّد، وشريط عنقها الوردي يكاد ينقطع. وهمست وهي ترمي زوربا بنظرة أتعبها الانفعال:

ـ أريد أن أهمس لك شيئًا في أذنك.

وغمزني زوربا بعينيه وانحنى. وأسرّت له العروس القادمة وهي تدسّ لسانها الصغير في الأذن الكبيرة المليئة بالشعر:

ـ لقد جئتك، هذا المساء، بشيء ما.

وأخرجت من صدرها منديلاً معقودة إحدى زواياه وقدّمته إلى زوربا.

وتناول زوربا بأصبعه المنديل الصغير، ووضعه على ركبته اليمنى، ثم استدار نحو الباب، ونظر إلى البحر. فقالت:

ـ ألا تحلّ العقدة، يا زوربا؟ أرى أنّك لست مستعجلاً!

فأجاب:

ـ دعيني أوّلاً أشرب قهوتي وأدخّن سيجارتي. لقد حللتها وأنا أعرف ما فيها.

فتضرّعت الجنّيّة:

ـ حُلّ العقدة، حُلّ العقدة!

ـ سأدخّن أوّلاً سيجارتي، لقد قلت ذلك!

ورماني بنظرة مثقلة بالتأنيب وكأنّه يقول لي: «كلّ ذلك بسبب غلطتك!».

كان يدخّن السيجار ببطء، وينفث الدخان من منخريه وهو ينظر إلى البحر. وقال:

ـ ستهبّ غدًا ريح السموم. لقد تبدّل الطقس. ستنتفخ الأشجار، وكذلك أثداء الصبايا، ولن تحتمل بعد الآن مشدّات الصدور. أيّها الربيع الخبيث، اذهب، فإبليس هو الذي اخترعك!

وصمت. وبعد مضيّ ثوانٍ قليلة:

ـ إنّ كلّ ما هو جميل في هذا العالم قد اخترعه الشيطان: النساء الجميلات، والربيع، والخنزير المحمّر، والخمر، كلّ هذا، إنّما الشيطان هو الذي أوجده. أمّا الإلٰه الطيّب فقد أوجد الرهبان، والصوم، ونقيع البابونج، والنساء القبيحات، أفٍّ!

وألقى، وهو يقول ذلك، نظرة حادّة على السيّدة هورتانس المسكينة التي كانت تصغي إليه، قابعة في إحدى الزوايا. وكانت تتضرّع إليه في كلّ لحظة:

ـ زوربا! زوربا!

لكنّه أشعل سيجارة جديدة، وعاد يتأمّل البحر من جديد. وقال:

ـ في الربيع، إنّما يسود الشيطان. فتُرخى الأحزمة، وتُفكّ أزرار القمصان، وتتنهّد العجائز... إيه، أيّتها السيّدة هورتانس، ارفعي يديك.

فتضرّعت المرأة المسكينة من جديد:

ـ زوربا! زوربا!

وانحنت، وأخذت المنديل الصغير، ودسّته في يد زوربا، الذي رمى سيجارته، وتلقّف العقدة وفكّها. إنّ راحة يده مفتوحة الآن، وهو يحدّق فيها. ثم قال باشمئزاز:

ـ ما هذا، أيّتها السيّدة بوبولينا؟

فتمتمت الجنيّة العجوز وهي ترتعد:

ـ خاتمان، خاتمان صغيران، يا كنزي. خاتما الخطبة. إنّ الشاهد هنا، والليل جميل، والإله الطيّب ينظر إلينا... فلنعقد خطوبتنا.. يا زوربا!

كان زوربا ينظر إليّ تارة، وتارة إلى السيّدة هورتانس، وتارة ثالثة إلى الخاتمين. كانت جمهرة من الشياطين تصطرع في داخله، ولم يكن أحدها ليتغلّب على الأخرى. وكانت التعيسة تنظر إليه بذعر، وتهدل:

ـ زوربا! زوربا!...

كنت قد انتصبت فوق فراشي، ورحت أنتظر. ترى أيّ طريق سيختار زوربا من جميع الطرق المفتوحة أمامه؟

وفجأة هزّ رأسه. لقد اتّخذ قراره. وأضاء وجهه. وصفّق بيديه وانتصب قافزًا. وصاح:

ـ لنخرج! لنذهب تحت النجوم، كي يرانا الله! أيّها الرئيس، خذ الخاتمين. هل تعرف كيف تنشد؟

فأجبت لاهيًا:

ـ كلّا. لكن لا بأس!

وقفزت من سريري، وساعدت السيّدة الطيّبة على النهوض.

ـ إنّني أعرف، أنا. لقد نسيت أن أقول لك إنّني كنت من صبيان الخورص. كنت أتبع الكاهن في حفلات العرس، والعماد، والدفن، وتعلّمت أناشيد الكنيسة عن ظهر قلب. تعالي، يا بوبولينتي، تعالي، يا دجاجتي، تعالي، يا سفينتي الفرنسيّة. قفي إلى يميني!

إنّ الشيطان الذي انتصر على كلّ شياطين زوربا كان أيضًا الشيطان المازح ذا القلب الطيّب. لقد أشفق زوربا على المغنّية العجوز، وتمزّق قلبه عندما رأى نظرتها الذابلة تحدّق فيه بقلق شديد.

ـ إلى الشيطان. إنّني لا أزال أستطيع أن أدخل الفرح على قلب الجنس الأنثوي، هيّا بنا!

واندفع على الشاطئ، وأخذ ذراع السيّدة هورتانس، وأعطاني الخاتمين، واستدار نحو البحر وبدأ ينشد: «ليتبارك سيّدنا إلى دهر الدهور، آمين!».

والتفت نحوي:

ـ انتبه، أيّها الرئيس. عندما أصيح: «هو هي! هو هي!» تلبسنا الخاتمين.

وأخذ ينشد بصوته الغليظ الشبيه بنهيق حمار:

«من أجل عبد الله، ألكسيس، ومن أجل أمَة الله، هورتانس، المخطوبين أحدهما للآخر، ومن أجل سلامهما، نتضرّع إلى السيّد!».

وترنّمت وأنا أجهد في السيطرة على ضحكي ودموعي:

ـ كيرياليسون! كيرياليسون(١)!

وقال زوربا:

ـ هناك أيضًا آيات أخرى، لكن لتنصب مشنقتي إذا كنت أذكرها! على كلّ، لندخل في لبّ القضيّة!

وقفز في الهواء على شكل دائرة، وصاح وهو يمدّ إليّ يده الضخمة:

ـ هو هي! هو هي!

وقال لخطيبته:

ـ مدّي يدك، أنت أيضًا، يا سيّدة قلبي.

وامتدّت إليه اليد البدينة، التي خدّدتها كثرة الغسيل، راجفة.

وألبستهما الخاتمين، بينما كان زوربا، يصرخ، خارجًا عن نفسه، مثل الدراويش:

---

(١) تعني باليونانيّة «يا ربّ، ارحم».

ـ عبد الله، ألكسيس، قد خطب إلى أمَة الله، هورتانس، باسم الآب والابن والروح القدس، آمين! أمَة الله، هورتانس، قد خطبت إلى عبد الله، ألكسيس. . .

ـ لقد تمّ الأمر وانتهى! تعالي هنا، يا دجاجتي، كي أقبّلك أوّل قبلة شريفة في حياتك!

لكنّ السيّدة هورتانس كانت قد انهارت أرضًا. وأمسكت بساقيْ زوربا، وراحت تبكي. وهزّ زوربا رأسه بشفقة، وتمتم:

ـ يا للنساء المسكينات!

ونهضت السيّدة هورتانس، وسوّت بذلتها، وفتحت ذراعيها. وهتف زوربا:

ـ هي! هي! إنّه الثلاثاء المقدّس، كوني عاقلة! إنّه الصوم!

فتمتمت بانفعال:

ـ زوربا. . .

ـ صبرًا، يا طيّبتي، انتظري حتى الفصح، فنأكل اللحم. ونكسر البيض الأحمر. أمّا الآن فقد حان أن تعودي إلى البيت. ما الذي سيقوله الناس لو رأوك تتسكّعين خارجًا في مثل هذه الساعة؟

وتضرّعت إليه بوبولينا بعينيها. لكنّ زوربا قال:

ـ لا! لا! حتى الفصح! تعال معنا، أيّها الرئيس.

ومال على أذني، وقال هامسًا:

ـ لا تتركنا بمفردنا، إكرامًا لحبّ الله! إنّني لست مستعدًّا مطلقًا.

وسرنا في طريق القرية. كانت السماء تقدح شررًا، وغمرتنا رائحة البحر، بينما كانت طيور الليل تتنادى. وتركت الجنّيّة العجوز زوربا، المتشبّثة بذراعه، يجرّها، سعيدة وكئيبة.

لقد دخلت أخيرًا المرفأ الذي طالما تمنّته. لقد غنّت طوال حياتها،

وتعهّرت، وسخرت من النساء الشريفات، لكنّها لم تكن سعيدة قطّ. عندما كانت تمرّ، معطّرة، مخضّبة الوجه، مرتدية ثيابًا صارخة، في شوارع الإسكندريّة، وبيروت، والقسطنطينيّة، وترى النساء يرضعن أطفالهنّ، كان صدرها يتنمّل، وينتفخ، وتنتصب حلمتاها، تسألان، هما أيضًا، فمًا طفوليًّا صغيرًا. كانت تفكّر طوال حياتها وهي تتنهّد: «أن أتزوّج، أتزوّج، وأن يكون لي طفل...». لكنّها لم تبح قطّ بآلامها إلى أيّ إنسان حيّ. والآن، تبارك الله! لقد فات الأوان قليلاً، لكنّ هذا أفضل من أن يفوت نهائيًّا: وها هي تدخل، مخلّعة، قد صفعتها الأمواج، إلى المرفأ الذي طالما تمنّته.

كانت ترفع عينيها من حين لحين، وتنظر مواربة إلى ذلك الرجل المارد الضخم الذي يسير إلى جانبها. وتفكّر في نفسها: «إنّه ليس باشا غنيًّا، يلبس طربوشًا ذا طرّة ذهبيّة. إنّه ليس ابنًا جميلاً لأحد البكوات، لكنّه أفضل من لا شيء. ليتبارك الله! سيكون زوجي، زوجي عن حقّ».

وكان زوربا يحسّ بها ترخي ثقلها عليه، فيجرّها، وهو يستعجل الوصول إلى القرية والتخلّص منها. وكانت المسكينة تتعثّر فوق الحجارة، وأظافر قدميها تكاد تنقلع، ودماملها توجعها، لكنّها لم تكن تقول شيئًا. ولمَ الكلام؟ لمَ الشكوى؟ إنّ كلّ شيء قد سار على ما يرام في النهاية!

كنّا قد تجاوزنا تينة الآنسة وحديقة الأرملة. وظهر أوّل بيوت القرية. وتوقّفنا. وقالت الجنّيّة العجوز، بدلال، وهي تنتصب على أطراف أصابعها لتصل إلى فم خطيبها:

ـ ليلة سعيدة، يا كنزي.

لكنّ زوربا لم ينحنِ. فقالت المرأة وهي على أتمّ استعداد لأن تركع أرضًا:

ـ أألقي بنفسي على قدميك لأقبّلهما، يا حبّي؟

فقال زوربا محتجًّا، منفعلاً، وهو يأخذها بين ذراعيه:

ـ كلّا! كلّا! بل أنا الذي يجب أن يقبّل قدميك، يا قلبي، أنا، لكنّني متعب. ليلة سعيدة!

وتركناها، وسرنا بصمت في طريق العودة، ونحن نستنشق ملء صدورنا الهواء العبق. والتفت زوربا فجأة نحوي:

ـ ما الذي يجب أن أعمله؟ أأضحك؟ أأبكي؟ انصحني.

لم أجب. كنت، أنا أيضًا، أحسّ بضيق في حلقي، ولا أدري ما سببه: البكاء؟ القهقهة؟

وقال زوربا فجأة:

ـ أيّها الرئيس، كيف كان يدعى ذلك الإله القديم الشرّير الذي لا يترك امرأة واحدة تتشكّى؟ لقد سمعت شيئًا ما عنه. هو أيضًا، على ما يبدو، كان يصبغ لحيته، ويَشِمُ ذراعيه بالقلوب، والسهام، والجنّيات ويتنكّر، ويصبح ثورًا، أو بجعة، أو كبشًا، أو حمارًا. قل لي إذن اسمه!

ـ أعتقد أنّك تتحدّث عن زوس. كيف تذكّرته؟

فقال زوربا وهو يرفع ذراعيه إلى السماء:

ـ لتكن الأرض خفيفة الوطء عليه! لقد قاسى كثيرًا، ولا شكّ! وما الذي كان يستطيع أن يفعله؟ إنّه لشهيد كبير، حقًّا، تستطيع أن تصدّقني أيّها الرئيس، فأنا أعرف شيئًا ما حول الموضوع! إنّك تبتلع كلّ ما تقوله كتبك. لكنّ الذين يكتبونها أدعياء! وما الذي يعرفونه حقًّا عن النساء، وعن الذين يجرون وراء النساء؟ حمقى!

فقلت ساخرًا:

ـ لماذا لا تكتب بنفسك، يا زوربا، لتشرح لنا أسرار العالم؟

ـ لماذا؟ لأنّني، أنا، رأيت جميع الأسرار التي تتحدّث عنها، ولأنّني لا أملك الوقت لكتابتها. أحيانًا الحرب، وأحيانًا النساء، وأحيانًا الخمر، وأحيانًا السانتوري، فأين أجد الوقت لآخذ تلك الريشة التي لا تخطّ إلّا كلامًا لا معنى له؟ وهكذا، فإنّ القضيّة وقعت بين أيدي الكتّاب الفارغين.

إنّ جميع الذين يعيشون الأسرار، كما ترى، ليس لديهم وقت للكتابة، وجميع الذين عندهم وقت، لا يعيشون الأسرار. أتفهم؟

ـ لنعد إلى موضوعنا! زوس؟

فتنهّد زوربا:

ـ آه! المسكين! أنا فقط أعرف كم تألّم. النساء، لقد كان يحبّهنّ، بالتأكيد، لكن ليس كما تتصوّرون، أنتم الكتّاب! مطلقًا! لقد كان يرثي لهنّ، ويفهم ألمهنّ جميعًا، ويضحّي بنفسه من أجلهنّ. كان، عندما يرى في بقعة من بقاع الأرض عانسًا عجوزًا على وشك الانطفاء من الرغبة والندم، أو امرأة صغيرة جميلة ـ بدينة، حتى لو لم تكن جميلة، حتى لو كانت وحشًا ـ لا تجد سبيلاً إلى النوم لأنّ زوجها غائب، كان يرسم إشارة الصليب، ذلك القلب الطيّب، ويبدّل ثيابه، ويأخذ شكل الوجه الموجود في رأس المرأة، ويدخل إلى غرفتها.

كان مزاجه، في أغلب الأحيان، بعيدًا عن الاهتمام بقصص الحبّ الصغيرة. وفي غالب الأحيان كان يفشل، وهذا مفهوم: فكيف يكفي ذلك التيس المسكين لشيء: هل رأيت تيسًا بعد أن روى ظمأ عدّة نعاج؟ اللعاب يسيل من فمه، وعيناه كدرتان، متعبتان، وهو يسعل، ولا يكاد يستطيع الانتصاب على قدميه. وكان في غالب الأحيان في هذه الحالة التي يرثى لها، المسكين زوس. وعند الفجر، يعود إلى منزله وهو يقول: «آه! أيّها الرحمٰن! متى سأستطيع أخيرًا أن أرقد وأنام قدر ما أشاء. إنّني لم أعد أستطيع الوقوف!». ولا يتوقّف عن مسح لعابه.

لكن، ها هو ذا يسمع، فجأة، نحيبًا: في الأسفل، فوق الأرض، ثمّة امرأة قد ألقت أغطية سريرها في الهواء، وخرجت إلى السطح، شبه عارية، وأطلقت تنهّدة. وسرعان ما تأخذ الشفقة زوس. ويدمدم: «يا لشقائي، يجب أن أهبط إلى الأرض من جديد! ثمّة امرأة تندب نفسها. وسأذهب لأعزّيها!».

وهكذا حتى أفزعته النساء تمامًا. وتحطّم صلبه، وأخذ يتقيّأ، وأصبح مشلولاً، ومات. وعند ذاك جاء وريثه، المسيح. ورأى حالة الهرم التي يرثى لها. فصاح: احذروا النساء!».

وأُعجبت بعذوبة روح زوربا، ورحت أتقلّب من الضحك.

ـ تستطيع أن تضحك، أيّها الرئيس! لكن إذا جعل الإله ـ الشيطان أمورنا تمشي جيّدًا ـ وهذا يبدو لي مستحيلاً! ـ أتعرف ما الذي سأفتحه كدكّان؟ وكالة زواج! وعندئذ ستنهال عليه جميع النساء المسكينات اللواتي لم يستطعن أن يوقعن في شباكهنّ زوجًا: العوانس، والقبيحات، والمشوّهات الأرجل، والحولاوات، والعرجاوات، والحدباوات، وسأستقبلهنّ أنا في صالون صغير، جدرانه مغطّاة بصور شبّان جميلين، وسأقول لهنّ: «اخترن، يا سيّداتي الجميلات، من يعجبكنّ، اخترن، وسأقوم أنا بالخطوات اللازمة ليصبح زوجًا لكنّ». وعند ذاك سأجد أيّ شابّ يشبهه قليلاً، وسألبسه كما في الصورة، وأقدّم له مالاً وأقول له: «الشارع الفلاني، الرقم الفلاني، اسأل عن فلانة، وقدّم إليها بنفسك. ولا تقرف، فأنا الذي يدفع، نم معها. قل لها كلّ العذوبات التي يقولها الرجال للنساء والتي لم تسمعها قطّ، المخلوقة المسكينة. أقسم لها أنّك ستتزوّجها. قدّم لها قليلاً من اللذّة، للتعيسة، من تلك اللذّة التي تعرفها النعاج، بل حتى السلاحف وعشاريّات الأرجل».

وإذا جاءت أحيانًا نعجة عجوز من نوع بوبولينتنا، لا يرضى أيّ إنسان بأن يعزّيها، حتى لو دُفع له ذهب العالم كلّه، فإنّني سأرسم عند ذاك إشارة الصليب، وسآخذ القضيّة على عاتقي شخصيًّا، أنا، مدير الوكالة. وقد تسمع عندئذٍ الحمقى يقولون: «انظروا إلى هذا! يا له من فاسق عجوز! أليست له عينان ليرى، ولا أنف ليشمّ؟ ـ نعم، يا عصابة الحمير، عندي عينان! نعم، يا من لا قلوب لكم، عندي أنف! لكنْ عندي أيضًا قلب، وإنّني لأشفق عليها! وعندما يكون للإنسان قلب، فقد تكون عنده كلّ

العيون وكلّ الأنوف التي يريد، لكنّه يلقي بها جميعًا أدراج الرياح!

وعندما أصبح عاجزًا تمامًا، أنا أيضًا، بسبب جنون الشباب، وألقي بسلاحي، فإنّ القدّيس بطرس، حامل مفاتيح الجنّة، سيفتح لي الباب ويقول: «ادخل، أيّها المسكين زوربا، ادخل، أيّها الشهيد الكبير زوربا، اذهب لترقد جانب أخيك زوس! استرح، أيّها الشجاع، فقد تعبت فوق الأرض كثيرًا، إليك بركتي!».

كان زوربا يتكلّم، وخياله ينصب أفخاخًا يقع فيها هو نفسه. وأخذ يؤمن شيئًا فشيئًا بحكاياته، لاهيًا منفعلاً. وعندما مررنا أمام تينة الآنسة، تنهّد، وقال وهو يمدّ ذراعه كأنّه يقسم قسمًا:

ـ لا تهتمّي، يا بوبولينتي، يا مركبي الهرم المعذّب! لا تهتمّي، فسأعزّيك! لقد تخلّت عنك الدول الأربع الكبرى، وتخلّى عنك الإله الطيّب، أمّا أنا!، زوربا، فلن أتخلّى عنك!

كان منتصف الليل قد مضى عندما وصلنا إلى شاطئنا. وهبّت الرّيح. من هناك، من أفريقيا، تأتي ريح الجنوب الحارّة التي تنفخ الأشجار والكروم، وأثداء كريت. إنّ الجزيرة كلّها، وهي ممدّدة على البحر، تتلقّى راجفة نفحات الرّيح الدافئة التي تحرّك النسغ. واختلط زوس وزوربا وريح الجنوب، ولمحت، بوضوح كبير، خلال العتمة، وجهًا ثقيلاً، لرجل أسود اللحية، أسود الشعر يلمع كالزيت، ينحني بشفتين حمراوين دافئتين على السيّدة هورتانس، الأرض.

ـ ٢٠ ـ

ما إن وصلنا حتى استلقينا في فراشينا. وفرك زوربا يديه مسرورًا.

ـ لقد كان حسنًا يومنا، أيّها الرئيس! مليئًا تمامًا. فكّر قليلاً: ففي هذا الصباح كنّا عند الشيطان الأخضر، في الدير، ولعبنا على رئيسه، لتحلّ لعنته علينا! وبعد ذلك نزلنا من جديد، ووجدنا السيّدة بوبولينا، وخطبنا. انظر هو ذا الخاتم. من الذهب الممتاز. إنّها تقول إنّه لا يزال عندها ليرتان إنجليزيّتان من تلك الليرات التي قدّمها لها الأميرال الإنجليزي في نهاية القرن الماضي. إنّها تحتفظ بهما من أجل دفنها، لكنّها فضّلت أن تقدّمهما للصائغ كي يصنع منهما خاتمين. إنّ الإنسان للغز غامض حقًّا!

قلت:

ـ نم، يا زوربا، هدِّئ من روعك! هذا يكفي اليوم. هذا يكفي اليوم. غدًا أمامنا احتفال كبير: سنغرس أوّل وتد من أوتاد المصعد. لقد طلبت من الأب إسطفان أن يأتي.

ـ حسنًا فعلت، أيّها الرئيس، فهذا مفيد! ليأتِ الكاهن الذي تشبه لحيته لحية التيس، وليأتِ أيضًا أعيان القرية، بل سنوزّع أيضًا شموعًا صغيرة وسيشعلونها. إنّ هذه المظاهر تخلق أثرًا طيّبًا، سيكون في مصلحة أمورنا. يجب ألّا ننظر إلى ما أفعله أنا، لأنّ لي إلٰهًا شخصيًّا وشيطانًا شخصيًّا، لكنّ الناس...

وأخذ يضحك. إنّه لا يستطيع النوم، ما دام عقله يغلي. وقال بعد فترة:

ـ هيّا! يا جدِّي الشيخ، لتكن وطأة الأرض خفيفة عليه! لقد كان فاسقًا، هو أيضًا، مثلي تمامًا، ومع ذلك فإنّ الخبيث الهرم ذهب إلى القبر المقدّس، وأصبح حاجًّا، والله يعلم لأيّ غرض! وعندما عاد إلى القرية، قال له أحد شركائه، وكان إنسانًا يسرق النعاج، لم يقم في حياته بأيّ عمل نظيف: «إذن، أيّها الشريك، ألم تأتِ بقطعة من صليب القبر المقدَّس؟ ـ وكيف لا آتي بها! قل يا شريكي المحتال، أتريدني أن أنساك، أنت؟ تعال هذا المساء إلى المنزل، وجئ معك بالكاهن ليمنح بركته وسأعطيك القطعة. جئ أيضًا بخنزير صغير محمّر، وبخمر، إنّنا سنحتفل».

وعند المساء، عاد جدِّي إلى بيته. وقصّ من بابه الذي كان منخورًا بالسوس قطعة صغيرة من الخشب في حجم حبّة أرزّ، وغلّفها في قطعة من القطن، وصبّ فوقها نقطة زيت، وراح ينتظر. وبعد فترة، جاء الشريك مع الكاهن، والخنزير الصغير والخمر. وأخرج الكاهن مرشّته ومنح بركته. وأخذ الشريك قطعة الخشب الثمينة، ثم ارتموا على الخنزير. حسنًا، قد تصدّقني، أيّها الرئيس، إذا شئت! لقد خرّ الشريك ساجدًا أمام قطعة الخشب، ثم علّقها في عنقه، ومنذ ذلك اليوم أصبح إنسانًا آخر. لقد تبدّل كلّيّة. فمضى إلى الجبل، وانضمّ إلى «الإرماتوليّين» و«الكلفتيّين»، وأحرق قرى الأتراك. كان يخترق، ببسالة، سيل الرصاص. ولماذا يخاف؟ إنّ معه قطعة من الصليب المقدّس، والرصاص لن يستطيع أن يخترقه.

وانفجر زوربا ضاحكًا، وقال:

ـ الفكرة هي كلّ شيء. أعندك إيمان؟ إذن فإنّ قطعة من باب قديم تصبح رفاتًا مقدّسًا. ليس لديك إيمان؟ إنّ الصليب المقدّس كلّه يصبح بابًا قديمًا.

إنّني أعجب بهذا الرجل الذي يعمل عقله بمثل هذا الوثوق وهذه الجرأة، والذي تقدح نفسه شررًا، من أيّ مكان تُمسّ فيه.

ـ هل ذهبت أحيانًا إلى الحرب. يا زوربا؟

فأجاب مقطّبًا:

ـ وهل أعرف؟ إنّني لا أذكر. أيّة حرب؟

ـ حسنًا، أريد أن أقول هل ذهبت لتقاتل من أجل الوطن؟

ـ ما رأيك لو تحدّثنا عن أمور أخرى؟ سخافات ماضية، سخافات منسيّة.

ـ أتدّعي ذلك سخافات يا زوربا؟ ألا تخجل؟ أهكذا تتحدّث عن الوطن؟

رفع زوربا رأسه ونظر إليّ. كنت مستلقيًا على فراشي، ومصباح الزيت يشتعل فوقي. وحدّق فيّ مليًّا بقسوة، ثم قال أخيرًا وهو يمسك شاربيه بكلتا يديه:

ـ على الرّغم من احترامي لك، فأنت ساذج ومدّعٍ أيّها الرئيس... كلّ ما أقوله لك، تأخذه على سبيل المزاح.

فقلت محتجًّا:

ـ كيف؟ إنّني أفهم جيّدًا، يا زوربا!

ـ نعم، إنّك تفهم برأسك. إنّك تقول: «هذا عادل، وهذا غير عادل. هذا هكذا، أو هذا ليس هكذا. أنت محقّ أو أنت مخطئ». لكن إلى أين يؤدّي بنا هذا؟ إنّني ألاحظ، عندما تتحدّث، ذراعيك وصدرك، ما الذي تفعله؟ إنّها تظلّ صامتة. إنّها لا تقول شيئًا. وكأنْ ليس فيها نقطة دم واحدة. إذن، فبِمَ تريد أن تفهم؟ برأسك؟ بفّ!

فهتفت كي أثيره:

ـ هيّا، تكلّم بوضوح، يا زوربا، لا تحاول التملّص! أعتقد أنّك لا تشغل نفسك كثيرًا من أجل الوطن، أليس كذلك، أيّها الصعلوك!

فغضب ووجّه إلى الحائط ضربة بقدمه رنّت لها صفائح التنك. وقال بغيظ:

ـ لقد طرّزت بشعري، أنا كما تراني، كنيسة القدّيسة صوفيا فوق قطعة

قماش، وحملتها، معلّقة في عنقي، متدلّية على صدري، كذخيرة. لقد طرّزتها، يا صديقي، بهاتين اليدين الغليظتين، وبهذه الشعرات التي كانت هنا سوداء كالفحم. لقد كنت أتجوّل، أنا الذي يحدّثك، مع بافلو ميلاس[1] في جبال ماسيدونيا ـ وقد كنت ماردًا تزيد قامتي على ارتفاع هذا الكوخ ـ بزيّي القومي، وطربوشي الأحمر، وسلسلة ساعتي الفضّيّة، وذخائري، وسيفي، وحزام رصاصي، وغدّاراتي. كنت مغطّى بالحديد، والفضّة، والمسامير، وعندما أمشيء كان كلّ ذلك يحتكّ بعضه ببعض وكأنّ جيشًا كاملاً يمرّ! تطلّع، انظر، انظر... انظر.

وفتح قميصه وفكّ بنطاله، وقال بلهجة آمرة:

ـ هاتِ الضوء.

فقرّبت المصباح من الجسد النحيف الأسمر: ندوب عميقة، آثار رصاص، وضربات سيف، لقد كان جسده مصفاة حقيقيّة.

ـ انظر الآن من الجهة الأخرى!

واستدار وأراني ظهره:

ـ أترى، من الخلف، حتى ولا خدش. أتفهم؟ والآن أبعد المصباح.

وزمجر غاضبًا:

ـ سخافات! عار! يا صديقي، متى سيصبح الإنسان إنسانًا حقًّا؟ إنّنا نرتدي السراويل، والياقات الأنيقة، والقبّعات، لكنّنا نظلّ بغالاً، ذئابًا، ثعالب، خنازير. إنّنا، على ما يبدو، على صورة الله، من؟ نحن؟ يا للنكتة!

كان يتحدّث وكأنّ ذكريات مرعبة تعود إلى ذهنه، فيستشيط غضبًا، ويتمتم من بين أسنانه المهتزّة الجوفاء بكلمات غير مفهومة.

ونهض، وتناول إبريق الماء، وشرب جرعات كبيرة، ممّا أدخل الرطوبة إلى جسده، فهدأ قليلاً، وقال:

---

(١) بافلو ميلاس: ضابط يوناني اشتهر في حربه ضدّ عصابات البلغار.

ـ أنّى لمستني صرخت. إنّني لست إلّا جراحًا وحدبات، وأنت، تحدّثني عن النساء! أنا، عندما شعرت بأنّني رجل عن حقّ، كففت عن الالتفات للنظر إليهنّ. إنّني ألمسهنّ لمدّة دقيقة، هكذا، بشكل عابر، مثل ديك، ثم أمضي. إنّني أقول في نفسي: «يا للمحتالات القذرات، إنّهنّ يردن أن يمتصصن كلّ قوّتي، أفٍّ! الأحرى بهنّ أن تعلّق مشانقهنّ!».

إذن، فقد حملت بندقيّتي ومضيت! ودخلت المقاومة كجندي متطوّع غير نظامي. وذات يوم، وصلت، فجرًا، إلى قرية بلغاريا واختبأت في إسطبل، في منزل الكاهن البلغاري بالذات الذي كان، هو أيضًا، جنديًا شرسًا من رجال العصابات، وحشًا دمويًا. كان. في الليل، يخلع بذلته الكهنوتيّة، ويرتدي ثياب راعٍ، ويأخذ سلاحه ويتغلغل في القرى اليونانيّة. وعند الصباح، يعود قبل الفَجر، ملوّثًا بالوحل والدم، ثم يقوم بقدّاسه. وكان، قبل بضعة أيّام من وصولي، قد قتل معلّم مدرسة يونانيًا في فراشه، أثناء نومه. إذن، لقد دخلت إلى إسطبل الكاهن، واستلقيت على ظهري فوق الروث، وراء بقرتين ورحت أنتظر. وعند المساء، دخل الكاهن ليقدّم علفًا لبقرتيه. فألقيت بنفسي عليه وذبحته كخروف، وقطعت أذنه ووضعتها في جيبي. فقد كنت أجمع الآذان البلغاريّة، كما ترى، ولهذا قطعت أذني الكاهن وانسحبت.

بعد عدّة أيّام، عدت إلى القرية نفسها، في وهج الظهيرة، متظاهرًا بأنّني بائع جوّال. كنت قد تركت سلاحي في الجبل، ونزلت لأشتري خبزًا وملحًا وأحذية للرفاق. وأمام أحد المنازل، رأيت خمسة أطفال، في ثياب سود، عراة الأقدام، يتماسكون بالأيدي، وهم يتسوّلون. ثلاث بنات وصبيّان. لم يكن أكبرهم ليجاوز العاشرة، وأصغرهم كان لا يزال طفلاً رضيعًا. وكانت كبرى البنات تحمله بين ذراعيها، تقبّله وتلاطفه كي تمنعه عن البكاء. لست أدري كيف خطر لي، ولا شكّ أنّه كان إلهامًا إلٰهيًا، أن أقترب منهم.

وسألتهم بالبلغاريّة:

ـ أطفال من أنتم، يا صغاري؟

فرفع أكبر الصبيان رأسه الصغير، وأجابني:

ـ أولاد الكاهن الذي ذبحوه منذ عدّة أيّام في الإسطبل.

واغرورقت عيناي بالدموع. وأخذت الأرض تدور كرحى الطاحون. فاستندت إلى الجدار وتوقّفت عن دورانها. وقلت:

ـ اقتربوا، يا أطفال، تعالوا قربي.

وأخرجت كيس نقودي من حزامي، وكان مليئًا بالليرات التركيّة والمجيديّات. وركعت على ركبتيّ وأفرغته على الأرض. وصحت:

ـ هيّا، خذوا! خذوا! خذوا!

وارتمى الأطفال على الأرض وأخذوا يجمعون الليرات والمجيديّات. وأنا أصيح:

ـ إنّها لكم، إنّها لكم، خذوها جميعًا!

ثم تركت لهم سلّتي مع كلّ ما معي من حاجات:

ـ كلّ هذا أيضًا، إنّه لكم، خذوا!

وسرعان ما تمالكت نفسي، وخرجت من القرية، وفتحت قميصي، ونزعت القدّيسة صوفيا التي طرّزتها، ومزقّتها إربًا، وألقيت بها في الهواء ومضيت... وأنا لا أزال أجري...

واستند زوربا إلى الحائط والتفت إليّ، وقال:

ـ وهكذا تخلّصت...

ـ تخلّصت من الوطن؟

فأجاب بصوت حازم وهادئ:

ـ نعم، من الوطن.

ثم بعد فترة:

ـ تخلّصت من الوطن، تخلّصت من الكاهن، تخلّصت من المال. إنّني أغربل نفسي. كلّما تقدّم بي العمر، غربلت نفسي أكثر. إنّني أتطهّر. كيف أقول لك؟ إنّني أتحرّر، إنّني أصبح إنسانًا.

كانت عينا زوربا تلمعان، وفمه العريض يضحك من السرور. وبعد أن لبث صامتًا، عاود الحديث. كان قلبه يطفح، ولم يعد يملك السيطرة عليه:

ـ مرّ وقت كنت أقول فيه: هذا تركي، وهذا بلغاري، وهذا يوناني. لقد قمت، أنا، من أجل الوطن، بأمور يقشعرّ لها شعر رأسك، أيّها الرئيس. لقد ذبحت وسرقت، وأحرقت قرى، واغتصبت نساء، وأفنيت أسرًا. لماذا؟ بحجّة أنّهم بلغار، وأتراك. وغالبًا ما كنت أقول لنفسي وأنا أشتمها: أفٍّ! اذهب إلى الجحيم، أيّها الأحمق! أمّا الآن فانظر إلى ما أقوله لنفسي: هذا رجل شجاع، وذاك شخص قذر. قد يكون بلغاريًّا أو تركيًّا، إنّني لا أميّز بينهما. هل هو طيّب؟ هل هو سيّئ؟ هذا كلّ ما أطلبه اليوم. وحتى هذا، الآن بعدما شخت، أقسم لك بالخبز الذي آكله، يبدو لي أنّني سأبدأ بعدم المطالبة به البتّة يا صديقي، سواء أكانوا طيّبين أم أشرارًا، فإنّني أرثي لهم جميعًا. عندما أرى إنسانًا، حتى ولو تظاهرت بعدم المبالاة، فإنّ قلبي يحنّ له. إليك ما أقوله لنفسي: إنّ هذا المسكين أيضًا يأكل، ويشرب، ويحبّ، ويخاف، وهو أيضًا له إلٰهه وشيطانه، هو أيضًا سيلقي سلاحه ويرقد، جثّة متصلّبة، تحت الأرض، وسيلتهمه الدود. يا للمسكين! إنّنا جميعًا إخوة. كلّنا لحم للدود!

وإذا كانت امرأة، آه! إنّني أؤكّد لك، عندئذ، أنّ الرغبة في البكاء لتتملّكني. إنّ سيادتك لتسخر منّي كلّ لحظة معيّرًا إيّاي بأنّني أحبّ النساء. كيف تريدني ألّا أحبّهنّ، يا صاح؟ إنّهنّ مخلوقات ضعيفة، لا يعرفن ماذا يفعلن، ويهبنك أنفسهنّ بدون مقاومة بمجرّد أن تلمسهنّ من صدورهنّ.

ذات مرّة، دخلت أيضًا إلى قرية بلغاريّة. فرآني مختارها، وكان يونانيًّا، نذلاً، فوشى بي، فحاصروا المنزل الذي نزلت فيه. واندفعت إلى

السطح، وانزلقت من سطح إلى آخر، وثبًا، مثل قطّة، مستهديًا بضوء القمر. لكنّهم لمحوا ظلّي، فتسلّقوا الأسطح وأخذوا يطلقون الرصاص. عندئذ، ماذا فعلت؟ ألقيت بنفسي في باجة. فوجدت فيها بلغاريّة راقدة، بقميصها، فرأتني، وفتحت فمها لتصرخ، لكنّني مددت ذراعي هامسًا: «الرحمة! الرحمة! أمتي!» وأمسكت صدرها. فشحبت المرأة وخارت عزيمتها، وقالت لي بصوت شديد الخفوت:

ـ ادخل، ادخل، حتى لا يرونا...

فدخلت، وشدّت على يدي قائلة: «أأنت يوناني؟ ـ نعم، يوناني، فلا تشي بي». وأخذتها من خصرها، فلم تقل شيئًا. فنمت معها، وكان قلبي يرتعش من العذوبة، وأنا أقول لنفسي: «انظر، انظر، يا زوربا اللعين، إنّها امرأة، إنّها مخلوق إنساني! من هي، هذه؟ بلغاريّة، يونانيّة، أفريقيّة؟ لا فرق، أيّها العجوز! إنّها مخلوق بشري، مخلوق بشري له فم، وثديان، وهو يحبّ. ألا تخجل من القتل؟ أيّها النذل!».

هذا ما كنت أقوله لنفسي ما دمت معها، في حرارتها، لكنّ الوطن لم يكن ليتركني في سلام. وعند الصباح مضيت بثياب قدّمتها لي البلغاريّة، التي كانت أرملة. لقد أخرجت من صندوق الأمتعة ثياب زوجها المرحوم وقدّمتها لي، وقبّلت ركبتي وهي تتضرّع بأن أعود.

نعم، نعم، في الليلة التالية، عدت. كنت وطنيًا، أتفهم، أي حيوانًا متوحّشًا. عدت مع صحيفة بترول وأشعلت النار في القرية. ولا بدّ أنّها احترقت، هي أيضًا، المسكينة. كانت تدعى لودميلا.

وتنهّد زوربا وأشعل سيجارة، واستنشق نفسين أو ثلاثة، ثم رماها.

ـ إنّك تقول: الوطن... أتصدّق الهذر الذي ترويه كتبك؟ عليك أن تصدّقني أنا. ما دامت هناك أوطان، فإنّ الإنسان سيبقى حيوانًا، حيوانًا مفترسًا... نعم، ليتبارك الله! لقد تخلّصت، وانتهى الأمر! وأنت؟

لم أجب بشيء. إنّني أحسد هذا الرجل الواقف هنا، أمامي، والذي

عاش مع اللحم والدم ـ وهو يحارب، ويقتل، ويقبّل ـ كلّ ما كنت أحاول، أنا، أن أعرفه مع الورق والحبر. إنّ كلّ المشاكل التي كنت أحاول أن أحلّها، عقدة عقدة، في عزلتي وأنا مسمّر على مقعدي، قد حلّها هذا الرجل. وسط الجبال، في الهواء الطلق، بسيفه.

وأغلقت عينيّ، وقد استحال عليّ أن أجد لنفسي أيّ عزاء. وسألني زوربا سئمًا:

ـ أتنام، أيّها الرئيس؟ وأنا، الأحمق، أقف هنا لأحدّثك!

وتمدّد وهو يتمتم، وبعد قليل، سمعته يشخّر.

ولم أستطع، طوال الليل، أن أغلق عينيّ. وملأ عزلتنا بلبل سمعته للمرّة الأولى هذا المساء، بحزن لا يُحتمل، وفجأة أحسست بدموعي تنساب.

وضاقت أنفاسي. ونهضت، عند الفجر، وتأمّلت، من الباب، البحر والأرض. وبدا لي أنّ العالم قد تبدّل خلال ليلة واحدة. وأمامي، على الرمل، كانت ثمّة شتلة صغيرة، بالأمس كانت ما تزال حقيرة وكئيبة، قد اكتست بزهيرات بيضاء صغيرة. وانتشر في الجوّ عبق عذب وبعيد لأشجار الليمون والبرتقال المزهرة. وتقدّمت، وسرت بضع خطوات. وما كنت لأستطيع أن أرتوي من المعجزة التي تتجدّد أبدًا.

وفجأة، سمعت ورائي صيحة فرحة. والتفتّ. كان زوربا، قد نهض، نصف عارٍ، وقفز هو أيضًا إلى الباب، وراح ينظر، باضطراب، إلى الربيع الجديد. واندفع يقول مذهولاً:

ـ ما هذا؟ هذه المعجزة، أيّها الرئيس، هذا الأزرق الذي يتحرّك هناك، كيف يدعى؟ البحر؟ البحر؟ وهذا الذي يرتدي مئزرًا أخضر مزهرًا؟ الأرض؟ من هو الفنّان الذي صنعهما؟ إنّني أقسم لك، أيّها الرئيس، إنّها المرّة الأولى التي أرى فيها هذا.

وأغرورقت عيناه. وهتفت:

ـ إيه! زوربا! هل جننت؟

ـ لِمَ تضحك؟ ألا ترى إذن؟ إنّه السحر، أيّها الرئيس!

واندفع خارجًا، وأخذ يرقص، ويتدحرج على العشب، مثل مهر ربيعي.

وظهرت الشمس. وبسطت راحتيّ كي تتدفّآ. كانت الأغصان تتبرعم، والصدور تنتفخ، والنفس تتفتّح كشجرة، والإنسان يحسّ بأنّ الروح والجسد قد عُجنا من مادّة واحدة.

ونهض زوربا، وقد امتلأ شعره بالندى والتراب، وصاح بي:

ـ بسرعة، أيّها الرئيس! سنلبس ونتزيّن. اليوم، موعد البركة. لن يتأخّر الكاهن والأعيان في القدوم. فإذا ما رأونا معفّرين بالعشب، فأيّ عار بالنسبة للشركة! إذن فلنخرج الياقات الاصطناعيّة وربطات العنق! لنخرج الأقنعة الجدّيّة! لا يهمّ ألّا يكون للإنسان رأس، يكفي أن تكون عنده قبّعة. أيّها الرئيس، إنّ العالم يستحقّ أن نبصق عليه.

ولبسنا، وجاء العمّال، وظهر الأعيان.

ـ كن منطقيًّا، أيّها الرئيس، تمالك نفسك عن الضحك، يجب ألّا نثير سخريّتهم علينا.

كان الكاهن إسطفان يسير في المقدّمة، بثوبه المتّسخ ذي الجيوب العميقة. إنّه يلقي في هذه الهاويات بكلّ ما يقدّم إليه عندما يمنح بركته في الدفن، والزواج، والعماد، فتمتلئ بالزبيب، والحلوى، وفطائر الجبنة، والقثّاء، وقطع اللحم، والملبّس. وعند المساء تضع العجوز بابادیا، زوجته، نظّارتيها على أنفها، وتصنّف كلّ نوع على حدة، وهي تقضم.

ووراء الكاهن إسطفان، الأعيان: كوندومانوليو، صاحب المقهى الذي يعرف العالم، لأنّه ذهب إلى مدينة كانيه ورأى الأمير جورج، والعمّ أنانيوستي، بقميصه الأبيض الصارخ، العريض الأكمام، وبهدوئه وابتسامته. ثم المعلّم بعصاه، ووقاره وجدّيّته، وأخيرًا مَافراندوني الذي

كان يتقدّم بمشيته البطيئة الثقيلة. وكان يرتدي قميصًا أسود، وينتعل حذاءين أسودين، ويعصب رأسه بمنديل أسود. وسلّم بطرف شفتيه، بمرارة وعنف، ووقف جانبًا، مسندًا ظهره إلى الحائط.

وقال زوربا بلهجة احتفاليّة:

ـ باسم سيّدنا يسوع المسيح!

وسار في رأس الموكب وتبعه الجميع في انقياد ديني.

إنّ ذكريات سحيقة القدم عن الاحتفالات السحريّة تستيقظ في صدور هؤلاء الفلّاحين. إنّ أعينهم جميعًا تحدّق بالكاهن وكأنّها تنتظر أن تراه يواجه قوى خفيّة ويطردها. لقد مرَّ على ذلك آلاف السنين، عندما كان الساحر يرفع ذراعيه، ويرشّ الهواء بالماء المقدَّس ويتمتم بكلمات غامضة وفائقة القوّة، فتهرب الشياطين الخبيثة، بينما تسرع الأرواح الطيّبة، وهي تخرج من المياه والأرض والهواء، لمساعدة الإنسان.

ووصلنا إلى الثقب الذي حُفر قرب البحر ليغرس فيه أوّل وتد من أوتاد المصعد. ورفع العمّال جذع صنوبرة ضخمة وغرسوها مستقيمة في الثقب. وارتدى الكاهن إسطفان بطرشيله، وأخذ مرشّته، وبدأ وهو ينظر إلى الوتد يترنّم بالابتهالات: «ليثبت فوق صخرة متينة، فلا يستطيع الريح والماء أن يزعزعاه... آمين!».

ودمدم زوربا وهو يرسم إشارة الصليب:

ـ آمين!

وتمتم الأعيان:

ـ آمين!

وقال العمّال أخيرًا:

ـ آمين!

وقال الكاهن إسطفان متمنّيًا:

ـ ليبارك الله أعمالكم، ويمنحكم خيرات إبراهيم وإسحق!

ودسَّ زوربا في يده ورقة ماليّة. وقال الكاهن مسرورًا:

ـ لتحلّ عليك بركتي!

وعدنا إلى الكوخ حيث قدَّم زوربا خمرًا ومقبّلات الصوم: سراطين مشويّة، وسبيدجًا مقليًّا، وفولاً مغمّسًا، وزيتونًا. وبعد ذلك عاد المحتفلون إلى بيوتهم ببطء، على طول الشاطئ. إنّ الاحتفال السحري قد انتهى.

وقال زوربا وهو يفرك يديه:

ـ لقد أحسنّا التصرّف!

وخلع ثيابه، وارتدى ملابس العمل، وأخذ رفشًا، وصاح بالعمّال:

ـ هيّا، أيّها الرفاق! ارسموا إشارة الصليب، وإلى الأمام!

وطوال النهار لم يرفع زوربا رأسه. اشتغل بحماسة شديدة. وراح العمّال يحفرون، كلّ خمسين مترًا، ثقوبًا، ويغرسون فيها الأوتاد، متقدّمين بخطّ مستقيم نحو قمّة الجبل. وكان زوربا يقيس، ويحسب، ويصدر الأوامر. لم يأكل، ولم يدخّن، ولم يفه بحرف واحد طوال النهار. كان منصرفًا بكلّيّته إلى العمل.

كان يقول لي أحيانًا:

ـ إنّ الإنسان لا يستطيع أن يعبِّر إلّا عن نصف أفكاره فقط، لأنّه لا يعمل إلّا نصف عمله فقط. إنّ العالم موجود في هذه الحالة اليائسة، لأنّ الإنسان نصف فاضل، أو نصف شرّير. اذهب حتى النهاية، ارمِ بعيدًا، ولا تخف، عندئذٍ تنتصر. إنَّ الإله الطيّب يكره نصف الشيطان مئة مرَّة أكثر من كرهه من هو أكثر من شيطان!

ومساءً، عندما عاد من العمل، استلقى على الرمل منهكًا من التعب، وقال:

ـ هنا سأنام، وبانتظار أن يطلع النهار ونعود إلى العمل، سأضع فرقًا للعمل ليلاً.

ـ لكن لِمَ هذه العجلة كلّها، يا زوربا؟

فتردّد قليلاً وقال:

ـ لماذا؟ حسنًا! أريد أن أرى إذا كنت قد وجدت الميل الضروري. لو أخطأت، أيّها الرئيس، فإنّنا هالكون. كلّما أسرعت في معرفته، كانت الفائدة أكبر.

وأكل بسرعة، وشراهة. وشيئًا فشيئًا، أخذ الشاطئ يردّد صدى شخيره. ولبثت، أنا، مستيقظًا فترة طويلة، أتتبّع النجوم في السماء. كنت أرى السماء كلّها تنتقل ببطء مع كلّ بروجها، وكانت جمجمتي تنتقل، هي أيضًا، وكأنّها قبّة مراقبة، في الوقت نفسه الذي تنتقل فيه النجوم. «انظر إلى سير الكواكب وكأنّك تدور معها...». إنّ هذه الجملة التي قالها «مارك ـ أوريل»(1) قد ملأت قلبي بالألحان المتناغمة.

---

(1) مارك أوريل إمبراطور روماني حكم بين عامي ١٦١ ـ ١٨٠. كان يحبّ الفلسفة والأدب كثيرًا.

ـ ٢٢ ـ

جاء يوم الفصح، وتجمَّل زوربا. فارتدى جواربه الصوفيّة الغليظة التي بلون الباذنجان، والتي حاكتها له، كما يقول، إحدى صديقاته الماسيدونيّات، وراح يذهب ويجيء، قلقًا، قرب الساحل، ويضع يده فوق حاجبيه الكثيفين ليمنع عن عينيه الشمس، ويتطلّع بعيدًا، نحو القرية.

ـ لقد تأخّرت، الفقمة العجوز، لقد تأخّرت، القذرة، لقد تأخّرت، الراية البالية الممزّقة...

وطارت فراشة وليدة، وأرادت أن تحطّ على شاربي زوربا. لكنّه تدغدغ، ونفخ من منخريه، فطارت الفراشة بهدوء، وضاعت في النور.

كنّا ننتظر السيّدة هورتانس، في ذلك اليوم، لنحتفل بالفصح معها. وكنّا قد شوينا حملاً على السفّود، ومددنا سماطًا أبيض على الرمل، وصبغنا بيضًا. لقد قرّرنا، بشيء من المزاح وبشيء من الانفعال، أن نعدّ لها، في ذلك اليوم، استقبالاً حافلاً. لقد كانت لجنّيّتنا المترهّلة، المعطّرة، المنتنة قليلاً، فوق هذا الشاطئ المنعزل، جاذبيّة غريبة علينا. فعندما لا تكون معنا، كان ينقصنا شيء ما: رائحة ماء الكولونيا، لطخة حمراء، اهتزاز متأرجح، متبختر، مثل اهتزاز بطّة، صوت مبحوح وعينان حادّتان مغرورقتان.

لقد قطعنا إذن أغصان الآس والغار، ونصبنا قوس نصر لتمرّ تحته. وغرسنا فوق القوس أربعة أعلام ـ إنجلترا، فرنسا، إيطاليا، روسيا ـ وفي

الوسط، فوق كلّ شيء، راية بيضاء طويلة لها عصائب زرق. بالطبع لم يكن عندنا مدفع، لكنّنا قرّرنا أن نقف على التلّ ونطلق البنادق التي أعارونا إيّاها، ما إن تتهادى فقمتنا بطلعتها المتبخترة على الشاطئ، كي تبعث فوق هذا الشاطئ المنعزل أمجادها الماضية، كي تتوهّم المسكينة، هي أيضًا، قليلاً، وتتصوّر أنّها عادت امرأة شابّة، حمراء الشعر، ناهدة الصدر، في نعلين لامعتين وجوارب حريريّة. وماذا ستكون قيمة بعث المسيح إذا لم تكن إشارة لبعث الشباب والفرح فينا من جديد؟ لعودة غانية عجوز إلى سنيها العشرين؟

كان زوربا يدمدم كلّ لحظة وهو يرفع جواربه الباذنجانيّة اللون التي كانت تتهدّل:

ـ لقد تأخّرت، الفقمة العجوز، لقد تأخّرت، القذرة، لقد تأخّرت الراية البالية الممزّقة...

ـ تعال، اجلس، يا زوربا! تعال دخّن سيجارة تحت ظلّ شجرة الخرنوب. إنّها لن تتأخّر في المجيء.

وألقى نظرة أخيرة مليئة بالانتظار نحو طريق القرية وجاء ليجلس تحت شجرة الخرنوب. واقتربت الظهيرة، وكان الجوّ حارًّا. ومن بعيد كانت تُسمع أجراس الفصح، فرحة، قويّة. ومن حين لحين، كانت الريح تحمل إلينا ألحان القيثارة الكريتيّة، والقرية كلّها تضجّ كخليّة نحل في الربيع.

وهزّ زوربا رأسه. وقال:

ـ لقد انتهى ذلك الوقت الذي كانت فيه روحي تُبعث في كلّ عيد فصح مع بعث المسيح، لقد انتهى. والآن، إنّ جسدي هو الذي يُبعث فقط... ثمّة من يدفع لحفلة شرب، ثم يأتي دور غيره، ويقولون لي خُذ هذه اللقمة الصغيرة، وتلك أيضًا، وعندئذ أملأ نفسي بغذاء أوفر، وألذّ، لا يتحوّل كلّه إلى قاذورات. ثمّة شيء يبقى، شيء ينقذ ويصبح مزاجًا طيّبًا، ورقصًا، وأغاني، وخصامًا، وهذا الشيء هو الذي أدعوه بعثًا.

ونهض، وراقب الأفق، وقطّب حاجبيه، وقال:

ـ ثمّة غلام قادم راكضًا.

واندفع لملاقاة الرسول.

وانتصب الصبيّ على أطراف أصابعه، وهمس بشيء ما في أذن زوربا الذي وثب، غاضبًا وزمجر:

ـ مريضة؟ مريضة. اغرب عن وجهي أو أحطّم وجهك!

والتفت نحوي:

ـ أيّها الرئيس، سأثب إلى القرية لأرى ما الذي حدث لتلك الفقمة العجوز.. صبرًا قليلاً. أعطني بيضتين حمراوين. فسنكسرهما معًا. سأعود!

ووضع البيضتين الحمراوين في جيبه، ورفع جواربه الباذنجانيّة ومضى.

نزلت من فوق التلّ، وتمدّدت على الحصى الندي. كان ثمّة نسيم خفيف يهبُّ، والبحر يتجعّد، وحطّ نورسان على الأمواج الصغيرة وأخذا يتأرجحان، وقد أمالا عنقيهما، مستسلمين بلذّة لإيقاع البحر.

كنت أحسُّ، وأنا أحسدهما، بغبطة بطنهما ونضارته. وكنت أفكّر وأنا أنظر إلى النورسين: «ذلك هو الطريق الواجب اتّباعه، أن تجد الإيقاع الأكبر وأن تستسلم له، بثقة».

وبعد ساعة، ظهر زوربا، وهو يداعب شاربيه مسرورًا:

ـ إنّها مصابة ببرد، المسكينة. أمر غير ذي بال. طوال الأيّام الأخيرة، أثناء الأسبوع المقدّس كلّه، كانت تذهب إلى صلوات الليل، على شرفي كما تقول، على الرّغم من كونها فرنجيّة. فأُصيبت بالبرد. لقد حجمتها، ودهنت ظهرها بزيت القنديل، وقدّمت لها قدحًا صغيرًا من الروم، وستغادر غدًا الفراش. يا لها من ضعيفة، كم هي مسلّية: لو سمعتها وهي تهدل مثل حمامة عندما كنت أدلك ظهرها، وكأنّني أدغدغها!

وجلست إلى المائدة وملأ زوربا الأقداح، وقال بحنان:

ـ في صحّتك! وليتأخّر الشيطان، أكثر ما يمكن، في أخذها!

وشربنا وأكلنا فترة لا بأس بها دون أن نتكلّم. كانت الريح تحمل إلينا، مثل طنين النحلة، أصوات القيثارة البعيدة المنفعلة. إنّ المسيح يُبعث على الشرفات، وحمل الفصح وكعكه يتحوّلان إلى أغاني حبّ.

وعندما أكل زوربا مريئًا، وشرب هنيئًا، أرهف أذنه الضخمة المليئة بالشعر وتمتم:

ـ القيثارة... إنّهم يرقصون في القرية!

ونهض فجأة. كانت الخمرة قد صعدت إلى رأسه، وصاح:

ـ قل، ماذا نفعل هنا بمفردنا، مثل العصافير؟ هيّا نرقص! ألا تشفق على الحمل، أنت؟ ستتركه يضيع هكذا؟ هيّا، تعال! ليصبح رقصًا وأغاني! إنّ زوربا قد بُعث!

ـ انتظر، أيّها اللعين زوربا، هل جننت؟

ـ بشرفي، إنّ الأمرين سيّان عندي، أيّها الرئيس، لكنّني أشفق على الحمل، أشفق على البيض الأحمر، وعلى كعك الفصح، وفطائر الجبنة! أقسم لك، لو لم آكل سوى خبز وزيتون، لقلت: «إيه! هيّا إلى النوم، فهل أنا محتاج لأن أحتفل؟» إنّه مجرّد زيتون وخبز، أليس صحيحًا؟ إذن فما الذي تنتظره منهما؟ لكن الآن، إنّه أمر يدعو للأسف، أؤكّد لك، أن يضيع مثل هذا الغداء الدسم! هيّا لنحتفل بالبعث، أيّها الرئيس!

ـ إنّني لست على ما يرام اليوم. اذهب، وارقص عنّي أيضًا!

فأمسكني زوربا من ذراعي وأنهضني:

ـ لقد بُعث المسيح، يا صاح! آه! لو كان لي شبابك! لكنت ألقيت بنفسي في كلّ مكان، وعلى رأسي أوّلاً! في العمل، والخمر، والحبّ، غير خائف الله أو الشيطان. هذا هو الشباب!

ـ إنّه الحمل الذي يتكلّم في داخلك، يا زوربا! لقد أصبح متوحّشًا، لقد تحوّل إلى ذئب!

ـ يا صاح، لقد تحوّل الحمل إلى زوربا، وزوربا هو الذي يحدّثك، أؤكّد لك! أصغ إليّ! وستحكم عليّ فيما بعد. أنا، إنّني سندباد بحري. ليس ذلك لأنّني جبت العالم، ليس لذلك، مطلقًا! لكنّني سرقت، وقتلت، وكذبت، ونمت مع مجموعة من النساء، وانتهكت كلّ الوصايا. كم وصيّة هناك؟ عشر؟ آه! أودّ لو كان هناك عشرون، خمسون، مئة، كي أنتهكها جميعًا! ومع ذلك، لو أنّ الله موجود، لما خفت مطلقًا أن أمثل أمامه، حين يجيء اليوم الموعود. لست أدري كيف أشرح لك كي تفهم. كلّ هذا أعتقد أن لا أهمّيّة له. هل يتنازل الله ويعير اهتمامه دود الأرض ويحاسبه؟ ويغضب، ويثور، لأنّنا خطونا خطوة خاطئة، ودسنا على أنثى الدود من طرفها؟ أو لأنّنا أكلنا لقمة لحم، يوم الجمعة المقدّس؟ أفّ! ما أدعاكم إلى السخرية، أيّها الكهنة المليئون بالحساء!

فقلت له كي أثيره:

ـ حسنًا، يا زوربا، حسنًا. إنّ الله لا يسألك ماذا أكلت، بل ماذا فعلت!

ـ حسنًا، وأنا، أقول لك إنّه لا يسأل ذلك أبدًا! قد تقول لي: وكيف تعرف ذلك، أيّها الجاهل زوربا؟ إنّني أعرفه، إنّني متأكّد، لأنّه لو كان لديّ، أنا، ابنان، أحدهما عاقل، رصين، مقتصد، تقيّ، والآخر خبيث، شره، زير نساء، خارج على القانون، لقبلت بهما كليهما على مائدتي، بالتأكيد، لكنّني، لست أدري لماذا، أفضّل الثاني. ربّما لأنّه سيكون أشبه بي؟ لكن من قال لك إنّني لا أشبه الله الرحيم أكثر من الكاهن إسطفان الذي يمضي أيّامه ولياليه في الركوع وجمع القروش؟

إنّ الإله الرحيم يحتفل بالأعياد، ثم يرتكب المظالم، ويقوم بالحبّ، ويشتغل، ويحبّ الأشياء المستحيلة، مثلي تمامًا. إنّه يأكل ما يعجبه، ويأخذ المرأة التي يريد، إنّك ترى امرأة جميلة كالماء النمير، تمرّ أمامك،

فيهفّ قلبك، لكن فجأة تنفتح الأرض، وتختفي. إلى أين ذهبت؟ من أخذها؟ إذا كانت عاقلة يُقال: لقد أخذها الإلٰه الرحيم. وإذا كانت خاطئة، يُقال: لقد أخذها الشيطان. لكنّني أنا، أيّها الرئيس، أقول لك وأكرّر: إنّ الله والشيطان واحد!

وصمت، وعضضت على شفتي كأنّني أريد أن أمنع الكلمات من الخروج. الكلمات وصيحة كبيرة. وماذا كانت هذه الصيحة ستعني؟ اللعنة، الفرح، اليأس، الخلاص؟ إنّني أجهل ذلك.

وتناول زوربا عصاه، ووضع قبّعته معوجّة قليلاً، بخيلاء، ونظر إليّ مشفقًا، وتحرّكت شفتاه لحظة كأنّه يريد أن يضيف شيئًا ما. لكنّه لم يقل شيئًا واتّجه بخطى سريعة، مرفوع الرأس، نحو القرية.

كنت أرى، على ضوء بعد الظهر الآفل، ظلّه المارد وهو يتحرّك على الحصى ويهزّ عصاه، وانتعش كلّ الشاطئ عند مرور زوربا. وأرهفت أذنيّ، مليًّا، أتلقّط وقع خطاه الذي كان يتلاشى شيئًا فشيئًا. وفجأة، ما إن أحسست نفسي بمفردي، حتى قفزت واثبًا. لماذا؟ كي أذهب إلى أين؟ لم أكن أدري. لم يكن عقلي قد قرّر شيئًا. بل إنّ جسدي هو الذي وثب. إنّه هو، هو بمفرده، الذي اتّخذ قرارًا دون أن يسألني.

وقال بقوّة، وكأنّه يصدر أمرًا:

ـ إلى الأمام!

وانطلقت نحو القرية بخطًى حازمة سريعة. من حين إلى حين، كنت أتوقّف وأتنشّق الربيع. كانت الأرض تعبق بالأقحوان، وكلّما اقتربت من البساتين، جاءتني نفحات من أريج أشجار الليمون والبرتقال، والغار، المزهرة. وفي الغرب، كانت نجمة المساء قد أخذت ترقص فرحة.

كنت أتمتم على الرّغم منيّ بكلمات زوربا وأنا أسير: «البحر، المرأة، الخمر، العمل الشاقّ! أن تلقي برأسك أوّلاً في العمل، والخمر، والحبّ، ولا تخاف الله ولا الشيطان... هذا هو الشباب!». كنت أقول ذلك في

نفسي وأكرّره وكأنّني أريد أن أتشجّع، وأتابع السير.

وفجأة، توقّفت على حين غرّة وكأنّني وصلت إلى المكان الذي أريد. أين؟ ونظرت. كنت واقفًا أمام حديقة الأرملة. وراء سياج القصب والتّين البرّي، كان صوت أنثوي عذب يترنّم. واقتربت، وأزحت أوراق الشجر، تحت شجرة برتقال، كانت تقف امرأة مرتدية السواد، باستثناء عنقها، تقطع الأغصان المزهرة وهي تغنّي. من خلال ظلمة الغسق، كنت ألمح صدرها نصف المكشوف يتلألأ.

وانبهرت أنفاسي. وقلت في نفسي: «إنّها حيوان مفترس، إنّها حيوان مفترس، وهي تعرف ذلك. يا للرجال من مخلوقات مسكينة، مجنونة، هاذرة، بدون مقاومة، عندما يقفون أمامها! إنّها أشبه ببعض الحشرات ـ السرعوفة الراهبة، أو الجرادة، أو العنكبوت ـ النهمة التي لا تشبع أبدًا، والتي تلتهم الذكور عند الفجر».

هل أحسّت الأرملة بوجودي؟ لقد توقّفت فجأة عن الغناء والتفتت. وتصالبت نظراتنا، لمدّة لا تتجاوز لمح البرق. وأحسست بركبتيّ تتخاذلان، وكأنّني رأيت، وراء القصب، نمرة.

وقالت بصوت مخنوق:

ـ من هناك؟

وسحبت منديلها وغطّت صدرها. وغام وجهها.

وكدت أذهب. لكنّ كلمات زوربا ملأت فجأة قلبي. وعادت إليّ قوّتي: «البحر، المرأة، الخمر...».

وأجبت:

ـ إنّني أنا. أنا. افتحي لي!

وما إن لفظت هذه الكلمات، حتى تملّكني الرعب. وكدت من جديد أهرب، لكنّني تمالكت نفسي، خجلاً.

ـ من أنت؟

وخطت خطوة، وببطء وحذر وصمت، مدّت عنقها، وأغلقت عينيها نصف إغلاقة كي ترى بوضوح أكثر، وتقدّمت خطوة أخرى، محنيّة إلى الأمام، مترصّدة.

وفجأة أضاء وجهها. وأخرجت طرف لسانها ولعقت شفتيها.

وقالت بصوت أكثر عذوبة:

ـ الرئيس؟

وتقدّمت خطوة أخرى، متجمّعة على نفسها، مستعدّة للقفز.

وسألت من جديد بصوت مكتوم:

ـ الرئيس؟

ـ نعم.

ـ تعال.

* * *

كان النهار قد طلع. وكان زوربا قد عاد، وجلس يدخّن، أمام الكوخ، وهو ينظر إلى البحر. وكأنّه ينتظرني.

وما إن ظهرت، حتى رفع رأسه ورمقني. واختلج منخراه كما يختلج منخرا الأرنب البرّي. ومدّ عنقه، وتنشّق بقوّة، وكأنّه يستروحني. ودفعة واحدة تهلّل وجهه وكأنّه استنشق فيّ رائحة الأرملة.

ونهض ببطء، وابتسم بكلّ جسده، ومدّ ذراعيه وقال:

ـ بركتي عليك.

واستلقيت، وأغمضت عينيّ وسمعت البحر يتنفّس بهدوء، بإيقاع متناوم، وأحسست بنفسي تصعد وتهبط مثل نورس. وغرقت في النوم وأنا أهتزّ هكذا، ورأيت حلمًا: لمحت زنجيّة ماردة جالسة على الأرض متربّعة، وخُيّل إليّ أنّها معبد يوناني قديم من الغرانيت الأسود. ورحت أدور حولها قلقًا لأجد المدخل. إنّني لم أكن أطول من إصبع قدمها الصغيرة. وفجأة،

وبينما أنا أدور حول كعبها، رأيت بابًا أسود، يشبه مغارة. وسمعت صوتًا خشنًا يقول آمرًا: «ادخل!». ودخلت.

عند الظهر، استيقظت. كانت الشمس، التي دخلت من النافذة، تغرق الأغطية، وترسل أشعّتها بقوّة شديدة على مرآة صغيرة معلّقة على الحائط حتى لتكاد تحطّمها إلى ألف قطعة.

وعاد حلم الزنجيّة المارد إلى خاطري، وكان البحر يتمتم، فأغلقت عينيّ وخُيّل إليّ أنّني سعيد. كان جسدي خفيفًا مرتويًا، مثل حيوان يلعق نفسه، وهو مستلقٍ. تحت الشمس، بعد أن التهم فريسته. وكان فكري، هو أيضًا مثل جسد، يستريح شبعًا، وكأنّه قد وجد للمسائل الممزّقة التي كانت تقلقه حلًّا بسيطًا للغاية.

كان فرح الليلة الماضية كلّه ينبجس من داخلي، ويتضاعف، ويروي بغزارة التراب الذي أنا مصنوع منه. وخُيّل إليّ، وأنا مستلقٍ هكذا، مغلق العينين، أنّ كياني يطقطق ويتّسع. في تلك الليلة، شعرت بوضوح، للمرّة الأولى، أنّ الروح هي أيضًا جسد، وقد تكون أكثر حركة، وأكثر شفافية، وأكثر حرّيّة، لكنّها جسد. وأنّ الجسد هو روح، متناومة قليلاً، أضنتها طرق طويلة وأنهكها إرث ثقيل.

وشعرت بظلّ يسقط فوق. ففتحت عينيّ ولمحت زوربا يقف على العتبة ينظر إليّ مسرورًا.

وقال لي بعذوبة وبحنان والديّ:

ـ لا تستيقظ، يا صغيري! لا تستيقظ... إنّنا لا نزال اليوم أيضًا في عيد، نم!

فقلت وأنا أنهض:

ـ لقد نمت بما فيه الكفاية.

فقال زوربا مبتسمًا:

ـ سأعدّ لك بيضة، تُعيد إليك قواك.

ودون أن أُجيب، أسرعت إلى الشاطئ، وغطست في البحر، وجفّفت نفسي تحت الشمس. ولكنّني كنت لا أزال أشمّ رائحة عذبة نافذة في منخري، وعلى شفتيّ، وفي أطراف أصابعي، رائحة ماء زهر البرتقال، أو زيت الغار الذي تدهن به نساء كريت شعورهنّ.

لقد قطعت بالأمس حزمة من أزهار البرتقال لتحملها هذا المساء إلى المسيح. في اللحظة التي يرقص فيها القرويّون في الساحة تحت أشجار الصفصاف البيضاء والتي تكون فيها الكنيسة مقفرة. وكانت الأيقونة، فوق سريرها، محمّلة بأزهار الليمون، وبين الأزهار تظهر العذراء حزينة، بعينيها اللوزيّتين الكبيرتين.

وجاء زوربا ليضع قربي الفنجان الذي فقس فيه البيضة، وبرتقالتين كبيرتين، وقطعة صغيرة من كعك الفصح. وقدّمها لي بصمت، سعيدًا، كما تعتني الأمّ بولد لها عائد من الحرب. ونظر إليّ بمداعبة وانصرف.

وقال:

ـ سأغرس بضعة أوتاد.

رحت أمضغ بهدوء تحت الشمس، وشعرت بسعادة ماديّة عميقة، وكأنّني أطوف فوق بحر رطب أخضر. لم أكن أسمح لعقلي بأن يسرق هذه النشوة الجسديّة ليعجنها في معجنه ويُحيلها إلى فكر. لقد تركت جسدي كلّه يتمتّع، من قدميه إلى رأسه، مثل حيوان. وكنت أحيانًا أنظر بوجد، حولي، وفي داخلي إلى معجزة العالم، وأقول في نفسي: «ما الذي يجري؟ كيف أمكن أن يصبح العالم متلائمًا إلى هذا الحدّ مع أقدامنا، وأيدينا، ومعدنا؟». ومن جديد، أغلق عينيّ، وأصمت.

وفجأة، نهضت، ودخلت إلى الكوخ، وأخذت مخطوط «بوذا» وفتحته. لقد وصلت إلى نهايته. لقد رفع بوذا، وهو مستلقٍ تحت الشجرة المزهرة، يده وأمر العناصر الخمسة التي تكوّنها ـ التراب، والماء، والنار، والهواء، والفكر ـ بأنْ تنحلّ.

إنّني لم أعد بحاجة إلى وجه قلقي هذا. لقد تجاوزته، وأنهيت خدمتي بالقرب من بوذا. ورفعت يديّ، أنا أيضًا، وأمرت بوذا أن ينحلّ فيّ.

وبسرعة كبيرة، بمعونة الابتهالات الفائقة القدرة، بمعونة الكلمة، غزوت جسده، وروحه، وفكره. وبدون شفقة، كتبت الكلمات الأخيرة، وأطلقت الصيحة الأخيرة، وخطَطت اسمي بقلم أحمر كبير. لقد انتهى الأمر.

وأخذت خيطًا غليظًا وربطت المخطوط بحزم. كنت أحسّ بفرح غريب، وكأنّما يربط يديّ ورجليّ عدوّ مخيف، أو كالمتوحّشين عندما يقيّدون أمواتهم الأعزّاء كي لا يستطيعوا الخروج من قبورهم والتحوّل إلى أشباح.

وجاءت فتاة صغيرة، عارية القدمين، راكضة. كانت ترتدي ثوبًا أصفر، وتمسك بين يديها بقوّة، ببيضة حمراء. وتوقّفت ونظرت إليّ خائفة.

فسألتها مبتسمًا، كي أشجّعها:

ـ ماذا؟ أتريدين شيئًا؟

فشهقت وأجابتني بصوت ضعيف لاهث:

ـ أرسلتني السيّدة لأقول لك أن تأتي. إنّها في فراشها. ألأنت زوربا؟

ـ حسنًا، إنّني قادم.

ونهضت وبدأت في السير. وراحت جلبة القرية تقترب شيئًا فشيئًا: عذوبة قيثارتها، وصراخها، وطلقة بنادقها، وأغانيها المرحة. وعندما أشرفت على الساحة، كان الصبيان والفتيات قد تجمّعوا تحت أشجار الصفصاف التي جدّدت أوراقها وراحوا يستعدّون للرقص. وكان الشيوخ جالسين حولهم. على المقاعد، مسندين ذقونهم بعصيّهم، ينظرون. والعجائز واقفات في المؤخّرة. ووسط الراقصين كان يتربّع عازف القيثارة المشهور، فانوريو، وقد وضع ورود نيسان خلف أذنه. وكان يمسك بيده

اليسرى قيثارته منصوبة على ركبته، وبيده اليمنى يجرّب أوتاره الرنّانة.

وصرخت وأنا أعبر:

ـ المسيح قام!

فأجابتني جلبة فرحة:

ـ حقًا قام!

وألقيت نظرة سريعة. صبيان أشدّاء، نحاف، يرتدون قمصانًا فضفاضة، يعصبون رؤوسهم بمناديل تنسبل أطرافها على جباههم وأصداغهم مثل خصلات مجعّدة. والصبايا بالأطواق الذهبيّة حول أعناقهنّ، وبمناديلهنّ البيضاء المطرّزة، وبأعينهنّ المسبلة، يختلجن انتظارًا.

وسألتني بعض الأصوات:

ـ ألا تتنازل للبقاء معنا، أيّها الرئيس؟

لكنّي كنت قد مضيت.

كانت السيّدة هورتانس مستلقية على سريرها الكبير، وهو قطعة الأثاث الوحيدة التي بقيت لها. وكانت وجنتاها ملتهبتين من الحمّى، وهي تسعل.

وما إن رأتني حتى تنهّدت باكية:

ـ وزوربا، أيّها الشريك، وزوربا؟...

ـ إنّه على غير ما يرام. من اليوم الذي مرضت فيه، مرض هو أيضًا. إنّه يمسك بصورتك وينظر إليها بتنهُّد.

فتمتمت الجنّيّة العجوز وهي تغمض عينيها سعيدة:

ـ تابع... تابع...

ـ لقد أرسلني أسألك إن كنت ترغبين في شيء ما. وقد قال لي إنّه سيأتي بنفسه هذا المساء، على الرّغم من أنّه لا يكاد يستطيع المشي. إنّه لا يطيق فراقك.

ـ تابع، تابع، تابع أيضًا . . .

ـ لقد تلقّى برقيّة من أثينا. إنّ ثياب العرس قد أصبحت جاهزة، وكذلك الأكاليل، وهي الآن في البحر، في طريقها إلينا . . . مع الشموع البيض المحاطة بشرائط ورديّة . . .

ـ تابع، تابع . . .

كان النعاس قد تمكّن منها، وتبدّل تنفّسها، وأخذت تهذي. وكانت الغرفة تعبق برائحة ماء الكولونيا، والأمونياك، والعرق. ومن النافذة المفتوحة، كانت تنفذ رائحة الدجاج وأرانب الباحة، الحادّة.

ونهضت، وانسللت خارج الغرفة. وعند الباب اصطدمت بميميتو. كان يرتدي، في هذا اليوم، قميصًا جديدًا وحذاءين جديدين. وقد وضع خلف أذنه غصن ريحان.

وقلت له:

ـ ميميتو، أسرع إلى قرية كالو، وجئ بالطبيب!

وكان ميميتو قد خلع حذاءيه كي لا يمزّقهما في الطريق، وتأبّطهما تحت ذراعه.

ـ اذهب لرؤية الطبيب، وحيّه من طرفي، وقل له أن يمتطي بغلته وأن يأتي دون تأخير. إنّ السيّدة مريضة جدًّا. وقل له هذا. لقد أصيبت بالبرد، المسكينة، إنّها محمومة، إنّها تموت. قل له هذا. اجرِ!

ـ هوب! هوب! إنّني ذاهب.

وبصق في يديه، وصفّق بهما بفرح، لكنّه لم يتحرّك. وراح ينظر إليّ بغبطة.

ـ اجرِ، أقول لك!

لكنّه ظلّ ساكنًا. وغمزني بعينه، وابتسم ابتسامة شيطانيّة. وقال:

ـ أيّها الرئيس، لقد جئتك بزجاجة ماء زهر البرتقال كهديّة.

وتوقّف لحظة. كان ينتظر أن أسأله من أرسلها، لكنّني بقيت صامتًا.
فقال:
ـ حسنًا، ألا تسأل من أرسلها لك، أيّها الرئيس؟ إنّها تقول: إنّها من أجل أن تضع منها على شعرك كي تطيب رائحته!
ـ اجرِ، بسرعة! اصمت!
وضحك، وبصق من جديد في يديه، وصاح مرّة أخرى:
ـ هوب! هوب! لقد بُعث المسيح!
واختفى.

ـ ٢٣ ـ

تحت أشجار الصفصاف كان الرقص الفصحي يبلغ ذروته. يقوده شابّ قويّ أسمر في العشرين، وجنتاه المكسوَّتان بزغب كثيف تجهلان بعد موسى الحلاقة. وقميصه ينفتح على صدره، عن بقعة سوداء مليئة بالشعر المجعّد. وكان رأسه ملقى إلى الخلف، وقدماه ترفَّان على الأرض كجناحين، ومن حين إلى حين يرمي إحدى الصبايا بنظرة، فيتلألأ بياض عينيه، ساكنًا، قلقًا في سواد وجهه.

وانتشيت مرتعدًا. إنّني عائد من لدن السيّدة هورتانس. وكنت قد استدعيت امرأة لتعتني بها، وها أنا أمضي الآن، مطمئنًّا لأشاهد الكريتيّين يرقصون. واقتربت من العمّ أنانيوستي وجلست قربه على المقعد.

وسألته هامسًا في أذنه:

ـ من هو هذا الفتى الذي يقود الرقص؟

فأخذ العمّ أنانيوستي يضحك، وقال بإعجاب:

ـ إنّه كالملاك الذي يأخذ النفوس، هذا الخبيث. حسنًا! إنّه سيفاكاس، الراعي. طوال العام يحرس قطيعه في الجبال، وينزل فقط في عيد الفصح ليرى الناس ويرقص.

وتنهّد متمتمًا:

ـ آه! لو كان لي شبابه! لو كان لي شبابه، أقسم لك بشرفي، لكنت قدت الهجوم على القسطنطينيّة.

وهزّ الفتى رأسه، وأطلق صيحة وحشيّة، غير إنسانيّة، مثل الكبش عندما يلمح الأنثى، وصرخ:

ـ اعزف، يا فانوريو، اعزف حتى يموت الموت!

كان الموت يموت في كلّ لحظة، ويولد من جديد في كلّ لحظة، منذ آلاف السنين، والشبّان والصبايا يرقصون تحت الأشجار ذات الأوراق الحانية ـ الصفصاف، والصنوبر، والسنديان، والدفلى، والنخيل الرشيق ـ وسيرقصون أيضًا ألوف السنين، والشهوة تتأكّل وجوههم. إنّ الأوجه تتبدّل، وتتغيّر وتعود إلى الأرض، لكنّ وجوهًا أخرى تخرج منها وتحلّ مكانها. ليس هناك سوى راقص واحد، ذي أقنعة لا تحصى، لا يفنى، في العشرين من العمر دومًا.

ورفع الشابّ يده ليفتل شاربيه، لكنّه كان أمرد. وصرخ من جديد:

ـ اعزف! اعزف! يا فانوريو، يا رفيقي، وإلّا انفجرت!

وهزّ عازف القيثارة ذراعه، ورنَّت القيثارة، وحميت الأوتار، وقفز الفتى، وصفّق برجليه ثلاث مرّات في الهواء، على ارتفاع مترين، وأمسك بطرف حذاءيه المنديل الأبيض على رأس جاره، حارس الغابة مانولاكاس.

وتعالت الأصوات:

ـ مرحى، يا سيفاكاس!

وارتعدت الصبايا وغضضن أبصارهنّ.

لكنّ الفتى، بصمت، دون أن ينظر إلى أحد، وبحركة وحشيّة منتظمة، وضع يده اليسرى مقلوبة على خصره النحيف القوي، وراح يرقص، وعيناه تحدِّقان إلى الأرض خجلاً.

وفجأة، توقّف الرقص، وجاء القوّاس العجوز، أندروليو، راكضًا، رافعًا ذراعيه إلى السماء. وصاح وهو يلهث متدلّي اللسان:

ـ الأرملة! الأرملة! الأرملة!

وكان حارس الغابة مانولاكاس من اندفع، مخترقًا حلقة الراقصين. من

الساحة كانت تلمح الكنيسة، في الوادي، وهي لا تزال مزدانة بالآس والغار. وتوقّف الراقصون، وقد تصاعد الدم إلى رؤوسهم، ونهض الشيوخ عن مقاعدهم. وأراح فانوريو القيثارة على ركبتيه، وأخذ من خلف أذنه وردة نيسان واستنشقها.

وصرخ الجميع، وهم يغلون غضبًا:

ـ أين، أيّها الشيخ أندروليو؟ أين هي؟

ـ في الكنيسة، هناك لقد دخلت إليها اللعينة، وهي تحمل باقة من زهر الليمون.

وصاح حارس الغابة وهو يشقّ الطريق:

ـ هيّا، أيّها الرفاق!

وفي تلك اللحظة، ظهرت الأرملة على عتبة الكنيسة، وقد عصبت رأسها بمنديل أسود. ورسمت إشارة الصليب.

وهتفت أصوات من الساحة:

ـ شقيّة! قذرة! مجرمة! إنّ لها الجرأة على الظهور أيضًا! هي التي جلبت العار للقرية!

وأسرع البعض نحو الكنيسة في أثر حارس الغابة، وأخذ آخرون يرمونها بالحجارة، من أعلى. وأصابتها إحدى القذائف في كتفها. وأطلقت صرخة، ووضعت يديها على وجهها، واندفعت، وجسدها منحنٍ إلى الأمام، محاولة الهرب. لكنّ الشبّان كانوا قد وصلوا إلى باب الكنيسة، وانتضى مانولاكاس سكّينه.

وتراجعت الأرملة، وهي تطلق صرخات صغيرة حادّة، وثنت جسمها، وجرت متعثّرة لتحتمي في الكنيسة. ولكنْ، هناك، عند العتبة، كان يقف العجوز مافراندوني، متصالب الذراعين، وهو يمسك بمصراعي الباب.

وقفزت الأرملة إلى اليسار قفزة وتشبّثت بشجرة السرو الموجودة في الساحة وصفّر حجر في الهواء، وأصابها في وجهها، وأطاح بمنديلها.

وانحلّ شعرها وانسبل على كتفيها.

وراحت تصرخ وهي تزداد تشبثًا بالشجرة:

ـ إكرامًا لله! إكرامًا لله!

كانت الصبايا يقفن في الأعلى صفًا واحدًا، يعضضن على مناديلهنّ البيضاء، ويتطلّعن بشراهة. والعجائز يصرخن وهنّ متشبّثات بالأسيجة.

ـ اقتلوها، هيّا! اقتلوها!

وهجم عليها شابّان، وأمسكاها، وتمزّق قميصها الأسود، وتلألأ صدرها أبيض كالثلج. إنّ الدم يتدفّق الآن من أعلى رأسها على جبينها وخدّيها وعنقها.

وكانت تصرخ لاهثة:

ـ إكرامًا لله! إكرامًا لله!

إنّ الدم الذي يتدفّق، والصدر الذي يتلألأ، قد أهاجا الشبّان. وخرجت السكاكين من الأحزمة.

وصاح مانولاكاس:

ـ توقّفوا! إنّها لي!

ورفع مافراندوني، الذي كان لا يزال منتصبًا على عتبة الكنيسة، يده. وتوقّف الجميع. وقال بصوت جليل:

ـ مانولاكاس، إنّ دم ابن عمّك يصرخ. امنحه الراحة!

واندفعت من السياج حيث كنت متسلّقًا، وانقضضت نحو الكنيسة، لكنّ رجلي تعثّرت وسقطت على وجهي.

وفي تلك اللحظة، مرّ سيفاكاس. فانحنى، وأمسكني من جلد ظهري كما تُلتقط القطط وأنهضني على قدميّ. وقال:

ـ ما الذي تحاوله، أنت، أيّها الأرستقراطي السخيف؟ اغرب من هنا.

فقلت له:

ـ ألا تشفق عليها، يا سيفاكاس؟ ارحمها!

فأخذ الجبلي يضحك بوحشيّة وقال:

ـ إنّني لست امرأة حتى تتملّكني الشفقة! إنّني رجل!

وبقفزة وصل إلى باحة الكنيسة حيث تبعته.

كان الجميع يحيطون الآن بالأرملة. صمت ثقيل. لا يسمع فيه إلّا لهاث أنفاس الضحيّة المخنوقة.

ورسم مانولاكاس إشارة الصليب، وتقدّم خطوة، ورفع سكّينه. كانت العجائز، هناك في الأعلى، يصرخن فرحًا. وخفضت الصبايا مناديلهنّ وغطّين وجوههنّ.

ورفعت الأرملة عينيها، ورأت السكّين فوقها، وأنّت كثور. وانهارت على أسفل الشجرة وأدخلت رأسها بين كتفيها. ولعق شعرها الأرض، ولمعت رقبتها البيضاء الناصعة.

وصاح العجوز مافراندوني وهو يرسم إشارة الصليب:

ـ إنّني أطلب عدالة الله!

ولكن في تلك اللحظة بالضبط، تعالى صوت خشن وراءنا:

ـ انزل سكّينك، أيّها القاتل!

والتفت الجميع مذهولين. ورفع مانولاكاس رأسه. كان زوربا واقفًا أمامه، يؤرجح ذراعيه، غاضبًا. وصاح:

ـ قل إذن، ألا تخجل؟ يا للشجاعة! قرية بأكملها لقتل امرأة! ستجلبون العار لكريت كلّها، احذروا!

فزمجر مافراندوني:

ـ اهتمّ بقضاياك، يا زوربا! ولا تتدخّل في أمورنا!

وأضاف وهو يلتفت إلى ابن أخيه:

ـ مانولاكاس، باسم المسيح والعذراء، اضرب!

ووثب مانولاكاس. وأمسك بالأرملة، وألقاها أرضًا، وجثا بركبته على بطنها ورفع سكّينه. ولكنّ زوربا أمسك، في مثل لمح البصر، بذراع مانولاكاس، وراح يحاول، بيده التي لفّها بمنديل كبير، أن ينزع السكّين.

وركعت الأرملة على ركبتيها، وبحثت حولها عن سبيل تفرّ منه، لكنّ القرويّين كانوا قد سدّوا الباب واصطفّوا بشكل دائري حول الباحة وعلى المقاعد، وعندما تبيّنوا أنّها تحاول الإفلات، تقدّموا خطوة وضاقت الدائرة.

كان زوربا يصارع، بصمت وخفّة وحزم وبرودة قلب. ورحت أتتبّع المعركة بقلق، وأنا واقف قرب الباب. إنّ وجه مانولاكاس قد ازرقّ من الغضب. واقترب سيفاكاس وفتى آخر ضخم الجثّة ليساعداه. لكنّ مانولاكاس حرّك عينيه يمينًا وشمالاً بسرعة، وصاح:

ـ إلى الوراء! إلى الوراء! لا يقترب أيّ إنسان!

وهجم من جديد بغيظ على زوربا ونطحه برأسه كثور.

وعضّ زوربا على شفتيه دون أن يقول شيئًا. لكنّه ظلّ يشدّ بقوّة على ذراع حارس الغابة، ويتلوّى يمينًا وشمالاً كي يتفادى نطح رأسه. واندفع مانولاكاس، وقد تملّكه غضب جنوني، وعضّ بأسنانه على أذن زوربا، وشدّها بكلّ قواه وأخذ الدم ينسال.

وصحت مذعورًا، وأنا أندفع لإنقاذه:

ـ زوربا!

فصاح بي:

ـ ابتعد، أيّها الرئيس! لا تتدخّل في الأمر!

وشدّ على قبضته ووجّه لكمة هائلة إلى أسفل معدة مانولاكاس. فتهاوى الحيوان المتوحّش دفعة واحدة. وارتخت أسنانه، وحرّرت أذن زوربا نصف المقطوعة، وشحب وجهه المزرقّ. وبضربة مفاجئة، أوقعه

زوربا أرضًا، وانتزع منه السكّين وكسرها إلى نصفين.

وراح بمنديله يمسح الدم الذي كان ينساب من أذنه، ثم جفّف به وجهه الذي كان يسيل عرقًا، فتلطّخ كلّه بالدم. وانتصب، وألقى نظرة حوله، من عينيه اللتين انتفختا واحمرَّتا. وصاح بالأرملة:

ـ انهضي، تعالي معي!

واتّجه نحو باب الباحة.

ونهضت الأرملة، وجمعت كلّ قواها، واستعدَّت لشقّ طريقها. لكنّ الوقت لم يتح لها. إذ هجم عليها مافراندوني كما ينقضُّ الصقر، ورماها أرضًا، ولفّ شعرها الأسود الطويل ثلاث مرّات حول ذراعه، وبضربة سكّين واحدة، أطاح برأسها. وصاح:

ـ إنّني آخذ الخطيئة على حسابي!

ورمى رأس الضحيّة على عتبة الكنيسة. ثم رسم إشارة الصليب.

واستدار زوربا. ومن شدّة حنقه، اقتلع قبضة من شعر شاربيه. واقتربت وشددت على ذراعه. فانحنى وحدّق فيَّ. كانت ثمّة دمعتان كبيرتان معلّقتان على حافّة أهدابه. وقال لي بصوت مخنوق:

ـ هيّا بنا، أيّها الرئيس!

في ذلك المساء، لم يشأ زوربا أن يتناول شيئًا. كان يقول: «إنّ حلقي مخنوق، لا يمرّ منه شيء». وغسل أذنه بالماء البارد، وبلّل قطعة قطن في العرق، وضمّد جرحه. وجلس على فراشه، وراح يفكّر، ورأسه بين يديه.

وتمدّدت على الأرض، مستندًا إلى الحائط، وأحسست بالدموع تنساب، بطيئة حارّة، على خدَّيّ. لم يكن عقلي يعمل، ولم أكن أفكّر بشيء. كنت كمن سيطر عليه حزن طفولي عميق، وكنت أبكي.

وفجأة، رفع زوربا رأسه، وانفجر. أخذ يصرخ، متابعًا بصوت عالٍ مونولوجه الداخلي الوحشي:

ـ لقد قلت لك، أيّها الرئيس، إنّ كلّ ما يجري فوق هذه الأرض غير

عادل، غير عادل! أنا، دودة الأرض، زوربا الحلزون، لا أوافق على ذلك! لماذا يجب أن يموت الشباب، وأن تبقى الأنقاض الهرمة؟ لماذا يموت الأطفال الصغار؟ كان لي أنا صبيّ، صغيري ديمتري، وفقدته وهو في الثالثة، وأبدًا، أبدًا، أتسمعني، لن أسامح الله على ذلك! يوم أموت، إذا كان يجرؤ على الظهور أمامي، إذا كان إلهًا عن حقّ، فسوف يخجل! نعم، نعم! سوف يخجل أمامي، أنا زوربا الحلزون!

وكشّر عن أسنانه كأنّه أصيب بألم مفاجئ. وعاد الدم ينساب من جرحه وعضّ على شفتيه كي لا يصرخ.

وقلت:

ـ انتظر، يا زوربا! سأبدّل ضمادك.

وغسلت أذنه من جديد بالعرق، وأخذت ماء زهر البرتقال الذي أرسلته لي الأرملة والذي وجدته على سريري، وبلّلت قطعة القطن.

فقال زوربا وهو يستنشق بشراهة:

ـ ماء زهر البرتقال؟ ماء زهر البرتقال؟ ضع منه على شعري، هكذا، حسنًا جدًّا! وفي يدي، صبّه هيّا!

لقد عاد إلى الحياة. ونظرت إليه مذهولاً. وقال:

ـ يخيّل إليّ أنّني أدخل حديقة الأرملة.

وعاد إلى الندب متمتمًا:

ـ كم من سنوات! كم من سنوات اقتضت الأرض حتى تنجح في صنع جسد كذاك! إنّ من كان ينظر إليها كان يقول في نفسه: «أن أكون في العشرين، وأن أبقى بمفردي معها على الأرض وننجب الأطفال معًا، لنعمّر العالم! لا، ليس أطفالاً، بل آلهة حقيقيّين!». في حين، الآن...

ووثب على قدميه. وانتفخت عيناه بالدموع، وقال:

ـ لا أستطيع، أيّها الرئيس. يجب أن أسير، يجب أن أصعد وأهبط الجبل مرّتين أو ثلاثًا حتى أتعب، وأهدأ قليلاً... أيّتها الأرملة اللعينة! إنّ

الرغبة لتأخذني في أن أنشد قصيدة لك!

واندفع خارجًا، وسار في اتّجاه الجبل، وضاع في الظلمة.

وتمدّدت على سريري، وأطفأت المصباح، ورحت مرّة أخرى، حسب عادتي الحقيرة اللاّإنسانيّة، أعدّل الواقع، وأسحب منه دمه، ولحمه، وعظامه. وأحيله إلى فكرة مجرّدة، وأربطه بقوانين عامّة حتى أصل إلى الاستنتاج الفظيع بأنّ كلّ ما حدث كان ضروريًا. وتوصّلت أخيرًا إلى هذا العزاء النهائي الكريه: إنّه لعدلٌ أن يجري ما جرى.

ودخل ذبح الأرملة إلى عقلي، إلى تلك الخليّة التي كان كلّ سمٍّ فيها يتحوّل، منذ عدّة سنوات، إلى عسل، وأقلقه. لكن سرعان ما أمسكت فلسفتي بهذا الإنذار الفظيع، وغلّفته بالصور والأحابيل، وجعلته عاجزًا عن الحركة. هكذا تغلّف النحلات بالشمع الدبّور الجائع الذي يأتي لسلب عسلها.

بعد عدّة ساعات، كانت الأرملة ترقد في ذاكرتي، هادئة، مبتسمة، قد تحوّلت إلى رمز. لقد كانت أصلاً في قلبي مغلّفة بالشمع، لا تستطيع أن تبعث فيَّ الرعب وتسلبني عقلي. إنّ حدثًا فظيعًا جرى ذات يوم، كان يتّسع، ويمتدّ في الزمان والمكان، ويتّحد بالحضارات الكبيرة الآفلة، والحضارات تتّحد بمصير الأرض، والأرض بمصير الكون، وهكذا عندما عدت إلى الأرملة، وجدتها خاضعة للقوانين الكبرى، قد تصالحت مع قتلتها، ساكنة هادئة.

لقد عاد الزمن ووجد فيَّ من جديد معناه الحقيقي: لقد ماتت الأرملة قبل آلاف السنين، في أيّام حضارة بحر إيجه، وماتت صبايا «كنوسوس»[1] المجعّدات الشعر، هذا الصباح، على ساحل هذا البحر الضاحك.

وتملّكني النعاس كما سيتملّكني الموت ذات يوم ـ ليس ثمّة شيء أكيد

---

(١) كنوسوس: عاصمة كريت القديمة، بلغت أوج ازدهارها في القرن الواحد والعشرين قبل الميلاد.

أكثر من هذا ـ وغصت في الظلمات على مهل. لم أدرِ متى عاد زوربا، ولا متى دخل عند الصباح، وجدته على الجبل، يصرخ ويزمجر بالعمّال.

لم يعجبه أيّ شيء ممّا فعلوه. فطرد ثلاثة عمّال عاندوه، وأخذ المعول بنفسه وبدأ يشقّ الطريق الذي خطّطه من أجل الأوتاد وسط الشوك والصخور. وتسلّق الجبل، ووجد الحطّابين الذين كانوا يقطعون الصنوبر وأخذ يصرخ بهم. فضحك أحدهم وتمتم شيئًا ما. فهجم زوربا عليه.

عند المساء، عاد منهكًا، ممزّق الثياب، وجلس قربي على الشاطئ. ووجد صعوبة في أن يفتح فمه، وعندما تكلّم أخيرًا، تكلّم عن خشب البناء، والحبال والليغنيت، مثل مقاول حريص، يستعجل اجتياح المكان، واستخلاص أكبر فائدة ممكنة، ثم الانصراف.

وكدت في إحدى اللحظات، وأنا في حالة العزاء التي وصلت إليها، أن أتحدّث عن الأرملة، لكنّ زوربا مدّ يده الغليظة وأغلق فمي. وقال بصوت أصمّ:

ـ اصمت!

وصمتّ، خجِلاً. وقلت في نفسي وأنا أحسد زوربا على ألمه: هذا هو الإنسان الحقيقي. إنسان حارّة دماؤه، متينة عظامه، يترك دموعًا كبيرة حقيقيّة تنساب حين يتألّم، ولا يضيع فرحه بإمراره في غربال الميتافيزيك الدقيق، حين يكون سعيدًا.

ومضت ثلاثة أو أربعة أيّام على هذه الحال. كان زوربا يعمل، دون توقّف، دون تنهّد، دون طعام، ودون شراب. كان يذوب. وذات مساء قلت له إنّ السيّدة بوبولينا لا تزال مريضة، وإنّ الطبيب لم يأتِ، وإنّها تهذي وهي تلفظ اسمه:

فشدّ على قبضتيه وقال:

ـ هذا حسن.

وفي فجر اليوم التالي، ذهب إلى القرية وعاد وشيكًا. فسألته:

ـ أرأيتها؟ كيف حالها؟

فقال:

ـ ليس بها شيء، سوف تموت.

وتوجّه بخطًى كبيرة نحو الجبل.

وفي ذلك المساء نفسه أخذ عصاه وخرج دون أن يتناول طعام العشاء.

سألته:

ـ إلى أين أنت ذاهب، يا زوربا؟ أإلى القرية؟

ـ كلّا. سأقوم بجولة صغيرة، ثم أعود.

وسار في اتّجاه القرية بخطى عريضة حازمة.

كنت متعبًا، فتمدّدت. وأخذ فكري من جديد يستعيد صورة الأرض كلّها، وصعدت إليه ذكريات، وعادت أحزان، وحوَّم عقلي فوق أبعد الأفكار، ثم عاد ليحطّ فوق زوربا.

قلت في نفسي: «لو صادف، في الطريق، مانولاكاس، فإنّ هذا المارد الكريتي المجنون الغاضب سيلقي بنفسه عليه. يبدو أنّه طيلة هذه الأيّام قد ظلّ محبوسًا في منزله يئنّ. إنّه يخجل من الظهور في القرية، ولا يكفّ عن التأكيد بأنّه إذا أمسك بزوربا «فسوف يمزّقه كسمكة سردين». بالأمس أيضًا، ليلاً، رآه أحد العمّال يحوم حول الكوخ، مسلّحًا. إذا التقيا هذا المساء، فستكون هناك مجزرة».

ونهضت واثبًا، وارتديت ثيابي، وانطلقت بسرعة في طريق القرية. كان الليل العذب، الرطب، يعبق برائحة القرنفل البرّيّ. وبعد فترة، لمحت زوربا، خلال العتمة، وهو يتقدّم ببطء، كأنّه متعب. كان من حين إلى حين يتوقّف، ويحدّق بالنجوم، ثم يمضي بسرعة أكبر، فأسمع وقع عصاه فوق الحجارة.

واقترب من حديقة الأرملة. كان الجوّ يعبق برائحة الليمون وزهر العسل. وفي تلك اللحظة، انبجس، من خلال أشجار برتقال الحديقة،

غناء ممزّق لبلبل، كخرير ماء. كان يغنّي، ويغنّي في الظلمات، وتلهث أنفاس من يسمعه. وتوقّف زوربا فجأة، لاهثًا، هو أيضًا، بسبب هذه العذوبة الكثيرة.

وعلى حين غرّة تحرّك قصب السياج، وصدر عن أوراقها القاطعة صوت نصال من الفولاذ.

وقال صوت غليظ وحشي:

ـ إيه، يا صاح! إيه أيّها الشيخ الخرف وجدتك أخيرًا!

وجمدت في مكاني. لقد عرفت الصوت.

وتقدّم زوربا خطوة، ورفع عصاه، ثم توقّف من جديد. وعلى ضوء النجوم الشاحب، كنت أميّز كلّ حركة من حركاته.

وبقفزة واحدة، اندفع فتى ضخم الجثّة بعيدًا عن القصب. وصرخ زوربا وهو يمدّ عنقه:

ـ من هناك؟

ـ أنا، مانولاكاس.

ـ تابع طريقك، اذهب!

ـ لقد لوّثت شرفي، يا زوربا!

ـ لست أنا الذي لوّث شرفك، يا مانولاكاس. اذهب، أقول لك. إنّك فتى قوي، لكنّ الحظّ هو الذي شاء الأمر هكذا، إنّه أعمى، ألا تدري ذلك؟

فقال مانولاكاس (وسمعت أسنانه تصرّ):

ـ حظّ أو غير حظّ، أعمى أو لا، إلّا أنّني أصرّ على أن أغسل عاري. هذا المساء بالذات. أمعك سكّين؟

فأجاب زوربا:

ـ كلّا. ليس معي إلّا هراوة.

ـ اذهب وجئ بسكّينك. إنّني أنتظرك هنا. هيّا!

فلم يتحرّك زوربا. وتعالى صوت مانولاكاس هازئًا:

ـ أخائف؟ هيّا، أقول لك!

فقال زوربا وقد بدأ يغضب:

ـ ماذا أفعل بالسكّين، يا صديقي؟ ماذا أفعل بها، قل؟ أتذكر، في الكنيسة، أنت كان معك سكّين، وأنا لم يكن معي، أليس كذلك؟ ومع ذلك يبدو لي أنّني تدبّرت أمري جيّدًا.

فزمجر مانولاكاس:

ـ أوَتسخر منّي علاوة على ذلك؟ لقد اخترت وقتك، لأنّني مسلّح وأنت غير مسلّح. جئ بسكّينك أيّها الماسيدوني القذر، سنرى من منّا أقوى.

فأجاب زوربا، بصوت يرتعد غضبًا:

ـ ألقِ سكّينك، وسألقي أنا هراوتي، ثم نرى من هو أقوى! هيّا، ارمها، أيّها الكريتي القذر!

ورفع زوربا ذراعه، وألقى الهراوة، وسمعتها تسقط فوق القصب.

وصاح زوربا من جديد:

ـ ارمِ سكّينك!

واقتربت على أطراف أصابعي، بهدوء كبير. وعلى ضوء النجوم، استطعت أن ألمح بريق السكّين عندما سقطت هي أيضًا فوق القصب.

وبصق زوربا في يديه، وصاح وهو يقفز:

ـ تشجّع!

لكن قبل أن يتمكّن الاثنان من الالتحام، اندفعت بينهما. وصرخت:

ـ توقّفا! تعالَ هنا، يا مانولاكاس، وتعالَ، أنت أيضًا، يا زوربا. ألا تخجلان؟

واقترب الخصمان بخطًى بطيئة. وأمسكت يُمنى كلٍّ منهما وقلت:

ـ تصافحا! إنّكما، كليكما، فتيان طيّبان وشجاعان، تصالحا.

فقال مانولاكاس وهو يحاول أن يسحب يده:

ـ لقد لطّخ شرفي...

فقلت:

ـ لا يمكن تلطيخ شرفك بمثل هذه السهولة، يا مانولاكاس! القرية كلّها تعرف بسالتك. لا تلقِ بالاً إلى ما حدث بالأمس في الكنيسة. لقد كانت ساعة مشؤومة. والآن، لقد انقضى الأمر وانتهى! ثم، لا تنس ذلك، إنّ زوربا غريب، ماسيدوني، وإنّه لعار علينا، نحن الكريتيّين، أن نرفع اليد على ضيف جاء إلى بلادنا... هيّا، هات يدك، فهذه هي البسالة الحقيقيّة، وهيّا بنا إلى الكوخ، سنشرب كأسًا من الخمر ونشوي مترًا من النقانق، لنعزّز الصداقة، يا مانولاكاس!

وأخذت مانولاكاس من خصره، وسحبته بعيدًا قليلاً. وهمست في أذنه:

ـ إنّه هرم. هذا الرجل المسكين. لا يجوز أن يتحامل عليه فتى شابّ وقوي مثلك!

وهدأ مانولاكاس، وقال:

ـ حسنًا، من أجل مرضاتك!

وتقدّم خطوة نحو زوربا، ومدَّ يده الضخمة الثقيلة، وقال:

ـ هيّا، أيّها الصديق زوربا. قضايا قديمة، قضايا منسيّة. هات يدك!

فقال زوربا:

ـ لقد قطعت أذني، خذ، هذي يدي!

وتصافحا، طويلاً، وبقوّة. وشدّ كلٌّ منهما على يد الآخر بقوّة أكثر فأكثر، وراحا يتبادلان النظرات، وخشيت أن يتلاحما من جديد.

وقال زوربا:

ـ إنّك تشدّ بقوّة، أنت فتى متين، يا مانولاكاس!

ـ وأنت أيضًا تشدّ بقوّة. شدّ أكثر حتى نرى، إذا كنت تستطيع!

فصرخت:

ـ هذا يكفي. هيّا بنا لنروي صداقتنا.

ووقفت بينهما، زوربا إلى يميني، ومانولاكاس إلى يساري، واستدرنا عائدين إلى شاطئنا.

وقلت، كي أبدّل موضوع الحديث:

ـ إنّ الغلال ستكون وفيرة هذه السنة... فقد أمطرت كثيرًا.

لكن لم يجب أحد على عبارتي هذه. إنّ الغيظ لا يزال يملأ صدريهما. وأملي كلّه الآن في الخمر. وصلنا إلى الكوخ.

وقلت:

ـ أهلاً بك تحت سقفنا، يا مانولاكاس! زوربا، اشوِ لنا النقانق، واملأ ثلاث كؤوس.

وقلت وأنا أرفع كأسي.

ـ في صحّتكما! في صحّتك، مانولاكاس! في صحّتك زوربا، اقرعا الكؤوس!

وقرعا الكؤوس. وصبّ مانولاكاس بضع قطرات من الخمر على الأرض، وقال بلهجة وقور:

ـ ليجرِ دمي مثل هذا الخمر، ليجرِ دمي مثل هذا الخمر، إذا رفعت يدي عليك، يا زوربا.

ـ ليجرِ دمي أنا أيضًا مثل هذا الخمر، إذا لم أكن نسيت الأذن التي قطعتها لي، يا مانولاكاس!

ـ ٢٤ ـ

عندما طلع الفجر، جلس زوربا على سريره وأيقظني:

ـ ألا تزال نائمًا، أيّها الرئيس؟

ـ ماذا هناك يا زوربا؟

ـ لقد حلمت حلمًا غريبًا. أعتقد أنّنا لن نتأخّر عن القيام بسفرة. اسمع، ستضحك. كان هنا، في المرفأ، مركب كبير كأنّه مدينة. وكان يصفر، مستعدًّا للرحيل. وجئت أنا راكضًا من القرية لألحق به، وكنت أمسك ببّغاء بيدي. ووصلت، وتسلّقت المركب، لكنّ القبطان قدم مسرعًا. وصاح بي: «بطاقة!» فسألته وأنا أخرج رزمة من الأوراق الماليّة من جيبي: «كم؟». قال: «ألف درهم». فقلت له: «قل، من فضلك، ألا يكفي ثمانمئة؟». فأجاب: «ألف، ولا درهم أقلّ! وإلّا، فانزل بسرعة!» عندئذ غضبت وقلت له: «اسمع. خذ، من أجل مصلحتك، الثمانمئة التي أعطيكها، وإلّا فسوف أستيقظ، يا شيخي المسكين، وتخسر الكلّ!».

وانفجر زوربا ضاحكًا، وقال مذهولاً:

ـ يا للإنسان من آلة مضحكة! إنّك تملأها بالخبز، والخمر، والسمك، والفجل، فيخرج منها تنهّدات، وضحك وأحلام. إنّه مصنع! أعتقد أنّ في رؤوسنا سينما صوتيّة كتلك الأفلام الناطقة.

وفجأة وثب زوربا خارج سريره، وصاح قلقًا:

ـ لكن لماذا الببّغاء؟ ماذا يعني هذا الببّغاء معي؟ آه! أخشى أن. . .

ولم يتح له الوقت لينهي عبارته. فقد دخل الكوخ رسول قصير أحمر الشعر، إبليس حقيقي، وهو يلهث.

ـ إكرامًا لله! إنّ السيّدة المسكينة تصرخ بأن ننذر الطبيب! إنّها تقول إنّها على وشك الموت، وستثقل على ضميركما.

وشعرت بالخجل. لقد نسينا تمامًا، في هذه الفوضى التي ألقتنا فيها الأرملة، صديقتنا العجوز.

وتابع ذو الشعر الأحمر بكلمات مرحة:

ـ إنّها مريضة، إنّها تسعل بقوّة تهزّ فندقها كلّه! نعم، نعم، يا صاح، سعال حمار حقيقي! جوهْ! جوهْ! إنّ القرية كلّها تهتزّ!

فصحت به:

ـ لا تضحك، اصمت!

وأخذت ورقة وكتبت.

ـ أسرع، خذ هذه الورقة إلى الطبيب، ولا تعد قبل أن تراه بعينيك يركب بغلته. أتسمع، أسرع!

وأخذ الرسالة، ودسّها في حزامه، واختفى.

كان زوربا قد نهض. ولبس ثيابه بسرعة كبيرة، دون أن يقول شيئًا. فقلت له:

ـ انتظر، سآتي معك.

فقال:

ـ إنّني مستعجل.

وانطلق.

بعد لحظات، كنت بدوري أسير نحو القرية. كانت حديقة الأرملة تعبق مقفرة. وكان ميميتو جالسًا أمامها، قابعًا، مستوحشًا، ككلب منهك.

لقد نحف، وغارت عيناه في محجريهما، والتهبتا. والتفت، ورآني، وتناول حجرًا.

فسألته وأنا أرمي الحديقة بنظرة حزينة:

ـ ماذا تفعل هنا؟

واجتاحتني ذكرى ذراعين دافئتين قويّتين... وطاف في الجوّ أريج زهر الليمون وزيت الغار، ولمحت، في العتمة، عيني الأرملة الجميلتين السوداوين، وقد أجّجتهما الشهوة، وأسنانها الحادّة البيضاء اللامعة التي فركتها بورق الجوز.

ودمدم ميميتو:

ـ لماذا تسألني هذا؟ هيّا، انصرف إلى أعمالك.

ـ أتريد سيجارة؟

ـ إنّني لم أعد أدخّن. إنّكم جميعًا أنذال. جميعًا! جميعًا! جميعًا!

وسكت، لاهثًا، وكأنّه يبحث عن كلمات لم يجدها...

أنذال... حقيرون... كذبة... قتلة..

وضرب بيديه وكأنّه وجد الكلمة التي كان يبحث عنها وبدا عليها الاطمئنان. وصاح بصوت حادّ:

ـ قتلة! قتلة! قتلة!

وأخذ يضحك.

وانقبض قلبي. وتمتمت وأنا أبتعد بخطًى سريعة:

ـ معك حقّ، يا ميميتو، معك حقّ.

عند مدخل القرية رأيت الشيخ أنانيوستي، منحنيًا على عصاه، ينظر بانتباه، وكلّه سرور، إلى فراشتين صفراوين كانتا تتلاحقان في العشب الربيعي. إنّه الآن، وقد أصبح هرمًا، لا يهتمّ مطلقًا بحقله، أو بامرأته أو بأولاده، يستطيع أن يجد الوقت لينقّل طرفه بلا مبالاة على العالم. ورأى

ظلّي على الأرض ورفع رأسه، وقال لي:

ـ أيّة ريح أتت بك في مثل هذه الساعة المبكرة؟

لكنّه رأى وجهي القلق ولا بدّ، لأنّه قال دون أن ينتظر جوابًا:

ـ أسرع، يا بنيّ. لست أدري إن كنت ستجدها حيّة.. إيه، المسكينة!

إنّ السرير العريض الذي خدم كثيرًا، والذي كان أخلص رفيق للسيّدة هورتانس، قد أُزيح إلى وسط الغرفة الصغيرة فملأها كلّها. وفوقه كان يتدلّى الببّغاء، المستشار الخاصّ المخلص، متأمّلاً قلقًا، بذراعيه الخضراوين، وقبّعته الصفراء، وعينيه المستديرتين الخبيثتين. كان ينظر إلى سيّدته الممدّدة تحته وهي تئنّ، ويحني رأسه شبه الإنساني معوجًّا قليلاً لكي يصغي.

لا، لا، إنّها ليست تنهّدات فرح الحبّ التي يعرفها جيّدًا، ولا هديل الحمامة الحنون، ولا الضحكات المدغدغة. العرق الذي يسيل بشكل قطرات باردة فوق وجه سيّدته، والشعر الذي يشبه الصوف المنفوش، غير المغسول، غير الممشّط، الملتصق بالصدغين، وهذه التقلّبات التشنّجيّة في الفراش. إنّ الببّغاء ليرى هذا كلّه للمرّة الأولى، وقلقه يزداد، وقد أراد أن يصيح كاناڤارو! كاناڤارو! لكنّ الصوت لم يخرج من حلقه.

كانت سيّدته التعيسة تئنّ وذراعاها الذابلتان النحيفتان ترتفعان وتسقطان فوق الأغطية. إنّها تختنق. إنّ رائحة العرق الحادّة واللحم الذي بدأ يتفسّخ تفوح منها، ووجهها غير مخضّب، وشعرها أشعث. وكانت نعلاها الباليتان المشوّهتان تخرجان من تحت السرير، فينقبض القلب لمرآهما. إنّ هاتين النعلين لتبعثان فيك الحزن أكثر ممّا تبعثه صاحبتهما بالذات.

كان زوربا جالسًا عند رأس المريضة، ينظر إلى الحذاءين، لا يستطيع أن يشيح عنهما الطرف. وكان يشدّ على شفتيه كي يمسك دموعه. ودخلت، ووقفت وراءه، لكنّه لم يسمعني.

كانت المسكينة تجد صعوبة في التنفّس. إنّها تختنق. وتناول زوربا

قبّعة مزيّنة بوردات من القماش ليروّح عنها. كان يهزّ يده الضخمة بسرعة كبيرة، وبشكل أخرق، وكأنّه ينفخ فوق فحم رطب علّه يجعله يشتعل.

وفتحت عينيها، مذعورة، ونظرت حولها. كلّ شيء كان مظلمًا، وما كانت لتميّز أيّ شخص، حتى زوربا الذي كان يمسك بالقبّعة ذات الأزهار.

كان كلّ شيء مقلقًا وقاتمًا حولها، وأبخرة زرقاء تتصاعد من الثرى وتبدّل شكلها وتصبح أفواهًا مقهقهة، وأقدامًا ملتفّة، وأجنحة سوداء.

وغرزت أظافرها في الوسادة، الملطّخة بالدموع، واللعاب، والعرق، وأطلقت صرخة عالية:

ـ لا أريد أن أموت! لا أريد!

ومدّ شابّان أمردان أسمران رأسيهما من الباب، ونظرا بانتباه إلى المريضة، وتبادلا إشارة تفاهم ورضى، واختفيا.

وسرعان ما سمعنا في الباحة نقيقًا مذعورًا وخفق أجنحة: لقد كان هناك من يطارد الدجاج.

والتفتت النوّاحة الأولى، العجوز مالاماتينيا، نحو رفيقتها:

ـ أرأيتهم، أيّتها الخالة لينيو، أرأيتهم؟ إنّهم مستعجلون، وكأنّهم يموتون جوعًا، وسيدقّون أعناق الدجاجات ويلتهمونها. إنّ كلّ صعاليك القرية قد تجمّعوا في الباحة ولن يتأخّروا عن الغزو!

ثم تمتمت، وقد نفد صبرها، وهي تلتفت نحو فراش المحتضرة:

ـ موتي، أيّتها العجوز، أسرعي، أسرعي حتى يُتاح لنا الوقت لأخذ شيء ما، نحن أيضًا.

فقالت الخالة لينيو وهي تزمّ فمها الصغير الذي تساقطت أسنانه:

ـ كي أقول لك الحقيقة الحقّة، أيّتها الأمّ مالاماتينيا، كي أقول لك الحقيقة الحقّة، فإنّهم غير مخطئين... «إذا كنت تريدين أن تأكلي، فخذي، وإذا كنت تريدين أن تملكي، فاسرقي!» هذا ما كانت تنصحني به

أمّي المرحومة. ليس علينا إلّا أن نعجّل بالندب، لنلحق بقبضة من الأرزّ، وقليل من السكّر، وإبريق، ثم نبارك ذكراها. لم يكن لها لا أطفال ولا أهل، إذن، فمن الذي سيأكل الدجاج والأرانب؟ من سيشرب خمرها؟ من سيرث مكبّاتها كلّها، وأمشاطها، وسكاكرها؟ إيه! أعترف لك، أيّتها الأمّ مالاماتينيا، وليسامحني الله، بأنّني أرغب كلّ لحظة في أن آخذ ما أستطيعه!

فقالت الأمّ مالاماتينيا وهي تمسك صديقتها من ذراعها:

ـ انتظري، يا طيّبتي، لا تستعجلي كثيرًا! أنا أيضًا، أقسم لك، تراودني الفكرة نفسها، لكن دعيها تسلم الروح أوّلاً.

في تلك الأثناء، كانت المحتضرة تنقّب بعصبيّة تحت وسادتها. لقد أخرجت من سبتها، عندما أحسّت بالخطر، صليبًا من العظم الأبيض، اللامع، وأخذته معها إلى فراشها. لقد نسيته تمامًا، سنوات طويلة، بين قمصانها الممزّقة وأسمالها المخمليّة، في أسفل سبتها، وكأنّ المسيح ليس إلّا دواء لا يؤخذ إلّا في حالة المرض المخطر. وكأن لا فائدة منه، ما دام الإنسان يعيش حياة طيّبة، يأكل، ويشرب، ويحبّ.

ووجدت أخيرًا المصلوب، وهي تتلمّسه لمسًا، وضغطته على صدرها المبلّل بالعرق. وراحت تتمتم بشوق وهي تعانق عشيقها الأخير:

ـ يا صغيري يسوع. يا عزيزي الصغير يسو. . .

وسمعها الببّغاء. وشعر بأنّ لهجة الصوت قد تبدّلت، وتذكّر ليالي الماضي البيضاء، وانتصب فرحًا، وصاح بصوت أبحّ، وكأنّه ديك ينادي الشمس:

ـ كاناڤارو! كاناڤارو!

ولم يتحرّك زوربا، هذه المرّة، ليدخل صوته إلى حلقه. بل نظر إلى المرأة التي كانت تبكي وتقبّل الإله المصلوب، في حين انتشرت عذوبة غير متوقّعة على وجهها المنهك.

وانفتح الباب، ودخل الشيخ أنانيوستي بهدوء كبير، وقُبّعته في يده.

واقترب من المريضة، وانحنى، وركع على ركبتيه، وقال لها:

ـ سامحيني، يا سيّدتي الطيّبة، وسوف يسامحك الله. سامحيني إذا كنت قد وجّهت إليك، ذات مرّة، كلمة قاسية. إنّنا لسنا قدّيسين.

لكنّ السيّدة الطيّبة كانت الآن ممدّدة، ساكنة، غارقة في استسلام لا يُقهر، ولم تسمع الشيخ أنانيوستي. إنّ آلامها كلّها قد امّحت، الشيخوخة البائسة، والمهازئ، والكلمات القاسية، والليالي الحزينة التي كانت تجلس فيها على عتبة بابها المقفرة تحيك جوارب للفلّاحين، كأيّة امرأة عاديّة طيّبة وشريفة، وهي الباريسيّة الأنيقة، ملكة الإغراء التي لا تقاوم، والتي جعلت الدول الأربع الكبرى تثب على ركبتيها، والتي حيّتها أربعة أساطيل كبرى!

كان البحر أزرق بلون اللازورد، والأمواج تزبد، والحصون العائمة ترقص، والأعلام من مختلف الألوان تخفق فوق نواصيها. وتفوح رائحة الحجلان المشويّة والسمك المقلي، وتُحمل الفواكه المبرّدة في آنية من البلّور المنقوش، وتطير سدادة الشمبانيا حتى سقف المدمّرة الحديدي.

لحًى سوداء، وكستنائيّة، ورماديّة، وشقراء، وعطور من أربعة أنواع، ماء الكولونيا، والبنفسج، والمسك، والعنبر، وتُغلق أبواب المقصورة المعدنيّة، وتسدل الستائر الثقيلة، وتضاء الأنوار. وتغلق السيّدة هورتانس عينيها. إنّ حياتها الغراميّة كلّها، وحياتها القلقة كلّها، آه! أيّتها السيّدة! لم تدم سوى ثانية واحدة...

وتنتقل من ركب إلى ركب، وتضمّ ذراعيها على أزياء موشّاة بالذهب، وتدسّ أصابعها في لحى معطّرة كثّة. أمّا الأسماء، فهي لم تعد تذكرها. إنّها، كببّغائها، لا تذكر إلّا اسم كانافارو، لأنّه كان أصغرهم ولأنّ اسمه هو الوحيد الذي استطاع الببّغاء أن يلفظه. أمّا أسماء الآخرين فكانت معقّدة، صعبة، ولهذا تبخّرت.

وتنهّدت السيّدة هورتانس بعمق وشدّت على المصلوب بقوّة. وأخذت تتمتم، هاذية، وهي تضغطه على ثدييها الذابلين:

ـ يا كاناڤارو، يا صغيري كاناڤارو. . .

وتمتمت الخالة لينيو:

ـ لقد بدأت تجهل ما تقوله. . . لا بدّ أنّها رأت ملاكها الحارس، فخافت. . . لنرفع منديلينا، ولنقترب.

فقالت الأمّ مالاماتينيا:

ـ ألا تخشين الله إذن؟ هل تريدين أن نبدأ بندبها وهي لا تزال على قيد الحياة؟

فدمدمت الخالة لينيو بصوت أصمّ:

ـ إيخ! أيّتها الأمّ مالاماتينيا، بدلاً من التفكير بصناديقها وثيابها، وببضاعة الدكّان، وبالدجاج والأرانب، تحدّثينني بأنّه يجب أن تسلم الروح أوّلاً! اسرقي ما أمكنك!

وما إن قالت ذلك حتى انتصبت، وتبعتها الأخرى غاضبة. ورفعتا منديليهما الأسودين، وشعّثتا شعرهما القليل الأبيض، وتشبّثتا بأطراف السرير. وأعطت الخالة لينيو الإشارة وهي تطلق صرخة طويلة حادّة، تبعث الرعدة:

ـ ولي. . ي. . ي. . ي. . !

وأسرع زوربا، وأمسك بالعجوزين من شعرهما وألقى بهما إلى الوراء، وصاح:

ـ اصمتا، أيّتها العجوزان المهذارتان! ألا تريان أنّها ما تزال على قيد الحياة؟ فدمدمت الأمّ مالاماتينيا وهي تُعيد عقد منديلها:

ـ يا للشيخ الأحمق! من أين سقط علينا أيضًا، هذا الشخص المزعج!

وسمعت السيّدة هورتانس، الجنّيّة العجوز التي قاست كثيرًا، الصرخة الحادّة، فتبخّرت الرؤية اللذيذة، وهوت السفينة القائدة، واختفى اللحم المحمّر والشمبانيا واللحى المعطّرة، وسقطت من جديد فوق سريرها الذي تفوح منه رائحة الموت، وهي في آخر نفس. وأبدت حركة لتنهض، وكأنّها

تريد الإفلات، لكنّها سقطت، ومن جديد هتفت، بهدوء، بلهجة قاسية:

ـ لا أريد أن أموت! لا أريد!

وانحنى زوربا عليها، ولمس بيده الضخمة المعروقة جبينها الملتهب، وأزاح شعرها عن وجهها، وامتلأت عيناه الصغيرتان بالدموع، وتمتم:

ـ اصمتي، اصمتي، يا طيّبتي، أنا هنا، زوربا، لا تخافي!

وها هي الرؤية تعود فجأة، كفراشة كبيرة لونها بلون البحر، وغطّت السرير كلّه. وأمسكت المحتضرة بيد زوربا الضخمة، ومدّت ببطء ذراعها، ولفّتها حول عنقه المحنيّ. وتحرّكت شفتاها:

ـ يا كاناڤارو، يا صغيري كاناڤارو...

وتدحرج المصلوب من فوق الوسادة، وسقط على الأرض وتحطّم. وتعالى صوت رجل من الباحة:

ـ إيه! أيّها الصديق، ضع الدجاجة، إنّ الماء يغلي!

كنت جالسًا في زاوية الغرفة، وكانت عيناي، من حين إلى آخر، تغرورقان بالدموع. وقلت في نفسي: هذه هي الحياة، مشوّشة، غير منسجمة، لا مبالية، منحطّة. بلا شفقة. إنّ هؤلاء الفلّاحين الكريتيّين البدائيّين يحيطون بالمغنّية العجوز التي جاءت من أقصى العالم، وينظرون إليها، وهي تموت، بفرح وحشي، وكأنّها لم تكن، هي أيضًا، مخلوقًا بشريًّا، وكأنّ طائرًا كبيرًا أسطوريًّا، مزخرف الألوان، قد سقط، كسير الجناحين، على شاطئهم، فاجتمعوا حوله ليتأمّلوه. طاووس هرم، قطّة عجوز طويلة الشعر، فقمة مريضة...

وأزاح زوربا بلطف ذراع السيّدة هورتانس عن عنقه. ونهض، شاحبًا. ومسح دموعه بظهر يده. ونظر إلى المريضة، لكنّه لم يميّز شيئًا. لم يكن يرى. ومسح من جديد عينيه، ورآها عندئذٍ تحرّك قدميها الرخوتين المنتفختين، وتلوي فمها بذعر. وارتجفت مرّة، واثنتين، وانسابت الأغطية على الأرض، فبدت، نصف عارية، يبلّلها العرق، منتفخة، لونها أصفر

مخضرّ. وأطلقت صرخة صغيرة حادّة، ثاقبة، وكأنّها دجاجة تُذبح، ثم رقدت بلا حراك، عيناها جاحظتان، مرعوبتان، مطفأتان.

وقفز الببّغاء إلى طابق القفص السفلي. وتشبّث بالقضبان، وتطلّع. ورأى زوربا يمدّ يده الضخمة نحو سيّدته، وبحنان لا نهائي، يطبق جفنيها.

وهدلت النوّاحتان وهما تتّجهان إلى السرير:

هيّا، أنتم الآخرين، ساعدونا قليلاً بسرعة! لقد أسلمت...

وأطلقتا صرخة طويلة، وهما تهزّان رأسيهما من الأمام إلى الوراء، وتشدّان على قبضاتهما، وتقرعان صدريهما. شيئًا فشيئًا، أحدث فيهما هذا الاهتزاز الرتيب حالة من حالات الانخطاف الخفيف، فغزتهما أحزان سحيقة القدم كالسمّ، وانفجرت قشرة القلب، وتدفّق الندب.

«ليس من اللائق بك، أنت، أن تمدّدي تحت التراب...».

وخرج زوربا إلى الباحة. كان يريد أن يبكي، لكنّه خجل أمام المرأتين. أذكر أنّه قال لي ذات يوم: «لست أخجل من البكاء، كلّا، لكن فقط أمام الرجال. لا داعيَ للخجل عندما تكون بين رجال، أليس صحيحًا؟ البكاء أمامهم ليس عارًا. لكن أمام النساء، يجب أن نبدو دومًا شجعانًا. لأنّنا لو بدأنا نبكي، نحن أيضًا، فإلام تصير هذه التعيسات؟ ستكون نهاية العالم».

وغسلوها بالخمر، وفتحت المكفّنة العجوز السبت، وأخرجت منه ثيابًا نظيفة، وبدّلتها، وصبّت عليها زجاجة صغيرة من ماء الكولونيا. وجاء من البساتين المجاورة ذباب الموت ووضع بيوضه في منخريها، وحول عينيها، وعند طرفي شفتيها.

كان الغسق قد بدأ ينشر ظلمته، والسماء، عند المغرب، قد اكتست بعذوبة رائعة. وراحت غيمات صغيرات حمراء متناثرة، موشّاة بالذهب، تطوف ببطء في بنفسج المساء القاتم، وتتحوّل دون انقطاع إلى سفن وبجعات، ووحوش أسطوريّة مصنوعة من القطن والحرير المُزركش. وكان

البحر يُرى، من خلال قصب الباحة، وهو يقدح الشرر، هائجًا.

وطار غرابان سمينان من فوق شجرة تين، وأخذا يذرعان بلاط الباحة. وغضب زوربا، فأخذ حجرًا، وطردهما.

كان صعاليك القرية، في الزاوية الأخرى من الباحة، قد بدأوا حفلتهم، وأخذوا يحطّمون كلّ شيء. لقد أخرجوا مائدة المطبخ الكبيرة، ونقّبوا في كلّ مكان، ووجدوا خبزًا، وصحونًا، وملاعق، وجاؤوا من القبو بدنّ نبيذ، وطبخوا الدجاجات، وراحوا، وقد تملّكهم الجوع والمرح، يأكلون ويشربون ويقرعون كؤوسهم.

ـ ليرحمها الله! وليغفر لها كلّ ما فعلته!

ـ وليصبح كلّ عشّاقها، أيّها الرفاق، ملائكة ليحملوا روحها!

وقال مانولاكاس:

ـ انظروا، إنّ زوربا الهرم يرمي الغربان بالحجارة! ها هو الآن أرمل، لندعه، لنتناول كأسًا على ذكرى دجاجته! إيه، أيّها الرفيق زوربا، إيه أيّها المواطن!

والتفت زوربا. ورأى المائدة قد أُعدّت، والدجاج في الصحون تتصاعد منه الأبخرة، والخمر في الكؤوس يتلألأ، وحول المائدة شبّان أقوياء لوّحتهم الشمس، عاصبين رؤوسهم بالمناديل، وقد بانت عليهم اللامبالاة والشباب.

وتمتم:

ـ زوربا! زوربا! كن رابط الجأش. فها هنا أنتظرك!

واقترب، وجرع قدح خمر، ثم قدحًا ثانيًا، وثالثًا، دفعة واحدة، وأكل فخذ دجاجة. كانوا يحدّثونه، لكنّه لم يكن ليجيب. كان يأكل ويشرب بعجلة، وشراهة، بلقم كبيرة، وبجرعات طويلة، صامتًا. وتطلّع نحو الغرفة التي ترقد فيها، بلا حراك، صديقته العجوز، وأصغى إلى الندب الذي كان يأتي من النافذة المفتوحة. ومن حين إلى حين، كان

اللحن الجنائزي يتوقّف، وتُسمع صرخات، كأنّها أصوات قتال، وأبواب خزائن تُفتح وتُغلق، ووقع خطًى ثقيلة وسريعة. وكأنّ ثمّة من يتخاصم. ومن جديد يعود الندب، رتيبًا، يائسًا، عذبًا، كطنين نحلة.

كانت النوّاحتان تجريان، هنا، وهناك، في غرفة الموت، تنشدان رثاءهما وهما تنقّبان بعجلة. وفتحتا خزانة صغيرة، ووجدتا فيها خمس ملاعق أو ستًّا، وقليلاً من السكّر، وعلبة قهوة، وعلبة حلوى. وانقضَّت الخالة لينيو، وأخذت القهوة والحلوى، وأخذت العجوز مالاماتينيا السكّر والملاعق. وقفزت، وتلقّفت أيضًا قطعتين من الحلوى، ودسّتهما في فمها، وخرج ندبها هذه المرّة مخنوقًا، ذبيحًا، من خلال المعجّنات الحلوة.

«لتمطر عليك الأزهار، والتفّاح في منزرك...».

ودلفت عجوزان إلى الغرفة، واتّجهتا نحو السبت، ومدّتا أذرعهما، وتلقّفتا بضعة مناديل صغيرة، ومنشفتين أو ثلاثًا، وثلاثة أزواج من الجوارب، ورافعة جوارب، ودسّتاها في صدريهما، واستدارتا نحو الميّتة، ورسمتا إشارة الصليب.

وشاهدت الأمّ مالاماتينيا العجوزين تنهبان السبت فغضبت. وصرخت بالخالة لينيو:

ـ استمرّي، يا عجوزي، استمرّي، إنّني قادمة!

ودسّت هي الأخرى رأسها في السبت.

أسمال من الأطلس، وثوب باذنجاني عتيق، ونعال حمراء صغيرة بالية، ومروحة مكسورة، ومظلّة قرمزيّة جديدة، وفي أسفل السبت قبّعة أميرال مثلّثة قديمة، قُدّمت لها ذات يوم هديّة، فكانت تضعها، عندما تكون بمفردها، وتقف أمام المرآة وتتأمّل نفسها معجبة برصانة وكآبة.

واقترب أحدهم من الباب. وانسحبت العجوزان، وتشبّثت الخالة لينيو من جديد بسرير الميّتة، وشرعت تضرب على صدرها صارخة: «وأزهار

القرنفل القرمزيّة حول عنقك. . .».

ودخل زوربا، ونظر إلى الميّتة، الهادئة، الساكنة، المصفرّة، المغطّاة بالذباب، الراقدة متصالبة اليدين، وحول عنقها شريط المخمل الصغير. وفكّر في نفسه:

«حفنة من التراب، حفنة من التراب كانت تجوع، وتضحك، وتعانق. جبلة من طين كانت تبكي. والآن؟ أيّ شيطان يأتي بنا إلى الأرض، وأيّ شيطان يأخذنا عنها!».

وبصق وجلس.

في الخارج، كان الشبّان قد تجمّعوا في الباحة للرقص. ووصل عازف القيثارة البارع، فانوريو، فأبعدوا الطاولة، وصفائح البترول، والبرميل الصغير، وسلّة الغسيل، وأفسحوا مكانًا، وشرعوا يرقصون.

وظهر الأعيان، العمّ أنانيوستي بعصاه الطويلة المعقوفة وقميصه الأبيض العريض، وكوندومانوليو البدين المكوّر، والمعلّم، وقد وضع محبرة ضخمة من النحاس في حزامه، ومسّاكة ريشة خلف أذنه. ولم يكن الشيخ مافراندوني موجودًا. لقد ذهب إلى الجبال، وأصبح طريد العدالة.

وقال الأب أنانيوستي وهو يرفع يده:

ـ مسرور برؤيتكم، أيّها الأولاد! مسرور لأنّكم تلهون! كلوا واشربوا، ليبارككم الله! لكن لا تصرخوا! يجب ألّا تفعلوا ذلك. إنّ الميّت يسمع، يسمع، أتعلمون!

وشرح كوندومانوليو:

ـ لقد جئنا للكشف عن أملاك المرحومة، لنوزّعها على فقراء القرية، لقد أكلتم وشربتم كثيرًا، هذا يكفي! لا تنهبوا كلّ شيء، أيّها الأشقياء، وإلّا. . . انظروا إلى هؤلاء!

قال ذلك، وحرّك هراوته مهدّدًا.

وظهر، وراء الأعيان الثلاثة، حوالى عشر نساء، شعورهنّ مشعّثة،

أقدامهنّ عارية، في الأسمال. وكانت كلّ واحدة منهنّ تحمل كيسًا فارغًا تحت ذراعها وسلّة على ظهرها. وكنّ يقتربن، خلسة، خطوة خطوة، بصمت.

واستدار الأب أنانيوستي، ورآهنّ، وانفجر صارخًا:

ـ إيه! أيّتها الهجينات، إلى الوراء! ماذا؟ أجئتنّ للنهب؟ سوف نسجّل هنا جميع الأشياء، واحدًا واحدًا، على ورقة، ثم سنوزّعها بنظام وعدالة بين الفقراء. إلى الوراء! أقول لكن.

وأخرج المعلّم من حزامه محبرته النحاسيّة الطويلة، ونشر ورقة كبيرة، واتّجه نحو الدكّان الصغير ليبدأ الكشف.

لكن في تلك اللحظة سمعت ضجّة صمّاء، وكأنّ ثمّة أحدًا يقرع على علب من حديد، وكأنّ مكبّات تتدحرج، وفناجين تتصادم وتتحطّم. وصدرت من المطبخ جلبة صاخبة من الأباريق والصحون والشوكات.

وأسرع العجوز كونومانوليو وهو يهزّ هراوته. لكن من أين يبدأ؟ كانت النساء العجائز، والرجال، والأطفال، يمرّون من الأبواب بلمح البصر، ويقفزون من النوافذ، ومن فوق الأسيجة، ويسقطون على الأرض، وكلّ يحمل ما استطاع أن يسرقه: مقالَي، وأباريقَ، ووسائدَ، وأرانبَ... وكان البعض قد جرّد الأبواب والنوافذ من مصاريعها وحملها على ظهره. بل إنّ ميميتو بالذات قد حمل نعلين من نعال المرحومة، وربطهما بحبل مرّره من عنقه، حتى لكأنّ السيّدة هورتانس تمتطي كتفيه، فلا يظهر منها سوى حذاءيها..

كان الأب أنانيوستي المسكين يصرخ، ويتضرّع، ويهزّ عصاه:

ـ إنّه لعار، إنّه لعار، كفى، إنّ الميّتة تسمعكم!

وقال ميميتو:

ـ أيجب أن أذهب لاستدعاء الكاهن؟

فقال كوندومانوليو غاضبًا:

ـ أيّ كاهن؟ أيّها الأحمق! إنّها فرنسيّة، ألم ترَ كيف كانت ترسم إشارة الصليب؟ بأربعة أصابع، تلك المارقة[1]! هيّا، لندفنها تحت التراب، قبل أن تبدأ بالإنتان وإفساد هواء القرية!

وقال ميميتو وهو يرسم إشارة الصليب:

ـ لقد أخذت جثّتها تمتلئ بالدود، انظروا، أقسم لكم!

وهزّ الأب أنانيوستي رأسه النحيف الذي يبدو عليه مظهر السيّد القروي الكبير.

ـ أهذا يبدو لك غريبًا؟ أيّها الأبله! في الحقيقة، إنّ الإنسان مليء بالديدان منذ أن يولد، لكنّنا لا نراها. وعندما تتبيّن أنّ الجسد بدأ بالإنتان، تخرج من ثقوبها، بيضاء تمامًا، بيضاء تمامًا كدود الجنبّة!

وظهرت النجوم الأولى، وبقيت معلّقة في الجوّ، مرتعدة، كأنّها أجراس صغيرة من الفضّة. ورنّ الليل كلّه.

ونزع زوربا قفص الببّغاء من فوق سرير الميّتة. كان الطير اليتيم قد قبع في إحدى الزوايا، مذعورًا. وراح ينظر بكلتا عينيه، لكنّه لم يكن يفهم. ووضع رأسه تحت جناحيه وتقوقع على نفسه.

عندما أنزل زوربا القفص، انتصب الببّغاء. وأراد أن يتكلّم، لكنّ زوربا مدّ يده نحوه. وتمتم بصوت ملاطف:

ـ اصمت، اصمت، تعال معي.

وانحنى زوربا ونظر إلى الميّتة. نظر إليها طويلاً، وأنفاسه مخنوقة. وكاد ينحني ويقبّلها، إلّا أنّه تمالك نفسه. وتمتم:

ـ اذهبي، في رحمة الله!

وأخذ القفص وخرج إلى الباحة. ورآني واقترب منّي، وقال بصوت خافت وهو يأخذني من ذراعي:

---

(١) يقصد أنّها كاثوليكيّة.

ـ هيّا بنا. . . كان يبدو هادئًا، لكنّ شفتيه كانتا ترتجفان. وقلت لأعزّيه:

ـ سنسير جميعًا في الطريق نفسه. . .

فقال ساخرًا:

ـ يا للعزاء الجميل! هيّا بنا.

قلت:

ـ انتظر، سوف يأخذونها. انتظر لنرى. . . ألا تستطيع أن تثبت إلى النهاية؟

فأجاب بصوت ذبيح:

ـ سأثبت.

ووضع القفص على الأرض وصلّب ذراعيه.

وخرج من غرفة الميّتة الأب أنانيوستي، وكوندومانوليو، حاسري الرأس، ورسما إشارة الصليب. وكان وراءهما أربعة من الراقصين، وورود نيسان ما تزال خلف آذانهم، نصف سكارى، يبدو عليهم المرح، يمسك كلّ منهم بزاوية من الباب الذي مدّدت عليه الميّتة. وفي الخلف، يجيء عازف القيثارة مع آلته، وعشرة من الرجال، شعورهم مشعّثة قليلاً، لا يزالون يمضغون، وخمس نساء أو ستّ، تحمل كلّ منهنّ إبريقًا أو مقعدًا. وكان الأخير ميميتو وهو يحمل النعلين الباليتين المتدلّيتين من عنقه. وكان يصيح مازحًا:

ـ القتلة! القتلة! القتلة!

كانت ثمّة ريح حارّة ورطبة تهبّ، وغضب البحر. ورفع عازف القيثارة معزفه، وتدفّق صوته غضًّا، مرحًا، هازئًا، في الليل الدافئ:

«لماذا، واشمساه، قد عجّلت بالاختفاء بمثل هذه السرعة. . .»؟

وقال زوربا:

ـ كفى! لقد انتهى الأمر. . .

ـ ٢٤ ـ

كنّا نسير، صامتين، عبر أزقّة القرية الضيّقة. كانت المنازل المعتمة تبدو كلطخة سوداء، وفي مكان ما كان ثمّة كلب ينبح، وبقرة تخور. وكانت تصلنا من بعيد، مع فحيح الريح، أصوات القيثارة المرحة، وهي تتدفّق كمياه عابثة.

وقلت كي أحطّم جدار الصمت الثقيل:

ـ زوربا، ما هذه الريح؟ أريح الجنوب؟

لكنّ زوربا كان يمشي في المقدّمة، ممسكًا بقفص الببّغاء وكأنّه يمسك بفانوس، ولم يجب. وعندما وصلنا إلى الشاطئ، استدار، وسألني:

ـ أجائع، أيّها الرئيس؟

ـ لا، لست جائعًا، يا زوربا.

ـ أنعسان؟

ـ لا.

ـ ولا أنا. لنجلس قليلاً فوق الحصى. ولديّ ما أريد أن أسألك عنه.

كنّا كلانا متعبين، لكنّنا لم نكن نريد أن ننام. لم نكن نريد أن نفقد سمَّ ذلك النهار. إنّ النوم يبدو لنا وكأنّه هرب في ساعة الخطر. وكنّا خجلين من الذهاب للنوم.

وجلسنا عند شاطئ البحر. ووضع زوربا القفص بين ركبتيه، وظلَّ صامتًا فترة طويلة. وظهرت، وراء الجبل، مجموعة قلقة من النجوم،

وكأنّها مسخ أسطوري له ألف عين، ذنبه حلزوني الشكل. ومن حين إلى حين كانت إحدى النجوم تنفصل وتهوي.

وتطلّع زوربا إلى السماء واجدًا، فاغر الفم، وكأنّه يراها للمرّة الأولى.

ـ ما الذي يمكن أن يجري هناك عاليًا؟

وبعد لحظة، قرّر أن يتكلّم، وقال بصوت رصين منفعل، رنّ في الليل الدافئ:

ـ هل يمكنك أن تقول لي، أيّها الرئيس، ماذا تعني هذه الأشياء كلّها، من الذي صنعها؟ لماذا صنعها؟ وعلى الأخصّ (وارتجف صوت زوربا غضبًا وخوفًا): لماذا نموت؟

فأجبت خجلاً، وكأنّني أُسأل عن أبسط شيء ضروري، ومع ذلك يستحيل عليّ أن أفسّره:

ـ لست أدري، زوربا!

فقال زوربا:

ـ لست تدري!

واستدارت عيناه، تمامًا كما استدارتا في تلك الليلة الأخرى التي اعترفت له فيها أنّني لا أجيد الرقص.

وظلّ صامتًا لحظة، ثم انفجر فجأة:

ـ إذن، فكلّ تلك الكتب القذرة التي تقرأها، ماذا تنفع، قل لي؟ لماذا تقرأها؟ وإذا كانت لا تجيب عن ذلك، فماذا تقول إذن؟

ـ إنّها تتحدّث عن حيرة الإنسان الذي لا يستطيع أن يجيب عمّا يُسأل، يا زوربا.

فصرخ غاضبًا وهو يضرب الأرض برجله:

ـ إلى الشيطان بحيرتها!

وعند هذه الصرخات المفاجئة، قفز الببّغاء، وصاح وكأنّه يستغيث:

ـ كاناڤارو! كاناڤارو!

فصاح زوربا وهو يضرب القفص بقبضته:

ـ أطبق فمك، أنت!

والتفت نحوي:

ـ أنا أريد أن تقول لي من أين نأتي؟ وإلى أين نذهب؟ لا بدّ أنّك بعد هذه السنوات الطويلة التي أمضيتها وأنت تستهلك نفسك في الكتب، قد عصرت ألفين أو ثلاثة آلاف كيلو من الورق، فأيّ عصير استخلصته منها؟

لقد كان صوته قلقًا جدًّا، إلى حدّ أنّ أنفاسي تلاحقت ولهثت. آه! كم وددت لو أستطيع إجابته!

كنت أحسّ إحساسًا عميقًا بأنّ أعلى ذروة يمكن أن يبلغها الإنسان ليست هي المعرفة، ولا الفضيلة، ولا الطيبة، ولا النصر، بل شيء أكبر، وأكثر بطولة، وأشدّ يأسًا: الرعب المقدّس.

وقال زوربا بقلق:

ـ ألا تجيب؟

ـ زوربا، إنّنا ديدان صغيرة، ديدان صغيرة جدًّا تقف على ورقة صغيرة من أوراق شجرة هائلة. وهذه الورقة الصغيرة هي أرضنا. والأوراق الأخرى هي النجوم التي تراها تضطرب في الليل. إنّنا نسير فوق ورقتنا الصغيرة ونحن نتفحّصها بقلق. إنّنا نشمّها، فتفوح منها رائحة طيّبة أو كريهة. نذوقها فنجد فيها الغذاء. نقفز فوقها، فترنّ وتصرخ وكأنّها كائن حيّ.

بعض البشر، ممّن هم أشجعهم، يصلون إلى حافّة الورقة. ومن هناك، ننحني، وأعيننا جاحظة، وآذاننا ممدودة، لمحو الفراغ. ونرتعد. إنّنا نخزر تحتنا الهوّة المرعبة، ونسمع من بعيد أكثر فأكثر حفيف أوراق الشجرة الهائلة الأخرى، ونحسّ بالنسغ يصعد من جذور الشجرة، وتنتفخ

قلوبنا. وهكذا، ونحن منحنون على الهاوية، نأخذ بالارتعاد، بكلّ أجسادنا، وبكلّ أرواحنا، رعبًا. وبدءًا من تلك اللحظة يبدأ. . .

وتوقّفت. كنت أريد أن أقول: بدءًا من تلك اللحظة يبدأ الشعر، لكنّ زوربا كان لن يفهم. وصمت.

وسأل صوت زوربا القلق:

ـ ما الذي يبدأ؟ لماذا توقّفت؟

ـ . . . يبدأ الخطر الأكبر، يا زوربا. يصيب الدوار البعض فيهذون، وآخرون يخافون، ويجهدون في إيجاد جواب يثبّت قلوبهم، ويقولون: «الله». وآخرون أيضًا، ينظرون، من طرف الورقة، إلى الهوّة، بهدوء وشجاعة، ويقولون: «إنّها تعجبني».

وفكّر زوربا مليًّا. كان من الصعب عليه أن يتمكّن من الفهم. وأخيرًا قال:

ـ أنا أنظر كلّ لحظة إلى الموت. أنظر إليه ولا أخاف. ومع ذلك فإنّني لا أقول أبدًا، أبدًا: «إنّه يعجبني». كلّا. إنّه لا يعجبني مطلقًا! إنّني لست موافقًا على ذلك!

وصمت، لكنّه سرعان ما انفجر:

ـ لا، لست أنا الذي سيمدّ عنقه للموت كخروف، قائلاً له: «اقطع رأسي، كي أذهب مباشرة إلى الجنّة!».

كنت أصغي إلى زوربا، حائرًا. من كان ذلك الحكيم الذي حاول أن يعلّم تلاميذه أن ينفّذوا عن طواعية ما يأمر به القانون؟ أن يقولوا «نعم» للضرورة، أن يحوّلوا ما لا بدّ منه إلى إرادة حرّة؟ ـ لعلّ هذا الطريق هو الطريق الإنساني الوحيد نحو الخلاص. إنّه يستدعي الرثاء، لكن ليس هناك غيره.

لكن التمرّد، إذن؟ قفزة الإنسان الدونكيشوتيّة لقهر الضرورة، لإخضاع القانون الخارجي لقانون روحه الداخلي، لنفي كلّ ما هو كائن، ولخلق

عالم جديد، أفضل، وأكثر نقاء وأخلاقيّة، لخلقه حسب قوانين قلبه، التي هي نقيض قوانين الطبيعة غير الإنسانيّة؟

ونظر إليّ زوربا، ورأى أنّه ليس عندي ما أقوله له. وتناول القفص بلطف كي لا يوقظ الببّغاء، ووضعه قرب رأسه، وتمدّد. وقال:

ـ ليلة سعيدة، أيّها الرئيس! هذا يكفي.

كانت ريح جنوبيّة حارّة تهبّ، تأتي من هناك، من إفريقيا. ريح تنضج خضار كريت، وثمارها، وصدورها. كنت أحسّ بها تمرّ على جبيني، وشفتيّ، وعنقي وكان عقلي يطقطق وينتفخ وكأنّه ثمرة.

لم أكن أستطيع النوم ولا أريده. ولم أكن أفكّر بشيء. كنت أحسّ فقط، في هذه الليلة الدافئة، بشيء ما، بإنسان ما، ينضج فيَّ. كنت أعيش بوضوح هذا المنظر المدهش: إنّني أرى نفسي تتبدّل. إنّ كلّ ما يجري عادة في أظلم سراديب أحشائنا كان يجري هذه المرّة في وضح النهار، مكشوفًا، أمام عينيّ. ورحت، وأنا جالس على شاطئ البحر، أراقب المعجزة.

وكبت النجوم، وراق أديم السماء، وفوق هذه الخلفيّة من النور، ظهرت الجبال، والأشجار، وطيور النورس، وكأنّها رُسمت بالريشة بإتقان.

كان النهار يشرق.

* * *

مضت عدّة أيّام. ها هي السنابل قد نضجت وحنت رؤوسها الثقيلة بالحبّ. والجنادب، على أشجار الزيتون، تشقّ الهواء، والحشرات المضيئة تطنّ في النور المحموم. ومن البحر يتصاعد البخار.

كان زوربا يمضي منذ الفجر إلى الجبل صامتًا. إنّ إنشاء المصعد يكاد ينتهي. لقد وُضعت الأوتاد في أمكنتها، ومُدّت الحبال، وعُلّقت البكرات. وكان زوربا يعود عند هبوط الليل، منهكًا. فيشعل النار، ويعدّ الطعام،

ونتعشّى. كنّا نتفادى أن نوقظ شياطيننا الداخليّة المرعبة: الحبّ، والموت، والخوف. ولم نكن لنتحدّث عن الأرملة، أو السيّدة هورتانس، أو الله، كنّا ننظر، صامتين، إلى البحر، من بعيد.

أمام صمت زوربا، كانت الأصوات الأزليّة اللامجدية ترتفع في داخلي. ومن جديد امتلأ صدري بالقلق. إنّني أسأل نفسي باستمرار: ما هذا العالم؟ ما هدفه؟ وما الذي تستطيع حياتنا الفانية أن تفعله لتبلغه؟ يزعم زوربا أنّ هدف الإنسان هو أن يفرح بالمادّة. وآخرون يقولون: بالفكر، وهذا سواء إذا نظر إليه من صعيد آخر. لكن لماذا؟ من أجل ماذا؟ وعندما ينحلّ الجسد، هل يبقى منه شيء ممّا نسمّيه روحًا؟ أم أنّه لا يبقى منه شيء. وعندما يكون ظَمَأنا إلى الخلود، الذي لا يروى له غليل، ناتجًا لا عن كوننا خالدين، بل عن أنّنا، أثناء اللحظة القصيرة التي نتنفّس فيها، نخدم شيئًا ما خالدًا؟

استيقظت ذات يوم واغتسلت. وخُيّل إليّ أنّ الأرض أيضًا قد استيقظت واغتسلت. كانت تتألّق وكلّها جدّة. وسرت في طريق القرية، إلى يساري، كان البحر الأزرق اللازوردي ساكنًا، وإلى يميني، من بعيد، تشمخ حقول القمح، وكأنّها جيوش مسلّحة بحراب ذهبيّة. وتجاوزت تينة الآنسة، المغطّاة بالأوراق الخضر وبتينات صغيرة جدًّا، وعبرت بسرعة، دون أن ألتفت، حديقة الأرملة، ودخلت القرية. إنّ الفندق الصغير مهجور الآن، مقفر. الأبواب والنوافذ تنقصه، وفي الباحة كلاب تدخل وتخرج، والغرف فارغة. لم يعد هناك وجود، في غرفة الميّتة، لسرير، أو سبت، أو مقاعد. لم يبقَ في إحدى الزوايا إلّا شبشب بالٍ، ممزّق، له طرّة حمراء. شبشب مخلص لا يزال يحتفظ بشكل قدم سيّدته. إنّ هذا الشبشب الحقير، المستحقّ للشفقة أكثر من الروح البشريّة، لم ينس بعد القدم الحبيبة التي طالما تعذّبت.

وتأخّرت في العودة. كان زوربا قد أشعل النار وأخذ يستعدّ لطبخ

الطعام. وما إن رفع رأسه حتى أدرك من أين أنا قادم. وقطّب حاجبيه. وبعد تلك الأيّام الطويلة من الصمت، أزاح المصراع عن قلبه في هذه الليلة، وبدأ يتكلّم. وقال كأنّه يريد أن يبرّر نفسه:

ـ إنّ الأحزان كلّها، أيّها الرئيس، تشطر قلبي إلى قطعتين. لكنّه هذا المليء بالندوب، المثخن بالجراح، سرعان ما تلتئم جراحه، ولا يعود للجرح وجود. إنّني مليء بالجراح التي تحوّلت إلى مجرّد ندوب، ولهذا فإنّني أستطيع أن أتحمّل الضربات.

فقلت بصوت خرج، على الرّغم منّي، قاسيًا:

ـ لقد نسيتها بسرعة تلك المسكينة بوبولينا.

لكنّ زوربا غضب ورفع صوته، وصاح:

ـ طريق جديد، مشاريع جديدة! لقد كففت عن التفكير بما جرى بالأمس. كففت عن التساؤل عمّا سيجري غدًا. ما يجري اليوم، في هذه اللحظة، هذا ما أهتمّ به. إنّني: «ماذا تفعل في هذه اللحظة، يا زوربا؟ ـ إنّني أنام ـ إذن، نم جيّدًا! ـ ماذا تفعل في هذه اللحظة، يا زوربا؟ ـ إنّني أشتغل ـ إذن، اشتغل جيّدًا! ـ ماذا تفعل في هذه اللحظة، يا زوربا؟ ـ إنّني أعانق امرأة ـ إذن، عانقها جيّدًا، يا زوربا، وانس كلّ الباقي، فليس في العالم شيء آخر. ليس فيه إلّا هي وأنت، هيّا!».

وبعد لحظة:

ـ إنّ أيّ كاناڤارو آخر لم يمنح بوبولينتنا من السعادة ما منحتها أنا الذي يحدّثك، أنا زوربا العجوز، الهرم. ستقول لي لماذا؟ لأنّ كلّ أمثال كاناڤارو في العالم كانوا يفكّرون، في اللحظة التي يعانقونها فيها، بأسطولهم، بكريت، بملكهم، برتبهم أو بنسائهم. لكنّني، أنا، كنت أنسى كلّ شيء، كلّ شيء، وكانت هي، العاهرة، تفهم ذلك جيّدًا. أعلم هذا، أيّها العلّامة، ليس في العالم ما يسعد المرأة أكثر من ذلك. إنّ المرأة الحقيقيّة، استمع إلى هذا لتعرف كيف تتصرّف، تتمتّع باللذّة التي تمنحها

للرجل أكثر من تمتّعها باللذّة التي تأخذها منه.

وانحنى كي يلقم النار حطبًا، وصمت.

كنت أنظر إليه، وكان فرحي عظيمًا. إنّني أحسّ أنّ هذه الدقائق، فوق هذا الساحل المقفر، غنيّة بسيطة، ذات قيمة إنسانيّة عميقة. إنّ عشاء كلّ ليلة يشبه ذلك الطعام الذي يعدّه البحّارة عندما ينزلون إلى شاطئ مقفر ـ من السمك، والمحار، والصدف ـ وهو ألذّ من أيّ طعام آخر، وليس له مثيل كغذاء لروح الإنسان. هنا، عند نهاية العالم، كنّا نحن أيضًا كفريقين.

قلت:

ـ أتذكر، يا زوربا، أيّ طُعم ألقيته لي في مقهى البيريه كي أعضّ الصنّارة؟ ادّعيت أنّك تحسن صنع أشهر أنواع الحساء، وقد شاء حظّك أن يكون الحساء ألذّ طعام عندي. كيف فهمت ذلك؟

فهزّ زوربا رأسه بشيء من الاحتقار:

ـ لست أدري أيّها الرئيس! لقد خطر لي ذلك هكذا. من الشكل الذي رأيتك جالسًا به في زاوية المقهى، مطمئنًا، متحفّظًا، ومحنيًا على كتاب صغير مذهّب من جوانبه ـ لست أدري، قلت في نفسي إنّك تحبّ الحساء. لقد خطر هذا هكذا، أؤكّد لك، وليس من الواجب أن تبحث عن السبب!

وصمت، وأصاخ السمع، وقال:

ـ اصمت، هناك شخص قادم!

وسمعنا خطوات مستعجلة، ولهاث إنسان يجري. وفجأة برز أمامنا، على ضوء النار، راهب ممزّق الثياب، حاسر الرأس، بلحية محترقة، ونصف شارب.

وكانت تفوح منه رائحة بترول نفّاذة.

وصرخ زوربا:

ـ إيه! أهلاً بك، أيّها الأب زكريّا! من الذي جعلك على هذه الحالة؟

وانهار الراهب أرضًا، قرب النار. كانت ذقنه ترتعد.

وانحنى زوربا عليه وغمز بعينه، فأجاب الراهب:

ـ نعم.

فصاح زوربا:

ـ مرحى، أيّها الراهب! من المؤكّد الآن أنّك ستذهب إلى الجنّة، حاملاً صفيحة الوقود بيدك، دون أن تلتفت يمينًا أو شمالاً.

فتمتم الراهب وهو يرسم إشارة الصليب:

ـ آمين!

ـ كيف جرى الأمر؟ متى؟ حدّثني!

ـ رأيت الملاك ميخائيل، أيّها الأخ كاناڤارو، وأصدر إليّ أمرًا. اسمع وانظر. كنت بمفردي في المطبخ، والباب مغلق، وأنا أقشّر الفاصولياء الخضراء. وكان الآباء يصلّون صلاة العصر، وكلّ شيء هادئًا، وسمعت العصافير تغرّد، وخُيّل إليّ أنّها ملائكة. كنت مطمئنًّا جدًّا، وقد هيّأت كلّ شيء، ورحت أنتظر. وقد اشتريت صفيحة من البترول، وخبّأتها في كنيسة المقبرة، تحت المائدة المقدّسة، كي يباركها الملاك ميخائيل.

إذن، البارحة، بعد الظهر، كنت أقشّر الفاصولياء الخضراء، ورأسي عامر بالجنّة، وكنت أقول في نفسي: «أيّها السيّد يسوع، اجعلني، أنا أيضًا، أستحقّ ملكوت السماوات، فأقبل بتقشير الخضار حتى الأبد في مطابخ الجنّة!». هذا ما كنت أفكّر فيه، ودموعي تنساب. وفجأة سمعت فوقي خفق أجنحة: «زكريّا، ارفع عينيك، لا تخف!». لكنّني كنت أرتعد، وسقطت أرضًا. وقال الصوت من جديد: «ارفع عينيك، يا زكريّا!» ورفعت عينيّ ورأيت: كان الباب مفتوحًا، والملاك ميخائيل واقفًا على العتبة، كما هو مرسوم على باب المعبد تمامًا: بجناحين أسودين، ونعلين حمراوين، وخوذة ذهبيّة. لكنّه كان يمسك بمشعل ملتهب بدلاً من السيف. وقال لي: «السلام، يا زكريّا!». فأجبت: «إنّني خادم الله، وأنا رهن أوامرك!». قال: «خذ المشعل وليكن السيّد معك!». ومددت يدي وأحسست براحتي

تحترق، لكنّ الملاك كان قد اختفى. ورأيت فقط من الباب لسان نار في السماء، وكأنّه نجمة هاوية.

وجفّف الراهب العرق عن وجهه. لقد شحب لونه. وكانت أسنانه تصطكّ وكأنّه محموم.

وقال زوربا:

ـ ثم؟ تشجّع، أيّها الراهب!

ـ في تلك الأثناء، أخذ الآباء يخرجون من الكنيسة ويدخلون إلى قاعة الطعام. وبينما كان رئيس الدير مارًّا من أمامي رفسني برجله وكأنّني كلب. واندفع الآباء يضحكون. وبقيت أنا صامتًا. كان الجوّ، منذ مرور الملاك، تفوح منه رائحة أشبه برائحة الكبريت، لكن لم ينتبه إليها أحد. وجلسوا إلى المائدة. وقال لي المشرف على الطعام: «زكريّا، ألا تأتي لتأكل؟». لكنّ فمي ظلّ مطبقًا.

وقال دوميتيوس اللوطي: «خبز الملائكة يكفيه!». وضحك الآباء ثانية. عندئذ نهضت واتّجهت نحو المقبرة. وانكفأت على وجهي عند قدمي الملاك. وأحسست طوال ساعات بقدمه تدوس فوق رقبتي. ومضى الوقت كالبرق. هكذا تمضي الساعات والعصور في الجنّة. وجاء منتصف الليل. كان كلّ شيء هادئًا. وذهب الرهبان للنوم. ونهضت. ورسمت إشارة الصليب وقبّلت قدم الملاك. وقلت «لتكن مشيئتك!». وأمسكت بصفيحة البترول وفتحتها. كنت قد حشوت ثيابي بالخرق. وخرجت.

كانت الظلمة شديدة. ولم يكن القمر قد أشرق بعد. وكان الدير أسود تمامًا، كأنّه جهنّم. ودخلت إلى الباحة، وصعدت الدرج، ووصلت إلى غرفة رئيس الدير، وصببت بترولاً على الباب، والنوافذ، والجدران. وأسرعت إلى غرفة دوميتيوس. ومن هناك رحت أبلّل الغرف والممرّ الخشبي الطويل، تمامًا كما بيّنت لي. ثم دخلت إلى الكنيسة، وأشعلت شمعة من قنديل المسيح، وأضرمت النار.

وصمت الراهب لاهثًا. واشتعلت عيناه. وزمجر وهو يرسم إشارة الصليب:

ليتمجّد اسم الربّ! ليتمجّد اسم الربّ! فقد التهب الدير دفعة واحدة وصرخت: «إلى نار جهنّم!»، وركضت هاربًا. كنت أجري بكلّ قواي، وأسمع الأجراس تقرع، والرهبان يصرخون...

وطلع النهار. واختبأت في الغابة. كانت أسناني تصطكّ. وأشرقت الشمس، وسمعت الرهبان ينقّبون بين الأشجار بحثًا عنّي. لكنّ الإله الرحيم ألقى ضبابًا عليّ فلم يروني. وعند الغسق سمعت صوتًا: «انزل حتى البحر، وانجُ بنفسك!» فهتفت: «أيّها الملاك قدني!»، وتابعت السير. لم أكن أدري أين أذهب، بل كان الملاك هو الذي يقودني، مرّة أخرى في شكل برق، ومرّة في شكل طير أسود بين الأشجار، أو أيضًا في شكل درب نازل. وكنت أجري ما استطعت في أثره، وثقة كبيرة تغمر قلبي. وهأنذا، آه يا لطيبة قلبه! لقد وجدتك، أيّها العزيز كاناڤارو. لقد نجوت.

لم يكن زوربا ليتكلّم، لكن انتشرت على طول وجهه ضحكة عريضة، آسرة، صامتة، تذهب من أطراف فمه إلى أذنيه الطويلتين المليئتين بالشعر. وسأل:

ـ زكريّا، ما هو «خبز الملائكة» ذاك؟

فأجاب الراهب وهو يرسم إشارة الصليب:

ـ الروح.

ـ الروح؟ تعني الهواء؟ إنّها لا تغني من جوع، يا صاح، تعالَ كُلْ خبزًا، وحساء، وسمكًا، وقطعة من اللحم لتشدّ من عزيمتك. لقد اشتغلت جيّدًا، إذن، كُلْ!

فقال الراهب:

ـ لست جائعًا.

ـ زكريّا ليس جائعًا، لكن يوسف؟

فقال الراهب بصوت خفيض، وكأنّه يكشف عن سرّ كبير:

ـ يوسف، اللعين، قد احترق، ليتمجّد اسم الربّ!

فصاح زوربا ضاحكًا:

ـ احترق! كيف؟ متى؟ أرأيته؟

ـ أيّها الأخ كاناڤارو، لقد احترق في اللحظة التي كنت أشعل فيها الشمعة من قنديل المسيح. رأيته بأمّ عيني يخرج من فمي، كشريط بأحرف من نار. لقد سقط لهيب الشمعة عليه، فتلوّى كثعبان واستحال إلى رماد. يا للراحة! يخيّل إليّ أنّني قد دخلت الجنّة!

ونهض من قرب النار حيث كان قابعًا.

ـ سأذهب لأنام قرب البحر، فهذا هو الأمر الذي تلقّيته.

وخطا عدّة خطوات على الشاطئ، ثم اختفى.

وقلت:

ـ إنّك مسؤول عنه، يا زوربا، وإذا ما وجده الرهبان، فهو هالك.

ـ لن يجدوه، لا تهتمّ، أيّها الرئيس. إنّني أعرف هذا النوع من قطّاع الطريق. غدًا صباحًا سألحق به، وأعطيه ثيابًا بشريّة، وأركبه البحر. لا تهتمّ له، فالأمر لا يستحقّ ذلك. هل الحساء طيّب؟ كُلْ خبز البشر بشهيّة جيّدة ولا تقلق.

وتعشّى زوربا بشهيّة، وشرب، ومسح شاربيه. إنّه يرغب الآن في الكلام. قال:

ـ أرأيت؟ إنّ شيطانه قد مات. وها هو الآن فارغ، فارغ تمامًا، التعيس، إنّه هالك! لقد أصبح الآن كالآخرين.

وفكّر لحظة ثم قال فجأة:

ـ أتعتقد، أيّها الرئيس، أنّ هذا الشيطان كان...

فأجبت:

ـ بالتأكيد. لقد سيطرت عليه فكرة حرق الدير، فأحرقه، وهدأت نفسه. تلك الفكرة كانت تريد أن تأكل اللحم، وتشرب الخمر وتنمو، وتصبح عملاً. ولم يكن زكريّا الآخر بحاجة إلى اللحم أو الخمر. فهو قد نما بالصوم.

وقلّب زوربا هذا الكلام في رأسه مرّة واثنتين.

ـ بحقّ السماء! أعتقد أنّك على حقّ، أيّها الرئيس، يُخيّل إليّ أنّ فيّ خمسة شياطين أو ستّة!

ـ كلّنا فينا شياطين، يا زوربا، لا تخف. وكلّما كان فينا عدد أكبر، كان الأمر أحسن. يكفي أن يتّجهوا جميعًا نحو الهدف نفسه بطرق مختلفة.

وأثارت هذه الكلمات زوربا. فخبّأ رأسه الضخم بين ركبتيه، وراح يفكّر. وسألني أخيرًا وهو يرفع عينيه:

ـ أيّ هدف؟

ـ لست أدري يا زوربا! إنّك تسألني أمورًا صعبة جدًّا، فكيف أشرح لك؟

ـ قل ذلك ببساطة، فأفهم. لقد تركت، أنا، كلّ شياطيني حرّة حتى الآن كي تفعل ما تريد، وتسير في الطريق الذي يعجبها. ولهذا يدعوني البعض غير شريف، وغيرهم شريفًا، وغيرهم مجنونًا، وغيرهم سليمان الحكيم. إنّني هذا كلّه وأشياء أخرى أيضًا. صلة روسيّة حقيقيّة. إذن، أضئ عقلي قليلاً إذا كنت تستطيع، أيّ هدف؟

ـ أعتقد يا زوربا، لكنّي قد أكون مخطئًا، أنّ هناك ثلاثة أنواع من البشر: الذين يحدّدون هدفًا لهم أن يعيشوا حياتهم، كما يقولون، ويأكلوا، ويشربوا، ويحبّوا، ويغتنوا، ويصبحوا مشاهير. ثم الذين يحدّدون هدفًا لهم، لا لأجل حياتهم الخاصّة، بل حياة جميع البشر. إنّهم يشعرون أنّ جميع البشر ليسوا إلّا واحدًا، ويجهدون في محاولة تفتيح عقولهم، وحبّهم بقدر ما يستطيعون، ويحسنون إليهم. وأخيرًا هناك الذين هدفهم أن يعيشوا

حياة الكون أجمع: إنّنا كلّنا، من بشر، وحيوانات، ونباتات، وكواكب، لسنا إلّا كلًّا واحدًا. لسنا إلّا من جوهر واحد يشنّ المعركة الرهيبة نفسها. أيّة معركة؟ تحويل المادّة إلى روح.

وحكّ زوربا رأسه:

ـ إنّ جمجمتي قاسية، إنّني لا أفهم بسهولة... آه! أيّها الرئيس، لو كنت تستطيع أن ترقص كلّ ما تقوله، كي أفهم!

وعضضت على شفتي مذهولاً. لو كنت أستطيع أن أرقص كلّ هذه الأفكار اليائسة! لكنّني عاجز عن ذلك، لقد أسأت استخدام حياتي.

ـ آه لو كنت تستطيع، أيّها الرئيس، أن تقول لي كلّ هذا كحكاية. كما كان يفعل حسين آغا. كان تركيًّا هرمًا، جارنا، هرمًا جدًّا، فقيرًا جدًّا، بلا زوجة ولا أطفال، وحيدًا تمامًا. كانت ثيابه بالية، لكنّها كانت تتألّق نظافة. وكان هو الذي يغسلها، ويطبخ وينظّف أرض الغرفة. وعند المساء، كان يأتي إلى بيتنا، ويجلس في الباحة مع جدّتي وعجائز غيرها، ويحوك الجوارب.

لقد كان حسين آغا هذا رجلاً قدّيسًا. وذات يوم أخذني على ركبتيه ووضع يده على رأسي كأنّه يمنحني بركته، وقال لي: «ألكسيس، سأسرّ لك بأمر. إنّك أصغر من أن تفهم، لكنّك ستفهم عندما تكبر. أصغِ إليّ، يا بنيّ: إنّ الإله الرحيم، كما ترى، لا تستطيع طبقات السماء السبع وطبقات الأرض السبع أن تسعه. لكنّ قلب الإنسان يسعه. إذن، احذر، يا ألكسيس، من أن تجرح ذات يوم قلب الإنسان!

كنت أصغي إلى زوربا بصمت، وأقول في نفسي: ليتني أستطيع ألّا أفتح فمي إلّا عندما تبلغ الفكرة المجرّدة أعلى ذروة لها، عندما تصبح حكاية، لكنّ هذا لا يستطيعه إلّا شاعر كبير، أو شعب، بعد عدّة عصور من النضج الصامت.

ونهض زوربا.

ـ سأنهض لأرى ما يصنعه راهبنا الخارق، وأرمي له ببطّانيّة كي لا يُصاب ببرد. وسآخذ مقصًّا، فقد يفيده.

وأخذ هذه الأشياء، وانطلق ضاحكًا، على طول البحر. كان القمر قد تربّع السماء. وراح ينشر فوق الأرض لونًا شاحبًا، مريضًا.

كنت أزن، وأنا بمفردي قرب النار المنطفئة، كلمات زوربا، الغنيّة بالمعنى والفائحة منها رائحة أرض حارّة، وكأنّها تصعد من أعمق أحشائه، وهي لا تزال محتفظة بالحرارة الإنسانيّة. أمّا كلماتي، أنا، فكانت من ورق. إنّها تنزل من رأسي، لا تكاد تلطّخها نقطة دم واحدة. ولو كانت لها قيمة ما، فإنّما هي مدينة بها لنقطة الدم هذه بالذات.

كنت، وأنا ممدّد على بطني، أنقّب في الرماد الحارّ عندما عاد زوربا فجأة، متدلّي الذراعين، ذاهلاً.

ـ أيّها الرئيس، لا تذهل...

ونهضت قافزًا. فقال:

ـ لقد مات الراهب.

ـ مات؟

ـ وجدته ممدّدًا على الصخرة. كان القمر يُضيئه. فركعت وبدأت أقصّ لحيته وما تبقّى من شاربه. كنت أقصّ، وأفصّل، لكنّه لم يتحرّك. بل إنّني وصلت إلى الجلد وأنا مندفع في عملي. لا بدّ أنّني قصصت نصف كيلو من الشعر. عندئذ، عندما رأيته هكذا، حليقًا كخروف، انفجرت ضاحكًا. وصرخت به وأنا أهزّه: «قل إذن، أيّها السيّد زكريّا، استيقظ كي ترى معجزة العذراء!». لكنّه لم يتحرّك. وهززته مرّة أخرى، لا شيء! وقلت في نفسي: إنّه ما كان ليموت، في مرّات سابقة. وفتحت رداءه، وكشفت عن صدره، ووضعت يدي على قلبه: لكن ليس هناك تاك تاك! لا شيء مطلقًا! إنّ الآلة قد كفّت عن الدوران!

كان زوربا كلّما تكلّم ازداد مرحًا. لقد خضّه الموت للحظة، لكنّه

سرعان ما أعاده إلى مكانه.

ـ والآن، ماذا سنفعل، أيّها الرئيس؟ أنا، من رأيي أن نشعل فيه النار. من يَقتل بالبترول، بالبترول يُقتل، أليس هذا ما يقوله الإنجيل؟ أَوَتعرف، تعرف أنّه بثيابه المتصلّبة من الدهن والمبلّلة بالبترول بالإضافة إلى ذلك، سيشتعل جيّدًا مثل يهوذا يوم الخميس المقدّس!

قلت مستاء:

ـ افعل ما يحلو لك.

وغرق زوربا في تأمّل عميق، وأخيرًا قال:

ـ إنّه لأمر مزعج جدًّا... لو أضرمت فيه النار، لالتهبت ثيابه كمشعل، لكن هو، المسكين، ليس لديه سوى الجلد والعظام! إنّه سيستغرق زمنًا طويلاً، بسبب نحافته، إلى أن يتحوّل إلى رماد. بل ليس فيه أقّة شحم واحدة حتى يساعد النار.

وأضاف وهو يهزّ رأسه:

ـ لو كان الإلٰه الرحيم موجودًا، ألا تعتقد أنّه كان توقّع كلّ هذا، وخلقه بدينًا، فيه كثير من الشحم، حتى ينقذنا من هذه الورطة؟ ما رأيك؟

ـ لا تزجّ بي في هذه القصّة، أقول لك. افعل ما يحلو لك، لكن بسرعة.

ـ الأفضل هو أن تخرج معجزة من كلّ هذا! لا بدّ أنّ الرهبان سيعتقدون أنّ الإلٰه الرحيم قد اختار أن يكون حلّاقًا، وأنّه بعد أن حلق له شعره قتله ليجازيه لكونه أضرّ بالدير.

وحكّ جمجمته:

ـ لكن أيّة معجزة؟ أيّة معجزة؟ ها هنا أنتظرك، يا زوربا!

كان الهلال، وهو على وشك المغيب، وقد أصبح الآن عند طرف الأفق، ذهبيًّا أرجوانيًّا، كقطعة من معدن حمّرتها النار.

وذهبت لأنام، متعبًا. وحين استيقظت عند الفجر، رأيت زوربا بقربي

وهو يعدّ القهوة. كان شاحبًا، وعيناه حمراوين ومنتفختين بسبب سهره طول الليل. لكنّ شفتيه الغليظتين الشبيهتين بشفتي تيس كانتا تبتسمان بخبث.

ـ لم أنم الليل، أيّها الرئيس، فقد كان عندي شغل.

ـ أيّ شغل، أيّها السافل؟

ـ كنت أقول بالمعجزة.

وضحك ووضع إصبعًا على شفتيه:

ـ لن أقول لك! غدًا سيدشّن المصعد. سيأتي الكهنة المترهّلون ليمنحوا البركة، وعندئذ سيعلم الناس بالمعجزة الجديدة لسيّدة الانتقام.

وقدّم لي القهوة. وتابع:

ـ يا صاح، إنّني صالح لأن أرأس ديرًا. لو فتحت ديرًا، فإنّني أراهنك على أنّني سأضطرّ جميع الأديرة الأخرى إلى الإغلاق، وسآخذ منها كلّ زبائنها. أهي الدموع التي تريد؟ إسفنجة صغيرة نديّة وراء الأيقونات، ويأخذ جميع قدّيسيّ بالبكاء. أأصوات رعد؟ سأدسّ تحت المائدة المقدّسة آلة ميكانيكيّة تفرقع. أأشباح؟ اثنان من رهباني الأوفياء سيطوفون ليلاً على أسطحة الدير، متلفّحين بالبطّانيّات. وكلّ سنة، سأهيّئ، بمناسبة عيد نعمتها، مركبًا من العرجان والعميان والمشلولين يحصلون على النور من جديد، وينتصبون على أقدامهم ليرقصوا!

لماذا تهزأ، أيّها الرئيس؟ لقد وجد عمٌّ لي بغلاً هرمًا على وشك الموت. كانوا قد تركوه على الجبل ليفطس. فأخذه. وشرع، كلّ صباح، يقوده إلى المرعى، وعند المساء، يعود به إلى بيته، وكان أهل القرية يصيحون به: «إيه، أيّها الأب هارالامبوس، ماذا تريد أن تفعل بهذا البغل المسنّ الذي لا حيلة له؟» وكان عمّي يُجيب: «إنّني أستخدمه كمصنع للروث!». حسنًا! أيّها الرئيس، إنّني سأستخدم الدير كمصنع للمعجزات.

ـ ٢٦ ـ

إنّني لن أنسى في حياتي أبدًا عشيّة الأوّل من أيّار تلك. كان المصعد قد أُعدَّ، والأوتاد، والحبال، والبكرات، تلمع تحت شمس الصباح. وجذوع ضخمة من الصنوبر مكوّمة في قمّة الجبل، وعمّال ينتظرون، هناك عاليًا، اللحظة التي يعلّقونها فيها بالحبال ويتركونها تتدحرج نحو البحر.

كان علم يوناني كبير يخفق في أعلى وتد الانطلاق، فوق الجبل، وعلم آخر في أعلى وتد الوصول، على الساحل. وكان زوربا قد وضع أمام الكوخ برميلاً صغيرًا من الخمر. وكان يقف إلى جانبه أحد العمّال وهو يشوي على السفّود خروفًا سمينًا، وكان على المدعوّين، بعد البركة والتدشين، أن يتناولوا كأس خمر ليتمنّوا لنا الازدهار.

وكان زوربا قد أنزل أيضًا قفص الببّغاء، ووضعه على صخرة إلى جانب أوّل وتد.

وتمتم وهو ينظر إليه بحنان:

ـ كأنّني أرى سيّدته مكانه.

وأخرج من جيبه قبضة من الفستق وقدّمها له.

كان يرتدي ثياب العيد: قميصًا أبيض مفكوك الأزرار، وسترة خضراء، وبنطالاً رماديًّا، وحذاءيه المطّاطيّين الجميلين. وكان، بالإضافة إلى ذلك، قد طلى شاربه الذي بدأ لونه يبهت.

وأسرع يستقبل، كسيّد كبير، سادة كبارًا آخرين، الأعيان الذين كانوا

يقدمون، فيشرح لهم ما هو المصعد، وما سيستفيد منه البلد، وإنّ العذراء القدّيسة هي التي ألهمته فكرة هذا العمل الرائع.

كان يقول:

ـ إنّه عمل هامّ. وكان لا بدّ من أن أجد الميل اللازم. قضيّة علميّة تمامًا! وأجهدت مخّي خلال شهور، لكن بلا فائدة. إنّ عقل الإنسان ليس كافيًا للأعمال الكبرى، ولا بدّ فيها من معونة إلٰهيّة. عند ذاك رأتني العذراء القدّيسة جدًّا وأنا أكدّ وأجهد، فأشفقت عليّ، وقالت إنّ هذا المسكين، زوربا، شخص شجاع طيّب، إنّه يفعل ذلك لخير القرية، سأساعده قليلاً. ويا للمعجزة!

وتوقّف زوربا ورسم إشارة الصليب ثلاث مرّات:

ـ يا للمعجزة! حضرت أمامي، ذات ليلة، وأنا نائم، امرأة في ثياب سود: كانت العذراء القدّيسة. وكانت تمسك بيدها سكّة حديديّة هوائيّة صغيرة، ليست أكبر من ذلك. وقالت لي: «زوربا، إنّني أحمل إليك التصميم. خذ، اتبع هذا الميل، ولك بركتي!». وما إن قالت ذلك حتى اختفت. عندئذ استيقظت واثبًا. وأسرعت إلى حيث كنت أجري تجاربي، وماذا رأيت؟ كان السلك قد أخذ من نفسه الميل اللازم! وكانت تفوح منه رائحة اللبان، دليلاً على أنّ يد العذراء قد لمسته!

وفتح كوندومانوليو فاه ليطرح سؤالاً، عندما ظهر، عند أقصى الدرب الوعر، خمسة رهبان يمتطون بغالاً. وكان راهب سادس، يحمل صليبًا كبيرًا من الخشب على كتفه، يركض أمامهم وهو يصرخ. لماذا كان يصرخ؟ لم نكن نستطيع بعد أن نميّز.

وسمعنا تراتيل، وكان الرهبان يهزّون أيديهم، ويرسمون إشارة الصليب، والحجارة تقدح شررًا.

ووصل الراهب الذي كان يسير راجلاً إلى مقربة منّا، والعرق يسيل منه.

ورفع صوته عاليًا، صارخًا:

ـ أيّها المسيحيّون، المعجزة! المعجزة! أيّها المسيحيّون، المعجزة! الآباء يحملون العذراء القدّيسة جدًّا، اركعوا على ركبكم، واعبدوها!

وأسرع القرويّون منفعلين ـ الأعيان والعمّال ـ وأحاطوا بالراهب وهم يرسمون إشارة الصليب. ووقفت أنا جانبًا. ورماني زوربا بنظرة سريعة تقدح شررًا، وقال لي:

ـ اقترب، أنت أيضًا، أيّها الرئيس، اذهب لسماع العذراء القدّيسة جدًّا!

وأخذ الراهب يتحدّث بعجلة لاهثًا:

ـ اركعوا على ركبكم، أيّها المسيحيّون، استمعوا إلى المعجزة الإلٰهيّة! استمعوا إليها، أيّها المسيحيّون! لقد أسر إبليس روح زكريّا اللعين، ودفعه، يوم أمس الأوّل، إلى رشّ الدير المقدّس بالبترول. وعند منتصف الليل، شاهدنا ألسنة النار. ونهضنا بسرعة كبيرة. كانت الكنيسة، والممرّ، والغرف، تلتهب. وقرعنا الأجراس ونحن نصرخ: «النجدة، يا سيّدة الانتقام!»، وأسرعنا بالجرار والدلاء. وعند الفجر كانت النار قد أُطفئت.

وذهبنا إلى الكنيسة التي تتصدّرها أيقونتها العجائبيّة وركعنا أمامها صارخين: «يا عذراء الانتقام، استلّي رمحك واضربي المجرم!». ثم تجمّعنا في الباحة ولاحظنا غياب زكريّا، يهوذا الدير. ورحنا نصرخ: «إنّه هو الذي أحرقنا، هو!» وانطلقنا نبحث عنه. وفتّشنا طيلة النهار، ولم نجده، وفتّشنا طيلة الليل، ولم نجده. واليوم، عند طلوع النهار، ذهبنا من جديد إلى الكنيسة، فماذا رأينا، يا إخوتي؟ معجزة رهيبة! كان زكريّا ممدّدًا، ميّتًا، عند قدمي الأيقونة المقدّسة، ورأس رمح العذراء لا يزال ملطّخًا بقطرة دم كبيرة!

وأخذ القرويّون المرعوبون يتمتمون:

ـ يا إلٰهي، ارحمنا!

وتابع الراهب وهو يبلع لعابه:

ـ وإليكم ما هو رهيب أيضًا! عندما انحنينا لنرفع زكريّا اللعين، وقفنا فاغري الأفواه: لقد حلقت العذراء شعره، شاربه ولحيته ـ مثل كاهن كاثوليكي!

والتفتُّ نحو زوربا، وأنا لا أكاد أستطيع إمساك نفسي عن الضحك، وقلت له بصوت خافت:

ـ أيّها اللصّ!

لكنّه كان ينظر إلى الراهب، جاحظ العينين، ويرسم إشارات الصليب بندم، دون توقّف، دلالة على الذهول المطلق. وكان يتمتم:

ـ إنّك كبير، أيّها السيّد، إنّك كبير أيّها السيّد! ورائعة هي أعمالك.

وأثناء ذلك وصل سائر الرهبان، وحطّوا رحالهم أرضًا. كان الأب المضيف يمسك بالأيقونة بين ذراعيه. وتسلّق صخرة، وأسرع الجميع وهم يتزاحمون، ليسجدوا أمام العذراء العجائبيّة. وفي الخلف كان الأب دوميتيوس الضخم، يلمّ الصدقات في صينيّة، ويرشّ ماء الورد على جباه الفلّاحين الغليظة. وكان ثلاثة رهبان يلتفّون حوله، وقد عقدوا أيديهم المليئة بالشعر على بطونهم، وقطرات كبيرة من العرق تنسال منهم، وهم ينشدون التراتيل.

وقال دوميتيوس الضخم:

ـ سنذهب للقيام بجولة في قرى كريت، حتى يسجد المؤمنون أمام «نعمتها» ويأتوا بعطاياهم. إنّنا بحاجة للمال، لكثير من المال كي نرمّم الدير المقدّس...

فدمدم زوربا: «يا لذوي البطون الضخمة! إنّهم سيخرجون من القضيّة رابحين أيضًا».

واقترب من رئيس الدير:

ـ أيّها الرئيس المقدّس، إنّ كلّ شيء معدّ للاحتفال. لتبارك العذراء القدّيسة عملنا!

كانت الشمس قد أصبحت عالية، والجوّ حارًّا جدًّا، لا تهبّ فيه نسمة هواء، واجتمع الرهبان حول الوتد المرفوع عليه العلم. وجفّفوا جباههم بأكمامهم العريضة وشرعوا ينشدون صلاة «تأسيس المنزل»:

«أيّها السيّد، أيّها السيّد، ابنِ هذه الآلة على صخرة قويّة، بحيث لا يؤثّر بها المطر أو الريح...».

وغمسوا مرشّة الماء المقدّس في الإناء النحاسي ورشّوا الأشياء والناس، والوتد، والحبل، والبكرات، وزوربا، وأنا، ثم الفلّاحين، والعمّال، والبحر.

وبعد ذلك رفعوا الأيقونة، بحذر شديد، كأنّهم يرفعون امرأة مريضة، ووضعوها قرب الببّغاء وصنعوا دائرة حولها. ومن الجهة الأخرى وقف الأعيان، وفي الوسط زوربا. أمّا أنا فانسحبت إلى مقربة من البحر، ورحت أنتظر.

كانت التجربة ستجري بثلاث أشجار، كرمز للثالوث الأقدس. ثم ستضاف إليها شجرة رابعة، دلالة على الاعتراف بالجميل تجاه سيّدة الانتقام.

ورسم الرهبان، والقرويّون، والعمّال، إشارة الصليب، وتمتموا:

ـ باسم الثالوث الأقدس والعذراء!

وبخطوة واحدة، كان زوربا قد أصبح قرب الوتد الأوّل. وسحب الحبل وأنزل العلم. وكانت هذه هي الإشارة التي ينتظرها العمّال، هناك في أعلى الجبل. وتراجع جميع الحضور وثبّتوا أعينهم على قمّة الجبل.

هتف رئيس الدير:

ـ باسم الآب!

يستحيل أن أصف ما جرى بعد ذلك. لقد انفجرت الكارثة كصاعقة.

ولم يكن بين الحضور وبين الهلاك إلّا ثانية واحدة. فقد ارتجّ المصعد كلّه. واندفعت شجرة الصنوبر التي كان العمّال قد ربطوها بالحبل بسرعة شيطانيّة. وقدح الشرر، وتطايرت قطع من الخشب في الهواء. وعندما وصلت الشجرة إلى الأسفل بعد عدّة ثوانٍ، كانت قد استحالت حطبة نصف محترقة.

ورماني زوربا بنظرة كلب تلهبه السياط. وتراجع الرهبان والقرويّون إلى الوراء بحذر. وأخذت البغال المربوطة ترفس. وانهار دوميتيوس الضخم لاهثًا، وراح يتمتم مذعورًا:

ـ أيّها السيّد، ارحمنا!

ورفع زوربا ذراعه، وقال باطمئنان:

ـ ليس الأمر بذي بال. هكذا يحدث دومًا بالنسبة للجذع الأوّل. أمّا الآن فإنّ الآلة قد اعتادت، انظروا!

وأعاد رفع العلم، وأعطى الإشارة من جديد، وابتعد راكضًا. وصاح رئيس الدير بصوت يرتعد قليلاً:

ـ والابن!

ودفع الجذع الثاني. وارتجّت الأوتاد، وانطلق الجذع. وراح يثب مثل درفيل، وينقضُّ نحونا انقضاضًا. لكنّه لم يذهب بعيدًا جدًّا، إذ انسحق عند منتصف الجبل.

فدمدم زوربا وهو يعضّ على شاربيه:

ـ ليأخذه الشيطان! إنّ هذا الميل اللعين ليس دقيقًا كما يجب!

ووثب نحو الوتد، وبحركة حانقة، أنزل العلم إشارة إلى إنزال الجذع الثالث. ورسم الرهبان، الذين احتموا وراء بغالهم، إشارة الصليب. وكان الأعيان ينتظرون، رِجْلٌ في الهواء ورِجْلٌ على الأرض، استعدادًا للهرب. وتمتم رئيس الدير، وهو يشمّر ثوبه:

ـ والروح القدس!

كان الجذع الثالث ضخمًا. وما إن دُفع حتى تعالى هدير مخيف. وزعق زوربا وهو يهرب:

ـ انبطحوا أرضًا، أيّها الأشقياء!

وسقط الرهبان على وجوههم، وهرب القرويّون.

وقفز الجذع قفزة، ثم سقط على الحبل، وأطلق حزمة من الشرر. وقبل أن يُتاح لنا الوقت لنرى أيّ شيء، تجاوز الجبل والشاطئ وغاص بعيدًا في البحر، تاركًا خلفه زبدًا عاليًا.

كانت الأوتاد تهتزّ بشكل يدعو للقلق. ومال كثير منها وقطعت البغال حبالها وأطلقت عنانها هربًا.

وصرخ زوربا بغيظ:

ـ لا شيء! لا شيء! لقد تدرّبت الآلة الآن. إلى الأمام!

ورفع العلم مرّة أخرى وكان واضحًا عليه أنّه يائس يستعجل أن يرى كلّ ذلك منتهيًا.

وتمتم رئيس الدير وهو يطلق ساقيه للريح:

ـ وسيّدة الانتقام!

واندفع الجذع الرابع. وتعالت طقطقة مخيفة، وتبعتها أخرى، وانهارت كلّ الأوتاد، الواحد تلو الآخر، كقصر من ورق اللعب.

وهتف العمّال والقرويّون والرهبان وهم يهربون في كلّ الاتّجاهات:

ـ أيّها السيّد، ارحمنا!

وأصابت شظيّة دوميتيوس في ساقه. وكادت شظيّة أخرى أن تفقأ عين رئيس الدير، وتوارى القرويّون. كانت العذراء بمفردها فقط لا تزال منتصبة فوق صخرتها، رمحها في يدها، تنظر إلى الرجال بعينيها الحادّتين. وإلى جانبها، كان الببّغاء المسكين يرتعد، ميّتًا أكثر منه حيًّا، وقد ازبأرّ ريشه الأخضر.

وأخذ الرهبان العذراء، وشدّوا عليها بين أذرعهم، ورفعوا دوميتيوس الذي كان يئنّ من الألم، وجمعوا البغال، وامتطوها، وساروا القهقهرى.
وكان العامل الذي يشرف على عمليّة الشواء قد ترك، في لحظة ذعره، الخروف الذي أخذ يحترق.

وصرخ زوربا قلقًا وهو ينقضّ نحوه ليديره:

ـ إنّ الخروف سيتحوّل إلى فحم!

وجلست قربه. كان الشاطئ قد أقفر من الجميع، وبقينا بمفردنا. واستدار نحوي وحدجني بنظرة قلقة، متردّدة. لم يكن يعرف كيف يواجه هذه الكارثة ولا كيف ينهي هذه المغامرة.

وتناول سكّينًا، وانحنى من جديد على الخروف، واقتطع منه قطعة، وذاقها، ثم سحب الحيوان من فوق النار وأسنده منتصبًا على سفّوده إلى جذع شجرة. وقال:

ـ لقد شُوي كما ينبغي، كما ينبغي أيّها الرئيس! هل تريد قطعة صغيرة؟

فأجبت:

ـ جئ أيضًا بالخمر والخبز، فأنا جائع.

واندفع زوربا بخفّة، ودحرج الدنّ إلى مقربة من الخروف، وجاء بقرص خبز أبيض وكأسين.

وأخذ كلّ منّا سكّينًا، وقطع شريحتين من اللحم، وقطعًا كبيرة من الخبز، وأخذ يأكل بشره.

ـ أترى كم هو لذيذ، أيّها الرئيس؟ إنّه يذوب في الفم! فهنا، كما ترى، لا توجد مراعٍ خصبة، والحيوانات تكلأ العشب الجافّ، لذلك فإنّ للحمها هذا الطعم اللذيذ. إنّني لم آكل في حياتي من مثل هذا اللحم اللذيذ إلّا مرّة واحدة. أذكر أنّ ذلك كان في الأيّام التي طرّزت فيها بشعري أيقونة لصوفيا المقدّسة، كنت أحملها كتعويذة. لقد رويتها لك، إنّها قصّة قديمة!

ـ اروها! اروها!

ـ قصص قديمة، أقول لك، أيّها الرئيس! هوس يوناني، هوس جنوني!

ـ هيّا، ارو، يا زوربا. هذا يعجبني!

ـ إذن في ذلك المساء، طوّقنا البلغاريّون. كنّا نراهم حولنا من كلّ الجهات على منحدرات الجبل وهم يشعلون النيران. وراحوا، كي يخيفونا، يضربون على الصنوج ويعوون كالذئاب. كان عددهم ثلاثمئة، ولا شكّ. أمّا نحن فكنّا ثمانية وعشرين، بالإضافة إلى الكابتن «روفاس» ـ ليرحم الله نفسه، إن كان قد توفّي، فقد كان فتى جسورًا! ـ قائدنا. وقال لي «إيه! زوربا، ضع الخروف على السفّود!» فقلت: «إنّ طعمه سيكون ألذّ إذا شويناه في حفرة، أيّها الكابتن». فقال: «افعل كما تشاء، لكن بسرعة، فنحن جائعون!». وحفرنا حفرة، وملأتها بجلد الخروف، ووضعنا طبقة سميكة من الفحم فوقها، وأخرجنا الخبز من زوّادتنا، وجلسنا حول النار. وقال الكابتن روفاس: «لعلّه آخر خروف نأكله! هل ثمّة من هو خائف هنا!». فبدأ الجميع يضحكون ولم يتنازل أيّ شخص للإجابة. وتناولنا إبريق الماء «في صحّتك، أيّها الكابتن!». وشربنا جرعة، وشربنا جرعتين، وأخرجنا الخروف من الحفرة. آه! يا صاح، يا له من خروف، أيّها الرئيس! إنّ اللعاب يتصاعد إلى فمي، عندما أفكّر به! يذوب في الفم ذوبانًا، كالحلوى! وارتمينا عليه بأفواه جائعة. وقال الكابتن: «في حياتي لم أذق قطّ ألذّ من هذا اللحم! ليحمنا الله!». ثم جرع كأسه دفعة واحدة، وهو الذي لم يكن يشرب أبدًا. وأمر: «أنشدوا أنشودة كليفتيّة، أيّها الأولاد! إنّهم يعوون، هناك، كذئاب، أمّا نحن، فسوف ننشد كرجال. أنشدوا ديموس الشيخ»! وبلعنا بسرعة، وشربنا أيضًا جرعة أخرى. وارتفع النشيد، وتعاظم، تردّد صداه الوديان: «لقد هرمت أيّها الرفاق، منذ أربعين سنة وأنا كليفتي...». جذل يحطّم كلّ شيء. وقال الكابتن: «إيه! إيه! يا

للمرح! آه لو يدوم! قم، ألكسيس، انظر قليلاً إلى ظهر الخروف... ماذا يقول؟». وشرعت أسلخ بالموسى ظهر الخروف، واقتربت من النار كي أرى بشكل أوضح. وهتفت: «إنّني لا أرى قبورًا، أيّها الكابتن، إنّني لا أرى أمواتًا. سننجو بأنفسنا مرّة أخرى أيّها الرفاق!». فقال قائدنا الذي تزوّج حديثًا: «يسمعك الله. لأتمكّن على الأقلّ من إنجاب ولد، وبعد ذلك، ليحدث ما سيحدث!».

وقطع زوربا شريحة كبيرة من صلب الخروف، وقال:

ـ لقد كان طيّبًا ذلك الخروف، لكنّ هذا المسكين الصغير لا يدين له بشيء!

قلت:

ـ هات لنشرب، زوربا. املأ الكأسين حتى تطفحا ولنفرغهما!

وبعد أن قرعنا الكأسين، ذقنا خمرنا، خمرًا كريتيًّا لذيذًا، قاني اللون كدم الأرنب البرّي. إنّ المرء يشعر، عندما يشربه، أنّه يتناول دم الأرض، وأنّه يصبح غولاً. إنّ الأوردة تطفح بالقوّة، والقلب بالطيبة. والحمل يتحوّل إلى أسد. وتُنسى صغائر الحياة، وتطقطق الإطارات الضيّقة. لقد أصبحنا كلًّا واحدًا مع الكون، إذ اتّحدنا بالبشر، بالحيوانات، بالله. وقلت:

ـ لنِرَ نحن أيضًا ما يقوله ظهر الخروف. اذهب، هيّا، يا زوربا!

وسلخ الظهر بعناية، وكشطه بسكّينه، وقرّبه من النور، وحدّق فيه بانتباه. وقال:

ـ كلّ شيء على ما يرام. سنعيش ألف سنة، أيّها الرئيس، وبقلوب كالفولاذ!

وانحنى، وشرع يفحص من جديد، وقال:

ـ أرى سفرًا، سفرًا كبيرًا كبيرًا، وأرى في نهاية السفر منزلاً كبيرًا، له أبواب كثيرة. إنّها ولا شكّ عاصمة مملكة ما، أيّها الرئيس. أو بالأحرى

الدير الذي سأصبح بوّابه، حيث أقوم بقطع الطريق، كما قلنا.

ـ صُبّ لنا لنشرب، يا زوربا، ودع التنبّؤات. سأقول لك، أنا، ما هو هذا المنزل الكبير ذو الأبواب العديدة: إنّها الأرض بقبورها، يا زوربا. تلك هي نهاية السفر. في صحّتك، أيّها اللصّ!

ـ في صحّتك، أيّها الرئيس! يبدو لي أنّ الحظّ أعمى. لا يعرف أين يذهب، فيصطدم بالمارّة، ومن يسقط عليه، يدعُه الناس محظوظًا. إلى الشيطان بمثل هذا الحظّ، فنحن لا نريده، أيّها الرئيس، أليس كذلك؟

ـ إنّنا لا نريده، يا زوربا، في صحّتك!

وشربنا، وأكلنا باقي الخروف. كان العالم يخفّ وزنه، والبحر يضحك، والأرض ترتجُّ كجسر سفينة، وطائران من طيور النورس يمشيان على الحصى، وهما يتحدّثان كالبشر.

ونهضت هاتفًا:

ـ تعالَ، يا زوربا، علّمني الرقص!

وقفز زوربا، وقدح وجهه شررًا. وقال:

ـ الرقص، أيّها الرئيس؟ الرقص؟ هيّا! تعالَ!

ـ هيّا بنا، يا زوربا، لقد تبدّلت حياتي، تشجّع!

ـ في البدء، سأعلّمك رقصة زيمبيكيكو. رقصة وحشيّة، حربيّة، كنّا، نحن المتطوّعين، نرقصها قبل المعركة.

وخلع نعليه، وجوربيه الباذنجانيّين، ولم يحتفظ إلّا بقميصه. لكنّه كان يضايقه، فخلعه أيضًا. وأمرني:

ـ انظر إلى قدميّ، أيّها الرئيس انتبه!

ومدّ قدمه، ومسّ الأرض بخفّة، ومدّ القدم الأخرى. واشتبكت الخطى بعنف، ومرح، ورنّت الأرض.

وشدّني من كتفي، وقال:

ـ هيّا، يا بنيّ، كلانا معًا!

واندفعنا في الرقص. كان زوربا يصلح أخطائي، بجدّيّة، وصبر، وحنان. وتشجّعت، وشعرت كأنّ أجنحة تنمو في قدميّ الثقيلتين.

وصرخ زوربا وهو يصفّق بيديه ضبطًا للإيقاع:

ـ مرحى! مرحى يا بنيّ! إلى الشيطان بالقرطاس والمحابر! إلى الشيطان بالأملاك والمصالح! الآن وقد أصبحت ترقص وتعلّمت لغتي، فما الذي لا نستطيع التفاهم حوله!

ودقّ الحصى بقدميه، وصفّق بيديه، وهتف:

ـ أيّها الرئيس، لديّ أشياء كثيرة أقولها لك، إنّني لم أحبّ في حياتي شخصًا كما أحببتك. لديّ أشياء كثيرة أقولها لك، لكنّ لساني قاصر عن ذلك. إذن فسأرقصها لك! قف جانبًا حتى لا أصدمك! إلى الأمام، هوب! هوب!

وقفز، وأصبحت قدماه ويداه أجنحة. كان وهو يندفع هكذا، مستقيمًا، فوق الأرض، على هذه الخلفيّة من السماء والبحر، يشبه ملاكًا مسنًّا متمرّدًا. إذ إنّ هذه الرقصة الزورباويّة كانت كلّها تحدّيًا، وعنادًا، وتمرّدًا. وكأنّه يصرخ: «ماذا تستطيع أن تفعل معي، أيّها الفائق القوّة؟ إنّك لا تستطيع شيئًا، اللهمّ إلّا قتلي. اقتلني، فأنا غير مبالٍ. لقد أفرغت غضبي، وقلت كلّ ما أردت قوله: لقد أُتيح لي الوقت للرقص، ولم أعد بحاجة إليك!».

وبينما أنا أنظر إلى زوربا يرقص، فهمت لأوّل مرّة جهد الإنسان الخيالي ليقهر الثقالة. لقد أُعجبت بتجلّده، وخفّته، وكبريائه. كانت خطى زوربا المحمومة الرشيقة ترسم على الحصى تاريخ الإنسان الشيطاني.

وتوقّف، وتأمّل المصعد المنهار الذي تحوّل إلى سلسلة أكداس. كانت الشمس تميل نحو المغيب، والظلال تتمدّد. وجحظت عينا زوربا

كأنّه تذكّر فجأة شيئًا ما. واستدار نحوي، وبحركة تعوّد عليها، غطّى فمه براحته. وقال:

ـ آه! آه! أيّها الرئيس، ما الذي كان يقدحه كالشرر، هذا اللعين؟
وانفجرنا ضاحكين.

وألقى زوربا بنفسه عليّ، وأخذني بين ذراعيه، وراح يقبّلني. وصاح بي بحنان:

ـ أتمزح، أنت أيضًا؟ أتمزح، أنت أيضًا، أيّها الرئيس، مرحى، يا غلامي!

وبينما نحن نغرب في الضحك، رحنا نتصارع فترة طويلة، لاعبين فوق الحصى. ثم تهالكنا أرضًا كلانا معًا، وتمدّدنا على الحصباء، ونمنا، متعانقين.

* * *

عند الفجر، نهضت وسرت بسرعة، على طول الشاطئ، نحو القرية. كان قلبي يثب وثبًا، فقلّما شعرت بمثل هذا الفرح في حياتي. بل لم يكن فرحًا، إنّما غبطة رائعة، عبثيّة، لا تبرير لها. ليس فقط لا تبرير لها، بل مناقضة لكلّ تبرير. لقد خسرت هذه المرّة مالي كلّه، والعمّال، والمصاعد، والعربات. لقد أنشأنا مرفأ صغيرًا لتصدير الفحم، والآن لم يعد عندنا شيء نصدّره. كلّ شيء ضاع.

إلّا أنّني، في تلك اللحظة بالذات، شعرت بذلك الإحساس بالخلاص غير المتوقّع، وكأنّني اكتشفت، بين ثنايا الضرورة القاسية الشكسة، الحرّيّة لاهيةً في إحدى الزوايا. وقد رحت ألهو معها.

أيّ فرح يتملّك الإنسان، عندما يسير كلّ شيء عكسًا، فيعرّض روحه للامتحان ليرى إذا كان لها احتمال وقيمة! وكأنّ عدوًّا غير مرئي، وفائق القوّة ـ البعض يسمّونه الله والبعض إبليسًا ـ يندفع ليصرعنا، لكنّنا نظلّ واقفين. وفي كلّ مرّة ينتصر فيها الإنسان الحقيقي داخليًّا، في حين يُقهر

قهرًا تامًّا من الناحية الخارجيّة، يشعر بكبرياء وفرح لا يمكن التعبير عنهما.

إنّني أتذكّر ما رواه زوربا لي ذات مساء: «ذات ليلة، فوق جبل في ماسيدونيا، مغطّى بالثلج، هبّت ريح مخيفة. كانت تهزّ الكوخ الصغير الذي اختبأت فيه، تريد أن تقلبه. لكنّي كنت قد دعّمته جيّدًا. وجلست بمفردي أمام المدفأة حيث كانت النار تشتعل. ورحت أضحك وأتحدّى الريح صارخًا: لن تدخلي كوخي، لن أفتح لك الباب، لن تطفئي ناري، لن تستطيعي قهري!».

لقد فهمت، إذ تذكّرت كلمات زوربا هذه، كيف يجب على الإنسان أن يتصرّف، وأيّة لغة يجب أن يخاطب بها الضرورة الغاشمة العمياء.

كنت أسير بسرعة على الشاطئ، وأتحدّث أنا أيضًا مع العدوّ غير المرئي، وأصيح: «لن تدخل إلى روحي، لن أفتح لك الباب، لن تطفئ ناري، لن تستطيع قهري!».

لم تكن الشمس قد تربّعت بعد قمّة الجبال، وكانت الألوان تلهو في السماء وعلى البحر، ألوان زرقاء، وخضراء، ووورديّة، ولؤلؤيّة، والعصافير الصغيرة تستيقظ، على أشجار الزيتون، مغرّدة، قد أسكرها النور.

كنت أسير بحذاء الماء لأودّع هذا الشاطئ المنعزل، وأحفره في ذهني، وأحمله معي.

لقد عرفت أفراحًا عديدة على هذا الساحل، وزادت الحياة مع زوربا قلبي اتّساعًا، وحملت بعض كلماته الهدوء إلى نفسي. كان هذا الإنسان، بغريزته المعصومة، وبنظراته البدائيّة الكاسرة، يسلك أقصر الطرق وآمنها، ويصل، دون أن تلهث أنفاسه، إلى ذروة الجهد، إلى ما هو أعلى من الجهد.

ومرّت مجموعة من الرجال والنساء، يحملون سلالاً مليئة، وقناني خمر كبيرة. كانوا ذاهبين إلى البساتين ليحتلفوا بالأوّل من أيّار. وتدفّق صوت صبيّة كفوّارة ماء وغنى. ومرّت بي فتاة صغيرة، نهد صدرها قبل

الأوان، لاهثة، والتجأت إلى صخرة عالية. وكان يطاردها رجل أسود اللحية، شاحب، غاضب. وراح يصرخ بصوت أبحّ:

ـ انزلي... انزلي...

لكنّ الصغيرة، الملتهبة الخدّين، رفعت ذراعيها، وصلّبتهما وراء رأسها، وراحت تتابع أغنيتها، وهي تهزّ جسدها الخضل على مهل:

قله لي مازحًا، قله لي متدلّلاً.

قل لي إنّك لا تحبّني، فأنا لا أهتمّ بذلك مطلقًا.

وكان الرجل الملتحي يصيح بها وصوته المبحوح يتضرّع ويهدّد:

ـ انزلي... انزلي...

وعلى حين غرّة، وثب، وأمسك بقدمها، وضغط عليها بعنف، وانفجرت الفتاة باكية، وكأنّها لم تكن تنتظر إلّا هذه البادرة الفظّة حتى تفرّج عن كربها.

ومضيت بخطًى سريعة. كانت هذه الأفراح كلّها تهيّج قلبي. وبرزت الجنّيّة العجوز في ذاكرتي، بدينة، معطّرة، قد ارتوت من القبل، ممدّدة على الأرض. لا شكّ في أنّها قد انتفخت واخضرّت، وتفسّخت، وسالت منها الأخلاط، وظهرت الديدان.

وهززت رأسي بقرف. إنّ الأرض تصبح أحيانًا شفّافة، فنلمح الرئيس الكبير، الدود، يعمل ليل نهار في ورشاته تحت الأرض. لكنّنا نسرع في إشاحة بصرنا، لأنّ الإنسان يستطيع تحمّل كلّ شيء، باستثناء مرأى الدود الصغير الأبيض.

عند مدخل القرية، صادفت ساعي البريد الذي كان يهمّ بالنفخ في بوقه. فصاح بي وهو يمدّ إليّ بغلاف أزرق:

ـ رسالة، أيّها الرئيس!

وانتفضت، مغتبطًا، وأنا أتعرّف الخطّ الناعم. واجتزت القرية بسرعة، وانتهيت إلى غابة الزيتون، وفتحت الرسالة بنفاد صبر. كانت مختصرة،

موجزة، وقرأتها دفعة واحدة:

«لقد بلغنا حدود جورجيا، وأفلتنا من الأكراد، وكلّ شيء على ما يرام. إنّني أعرف أخيرًا ما هي السعادة. إنّني الآن فقط أستطيع أن أفهم الحكمة القديمة جدًّا: السعادة هي أن تؤدّي واجبك، وكلّما كان الواجب أصعب، كانت السعادة أعظم، لأنّني أعيشها.

«بعد عدّة أيّام، ستصل هذه المخلوقات المطاردة المحتضرة إلى «باطوم»، وقد تلقّيت توًّا برقيّة: «لقد ظهرت المراكب الأولى!».

«إنّ هذه الألوف من اليونانيّين الأذكياء النشيطين، مع نسائهم العظيمات الكشح، وأولادهم الملتهبي العيون، سوف ينقلون قريبًا إلى ماسيدونيا وتراسيا. سوف نحقن أوردة اليونان العجوز بدم جديد قوي.

«لقد تعبت قليلاً، وأنا أعترف بذلك، لكن ما الضرر! لقد قاتلنا، أيّها المعلّم، ولقد انتصرنا، فأنا سعيد».

أخفيت الرسالة، وحثثت الخطى. كنت سعيدًا، أنا أيضًا. وسرت في درب الجبل الوعر، وأنا أهصر بين أصابعي غصن صعتر مزهرًا عبقًا. كان الظهر يقترب، والظلّ يتكاثف عند قدميّ، أسود، وحلّق صقر عاليًا جدًّا، وكان جناحاه يخفقان بسرعة شديدة حتى إنّه ليبدو ساكنًا. وسمع حجل وقع أقدامي، فاندفع خارج الشوك ورنّ صوت جناحيه في الهواء.

كنت سعيدًا. ولو استطعت لغنّيت، لأُعيد الهدوء إلى نفسي، لكنّي لم أتمكّن إلّا من إطلاق صرخات مبهمة. وسألت نفسي هازئًا: «ماذا بك؟ هل أنت وطني متحمّس جدًّا دون أن تعرف؟ أم هل تحبّ صديقك إلى هذا الحدّ؟ ألا تخجل؟ تمالك نفسك، وابق هادئًا».

لكنّي تابعت السير في الدرب، وأنا أعوي، وقد حلّق بي الفرح. وتعالى صوت جلاجل، وظهرت على الصخور عنزات سود، سمر، رماديّة، تسبح في العرق، بسبب الشمس. وكان التيس يسير، في مقدّمتها، وقد تصلّبت رقبته، وملأت الجوّ رائحته النتنة.

وقفز راعٍ على صخرة وناداني وهو يصفّر بأصابعه:

ـ إيه! أيّها الصديق! أين أنت ذاهب؟ تجري وراء من؟

فأجبت وأنا أتابع الصعود:

ـ عندي عمل.

فصرخ الراعي من جديد، وهو يقفز من صخرة إلى صخرة:

ـ قف، تعال اشرب شيئًا من اللبن لترطّب حلقك!

فصرخت ثانية، إذ لم أكن أريد أن أفقد فرحي، بالحديث:

ـ عندي عمل.

فقال الراعي بخيبة:

ـ إيه! أنت تحتقر لبني! إذن، رحلة موفّقة. على رسلك!

ووضع أصابعه في فمه، وصفّر لقطيعه، وبعد لحظات، اختفى الجميع، العنزات والكلاب والراعي، وراء الصخور.

وبعد قليل بلغت قمّة الجبل. وسرعان ما هدأت نفسي، وكأنّ هذه القمّة كانت هدفي. وتمدّدت على صخرة، في الظلّ، ونظرت إلى السهل والبحر بعيدًا. ورحت أستنشق عميقًا الهواء العبق برائحة القويسة والصعتر.

نهضت، وقطفت حزمة قويسة، وصنعت منها وسادة، ورقدت. كنت متعبًا، فأغمضت عينيّ.

وطار فكري، لحظة، هناك، نحو الهضاب العالية المغطّاة بالثلج. وبذلت جهدي لأتصوّر قطيع الرجال، والنساء، والأبقار، المتّجه نحو الشمال، وصديقي يسير في المقدّمة، كالكبش الذي يقود القطيع. لكن سرعان ما أظلم عقلي، وشعرت برغبة في النوم لا تقهر.

أردت أن أقاوم، وأن لا أغوص في النعاس، وفتحت عينيّ. كان ثمّة غراب قد حطّ أمامي على الصخرة، فوق قمّة الجبل تمامًا. كان ريشه الأسود الأزرق يلمع تحت الشمس، وتبيّنت بوضوح منقاره الأصفر الكبير.

وتملّكني الغضب، فقد تشاءمت من هذا الغراب. وأخذت حجرًا ورميته به. ونشر الطائر جناحيه، بهدوء وبطء.

وأغلقت عينيّ من جديد، بعد أن لم أعد أستطيع مقاومة، وغلبني النعاس، دفعة واحدة، كالصاعقة.

ـ لم يكن نومي قد استغرق ثواني، عندما أطلقت صرخة وانتصبت مرّة واحدة. كان الغراب في تلك اللحظة يمرّ فوق رأسي. واستندت إلى الصخرة، وأنا أرتعد. ثمّة حلم عنيف قد اخترق فكري كضربة سيف.

رأيت نفسي في أثينا، أصعد شارع هرمس، بمفردي. كانت الشمس تتلظّى، والشارع مقفرًا، والمخازن مغلقة، والعزلة كاملة. وعندما مررت أمام كنيسة كابنيكاريا، رأيت من ساحة «الدستور»، صديقي يجري، شاحبًا، لاهثًا. وكان يتبع رجلاً فارع الطول، بالغ النحافة، يسير بخطّى واسعة كخطى مارد. وكان صديقي يرتدي زيّه الدبلوماسي الفخم، ورآني وصاح بي من بعيد، لاهثًا:

ـ أيْ، يا معلّم، كيف حالك؟ منذ قرن لم أشاهدك. تعال هذا المساء، فسوف نتحدّث.

فصحت أنا أيضًا، بقوّة عظيمة، وكأنّ صديقي بعيد جدًّا، وكأنّ عليّ أن أرفع صوتي إلى أقصى ما أستطيع حتى يسمعني:

ـ إلى أين؟

ـ إلى ساحة الكونكورد، هذا المساء، في الساعة السادسة. في مقهى «نبع الفردوس».

فأجبت:

ـ حسنًا سآتي.

فقال بلهجة فيها تأنيب:

ـ أنت تقول هذا، أنت تقول هذا، لكنّك لن تأتي.

فصحت:

ـ سآتي بالتأكيد! أعطني يدك!

ـ إنّني مستعجل.

ـ لماذا أنت مستعجل؟ أعطني يدك.

ومدّ ذراعه، لكنّها انفصلت فجأة عن كتفه، وجاءت، مخترقة الفضاء، لتمسك بيدي.

وذعرت لهذا الاحتكاك البارد، وأطلقت صرخة، واستيقظت منتفضًا.

وفاجأت آنذاك الغراب محلّقًا فوق رأسي. وكانت شفتاي تقطران سمًّا.

واستدرت نحو الشرق، وسرّحت عينيّ في الأفق، وكأنّني أريد أن أثقب المدى وأرى. . . كان صديقي، أنا واثق من ذلك، في خطر. وهتفت ثلاث مرّات باسمه:

ـ ستافريداكي! ستافريداكي!

وكأنّني أريد أن أبثّه الشجاعة. لكنّ صوتي ضاع على بعد عدّة أمتار أمامي وتبخّر في الهواء.

وعدت أدراجي. كنت أتدحرج من الجبل محاولاً، لشدّة التعب، أن أبدّل مكان الألم. كان عقلي يحاول عبثًا أن يفكّ رموز الرسائل الغامضة التي تنجح أحيانًا في اختراق الجسد وبلوغ الروح. في أعماق كياني، كان يقين بدائيّ، أعمق من العقل، حيوانيّ يمتلئ بالرعب، اليقين نفسه الذي تشعر به بعض الحيوانات، كالخرفان والجرذان، قبل أن ينفجر زلزال الأرض. واستيقظت في داخلي روح البشر الأوائل كما كانت قبل أن تنفصل نهائيًّا عن الكون، عندما كانت تحسّ، مباشرة، ودون تدخّل العقل المشوّه، بالحقيقة. وتمتمت:

ـ إنّه في خطر! إنّه في خطر. . . سوف يموت. لعلّه هو نفسه لا يدري ذلك بعد. لكنّي، أنا، أعرف. إنّني واثق. . .

كنت أهبط الجبل راكضًا، وتعثّرت بكومة حجارة وتدحرجت،

مدحرجًا معي الحصى. ونهضت، ويداي وساقاي دامية، كلّها خدوش. كان قميصي قد تمزّق، لكنّي شعرت بنوع من الاطمئنان.

كنت أقول في نفسي وأنفاسي تختنق: «سوف يموت! سوف يموت!».

يزعم الإنسان، التعيس، أنّه قد بنى حول وجوده المسكين الصغير حصنًا عاليًا لا يمكن اقتحامه، فهو يلتجئ إليه ويحاول أن يجد فيه بعض النظام والأمن، بعض السعادة. وكلّ شيء فيه يجب أن يسير في الطرق المعبّدة، حسب الروتين الأقدس، ويخضع لقوانين بسيطة ومضمونة. وفي هذا المكان المسوّر المحصّن ضدّ غارات السرّ العنيفة، تجرجر اليقينيّات الصغيرة ذوات الألف رجل نفسها، بثقة. وليس ثمّة إلّا عدوّ واحد رهيب، يخشاه الإنسان ويكرهه حتى الموت، هو: اليقين الأكبر. وها هو هذا اليقين الأكبر قد اجتاز الآن الجدران العالية وانقضّ على روحي.

عندما بلغت شاطئي، لهثت قليلاً. وفكّرت: «هذه الرسائل كلّها تولد من قلقنا الخاصّ، وتبدو لنا في نومنا في زيّ الرمز اللامع. ولكن إنّما نحن الذين نخلقها...». واطمأننت قليلاً. لقد ردّ العقل النظام إلى قلبي، وقطع أجنحة الخفّاش الغريب، وشذّبه وقلّمه، إلى أن جعل منه فأرة أليفة.

عندما وصلت إلى الكوخ، كنت أبتسم من سذاجتي. كنت خجلاً من أن يكون عقلي قد وقع بمثل هذه الساعة في حبائل الرعب. وسقطت ثانية في الواقع الروتيني، فشعرت بالجوع، والعطش، وأحسست بنفسي منهكًا. وكانت الجروح التي سبّبتها لي الصخور تحرقني. لكنّي كنت أشعر، على الأخصّ، باطمئنان كبير: فالعدوّ المخيف الذي اجتاز الجدران قد تراجع أمام الخطّ المحصّن الثاني لروحي.

ـ ٢٧ ـ

لقد انتهى الأمر. جمع زوربا الحبال، والأدوات، والعجلات، والحدائد، وخشب البناء، وكوّمها على الشاطئ بانتظار أن يأتي المركب ليحملها، وقلت:

ـ إنّني أهديكها، يا زوربا، إنّها لك، حظّ طيّب!

وضغط زوربا على حنجرته، كأنّه يريد أن يكبت نحيبًا. وتمتم:

ـ أمفترقان؟ إلى أين ستذهب، أيّها الرئيس.

ـ إنّني راحل إلى الخارج، يا زوربا. إنّ العنزة التي في داخلي لا يزال لديها الكثير من الورق لتقضمه.

ـ ألم تصلح نفسك بعد، أيّها الرئيس؟

ـ بلى، يا زوربا، بفضلك، لكنّي أسير في الطريق نفسه الذي تسير فيه أنت. سأفعل بالكتب ما فعلته أنت بالكرز. سآكل الكثير من الورق إلى أن أُصاب بالقرف، وعندئذ سأتقيأ وأكون قد تحرّرت.

ـ وماذا سيحدث لي أنا، بدون رفقتك، أيّها الرئيس؟

ـ لا تحزن، يا زوربا، سنلتقي أيضًا. ومن يدري، إنّ قوّة الإنسان رهيبة! سنحقّق ذات يوم مشروعنا الأكبر. سنبني ديرًا لنا، دون إلٰه، دون إبليس، مع رجال أحرار. وستكون، أنت يا زوربا، على الباب، ممسكًا بالمفاتيح الضخمة، مثل القدّيس بطرس، لتفتح وتغلق...

كان زوربا، وهو جالس أرضًا، مسندًا ظهره إلى الكوخ، يملأ كأسه

ويشرب دون توقّف، ولا يقول شيئًا.

كان الليل قد أرخى سدوله، وكان عشاؤنا قد انتهى، ونحن نتحادث حديثنا الأخير ونشرب. وغدًا، في الصباح الباكر، سنفترق.

كان زوربا يقول وهو يشدّ شاربه ويشرب:

ـ نعم، نعم... نعم، نعم...

كانت السماء مليئة بالنجوم، والليل فوقنا يرشح، شديد الزرقة. وكان قلبنا، في داخلنا، يريد أن يندمل، لكنّه كان يتمالك نفسه.

كنت أفكّر «ودِّعه وداعك الأخير، انظر إليه جيّدًا، فعيناك لن تريا زوربا بعد الآن، مطلقًا، مطلقًا!».

وكدت ألقي بنفسي على الصدر الهرم وآخذ بالبكاء، لكنّي خجلت. وحاولت أن أضحك لأخفي انفعالي، لكنّي لم أستطع. كان حلقي مخنوقًا.

ونظرت إلى زوربا يمدّ رقبته الشبيهة برقبة طير كاسر، ويشرب بصمت. كنت أنظر إليه وعيناي تغرورقان. ما هو إذن هذا السرّ الفظّ: الحياة؟ إنّ البشر يتلاقون ويفترقون كأوراق الأشجار التي تطردها الريح. وعبثًا يحاول النظر أن يحتفظ بوجه المخلوق الحبيب، وجسده، وحركاته. فبعد عدّة سنوات لن يذكر أبدًا ما إذا كانت عيناه زرقاوين أو سوداوين.

وهتفت في داخلي: «كان يجب أن تكون من البرونز، كان يجب أن تكون من الفولاذ، لا من الهواء، النفس الإنسانيّة!».

كان زوربا يشرب، ورأسه الضخم منتصب مستقيمًا، ساكنًا. وكأنّه يصغي في الليل إلى وقع خطى تقترب أو خطى تبتعد في أعماق كيانه.

ـ بِمَ تفكّر، يا زوربا؟

ـ بِمَ تريدني أن أفكّر، أيّها الرئيس؟ بلا شيء. بلا شيء، أقول لك! إنّني لا أفكّر بشيء.

وبعد لحظات، أضاف، وهو يملأ كأسه من جديد:

ـ في صحّتك، أيّها الرئيس!

وقرعنا كأسينا. كنّا نشعر كلانا أنّ مثل هذه الكآبة الحادّة لا يمكن أن تدوم أطول من ذلك. كان علينا إمّا أن ننفجر بكاء أو نسكر، أو نرقص رقصًا جنونيًّا. واقترحت:

ـ اعزف، يا زوربا!

ـ إنّ السانتوري، لقد قلت هذا سابقًا، أيّها الرئيس، إنّ السانتوري يريد قلبًا سعيدًا. لعلّي سأعزف بعد، بعد شهرين، بعد سنتين، لست أدري! سأغنّي آنذاك كيف يفترق إنسانان فراقًا أبديًّا.

فصرخت مذعورًا:

ـ أبديًّا!

كنت أردّدها في داخلي، هذه الكلمة التي لا دواء لها، لكنّي لم أكن أتوقّع أن أسمعها تُلفظ. فخفت. وكرّر زوربا وهو يبلع لعابه بصعوبة:

ـ أبديًّا! نعم، أبديًّا. إنّ ما تقوله لي الآن، من أنّنا سنلتقي ثانية، وسنبني ديرًا، ليس إلّا عزاء فظيعًا. إنّني لا أقبله! لا أريده! ماذا؟ هل نحن نساء لنتحاج إلى العزاء؟ نعم، أبديًّا!

فقلت، وقد أخافني حنان زوربا المستفرس:

ـ لعلّي سأبقى معك، هنا... لعلّي أيضًا سآتي معك. إنّني حرّ!

فهزّ زوربا رأسه، وقال:

ـ كلّا، لست حرًّا. إنّ الحبل الذي ربطت به نفسك أطول قليلاً من حبل الآخرين. هذا كلّ شيء. إنّ لديك، أيّها الرئيس، حبلاً طويلاً، فأنت تذهب، وتأتي، وتعتقد أنّك حرّ، لكنّك لا تقطع الحبل. وعندما يقطع الإنسان الحبل...

فقلت بتحدٍّ، لأنّ كلمات زوربا قد لمست فيّ جرحًا مفتوحًا، فتوجّعت:

سأقطعه ذات يوم!

ـ هذا صعب، أيّها الرئيس، صعب جدًّا. لا بدّ لذلك من شيء من الجنون. الجنون، أتسمعني؟ أن تجازف بكلّ شيء! لكنّ لك، أنت، عقلاً متينًا، وسوف يتغلّب عليك. إنّ العقل عطّار، لديه سجلّات: دفعت كذا، ووفّرت كذا، هي ذي أرباحي، هي ذي خسائري! إنّه صاحب دكّان صغير حذر. إنّه لا يُقامر بكلّ شيء، بل يحتفظ دومًا باحتياطيّ. إنّه لا يقطع الخيط، كلّا! إنّه يمسكه بقوّة في يده، الصعلوك. وإذا ما أفلت منه، فقد هلك، هلك المسكين! لكن إذا لم تقطع الخيط، قل لي، أيّة لذّة يمكن أن تكون للحياة؟ ستكون كطعم البابونج، البابونج الذابل! وليس كطعم الروم الذي يجعلك ترى الدنيا بالمقلوب!

وصمت، وصبّ ليشرب، لكنّه بدّل رأيه. وقال:

ـ يجب أن تعذرني، أيّها الرئيس، إنّني فظّ. إنّ الكلمات تلتصق بأسناني التصاق الوحل بالأقدام. إنّني لا أستطيع أن أؤلّف جملاً حلوة وأتصنّع المجاملات. لا أستطيع. لكنّك، أنت، تفهم.

وأفرغ كأسه ونظر إليّ. وصاح، وكأنّ الغضب تملّكه فجأة:

ـ أنت تفهم! أنت تفهم وهذا ما سيضيّعك! لو كنت لا تفهم، لكنت سعيدًا. ما الذي ينقصك؟ أنت شابّ، ذكيّ، عندك مال، وصحّة جيّدة، وأنت فتًى شجاع، لا ينقصك شيء، بحقّ الشيطان! لا ينقصك إلّا شيء واحد: الجنون، وعندما يكون هذا ناقصًا، أيّها الرئيس...

وهزّ رأسه الضخم وصمت من جديد.

لم يكن بيني وبين البكاء إلّا بضع ثوان. كان كلّ ما يقوله زوربا صحيحًا. فعندما كنت طفلاً، كنت كلّي اندفاعات مجنونة، رغبات تتجاوز الإنسان، وكان العالم لا يستطيع أن يحتويني.

وشيئًا فشيئًا، مع مرّ الزمن، ازددت حكمة. فكنت أضع حدودًا، وأفصل الممكن عن المستحيل، والإنساني عن الإلٰهي، وأمسك بطيّارتي بقوّة حتى لا تفلت منّي.

وشقّت نجمة ضخمة هاوية كبد السماء، فانتفض زوربا، وجحظت عينيه وكأنّه يرى للمرّة الأولى نجمة تهوي. وقال لي:

ـ أرأيت النجمة؟

ـ نعم.

وصمتنا.

وفجأة، نصب زوربا عاليًا جدًّا عنقه النحيف، ونفخ صدره وأطلق صرخة وحشيّة يائسة. وسرعان ما تحوّلت الصرخة إلى كلمات إنسانيّة، وصعد من أحشاء زوربا لحن تركي قديم رتيب، كلّه كآبة ووحدة. وتمزّق قلب الأرض، وانتشر السمّ الشرقي الكثير العذوبة. وشعرت في داخلي بجميع الخيوط التي كانت لا تزال تربطني إلى الفضيلة والرجاء تتقطّع.

كان حجلان يغنّيان على تلّ.

لا تغنّ، أيّها الحجل، فألمي وحده يكفيني، آمان! آمان! الصحراء، الرمل الناعم على مدّ النظر، الهواء يرجف، ورديًّا، وأزرق، وأصفر، الأصداغ قد تفتّحت، والنفس تطلق صرخة مجنونة وتتهلّل لأنّه ما من صرخة أخرى تجيبها. وامتلأت عيناي بالدموع.

وصمت زوربا. وبحركة عنيفة مسح عرق جبينه بإصبعه. وانحنى وحدّق إلى الأرض. وسألته بعد برهة طويلة:

ـ ما هذه الأغنية التركيّة يا زوربا؟

ـ أغنية الجمّال. الأغنية التي يُنشدها الحادي في الصحراء. منذ سنوات لم أتذكّرها مرّة. وهذا المساء...

ورفع رأسه ونظر إليّ، كان صوته جافًّا، وحنجرته يابسة. وقال:

ـ أيّها الرئيس، قد حان أن تذهب لتنام. غدًا، ستستيقظ عند الفجر لتذهب إلى كاندي لتستقلّ المركب. ليلة سعيدة!

فأجبت:

ـ لا أشعر بنعاس. سأبقى معك. إنّها الليلة الأخيرة التي نقضيها معًا.

فصاح:

ـ لكن لهذا السبب بالذات يجب أن ننتهي منها بسرعة.

وقلب كأسه الفارغة، إشارة إلى أنّه لا يريد الشرب أكثر من ذلك. هكذا، هكذا يفعل الرجال الحقيقيّون عندما يكفّون دفعة واحدة، وبشجاعة، عن تعاطي التبغ، أو الخمر، أو القمار.

ـ يجب أن تعلم هذا: كان والدي شجاعًا، ليس ثمّة من يوازريه شجاعة قطّ. لا تنظر إليّ، فأنا لست جبانًا، ولا أصل إلى كعبه. لقد كان، هو، من أولئك اليونانيّين أيّام زمان... إذا ما شدّ على يدك هرس عظامك. أنا، أستطيع الكلام من حين لآخر، لكنّ أبي كان يزمجر، ويصهل، ويغنّي. لم تكن تخرج من فمه كلمة إنسانيّة حقًّا إلّا نادرًا.

حسنًا، كان هو يعرف جميع الأهواء، لكنّه كان يقطعها بضربة سيف. فمثلاً، كان يدخّن كمدفأة. وذات صباح، نهض وذهب إلى حقله ليحرث. ووصل، واستند إلى سياج الأشجار ودسّ يده بحركة محمومة إلى حزامه ليخرج كيس تبغه ويلفّ سيجارة قبل أن يبدأ عمله. وسحب كيس التبغ... فوجده فارغًا. لقد نسي أن يملأه في البيت.

راح يزبد غضبًا ويزمجر، وفجأة، بقفزة واحدة، أخذ يجري نحو القرية، كان الهوس مسيطرًا عليه، كما ترى. لكن إذا به يتوقّف فجأة بينما كان يركض ـ الإنسان سرّ، أقول لك ـ وكلّه خجل، وأخذ كيس تبغه مزّقه إلى ألف قطعة بأسنانه. وداس عليه، وبصق فوقه، وهو يشتم:

«القذرة! القذرة! العاهرة».

ومنذ تلك اللحظة، إلى آخر أيّامه، لم يضع قطّ سيجارة واحدة في فمه.

هكذا يفعل الرجال الحقيقيّون، أيّها الرئيس، ليلة سعيدة.

ونهض، واجتاز الفسحة بخطوات عريضة. بل إنّه لم يستدر. وبلغ أقصى شطّ للبحر وتمدّد على صخرة.

ولم أره ثانية قطّ. وقبل صياح الديك، جاء المكار. وامتطيت صهوة البغل ومضيت. إنّني أشكّ ولعلّي مخطئ، إنّه كان، في ذلك الصباح، مختبئًا في مكان ما ينظر إليّ أرحل. لأنّه لم يكن موجودًا على الصخرة، إلّا أنّه لم يركض ليوجّه لي كلمات الوداع المعتادة، كي تتفطّر قلوبنا وننوح، ونلوّح بأيدينا وبالمناديل، ونتبادل الأيمان.

لقد افترقنا بضربة سيف.

في كاندي، سلّموني برقيّة. أخذتها ونظرت إليها مليًّا، ويدي ترتعد. كنت أعلم محتواها، وأرى بيقين مرعب عدد ما فيها من كلمات، ومن أحرف.

وأخذتني الرغبة في أن أمزّقها دون أن أفتحها. فلم أقرأها، ما دمت أعلم. لكن ليس لنا ثقة بعد، مع الأسف، في روحنا. إنّ العقل، ذاك العطّار، يسخر من الروح كما نسخر نحن من البصّارات العجائز والساحرات. فتحت إذن البرقيّة. إنّها مرسلة من تفليس. ورقصت الحروف، اللحظة، أمام عيني، فلم أميّز شيئًا. لكنّها، شيئًا فشيئًا، سكنت، وقرأت:

«البارحة، بعد الظهر، على إثر التهاب رئوي، مات ستافريداكي».

* * *

مضت خمس سنين، خمس سنين طويلة رهيبة، جرى الزمن فيها جامحًا. ودخلت الحدود الجغرافيّة في الرقصة، وكانت الدول تتباعد وتتلاحم كالأكورديونات. وتملّكنا، لبعض الوقت، أنا وزوربا، الغضب. وكنت، من حين لآخر، في السنوات الثلاث الأولى، أتلقّى بطاقة موجزة منه.

مرّة من جبل آتوس بطاقة العذراء، حارسة الباب، بعينيها الكبيرتين الحزينتين وذقنها القويّ العنيد. وكان زوربا قد كتب لي، تحت العذراء، بريشته الثقيلة الضخمة التي تمزّق الورق: «هنا، لا مجال للقيام بمشاريع.

الرهبان، هنا، يقيّدون حتى البراغيث. سوف أرحل!». وبعد عدّة أيّام، وصلتني بطاقة أخرى: «لا أستطيع أن أتنقّل بين الأديرة، وأنا أحمل بيدي الببّغاء كبائع متنقّل، لهذا أهديته إلى راهب ظريف علّم شحروره أن ينشد كيرياليسون. إنّه ينشد، كراهب حقيقي، اللعين. هذا لا يُصدّق! إذن، فهو سيعلّم أيضًا الإنشاد لببّغائنا المسكين. آه! كم شاهد في حياته، الظريف! وها هو الآن قد أصبح الأب ببّغاء! إنّني أقبّلك بمودّة. الأب ألكسيوس، الناسك القدّيس».

بعد ستّة أو سبعة أشهر، تلقّيت من رومانيا بطاقة تمثّل امرأة مليئة عارية الكتفين: «إنّني ما أزال أحيا، وآكل من المامااليغا، وأشرب البيرة، وأعمل في آبار البترول القذر، المنتن كجرذ بالوعة. لكن ماذا يهمّ! إنّك لتجد هنا بوفرة كلّ ما يمكن أن يشتهيه قلب الإنسان ومعدته. جنّة حقيقيّة للبحّارة الطاعنين في السنّ أمثالي. أتفهمني، أيّها الرئيس: الحياة الطيّبة، الدجاجة بالإضافة إليها الأنثى، ليتمجّد الربّ! إنّني أقبّلك بمودّة، ألكسيس زوربيسكو، جرذ بالوعة».

ومضت سنتان. وتلقّيت بطاقة أخرى، من الصرب هذه المرّة: «إنّني ما أزال أعيش، الطقس بارد إلى حدّ مخيف، ولهذا فقد اضطررت إلى الزواج. أنظر خلفي لأرى خطمي، امرأة صغيرة جميلة. بطنها منتفخ قليلاً، لأنّها، كما تعلم تهيّئ لي زوربا صغيرًا. وأنا، إلى جانبها، أرتدي الثياب التي أهديتنيها والخاتم الذي تراه في يدي، هو خاتم المسكينة بوبولينا - كلّ شيء يفيد! لترقد في سلام! - وهي تدعى ليوبا. المعطف ذو فروة الثعلب الذي أرتديه، هو مهر زوجتي. ولقد أتتني أيضًا بفرس وسبعة خنازير، من نوع غريب. وبطفلين من زوجها الأوّل، لأنّني نسيت أن أقول لك ذلك، فهي أرملة. لقد وجدت في جبل، قريب من هنا، مقلع حجارة بيضاء. ولقد أغريت أيضًا رأسماليًّا. وأنا ألتهم أمواله بهدوء، مثل باشا. إنّني أقبّلك بمودّة، ألكسيس زوربيتش، الأرمل السابق».

وعلى ظهر البطاقة، صورة لزوربا، نضرًا، في ثياب عريس جديد، مع قبّعته التي من الفرو، وعصا صغيرة صمغيّة ومعطف طويل جديد. وتتعلّق بذراعه سلافيّة جميلة في الخامسة والعشرين على الأكثر، فرس وحشيّة كريمة الردف، مثيرة، عنيدة، تحتذي جزمتين طويلتين، ناهدة الصدر. وإلى الأسفل، أحرف زوربا الغليظة من جديد، المكتوبة بضربات كضربات المنجل:

«أنا، زوربا، والقضيّة التي لا تنتهي، المرأة. هذه المرّة، تدعى ليوبا».

طوال هذه السنوات، كنت أسافر في الخارج، وكانت لي أنا قضيّتي التي لا تنتهي. لكن لم يكن لها صدر ناهد، ولا معطف تعطيني إيّاه، ولا خنازير.

ذات يوم، في برلين، تلقّيت برقيّة: «وجدت حجارة خضراء عظيمة، تعال فورًا. زوربا».

كان ذلك في أيّام المجاعة الكبيرة في ألمانيا. كان المارك قد تدنّى كثيرًا إلى حدّ أنّ شراء أبسط الأشياء ـ طابع بريد ـ كان يتطلّب نقل الملايين في حقائب مليئة. المجاعة، والبرد، والثياب الممزّقة، والأحذية المهترئة، والخدود الألمانيّة القرمزيّة التي شحبت. كانت الريح تهبّ، وكان الرجال يتساقطون في الشوارع، كأوراق أشجار. وكان الرضّع يُعطون قطعة مطّاط ليمضغوها فلا يبكوا. وفي الليل، كانت الشرطة تحرس الجسور كي لا تلقي الأمّهات بأنفسهنّ منها مع أطفالهنّ لينتهين من الشقاء.

كان الشتاء، وكانت تثلج. وفي الغرفة الملاصقة لغرفتي، كان أستاذ ألماني، مستشرق، يحاول، كي يتدفّأ، أن يعيد نسخ بعض قصائد صينيّة قديمة أو عبارة لكونفوشيوس، بواسطة ريشة طويلة، حسب طريقة الشرق الأقصى الصعبة. كان رأس الريشة، والمرفق المرتفع، وقلب العالم تشكّل مثلّثًا، وكان يقول لي مسرورًا:

ـ بعد عدّة دقائق، يرشح العرق من تحت إبطي، وبهذه الطريقة، أتدفّأ.

في أوج أيّام المرارة هذه تلقّيت برقيّة زوربا. وفي البدء، غضبت. بينما كان ملايين الرجال يذلّون ويتهاوون لأنّهم لا يملكون قطعة خبز واحدة ليسندوا عظامهم وأرواحهم، كنت أتلقّى برقيّات تدعوني إلى قطع آلاف الكيلومترات لرؤية حجارة خضراء جميلة! إلى إبليس، بالجمال! هتفت بذلك، لأنّ الجمال بلا قلب، لا يبالي بالألم البشري.

لكنّي سرعان ما ذُعرت: فبعد أن هدأ غضبي، تبيّنت باشمئزاز أنّ على نداء زوربا اللاإنساني ذاك، كان يجيب في داخلي نداء آخر لا إنساني. كنت مسكونًا من قِبَل طائر وحشي يخفق جناحاه كي ينطلق.

ومع ذلك، لم أذهب. لم أصغ إلى الصيحة الإلٰهيّة المفترسة التي كانت تعلو في داخلي، ولم أقم بعمل مجّاني ولا معقول، وأصغيت إلى صوت المنطق، المعتدل، البارد، الإنساني. فأخذت إذن ريشتي وكتبت لأشرح له.

وأجابني:

«أنت، مع احترامي لك، كاتب سفساف. كنت تستطيع، أنت أيضًا، أيّها الشقي، أن ترى مرّة في حياتك حجارة خضراء جميلة ولم ترها. وبديني، لقد اتّفق لي، عندما لا يكون عندي عمل، أن أتساءل: «هل هناك جحيم أم لا؟». ولكن بالأمس، عندما استلمت رسالتك، قلت: «لا بدّ أن يكون هناك بالتأكيد جحيم، لبعض الكتّاب السفسافين، أمثالك».

ومنذ ذلك الحين لم يكتب لي ثانية. ومن جديد، فصلتنا أحداث رهيبة، وتابع العالم ترنّحه كجريح، كرجل سكران، واضمحلّت الصداقات والهموم الشخصيّة.

كنت غالبًا ما أحدّث أصدقائي عن تلك النفس الكبيرة. وكنّا نعجب بالمشية المتكبّرة الواثقة، فيما وراء العقل، لذلك الرجل غير المصقول.

كانت القمم الروحيّة التي نحتاج إلى سنوات من النضال الشاقّ لتسلّقها، يبلغها زوربا بقفزة واحدة. وكنّا نقول آنذاك: «زوربا نفس كبيرة». أو كان يتجاوز هذه القمم فنقول: «زوربا مجنون».

وهكذا كان يمضي الوقت، مسمومًا بعذوبة الذكريات. وكان الظلّ الآخر، ظلّ صديقي، يثقل أيضًا على روحي. ولم يكن يتركني لأنّني أنا الذي لا يريد تركه.

لكن عن هذا الظلّ لم أكن أحدِّث إنسانًا. كنت أخاطبه خلسة، وبفضله، تصالحت مع الموت. كان جسري السرّي إلى الضفّة الأخرى. وعندما كانت روح صديقي تعبره، كنت أشعر بها منهكة شاحبة، لم تعد فيها قوّة لمصافحة يدي.

أحيانًا كنت أفكّر في ذعر: لعلّ صديقي لم يتح له الوقت على هذه الأرض ليسمو بعبوديّة جسده إلى حرّيّة، لينشئ روحه ويؤكّدها، كي لا تؤخذ، في اللحظة النهائيّة الفاصلة، برعب الموت وتفنى. كنت أفكّر: لعلّ الوقت لم يتح له ليخلد ما كان فيه قابلاً للخلود.

لكنّه كان بين الحين والآخر يتمالك قواه ـ أو لعلّي أنا الذي كان يذكره فجأة بحنان أعظم؟ ـ فيأتي عندئذ وقد عاد إليه شبابه وتطلّبه، بل كان يخيّل إليّ أنّني أسمع وقع خطاه على الدرج.

لقد قمت، في هذا الشتاء، بمفردي، بحجّ إلى جبال آنغاوين العالية، حيث كنّا أمضينا، أنا وصديقي، مع امرأة نحبّها، ساعات لذيذة.

كنت راقدًا في الفندق نفسه الذي نزلنا فيه آنذاك. وكنت نائمًا. وكان القمر يتسلّل من النافذة المفتوحة، فأشعر في عقلي النائم بجبال تدخل، وبصنوبرات مكلّلة بالثلج، وبالليل الأزرق العذب.

وأحسست بغبطة لا توصف، وكأنّ النوم بحر عميق، هادئ وشفّاف، وكأنّني ممدّد في حضنه، ساكنًا سعيدًا. وكانت حساسيّتي شديدة إلى حدّ أنّ مركبًا مارًّا على سطح الماء، على علوّ آلاف الأمتار فوقي، كان

باستطاعته أن يحزّ جسدي.

وفجأة سقط ظلّ عليّ. وأدركت من هو. ورنّ صوته، مليئًا بالتأنيب:

ـ أتنام؟

فأجبت باللهجة نفسها:

ـ لقد أطلت انتظاري لك. فمنذ شهور لم أسمع جرس صوتك. أين كنت تتسكّع؟

ـ أنا دائمًا إلى قربك، لكنّك أنت الذي ينساني. إنّني لا أملك دومًا القوّة على النداء، وأنت تسعى إلى هجراني. ضوء القمر، هذا شيء رائع، وكذلك الأشجار المكلّلة بالثلج، والحياة على الأرض. لكنْ، أرجوك، لا تنسني!

ـ أنا لا أنساك مطلقًا، وأنت تعلم ذلك حقّ العلم. في الأيّام الأولى من تركك لي، كنت أجتاز الجبال الوعرة، وأنهك جسدي، وأمضي الليالي دون نوم وأنا أفكّر بك. بل لقد قرضت أشعارًا كي لا أختنق. لكنّها كانت أشعارًا حقيرة لا تخلّصني من ألمي. وثمّة قصيدة منها تبدأ هكذا:

«بينما كنت تسير إلى جانب الموت، كنت أعجب بقامتك وبمرونتكما كليكما على الدرب الوعر.

كرفيقين يستيقظان عند الفجر ويذهبان».

وفي قصيدة أخرى، غير منتهية هي أيضًا، أصيح بك:

«شدّ على أسنانك، واحبيباه، كي لا تطير روحك!».

وابتسم بمرارة. وأمال وجهه عليّ وارتعدت إذ تبيّنت شحوبه.

ونظر إليّ مليًّا بمحجريه الأجوفين اللذين لم تعد فيهما عينان. بل مجرّد كرتين صغيرتين من التراب. وتمتمت:

ـ بِمَ تفكّر؟ لِمَ لا تتكلّم؟

ومن جديد رنّ صوته كتنهّدة بعيدة:

ـ آه! ماذا يبقى لنفس كان العالم بالنسبة لها صغيرًا جدًّا! بضعة أشعار لشخص آخر، متفرّقة ومبتورة، لا تشكّل حتى رباعيّة كاملة! إنّني أتسكّع على الأرض، وأزور الذين كانوا أعزّاء عليّ، لكنّ قلبهم قد انغلق على نفسه. من أين أدخل؟ كيف أعيد الحياة لنفسي؟ إنّني أدور في حلقة مفرغة ككلب حول منزل موصد الأبواب. آه! لو كنت أستطيع أن أعيش حرًّا، دون أن أتشبّث، كغريق، بأجسادكم الحارّة الحيّة!

وانبجست الدموع من عينيه، واستحالت الأرض إلى طين من كثرتها.

لكن سرعان ما عاد صوته واثقًا من نفسه، وقال:

ـ أعظم فرح وهبتني إيّاه، كان ذلك ذات مرّة، يوم عيدي، في زوريخ، أتذكر؟ عندما رفعت كأسك لتشرب نخب صحّتي. أتذكر؟ كان هناك شخص آخر معنا...

فأجبت:

ـ إنّني أذكر، الشخص الذي كنّا ندعوه سيّدتنا...

وسكتنا. كم من قرون مرّت منذ ذلك الحين! في زوريخ، وكانت تثلج في الخارج، وأزهار على المائدة، وكنّا ثلاثة. وسأل الشبح في سخرية خفيفة:

ـ بِمَ تفكّر، أيّها المعلّم العزيز؟

ـ بأشياء، كثيرة، بكلّ...

ـ أمّا أنا، فأفكّر بكلماتك الأخيرة. لقد رفعت كأسك ولفظت هذه الكلمات، بصوت مرتعد: «صديقي، عندما كنت طفلاً رضيعًا، كان جدّك الهرم يضعك على إحدى ركبتيه، وعلى الأخرى كان يضع القيثارة الكريتيّة ويعزف ألحانًا يونانيّة قديمة. إنّني أشرب هذا المساء نخب صحّتك: ليعمل القدر على أن تكون دومًا جالسًا على هذا النحو على ركبتي الله!».

ـ لقد استجاب الله بسرعة كبيرة لصلاتك!

فهتفت:

ـ ماذا يهمّ! إنّ الحبّ أقوى من الموت.

وابتسم، بمرارة، لكنّه لم يقل شيئًا. كنت أشعر بجسده ينحلّ في الظلمة، ويصبح نحيبًا، وتنهّدًا، وسخرية.

وطوال أيّام ظلّ طعم الموت على شفتيّ. لكنّ قلبي قد اطمأنّ. فقد دخل الموت إلى حياتي بوجه معروف حبيب، كصديق جاء ليأخذنا، ينتظر في زاوية أن ننهي عملنا، دون أن يفقد الصبر.

لكنّ ظلّ زوربا كان يجول حولي دومًا، في غيرة.

وذات ليلة، كنت بمفردي في المنزل على شاطئ البحر، في جزيرة إيجين. وكنت أشعر أنّني سعيد. وكانت النافذة المطلّة على البحر مفتوحة على مصراعيها، والقمر يدلف منها، والبحر يتنهّد، سعيدًا هو أيضًا. وكان جسدي الذي تملّكه التعب اللذيذ من كثرة السباحة، ينام نومًا عميقًا.

وها هو زوربا، وسط هذه السعادة العظيمة، يبرز في حلمي عند الفجر. إنّني لا أذكر ما قاله، ولا لماذا جاء. لكن عند يقظتي، كان قلبي على وشك الانفجار. ودون أن أدري السبب، امتلأت عيناي بالدموع. وسرعان ما تملّكتني رغبة لا تُدفع في أن أُعيد تكوين الحياة التي عشناها معًا على الساحل الكريتي، وأن أُرغم ذاكرتي على التذكّر، وعلى جمع كلّ الكلمات، والصيحات، والحركات، والضحكات، والدموع، والرقصات التي قام بها زوربا لإنقاذها.

وكانت هذه الرغبة عنيفة جدًّا إلى حدّ أنّني خفت أن أرى فيها إشارة إلى أن زوربا في مكان ما على الأرض، في هذه الأيّام، يحتضر. ذلك أنّني كنت أشعر بروحي متّحدة بروحه بقوّة، إلى حدّ كان يبدو لي معه أنّ من المستحيل أن تموت واحدة منهما دون أن تهتزّ الأخرى وتصرخ ألمًا.

وتردّدت لحظة في جمع كلّ الذكريات التي تركها زوربا، وفي صياغتها في كلمات. واستولى عليّ خوف طفولي. كنت أقول في نفسي: «إذا فعلت ذلك، فهذا معناه أنّ زوربا يواجه حقًّا خطر الموت. يجب أن أقاوم اليد التي تدفع يدي».

وقاومت يومين، وثلاثة، وأسبوعًا. وغرقت في كتابات أخرى، وقمت برحلات، وقرأت كثيرًا. وبمثل هذه الحيل، كنت أحاول خداع الحضور اللامرئي. لكنّ عقلي بأكمله كان يتركّز في قلق ثقيل على زوربا.

وذات يوم، كنت جالسًا على سطح منزلي، فوق البحر. وكان الوقت ظهرًا، والشمس تحترق، وأنا أنظر أمامي إلى سفوح سالامين العارية الأنيقة. وفجأة، تناولت، مدفوعًا باليد اللامرئيّة، ورقًا، وتمدّدت على بلاط السطح المحرق وبدأت أسجّل أفعال زوربا وحركاته.

كنت أكتب بحدّة، وأحيي الماضي بسرعة، وأحاول أن أتذكّر وأبعث زوربا كلّه. وكأنّني أعتبر أنّه، إذا ما اختفى زوربا، فأنا المسؤول. كنت أعمل إذن ليل نهار لأثبّت وجهه كما هو.

وفي بضعة أسابيع كانت أسطورة زوربا الذهبيّة قد اكتملت.

في ذلك اليوم، كنت ما أزال جالسًا، عند نهاية بعد الظهر، على السطح، أنظر إلى البحر. وكان المخطوط المنتهي على ركبتي، وكنت أشعر بالفرح والطمأنينة، كأنّ حملاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهلي. كنت أشبه بامرأة وضعت مؤخّرًا، تمسك بطفلها الوليد بين ذراعيها.

وراء جبال البيلوبونيز، كانت الشمس تأفل، حمراء. وصعدت سولا، وهي فلّاحة صغيرة تحمل إليّ البريد من المدينة، إلى السطح. وناولتني رسالة وانصرفت راكضة. وفهمت أو خُيّل إليّ، على الأقلّ، أنّني فهمت، لأنّني عندما فتحت الرسالة وقرأتها، لم أنتصب لأطلق صرخة، ولم يذهلني الخوف. كنت واثقًا. وكنت أعلم أنّني، في تلك الدقيقة المحدّدة التي وضعت فيها على ركبتي المخطوط المنتهي ورحت أنظر إلى البحر، كنت في سبيلي إلى استلام هذه الرسالة.

وبهدوء، ودون عجلة، قرأتها. إنّها قادمة من قرية سكوبليج، في الصرب، ومكتوبة بلغة ألمانيّة ركيكة. وها أنا أترجمها:

«إنّني معلّم القرية، وأكتب لك لأعلمك بالنبأ المحْزن، وهو أنّ

ألكسيس زوربا، الذي كان يملك هنا مقلعًا للحجارة البيضاء، قد توفّي يوم الأحد الماضي، في الساعة السادسة بعد الظهر. وأثناء احتضاره ناداني وقال لي:

«ـ تعال هنا، يا معلّم المدرسة. لي صديق اسمه فلان، في اليونان. عندما أموت، اكتب له أنّني حتى اللحظة الأخيرة كنت محتفظًا بكامل عقلي، وأفكّر به، وأنّني لا آسف البتّة على ما فعلته، وليعش في صحّة جيّدة. وليعلم أنّه قد حان الوقت بالنسبة له ليصبح منطقيًا.

«اسمع أيضًا. إذا جاء كاهن ليعرّفني ويناولني القربان المقدّس، فقل له أن يهرب بسرعة وأن يمنحني لعنته! لقد فعلت أشياء وأشياء في حياتي، وأعتقد أنّ ما فعلته ليس بكافٍ. إنّ الرجال أمثالي يجب أن يعيشوا ألف سنة. ليلة سعيدة!

«وكانت هذه آخر كلماته. وبعد ذلك، اتّكأ على وسادته، ورمى اللحاف، وأراد أن ينهض. وركضنا لنسنده، ليوبا زوجته، وأنا، وبعض الجيران الأقوياء. لكنّه أبعدنا فجأة، وقفز من السرير، وذهب حتى النافذة. وهناك، تشبّث بالفرجة، ونظر بعيدًا نحو الجبال، وجحظت عينته وأخذ يضحك، ثم يصهل كجواد. وهكذا، وهو واقف، وأظافره مغروزة في النافذة، أسلم الروح.

«زوجته، ليوبا، كلّفتني بأن أكتب إليك بأنّها تحييك، وأنّ المرحوم كان يحدّثها غالبًا عنك، وأنّه أمر بإعطائك السانتوري، كذكرى، بعد وفاته.

«فالأرملة ترجوك إذن، عندما تتاح لك فرصة المرور بقريتنا، أن تتكلّف مشقّة المجيء لتمضية الليل في بيتها، وفي الصباح، عند ذهابك، أن تأخذ السانتوري».

انتهت

tعلى أحد شواطئ كريت، يلتقي رجلان لاستثمار منجم للينيت. ويحاول أحدهما، وهو الراوي، أن يفرَّ من عالم المعرفة المحموم المخيِّب. وقد التقى رفيقًا هو الماسيدوني ألكسي زوربا، وهو إنسان مدهش، مغامر، سندباد برّي، فعهد إليه في إدارة الأعمال. وسرعان ما انعقدتْ أواصر صداقة عميقة بين ذلك المتحضِّر الممتلئة نفسه بالفلسفة الشرقيّة، وهذا المتوحّش الرائع الذي تقوده غرائز قويّة، والذي يعيش الحياة بكلّ امتلائها وزخمه، ويحبّ الطبيعة والمرأة، ويروي مغامراته الغراميّة بحيويّة نادرة المثال، وينطق بالحكمة أروع ممّا ينطق بها فيلسوف.

وقد انتهى استثمار المنجم بإخفاق، ولكنّ القصّة التي يعيشها القارئ مع هذين البطلين والأبطال الآخرين، ولاسيّما تلك المرأة المغامرة التي وقعتْ في غرام زوربا.

رواية مدهشة، ستظلّ في طليعة الروايات العالميّة.

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣

ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-084-5

9 789953 890845

